مصطفى الأشرف

# الجزائر: الأمة والمجتمع

ترجمة
حنفي بن عيسى

دار القصبة للنشر



# الجَزائـرُ
# الأمّةَ والمُجتمَع

مصطفى الأشرف

# الجزائر
# الأمة والمجتمع

الترجمة من الفرنسية :

للدكتور حنفي بن عيسى




دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – 16012، الجزائر

العنوان الأصلي :

**L'Algérie :**
**nation et société**
*Mostefa LACHERAF*


تدمك : 0 – 612– 64 – 9961– 978
الإيداع القانوني : 2006 – 2891

أنجز هذا الكتاب من طرف
دار القصبة للنشر 2007.

# المقدمة

## دروس من التاريخ للعبرة

### الخطوط العامة لهذا الكتاب

ان هذه النصوص التي جمعناها بين دفّتي كتاب ، قد تبدو متناقضة من حيث الاتجاه العام ، ومن حيث الأفكار والنظريات . وهذا التناقض أوضح ما يكون بين النصوص الأولى والنصوص الأخيرة ، بسبب المدة الزمنية التي تفصل بينها ، وهي عشر سنوات . ولكن هذا التناقض ليس الا من حيث الظاهر ، أو ربّما كان ناتجا عن تطوّر الأمور ، وعن النظرة الجديدة التي أصبحنا نتلمّح بها الأحداث بعد استقلال الجزائر . وبما أن تلك النصوص منشورة في المجلات الدورية ، فان البعض منها هو من نوع المحاولات لعرض الأفكار أو لتناول القضايا ، لا من نوع الدراسات الوافية . ولهذا فتلك النصوص تشكّل اطارا مفتوحا للمزيد من البحث والتقصّي ، علما بأن الخطوط العامة فيها مرسومة بكل وضوح ، لا من حيث شرح الحقائق التاريخية فحسب ، بل كذلك من حيث تحليل الأحداث والوقائع .

على أن النصوص المتعلقة بعهد الاحتلال تتميز عن غيرها بشيء من التعقد ، مما قد يجعل القاريء غير المتبصّر ، وغير المدرك لما بين القضايا من تداخل ، يتّهمنا — ظلماوشططا — بالتحيز في الرأي ، وحب الجدال ، في حين أنه غافل عن مناورات الاستعمار الرامية الى تزييف الحقائق . ومهما يكن من أمر ، فاننا لم نكذب على التاريخ ، ولم نشوّه الظواهر الاجتماعية ... كل ما في الأمر أن حرصنا على دحض الحجج الباطلة ، وكشف الحقائق الناصعة ، واعادة الحق الى نصابه من الداخل ، بعد ما رأينا المؤرخين الفرنسيين يشوّهونه من الخارج ، أو يتنكّرون له تماما ... أقول ان هذا الحرص

ربما أضفى على هذه الدراسات طابع الالتزام . ان أكثر الناس لا يعلمون أن تاريخنا الوطني قد استأثرت به ــ بقصد تشويهه ــ جماعة من الباحثين المنتمين الى مدرسة كانت تسمى «مدرسة الجزائر» ، وجماعات أخرى ممن حذا حذوهم . وهنا يرد السؤال : ألم نسلك في دراساتنا هذه ، عن غير قصد ، أسلوبا يتسم بالسطحية أو الشكلية ، في الرد على مزاعمهم ... ؟ لا نعتقد أننا سلكنا هذا المسلك ، لأن نظرتنا الى التاريخ ليس فيها أي تحيّز . وعلى أية حال ، فان هذا الالتزام ما كان ليصدنا عن الدقة العلمية ، وعن الموضوعية التي حرصنا كل الحرص على التقيد بها في هذه الدراسات . فلاشك اذن ، أن منهجنا العلمي مرسوم في السياق الذي ذكرناه ، ومتأثر بهذا التوجيه الذي يفرضه علينا النضال الوطني ، والكفاح المسلّح ، والحرص على «تخليص التاريخ من الاستعمار»(1) . ولكن هدفنا يظل مع ذلك هو الاقناع والكشف عن الحقائق ، ليس الا ... ولا شك أيضا أن الدراسات الأولى من هذا الكتاب ، تعبّر بطابعها العام ، عن حالة نفسية مرتبطة بظرف معين ، كما تعبّر عن تجاوب الكاتب مع الواقع ، ومشاركته الوجدانية ، باعتبار أنه لا يستطيع أن ينفصل عن واقع بلاده ... ولكن هذا لم يمنعه أبدا من أن يتجرد من ذاتيته تجاه الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية والسياسية البارزة . والحقيقة أن المؤرخ اذا ما أراد أن يصف واقع بلاده ، من خلال خبرته الذاتية ، ومن خلال التجارب التي عاناها مع بني قومه ، فانه لا يستطيع أن يتجرد تماما عن ذلك الواقع ... وليس في ذلك أي محذور ما دام قصده من وصف واقع بلاده ، وحديثه عن التفاصيل الدقيقة الخفية لوضع من الأوضاع ، وشرحه للمبادىء التي يعارضها أو يحاربها أعداء بلاده ... مادام قصده من كل ذلك هو انتهاج طريقة علمية في تناول الموضوع وتحليله وتمحيصه . واذا كان الأمر كذلك فلا يسعنا الا أن نقرّ بأن هذه النظرة الى التاريخ القريب المتعلق بقضية سياسية معينة ، وبالكفاح من أجل تحرير البلاد ، هذه النظرة تحتّم علينا أن نضع علامة استفهام أمام جملة من الحقائق الرسمية الشائعة ، وتجعلنا بالتالي ــ سواء شئنا أم أبينا ــ نتخذ أسلوب الجدال للرد على الخصم .

ومن جهة أخرى ، فان الحركة القومية التحريرية قامت في البداية على كواهل الطبقة الشغيلة ، ثم آل بها الأمر الى الانتكاس عندما سلكت مسلك البورجوازية الجديدة . ان هذه الحركة التي كانت معقد آمال الشعوب المناضلة ، استمرت في عملها بعد الحرب العالمية الأولى ، وتأثرت قياداتها السياسية بالنظريات الاشتراكية ، مما جعل بعض منظّريها (2) المتنوّرين ، والمتأثرين بالفكر الماركسي ، ينظرون الى تاريخ الجزائر الحديثة

(1) وهو نفس العنوان الذي اختاره الأستاذ شريف الساحلي لكتابه .

(2) المنظّر : (بالظاء المشددة) ، واضع النظرية théoricien (المترجم) .

نظرة لا تخلو من العنصر العاطفي ، وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الأمة وواقعها قبيل عام 1830 وبعده ... ولنا في التاريخ المعاصر أمثلة عن حروب وطنية خاضتها بعض البلدان الكبرى التي اتخذت الثورة كمنطلق عقائدى . ففي هذه الحروب التي خاضتها ضد النازية أو الامبريالية أو الرجعية ، استعانت هذه البلدان بالعنصر العاطفي كعامل أساسي في تكوين مفهوم الأمة ، وكان لعملها ذاك أحسن الأثر في تأجيج نار الكفاح . وقد أشرنا في ثنايا هذا الكتاب ، الى أن أوغسطس بلانكي Auguste Blanqui كان في القرن الماضي ، يستهجن ويستنكر حركة الوطنيين الاوربيين الذين كانوا ينادون بنشوء القوميات ، الا أنه تراجع عن موقفه هذا ، وأخذ هو أيضا يتذرع بحجج القوميين لتبرير حركة المقاومة التي نشأت في بلاده عندما اجتاحتها بروسيا (ألمانيا) بجيوشها في سنة 1870 .

## بروز الكيان الجزائري

ومهما تصورنا الكيان الجزائري ، كأمة متمثلة في دولة ، أو كأمة متمثلة في شعب ، أو كمجرّد وطن قومي موحّد الكلمة ، فان الجزائر قد توفّر فيا عامل أساسي جعلها تصمد طيلة 130 سنة أمام دولة أمبريالية قوية ، وترغمها على الرجوع للحق . ولا يسعنا عندما نسمع لوسيان فيبر يشرح كيف نشأت فكرة الأمة في فرنسا في القرن الثامن عشر ، لا يسعنا الا أن نشاطره الرأي ، وأن نقول بكل تواضع بأن هذا الأمر ينطبق على الجزائر بالذات . ولكن مؤرخي الاستعمار الفرنسي ، وحتى الليبراليين منهم ، نظرا لاستخفافهم بالشخصية الجزائرية لا يقرّون بهذا الأمر للجزائر ، مما جعل هذا المؤرخ يقول بالعبارة الصريحة : «والحقيقة أننا ، اذا تأملنا في قول من يقول بأن مفهومي اللغة والقومية كانا منفصلين في العهد الملكي السابق ، يتبين لنا أن المقصود بكلمة الأمة (أو القوم) كان مختلفا في 1750 عما آل إليه في 1793 . ففيَ سنة 1750 ، لم تبرز بعد فكرة القوم أو الأمة ، لأن هذه الكلمة لم تكتب على أبواب الكنائس والبلديات ، بجانب كلمتي الملك والقانون ، الا في 1791 . على أن فكرة «الأمة أو القوم» ، كانت بدون شك تخامر أذهان الكثير من الناس . (1) ونحن الآن نتساءل : لماذا لا ينطبق هذا الكلام على الجزائريين أيضا قبيل عام 1830 ؟ فالجزائريون آنذاك ، مهما قيل في درجة وعيهم ، وأوضاعهم الاجتماعية ، ونمط حياتهم ، وسواء كانوا يومئذ عربا رحّلا أو من الحضر ... وسواء كانوا متمسكين بالقديم أو متفتحين على الجديد ... وسواء كانوا على اتصال مستمر بالخارج أو في عزلة عن الحياة المعاصرة لهم ... وسواء كانوا متمردين على

(1) Lucien Febvre : **Combats pour l'Histoire**, p. 192, Ed. Armand Colin.

الحكم المحلي أو خاضعين له ... متفرّقين أو متّحدين في ظل دولة مستقلة تعمل لجمع الشمل ، وتقاوم التدخل والنفوذ والاستغلال الأجنبي ... وسواء كانت مساهمتهم قوية أو ضعيفة في النشاط الذي شهده البحر الأبيض المتوسط ، ذلك البحر الذي انطلقت منه تيارات أدت الى تقلبات سياسية ومعارك حربية ، كما أدت الى ظهور أطماع ، وعقد صفقات ومبادلات خاسرة أحيانا ورابحة أحيانا أخرى ، وشنّ حملات باسم المسيحية ، وفتوحات باسم الاسلام ... وأدت كذلك الى استتباب الأمن ، والحصول على حق الاحتكار البحرى التجاري ، فأرغمت بعض الشعوب على الخضوع والاستسلام ، ومنح امتيازات للأجانب ، واعتناق مبادىء وعقائد ، والرضوخ للمقتضيات الاقتصادية والعسكرية ... ان الجزائريين رغم كل هذا كانوا يشعرون شعورا واضحا ، وبحكم الفطرة ، أنهم يؤلفون كيانا قوميا ، وأنه لابد من اليقظة الدائمة من أجل الدفاع عن وطنهم . وكيف لا يشعرون بذلك ، وقد ربطت بينهم أواصر كثيرة ، وآلام وآمال مشتركة ، وأرض ذات حدود واضحة ... كيف لا يشعرون بذلك ، وهم دائما في حالة استنفار لمواجهة الخطر الداهم من أوربا ، أو لاقتباس ما يجدّ فيها من أفكار .

ان هذه المنطقة الساحلية الحساسة التي لعبت دورا كبيرا على الصعيد السياسي والتجاري ، وشهدت معارك طاحنة ، وتعرضت للخطر المهدد ، وعقدت علاقات مع البلدان المجاورة لها ... هذه المنطقة تقع على أبواب الغرب المسيحي ، ممّا جعلها تتعرّض بين الحين والآخر للعدوان السافر بقصد التوسّع . أما المنطقة الداخلية ، فقد كانت منهمكة في أنواع أخرى من العمل والنشاط ، وكانت تسير على نمط خاص من الحياة ، في مدنها المتخلّفة أو المتقدمة ، وفي قراها التي كان يعيش فيها أبناء الأرياف والجبال . وكانت الثقافة فيها ، والقيم الانسانية ، والصنائع التقليدية مزدهرة . ومع هذا ، فلا يكاد ناقوس الخطر يدق ، حتى يهرع سكان المناطق النائية في الداخل ، لنجدة المنطقة الساحلية المهددة . ولقد يقول البعض ان العاطفة الدينية (أو الجهاد) هي وحدها التي كانت تدفع الجموع الغفيرة من الشعب للحركة والنضال . ولكننا في هذا الكتاب بالذات ، حاولنا أن نفسّر هذه الظاهرة . فنحن نعتقد أنه توجد درجات مختلفة ومتفاوتة في العواطف كما توجد لدى أمة من الأمم ، درجات مختلفة ومتفاوتة في الوعي السياسي . ولكن هذا التفاوت ليس ملحوظا الا في مرحلة الانطلاق . أما في نهاية المطاف ، فان العواطف التي تنهض بالأمم وتدفعها لمواصلة الكفاح ، هي واحدة ومشتركة . ومن جهة أخرى ، فان هذا التفاوت نسبي ، ويظل هدف الشعوب بعد هذا وذاك واحدا . ولقد تختلف العواطف الدافعة للشعوب ، باختلاف نظرتها الى الحرب والسلام ، وهي في نظرتها تلك متأثرة بقيم أخلاقية وثقافية معينة ، سواء كانت بسيطة أو معقدة ، وسواء كانت

واضحة في الأذهان ، أو كامنة في الوجدان ... كما أن الشعوب متأثرة في عواطفها الوطنية بما لرجال الدين ، ولرجال الثقافة والفلاحين الأميين ، والعمال ، والحكام ، والموظفين ، والمجندين في الجيش ، والعساكر ، بما لجميع هؤلاء من عادات وتقاليد وسلوك خاضع للظروف أو للمصلحة . على أن هذا كله يعتبر ، بعد حصول البلاد على الاستقلال ، نقاشا لا معنى له ، وقضية مفروغا منها ، لأن مفهوم الأمة كما تصوّره الناس في السابق ، أخذ يتلاشى أمام احتياجات المجتمع ، نتيجة لما آلت اليه الحركات القومية من تدهور ، بعد ما تنكرت لآمال الشعوب ، وتحالفت مع الطبقة البورجوازية الناشئة . على أن هذا لن يمنعنا من أن نقدم لمحة موجزة عن الحالة التي كانت سائدة قبيل الاستقلال ، وقبيل الاحتلال ، وأن نبرز القيم التي حافظت عليها الحركة القومية التحريرية وغرستها في النفوس ، يوم كانت تلك الحركة تمثل تمثيلا صادقا مطامح الشعب الجزائري ، وتمسّكه بالحياة ، وسعيه لاسترجاع وطنه السليب ، وعمله لبناء صرح المجتمع المنهار .

## تحديد المفاهيم القومية

ولعله سيأتي يوم تحدّد فيه هذه المفاهيم كما تصورتها كل فئة من فئات المجتمع ، وخاصة منها الفئات المحرومة من العلم ومن الحياة الحرة الكريمة . فمن العبارات الشائعة في عهد الاحتلال وبعد الاستقلال ، عبارات : «الشعب ، والحرية ، والاتحاد ، والحقوق ، والعمل السياسي ، والتقدم ، والترقي ، والثورة ، والمواطن ، والاشتراكية ، الخ ...» فما هو صداها في النفوس ، وماذا كان يقصد بها لدى كل فئة من فئات الشعب ؟ لقد كانت هذه العبارات بمثابة السلاح للشعب في كفاحه الصامت الطويل . وكان يرفع هذه الشعارات في الاجتماعات السياسية ، وفي الجرائد الممنوعة ، وفي الحملات الانتخابية التي تقترن دائما بالاضطهاد ، واليقظة بعد الغفلة ، والانتفاضة ، والتنكر للحقوق ، و آلامال الخائبة ، الى أن قرر الشعب أن يضع حدا لهذه الدوامة ، فخاض معركة الكفاح المسلح . وقد حاولنا أن نبرز هذه الحقائق في العديد من النصوص التي جمعناها بين دفّتي هذا الكتاب .

ولكن الشيء الذي ينبغي أن نركّز عليه تركيزا قويا — لأن الكثير من الجزائريين لا يعرفونه ، بل حتى الزعماء السياسيين أنفسهم يجهلونه بسبب انشغالهم أحيانا بالبطولات الزائفة — هو العمل الشاق الطويل الذي قام به الفلاحون من أجل استرداد الأراضي المغتصبة ، وما بذلوه من جهود ، وما أظهروه من صبر وشجاعة وتضامن في حركات التمرد العديدة ، وعلى إثر احتجاز أراضيهم ، وفي المحاكم من أجل استرجاع الأملاك العقارية والمراعي ، والحقول التي انتزعها منهم المعمّرون من ذوي الأغراض والأطماع . ان هذا

الجانب من الكفاح لم يلتفت اليه من يعتبر التاريخ مجرد وقائع بطولية معزولة عن حياة العمال والفلاحين ، ومفصولة عن اطارها الاجتماعي . ولاشك أن تصوّرهم للدور الذي قام به الفلاح ، هو تصوّر «بطولي» ، ولكن هذا التصور يظل مع ذلك خاليا من هذا الجانب الهام الذي أشرنا اليه . فهناك بون شاسع بين الواقع الذي شاهدوه بحكم التجربة والممارسة ، وبين الآراء التي استخلصوها ، بحكم اتباعهم لغيرهم من ذوي النظريات المقطوعة عن الواقع . وقد صدرت لنا في هذا الموضوع مقالات توالى نشرها منذ شهر أفريل 1954 (1) بل نشر بعضها قبل ذلك بعشر سنوات في الجريدة السرية الناطقة باسم حزب الشعب الجزائري . وفي هذه المقالات تناولنا موضوع الكفاح المسلح الذي خاضه الفلاحون خلال حربين من حروب الاستقلال ، وخلال حركات التمرد العديدة التي قاموا بها ... كما تناولنا العمل السياسي والاداري الذي نهض به الأمير عبد القادر ، وأشرنا الى وجود نخبة من الرجال في الريف الجزائري ، وبروز كفاءات بشرية فيه ، اذ لم تستطع السلطات الاستعمارية في بداية الاحتلال ، أن تحرمها من ثقافتها ، وأن تشلّ حركتها . وتحدّثنا كذلك عن يقظة الفلاحين ، وتنظيمهم لأمورهم في ما يسمّى بالشرطية ، من أجل الدفاع عن حقوقهم ، ومحاربة ممثلي السلطة الاستعمارية في الأرياف . وأكدنا بأن المشكلة الزراعية كانت الشغل الشاغل بالنسبة للفلاحين ، وكانت بمثابة المحرك الدافع للبذل والتضحية ... وقد أبى غيرنا ، ممن سلكوا طريق الديماغوجية ، أبى هؤلاء الا أن يعتبروا الفلاح الجزائري متمتعا بالروح الثورية ، وبالالتزام الايديولوجي ، مع أن هذا الفلاح بقي مدة طويلة ، والى يومنا هذا ، في حالة من التخلف والبؤس والقصور المادي والمعنوي . ونحن نستبعد هذا نظرا الى امكانياته الاقتصادية والثقافية المحدودة آنذاك . فهذا الأمر لا يمكن تصوّره الا اذا كانت الدولة تعمل من أجل النهوض بالمجتمع الاشتراكي ، وهذه النهضة لا تتحقق الا ببذل جهود جبارة في ميدان الصناعة ، وانتهاج طريق التقدم بجميع أشكاله ، وحصول الوعي الكامل لدى العمال ، برفضهم لسيطرة الطبقة البورجوازية المحافظة المتمسكة بأساليب البيروقراطية البائدة، وباستلامهم لمقاليد الأمور ، وتعاونهم في الحكم مع طبقة أخرى متوسطة ، تسعى لخدمة مصالح الشعب ، بدلا من أن تخدم مصالحها الخاصة . فالاستشهاد بالثورات الأخرى التي نجحت بفضل طبقة الفلاحين ، هو من قبيل المغالطات الفادحة ، لأن تلك الثورات ما كانت لتنجح لو لم تجد وسطا ملائما لها ، ولم يتوفر لها فكر عقائدى متغلغل بين جماهير الشعب ، ولم تستعد للعمل من أجل تحرير العقول في الأرياف ، وهذا العمل استمر ثلاثين سنة قبل أن

(1) Revue Esprit, avril 1954.

يتحقق النصر للثورة الاشتراكية ، علما بأن تلك الثورة قد وجدت الطريق ممهدا ، بفضل الثورة الصناعية التي سبقتها .

وفيما يتصل بالجزائر ، فلربما نسي البعض أن وقف اطلاق النار في 1962 أعقبته فترة من الفوضى ، وهذا ما كان يتمنّاه الاستعمار المنهزم . على أن الشعب المتمسّك بوحدة الصف ، ما لبث أن أحبط هذه الحركة الفوضوية . ومما ساعد على وقوع الفوضى ، أن التوعية السياسية تضاءلت ، وأن السلطة السياسية التي آلت الى جهازين متناقضين أحيانا ، أصبحت عاجزة عن ضبط الأمور . وقد نتج عن ذلك أن الفلاحين الأغنياء الذين كانوا يتعاونون في الشؤون الزراعية مع الفلاحين الفقراء ، تخلّوا عن هؤلاء وتركوهم في حالتهم البائسة ، وراحوا يعملون يد السلب والنهب في الأملاك الشاغرة التي كان من المفروض أن تصبح من حق الأمة بأسرها ، بل صاروا لا يتورعون عن التعاون مع العناصر المشبوهة ، مما أدى الى تعطيل نشاط الثلة الباقية من رجال المقاومة الذين غمرتهم موجة الاضطراب والانتقام والحسد والطموح التي شملت الأفراد والعصب clans. على أن (المنظمة السياسية ـــ الاجتماعية) القديمة ، رغم أنها لم تبرز خلال حرب التحرير إلّا على شكل نواة ، فإنّها مع ذلك استطاعت أن تخلق لدى الفلاحين نوعا من الانضباط ، ومن الرؤية الواضحة ، ومن الادراك السديد للحقوق والواجبات ، ومن الميل للعمل الايجابي ، في ذلك الوسط الذي بقي مدة طويلة من الزمان يرزح تحت نير الاقطاعية ، ويعاني من الظلم والجمود . ان هذه الحالة التي ساد فيها الاضطراب قبيل الاستقلال بشهر واحد ، لم تمنع قيام المساعي الحثيثة من أجل توحيد الصف ـــ بعدما اتّضح أن التنافس على السلطة يهدد الوحدة الوطنية ـــ ثم من أجل الممتلكات الزراعية التي تركها المعمرون ، وتسييرها . ومع ذلك فان حماس الشعب ، وتماسك الصف ، وحصانة الثورة ، وشعور المواطن بالمسؤولية ، وتمسّكه بالمباديء ، وتعلّقه بالآمال المشتركة ، كل ذلك اهتزّ اهتزازا قويا وأصيب بصدمة شديدة خلال هذه الفترة التي آلت فيها طبقة الفلاحين الفقراء من جديد الى وضعية البؤس والشقاء . ولعل الكثير منا قد خفي عليه ، أو نسي أن الفلاحة كمهنة ، أصبحت مهددة بالاضمحلال ، نظرا للتفريط في النهوض بها ، حتى صار الملايين من هؤلاء الفلاحين الذين انقطعت بهم السبل ، يتنكرون لهذه المهنة ، ويتشاءمون منها ، خاصة أنها كانت منذ قديم الزمان ، خاضعة للأهواء والتقلبات ، وما ازدادت على مرّ العصور الا سوءا . ولعله يجدر بالمسؤولين السياسيين في الجزائر أن يتدبّروا ما جاء في الكتاب الذي صدر حديثا للمؤلفين ب . بورديو P . Bourdieu و أ . سيد A . Sayad .(1)

---

(1) P. Bourdieu et A. Sayad : **Le déracinement**. Ed. de Minuit, 1964.

## العنصرية اللاتينية

ولنا بعد هذا ، التفاتة الى الماضي ، لكي نلقي بعض الأضواء على حالة الفلاحين في أواخر القرن المنصرم ، حتى ندرك كيف كانوا يحاولون على قدر الامكان أن يسترجعوا أراضي الشمل ، وذلك بدفع اتاوات باهظة ، أو بالتحايل على القوانين الجائرة ، أو بالاصرار على المطالبة بحقوقهم ، في حدود ما تسمح به أحيانا الاجراءات القانونية التعسفية . ان هذه الجهود المضنية التي بذلوها صادفت على وجه التقريب الفترة التي انتصرت فيها سياسة استعمار الأرض الجزائرية ، واستيطانها على نطاق واسع من طرف الأوربيين . وفي ذلك الصراع غير المتعادل ، وفي تلك الفترة التي كان الناس يترقبون فيها انقراض الأهالي وفناءهم ، وقف هناك ، على الجبهة شعب يكافح بصمت وبطولة وتبصر ، من أجل صيانة مؤسساته الاجتماعية ، ومن أجل استعادة ممتلكاته المشتركة ، وتعزيز قاعدته الاقتصادية المهددة ... ووقفت في الجانب المقابل من الجبهة الأقلية من الأوربيين المتغطرسين الذين كانوا يمنّون أنفسهم ــ بعد ما شبعوا وبطروا ــ بالانفصال عن فرنسا ، والاستئثار بالجزائر . وكانوا ، بسبب تعسفهم واعتزازهم بأصلهم ، لا يرضون بعنصر آخر غير العنصر «اللّاتيني الجديد» . والمقصود بهذا العنصر الآخر ، هو «الشعب الجزائري» كما تصوّروه بعقليتهم العنصرية الجشعة . ان هذه العنصرية اللاتينية الجديدة التي برزت في فترة تمتد الى حوالي 1900 من تاريخ بلادنا ، قد استهدفت كذلك طائفة أخرى من الجزائريين ، وهم اليهود ، فخصّتهم بالنصيب الأوفر من الاضطهاد والاحتقار . وأكبر شاهد على ذلك ، الفتن التي ذهب ضحيّتها اليهود ، والاعتداءات التي تعرضوا لها ، وأكاليل الزهور التي قدمتها السيدات الفرنسيات في مدينة الجزائر ، تكريما لهؤلاء المعتدين «الأبطال» ، والحملة الصحافية الشنيعة ضد اليهود ... وما ذلك كله الا جانب من جوانب الفاشية البغيضة حينما تتجه اتجاها عنصريا وتتجاوز الحدود المعقولة في الشعور الوطني .

لهذا ، فلا يحق للمؤرخين الفرنسيين ، سواء من كان اتجاهه استعماريا أو ليبراليا ، وكذلك لا يحق لرجال الثقافة الذين سجلوا بأقلامهم السيّالة ملحمة هذا «العنصر الجديد» المتدفّق بالحياة والنشاط ، وضربوا صفحا عما تميزت به حركتهم من استهتار بالقيم الانسانية ، ولم يركّزوا الا على بعض جوانبها الفكرية ... أقول ، لا يحق لهؤلاء أن ينكروا وجود الأمة الجزائرية ، وخاصة ما بذلته تلك الأمة في أواخر القرن التاسع عشر من جهود متواصلة ــ مع الصبر على المكاره والتمسك بمباديء السلام ــ من أجل صيانة مؤسساتها الاجتماعية . وربما كانوا معذورين في تحاملهم ، باعتبار أن بعض الجزائريين

أنفسهم أدى بهم الأمر — من حيث لا يشعرون — الى تعزيز النظريات الاستعمارية من الوجهة القانونية ، حينما قالوا بأن الاستعمار أمر حتمي قد تفرضه الخطة السياسية أو الحكمة الالهية ، وأن هناك تفاوتا بين الشعوب في درجة الحضارة ، وأنه توجد عوامل تحدد «القابلية للاستعمار» ، وهذه القابلية هي نوع من أنواع الاستعداد . واذا وجد لدي شعب من الشعوب في فترة ما من تاريخه ، فانه يصبح بصورة حتمية خاضعا لسلطة الأجنبي ... وهذه الحجة تذكرنا بالحجة الانهزامية الباطلة التي كانت حكومة «فيشي Vichy» الفرنسية تحاول أن تبرّر بها خضوعها ، بعد انتصار النازية عليها .

ان نظرتنا الى التاريخ ليست نظرة انطباعية تختلط فيها المئات من اللوينات الخفية ، بحسب العواطف التي تعترى الانسان أمام أحداث التاريخ . على أن بعض المؤرخين الفرنسيين ، وبعض المفكرين عندنا ، ممن يدّعي بأنه ارتقى الى مرتبة الايديولوجيين كثيرا ما رأيناهم غافلين عن الحقائق اليومية بسبب نظرتهم السطحية واحتقارهم للشعب الجزائري ، وكثيرا ما أهملوا الشهادات التي لا تتفق مع تصورهم لعظمة فرنسا أو لبطولة الشعب الجزائري . ولهذا فلم يكن أحد منهم يولي انتباهه لمصير المجتمع الجزائري المهدد بالفناء والزوال ، وما قام به ذلك المجتمع من عمل شاق ، وما بذله من جهود لتوحيد كلمته وللمحافظة على بقائه ... بل الى يومنا هذا لا يكاد الواحد منهم يولي اهتمامه لهذه الأمور ، باستثناء بعض الأحداث البارزة التي يستشهدون بها لغرض معين ، ويزعمون بأنها وقعت نتيجة للجهود البيروقراطية أو للمساعي الوطنية ، مما يدل على أنهم يصدرون في أحكامهم عن العاطفة لا عن العقل .

## انتزاع الأراضي من الفلاحين

ان التضامن الاجتماعي قد تحقق طوال هذه الفترة التي دامت حوالي نصف قرن ، وخاصة بعد صدور القرار المشيخي sénatus - consulte في 1863 . وكانت تلك الفترة حافلة بالأحداث الجسام ، أولا بسبب المحنة القاسية التي عانى منها الشعب ما عانى ، وثانيا بسبب الكفاح البطولي الذي تمثّل في انتفاضة رائعة استطاع بها المجتمع الجزائري ، رغم ما أصابه من فساد ، أن يحافظ على كيانه ، وأن يصمد أمام زحف الاستعمار ، وأن يحبط خططه التوسعية . وهذا التضامن الجماعي كان ثمرة شعور وطني غير صريح ، ولكنه مع ذلك متمكن من النفوس ، كما أنه وليد الاحساس بوضعية واحدة هي وضعية الفلاح ، في بلد تقاليده الريفية عريقة ، وظروفه المعاشية قاسية وأحيانا غدّارة ، وتعاون سكانه في المحن والأهوال والشدائد معروف ولا يحتاج الى دليل .

وفي 16 يونيو 1851 تمت المصادقة على القانون المتعلق بالملكية في الجزائر ، وهذا القانون يؤكد أن الملكية «حق مصون للجميع بدون تمييز بين الملاك من الأهالي والملاّك الفرنسيين وغيرهم» . وينصّ كذلك على أن « حقوق الملكية وحقوق التمتع العائدة للأفراد والعشائر وبطون العشائر» (1) . هذه الحقوق معترف بها قطعا على ما هي عليه أثناء حرب الاحتلال أو بعد انتهائها ... ولكن لم تمض بضع سنوات على صدور هذا القانون ، حتى اتخذ قرار تعسفي بحصر الأراضي وتحديدها ، وذلك «من أجل تلبية متطلبات التوسع في استعمار البلاد» (2) . وقد عقد مجلس الشيوخ الفرنسي ، بتاريخ 9 مارس 1863 ، جلسة لمناقشة مشروع القانون الامبراطوري الشهير الذي وضعه الجنرال آلار Allard . ومما جاء في شرح الأسباب الداعية لتقديم المشروع : « لقد وقع على اثر هذه العمليات أمر مهمّ يستحق التنويه ، وهو أن العرب ، بعد ما آلت أراضيهم الى الدولة نتيجة تطبيق قرار حصر الملكية ، استعاد البعض منهم تلك الأراضي بالشراء من الأوربيين ، وأخذ البعض الآخر منهم يبذلون كل ما في وسعهم لشراء الأراضي التي انتزعت من عشيرتهم . أما الذين لم تتوفر لديهم الامكانيات المادية للشراء ، فقد طلبوا من الأوربيين أن يسمحوا لهم بالبقاء في أراضيهم كمزارعين»(3)، وفي نفس هذه المقدمة المخصصة لعرض الأسباب ، كشف هذا المشروع الذي تحوّل فيما بعد الى قرار مشيخي ، كشف عن نوايا أصحابه المستترة وراء ثوب الليبرالية ، كما كشف عن نوايا الامبراطور نابليون الثالث الذي أيّد المشروع كل التأييد . ومما جاء فيه ، بالعبارة الصريحة : «وأخيرا ، على الحكومة أن تستعمل ما لديها من سلطة مع بعض العشائر التي ، رغم خضوعها للحكم ، قد تمنع الأوربيين من الدخول الى أراضيها ، وبذلك يمكن تقسيم أراضي الشمل ... ومن أنجع الوسائل للقضاء على نظام أراضي الشمل ، اقرار الملكية الفردية ، وتوطين الأوربيين في العشيرة ... وهذا أمر أصبح مسموحا به بعد الغاء الفقرة الثانية للمادة 14 من قانون 1851 (المادة السابعة من القرار المشيخي)(4) . ومما جاء في هذا القرار أيضا : «ان المادة السابعة تلغي الفقرتين الثانية والثالثة للمادة 14 من قانون 16 يونيو 1851 ، وبموجبهما كان ممنوعا على أي شخص ، باستثناء الدولة ، أن يستلب حق الملكية أو حق التمتع بالأراضي التابعة للعشيرة ، لصالح أشخاص غرباء عن العشيرة . وعلى هذا الأساس أصبح من الممكن استملاك الأراضي التابعة للعشيرة ، وهذا الأمر يفتح مجالات واسعة للأوربيين وللشركات الراغبة في استملاك الأراضي» (4) .

---

(1) **Constitution de la propriété en Algérie dans les territoires, occupés par les Arabes,** Imprimerie A. Bouyer, Alger, 1863, p. 9.

(2) **Op.cit.**, p.10.

(3) **Op.cit.**, p.10.

(4) **Op.cit.**, pp. 13 et 17.

وقد صرّح الكونت دوكازابيانكا de Casabianca ، صرّح في 8 أبريل من نفس السنة ، باسم اللجنة المشيخية المكلفة بدراسة القرار المشيخي : «ان مستقبل الاستعمار لا خوف عليه بعد ما تقرر استملاك الأراضي التي كانت للعرب . والمعمّرون أنفسهم يطلبون ذلك بالحاح ، ويرغبون أن يتم هذا الأمر في الحين . فالدولة عندما اتخذت القرار المشيخي ، لا تتخلى عن أراضي الشمل ، لأنه يمكن أن تسلّمها في المستقبل للمعمرين . ولم يتم الى حد الآن استصلاح كل الهكتارات التي وزعت عليهم خلال ما يربو على 20 سنة ، وهي تتراوح بين 4 و 500.000 هكتار . وفضلا عن ذلك ، فان الدولة تملك 900.000 من الهكتارات ، وهي مخصصة للاقطاعات الجديدة . والدولة بعد هذا قادرة ، عن طريق نزع الملكية في الحالات التي ينص عليها القانون ، ومقابل تعويض مسبق وعادل ، فالدولة قادرة على أن تستملك ما تراه ضروريا من الأراضي التابعة للعرب» (1) . وهكذا ، فقد أدت الانعكاسات الأولى لهذا القانون الخطير الذي كان يهدف الى تفكيك أراضي الشمل الجزائرية ، وكذلك انعكاسات القوانين التي صدرت منذ 1844 ، أدت انعكاساتها الى وقوع مجاعة دامت حوالي سنة ، فهلك فيها ما لم يسبق له مثيل في تاريخ الجزائر . وهذا أمر لا يستغرب ، لأن الملكية أصبحت تنتهك وتغتصب بمختلف الصور والأشكال من طرف المعمرين وأصحاب الربا والاحتكار ، كما أنها تعرضت للتجزئة العقارية ، مما كان له أسوء الأثر في الحالة الاقتصادية الزراعية ، وفي ظروف الفلاحين المعاشية . ان الكارثة التي أودت بحياة 500.000 من الأهالي ، أي بالخمس تقريبا من عدد السكان في ذلك الوقت ، هذه الكارثة وقعت في الأراضي الخصبة وأراضي الشمل القديمة ، قبل أن تمسها الاجراءات المتخذة في 1863 و 1865 . ورغم هول الكارثة فان احتياطي المعمرين من الحبوب لم ينقص منه شيء ، كما أن مستودعاتهم كانت عامرة بالقمح . ولم يخطر ببال أحد من الرسميين أو من الخواص أن يبذل يد المساعدة للجائعين ، وذلك أن هؤلاء الأجانب كانوا مبتهجين لاحتمال انقراض السكان بهذه الطريقة البسيطة .

ذلك هو موقف الجانب الفرنسي من هذه الكارثة . أما الجانب الجزائري ، فقد وقف موقفا رائعا حتى بالنسبة للمناطق المحرومة الفقيرة التي سلمت الى حد ذلك الوقت من الغزو الاستعماري . ومما كتبه أحد الفرنسيين الذين زاروا الجزائر في تلك الفترة ، واسمه كلاماجيران Clamageran ، مايلي : «عندما كانت المجاعة تودى بحياة السكان العرب في الشتاء الرهيب الذي عرفته البلاد في 1867 و 1868 ، التجأ الألوف من المشرّدين الهائمين الى منطقة القبائل . والكثير منهم لاقوا حتفهم في الطريق ، نتيجة لما

(1) Op.cit., pp. 29 et 30.

عانوه من عذاب . ولكن أهالي المنطقة عاملوهم جميعا بالحسنى ، وأسعفوهم بالأدوية . وهكذا فلم يمت أحد منهم جوعا في منطقة القبائل» . (1) ومضت بضع سنوات على هذه المجاعة ، واذا بالثورة السياسية الزراعية تندلع عام 1871 في منطقة القبائل ، وفي المناطق المجاورة للسهوب ، وفي السهول العليا من الشرق الجزائري والتل ، وفي منطقة الساحل من الغرب الجزائري ، فوحدت هذه الثورة الكبرى الجزائر المتضامنة ، وجعلت أبناءها يلتفّون حول قضية من أهم قضايا الوطن ، شملت ثلاثة أرباع البلاد ، بل وصلت الى أقصى الجنوب . غير أن الجهود التي كان يبذلها الشعب من أجل استعادة أكبر قدر ممكن من الأراضي ، وانتزاعها من جشع المعمرين ، هذه الجهود لم تنقطع أبدا ، وظلت متواصلة ، رغم استعمال قوة السلاح ، ورغم الاجراءات المتخذة لمصادرة الأراضي ، ورغم اتاوات الحرب الباهظة ، واتخاذ قوانين اجرامية جديدة لتقليص ملكية الجزائريين ، ومما لا شك فيه أن القوانين العقارية التي وضعت في 1851 و 1863 و 1865 و 1873 و 1887 و 1897 ، لا شك أنها فتحت ثغرات كبرى في ممتلكات الخواص ، وممتلكات الشمل . ففي مقاطعة وهران مثلا ، كان الملّاك الصغار يبيعون للمعمرين قطع الأرض العائدة اليهم بعد ما فصلتها السلطات من الشمل . وهكذا ، ففي جميع نواحي الجزائر تقريبا «اتسع نطاق استملاك الأراضي الى درجة أن أولي الأمر أصبحوا يخافون من حدوث الاضطرابات بسبب تفشي الفقر .» . (2) والغريب أن هذا التحذير صادر عن السلطة الاستعمارية بالذات ، ولكنها في الواقع غير صادقة في نواياها ، وكل ما في الأمر أنها كانت تتظاهر بالحرص على المصلحة العامة ، لذلك عمدت في 28 يونيو 1898 الى انشاء لجنة ، بقرار من الوالي العام ، «مهمتها دراسة الوسائل الكفيلة بمعالجة الوضع المتردّي الناجم عن التسهيلات الكبرى التي أعطيت للأهالي لبيع أراضيهم» (2) . وأجرى تحقيق في الموضوع دام سنتين ، بعد وضع استجواب مفصّل ودقيق موجّه لجميع السلطات المدنية والعسكرية في البلاد ، كرؤساء البلديات ، والمتصرفين الاداريين ، ونواب الولاة وممثلي الوزارات ، وأعضاء جمعيات المزارعين ، وموظفي البنوك ، ورجال الادارة على اختلاف مراتبهم ، والمستشارين في مجالس الولايات ، وقائدي النواحي ، والمندوبين الماليين ، ورؤساء الجماعة الخ ... وكنتيجة لهذا الاستجواب ، تمّ الحصول على مجموعة كبرى من المحاضر والاجابات والدراسات والتقارير والملاحق ، وكلها تعطي صورة واضحة عن عقلية المعمّر ودوافعه وسلوكه : كرجل سياسي ، وسيّد عظيم الشأن ، ومالك من ذوي الجاه والغنى ، وشخص انتهازي يحب الأبهة والفخفخة ، تارة

---

(1) Clamageran : L'Algérie, 1873.

(2) **Enquête sur la propriété indigène** : Avant-propos. Ed. 1904, Alger, p. 3.

يقف منك موقف الأب النصوح ، وتارة أخرى يعاملك بمنتهى الوقاحة ، وهو ممن يحسب لكل أمر حسابه ، ويصدر في تصرفاته عن أنانية ، ويمكر مع الناس مكرا شديدا . تلك هي صورة المعمّر الذي وصل آنذاك الى قمة مجده ، وتسامى فوق جميع المؤسسات ، ودبّر الأمور بكيفية تسمح له بالتدخل المباشر أو بتسخير غيره ممن يقوم على خدمته .

## عقبات أمام الغزو الاستعماري

على أن أبرز ما في الموضوع ، هو أن السلطات الفرنسية ظلت ـــ بعد مضي 25 سنة على تطبيق القوانين التعسفية التي مهّد لها قرار 1863 المشيخي الهادف الى تحطيم الشعب الجزائري اقتصاديا واجتماعيا ـــ ظلت السلطات تواجه في كثير من المناطق ثلاث عقبات كبرى كانت تعرقل الغزو الاستعماري ، وهي : أولا ، ملكية الشمل المتمثلة في العرش (*) أو السبقة (**) . وملكية الشمل هذه كانت وسيلة للتكتل وللحفاظ على الممتلكات العقارية ... ثانيا ، استرجاع الأراضي من الأوربيين عن طريق الشراء ... ثالثا ، حرص الجزائريين على عقد الصفقات العقارية بيعا وشراء فيما بينهم فقط ، ولهذا ، فلا تكاد صفحة من كتاب «تحقيق في ملكية الأهالي Enquéte sur la propriété indigeñe» تخلو من الشكوى بأسلوب يعبر عن الجشع والعنصرية ، أو عن «العطف» المفتعل على الأهالي البؤساء . فهذا الكتاب يتضمن مزيجا من المباديء الزائفة والأنانية البغيضة والكرم الكاذب ، والمكر السافر ، والمزاج المضطرب ، وكل ذلك تتخلّله بين الحين والآخر عروض تافهة ومتناقضة مبعثها الخوف من ثورات زراعية أخرى . وهكذا فان الرأي السائد آنذاك كان متجها الى «الحدّ من امكانية حصول الأهالي على عقد التمليك ، وتشجيع البيع للفرنسيين ، أو لمن تجنّس من الأوربيين بالجنسية الفرنسية» ، وهذا الاجراء من شأنه أن «يضمن السيطرة للعنصر الفرنسي في امتلاك الأرض ، لأن هذا العنصر هو وحده القادر على القيام بتعمير البلاد ، وعلى المساهمة في رفع المستوى الاقتصادي للأهالي . كما أن هذا الاجراء من شأنه أن يحول دون استحواذ الأعيان الأثرياء من الأهالي واليهود والأجانب غير المتجنّسين ، على الأراضي» (1) . وتساءل الكاتب بعد ذلك عما اذا كانت المصلحة تقضي باعطاء المعمّرين حق استملاك أراضي العرش أو

---

(*) المقصود بالعرش في الجزائر ، القبيلة أو الأرض التابعة لها . وربما كانت هذه الكلمة مشتقة من «عرش بالمكان» أي أقام به . انظر معجم المصطلحات العربية والبربرية والتركية في كتاب : Charles-André Julien : **Histoire de l'Algérie contemporaine**, P.U.F., 1964,(N.D.T).

(**) السبقة : كلمة مرادفة للعرش . انظر المصدر السابق (المترجم) .

(1) **Enquête sur la propriété indigène**, p. 53.

السبقة ، فقال : «تكاد تتفق الآراء على الاجابة بأن المصلحة تقضي بذلك» . ثم أضاف موضحا فكرته : «ان المصلحة العامة تقضي أن تنتقل هذه الأراضي من شخص الى آخر بكل حرية وبكل سهولة ، عن طريق الاستملاك بالبيع والشراء ، لأن الاحتياطي من أراضي الدولة قد نفد أو يكاد ، ولأن نظام نزع الملكية ينبغي العدول عنه ، بعدما تبين أنه يثير الضغائن ويكلّف تكاليف باهظة . فلم يبق اذن لتوسيع رقعة التعمير الا هذه الطريقة . بل هي الطريقة المفضلة التي ينبغي للمعمرين أن يأخذوا بها من الآن فصاعدا ، لاستملاك الأراضي» (1) . وفي الكتاب الحاح على فكرة هي الشغل الشاغل بالنسبة للمعمرين : «ان القانون الذي يقضي بمنع استملاك أراضي العرش كان دائما هو العقبة الكأداء أمام توسيع رقعة التعمير . فبعض مناطق التعمير بقيت في حالة من التخلف لأنها كانت محاطة بأراضي الشمل ، مما حال دون توسعها . وهذا هو السبب في أن مناطق كومب وبلاندان ، وباتنة ، لم تحرز أي تقدم ، ولم تزدهر» (2) . وهناك سؤال آخر صيغ بعبارات لا تخلو من الحذر والغموض ، وهو باختصار عبارة عن استجواب لمعرفة ما اذا كان من الممكن التوفيق بين دعم التعمير **colonisation** من جهة ، وبين اتخاذ اجراءات تهدف لحماية ملكية الأهالي من جهة أخرى . الا أن كاتب اللجنة ، خلافا لعادته ، امتنع في تلخيصه للأجوبة المحصل عليها ، امتنع عن اعطاء النسبة المئوية للإجابة بـ «نعم» و «لا» ، بحسب فئات المسؤولين المستجوبين ، واقتصر على القول بكل حذر : «ان بعض المسؤولين أجابوا بأنه يستحيل التوفيق بين هاتين المصلحتين المتناقضتين ، اذ بينهما تعارض شديد . ولذلك فلا مناص من الانحياز لهذا الفريق أو ذاك ، ولا يجوز تحكيم العاطفة في هذا الأمر : فاما أن نسعى لخدمة مصالح المعمرين ، أو لخدمة مصالح الأهالي ... ويرى البعض الآخر أن اتساع نطاق التعمير سوف يؤدي حتما الى الفقر المدقع بالنسبة للأهالي الذين سوف يتحولون بحكم الضرورة الى لصوص وقطّاع طرق» (3) . وهذا الرأي في الواقع موافق لرأي آخر صيغ بالعبارات التالية : «الأحسن بعد هذا أن نتركهم ينقرضون تماما أمام الزحف الحضاري» . وكان هذا رأي من أجاب على السؤال المتعلق ب «الاجراءات الكفيلة بتحسين وضعية الأهالي الاقتصادية لكيلا يضطروا ، بحكم الاحتياج ، الى بيع أراضيهم» (4) . ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن بعض المسؤولين أخذوا يقترحون ، بعد أن مضى على الاحتلال سبعون عاما ، وبعد أن

(1) Op.cit., p. 114.
(2) Op.cit., p. 65.
(3) Op.cit., p. 65.
(4) Op.cit., p. 69.

فشلت جميع المحاولات الرامية لتحطيم مقومات المجتمع الجزائري ، أخذ هؤلاء يقترحون اقتراحات ظاهرها البرّ والاحسان ، وباطنها المكر وخبث الطويّة ، ومن بينها ادخال العتاد الزراعي وأساليب الفلاحة الحديثة في الوسط الزراعي المحلي ، وذلك بانشاء « مزارع وقرى أوربية في الأراضي المستملكة بقصد تشغيل الأهالي عند المعمرين ، وتوفير وسائل المعيشة لهم» (1) . ومن بين تلك الاقتراحات أيضا ، تنمية الصناعات المحلية ، وتعليم الحرف التقليدية ، ومحاربة الربا باعطاء الفلاحين قروضا مصرفية ... على أنه لا يحق «للأهالي استلاف الأموال من مؤسسة أخرى غير مؤسسة القرض المتخصصة ، كما أنه لا يسمح لهم بالاستلاف اذا لم يكن ممثل الادارة أو ممثل القضاء حاضرا ، اذ من حق كل منهما أن يعترض» (1) . وهذا الموقف غير مستغرب اذا عرفنا أن أحد القضاة الفرنسيين ، اعتمادا منه على «سوء النية المتأصل في نفوس الأهالي «بلغت به الوقاحة الى حد التساؤل : «هل من المعقول أن ننشيء في فرنسا بنكا مخصصا لقرض الأموال للسّراق واللصوص والمزوّرين ؟» (1) ... وأخيرا ، من جملة الاقتراحات ، ادخال تعديلات على «الضريبة العربية» ، وفتح الورشات ذات المصلحة العامة ، لكي يجد فيها البؤساء عملا يقتاتون منه (1) ... الى غير ذلك من الاقتراحات الأخرى التي تبيّن لنا أن الأفعال تكذّب الأقوال .

## دفاع مستميت عن الأرض :

ولكن الشيء الذي يهمنا أن نركّز عليه هنا بالدرجة الأولى — نظرا لما له من علاقة بحقائق يجهلها البعض أو يعرفها معرفة ناقصة — هو البحث في جوانب القضية الأساسية ، ونعني بها الجهود التي كان الفلاحون يبذلونها من أجل استرجاع الأراضي المغتصبة ... والى هذا الأمر يشير محضر الجلسة الأخيرة التي عقدتها اللجنة السابقة الذكر بتاريخ 10 أفريل 1901 ، وتولّى قراءة التقرير دومينيك لوسياني Dominique Luciani الذي تعيّن فيما بعد مديرا عاما لشؤون الأهالي ، والذي اشتهر بالأعمال المزرية التي ارتكبها عندما قمع قمعا شديدا الانتفاضة القصيرة التي وقعت في مليانة ، كما اشتهر بنظرياته حول «وضعية الأهالي» . ومما جاء في ذلك التقرير قوله : «هناك ملاحظة أساسية تخص سكان منطقة القبائل . فدائرة تيزي وزو ، ودائرة بجاية هما أكثر المناطق سكانا في الجزائر . ففي هاتين الدائرتين يتمتع مالك العقارات بحق الحرمان من الارث ، كما أن نظام حصر الميراث فيهما بسيط للغاية ، والتعامل بالربا شيء معهود ، وحركة

(1) Op.cit., pp. 111, 116 et 120.

المعمرين متغلغلة في هذه المنطقة التي تعد من أخصب الأراضي ، ان لم تكن أخصبها . والسكان على العموم فقراء . ان اجتماع هذه الظروف والأحوال من شأنه أن يجعل سكان منطقة القبائل أكثر استعدادا لبيع أراضيهم ، اذ أن هناك أسبابا عديدة تدعوهم الى ذلك . ولكن ، رغم توافر هذه الأسباب ، فقد لوحظ بأن البيع قليل ان لم يكن نادرا في منطقة القبائل التي توجد بها اليوم قرى وعشائر آل بها الأمر الى الفقر كنتيجة لمصادرة أراضيها وارغامها على دفع اتاوات الحرب ... وبعض الأهالي يعانون الأمرّين من الغرامات التي تفرضها عليهم مصلحة الغابات ... واذا باع الواحد منهم أرضه ، فان الأسباب الداعية للبيع تختلف من شخص الى آخر ، ولكنهم جميعا لا يبيعون الا لأبناء قومهم ، ولا يبيعون للأوربيين أبدا ، أو على الأصح ، من النادر أن يبيعوا لهم . والأكثر من هذا أننا لاحظنا في بعض المدن مثل (القصر ، وادي أميزور ، السباعو الأعلى ، ذراع الميزان ، تيزي غنيف ، ميرابو ، دلس) أنهم هم الذين يشترون من الأوربيين . والحقيقة أن القبائل ليست هي المنطقة الوحيدة التي لاحظنا فيها كيف يحرص الأهالي على أراضيهم ويحافظون عليها ، بل يعملون لشراء الأراضي التابعة للأوربيين . وهذا ما حصل في تابلاط ، والخميس مليانة ، وعين سلطان ، وبومدفع ، والخروب ، وبانتيافر ، بل حصل أيضا في مدينة الأصنام بالذات ، أي في منطقة تضرّر سكانها كثيرا من اغتصاب أراضيهم ، وبيعها بالمزاد ، كما تضرروا من القحط والجفاف . فهناك اذن مناطق لم يبع فيها الأهالي أراضيهم للأوربيين ، رغم بؤسهم وشقائهم . وهناك مناطق أخرى استرجع فيها الأهالي الأراضي التي وزعت على المعمرين منذ عهد بعيد .) (1) . وبعد أن لاحظ كاتب المحضر بأن النواحي الواقعة في ولاية وهران (عين تموشنت ، مكرة ، الرمشي ، لاموريسيير ، تيارت ، كاشرو ، معسكر ، الخ ...) هذه النواحي كلها مرت «بأزمة فلاحية شديدة ، وعرفت وضعية حرجة بسبب بيع الأراضي للمعمرين» ، بعد أن لاحظ الكاتب ذلك ، أقرّ بأن أكثر البيوع في باقي الجهات من القطر وقعت لصالح الأهالي ، مع أن معدل السعر الذي كان يعرضه المعمر هو 110 فرنكات للهكتار الواحد ، «بل قد يرفع السعر أحيانا الى 500 فرنك» ، في حين أن الجزائري كان يفضل أن يبيع لأخيه المواطن بسعر معدله 58 فرنكا للهكتار الواحد فقط .

ما من شك اذن أن مواقف الرفض هذه ، والمعاملات العقارية التي كانت تحصل بين الجزائريين ، والبيوع التي تمت لصالح الأوربيين بحكم احتياج الأهالي ، لا طمعا في الربح ، كل ذلك يشير الى أن الفلاحين مصممون على المقاومة وعلى المثابرة في عملهم ،

(1) Op.cit., pp. 127-128.

بحسب الوسائل والامكانيات المتاحة لهم وملتزمون كذلك باليقظة الدائمة تجاه مايدبره المعمرون من حيل ومكائد ، بمساندة السلطة القضائية لهم ، قصد الاستيلاء على أراضيهم ، ونزع الملكية عنهم (رغم وجود قوانين ومبادىء تضمن لهم حقوقهم) ، وتشتيت شملهم في الفيافي والقفار ، وارضاء المعمرين الجشعين . على أن هذه الوضعية «قدتكون لها عواقب وخيمة ، ومن شأنها أن تهدد الأمن» ،على حد تعبيرالسلطات التي يروقها أحيانا هذا الأسلوب ، أسلوب التورية للاشارة الى ما يقوم به المعمرون من أعمال السلب والنهب جهارا ، أو خفية . وعندئذ تعمد السلطات الى تعطيل القوانين ، من جهة ، للمحافظة على الأمن المهدّد ، ومن جهة أخرى ، لمحاولة كبح جماح المعمرين . وتتظاهر أحيانا بأنها تهتم بوضعية الفلاحين ، فتقوم باستجواب الناس واستشارتهم ، مدّعية بأنها تهدف من وراء هذا العمل الى حماية ملكية الجزائريين ، بينما هي في الحقيقة تشجع المعمرين على تجريد الأهالي من أملاكهم . ومع ذلك كله ، فان الفلاح الجزائري ظل دائما يواصل جهوده من أجل استعادة أرضه المبيعة أو المهددة . ذلك هو الصراع الدائر بينه وبين الاستعمار الذي جرّده في آخر الأمر من ملايين الهكتارات . أما التحقيقات التي تحدثنا عنها ، فظاهرها كما قلنا هو البّر والاحسان ، الا أن الغرض الأساسي منها ، هو تمكين السلطات الاستعمارية من الاطلاع على الوضع في البلاد ، ومن عرقلة البيوع التي كانت تقع بين الجزائريين دون غيرهم ، وبذلك تمكن المعمرون من استملاك الأراضي .

## حرب الابـــادة

لقد أطلنا الحديث عن هذا الموضوع لأننا أردنا من جهة أن نسدّ فراغا كنا نشعر به في هذه الناحية ، كما أردنا من جهة أخرى أن نجعل القارىء الجزائري يشعر كل الشعور بقضية من أهم القضايا ، وهي قضية المجتمع الريفي الذي كان في بداية الأمر مدفوعا بغريزة المحافظة على البقاء ، فتحرك حركة منسجمة متّزنة ، رغم فقره وجهله ، وبذلك ساهم في صيانة الأساس الاقتصادي للبلاد ، وأرسى بنيانها ، وخلق الشروط الملائمة للكفاح المسلح ، من حيث التجاوب والتعاون ، وتوفير الرجال ، ورسم الخطط ، فانطلق انطلاقة ميمونة نحو التقدم ، وضحّى بالغالي والنفيس من أجل استعادة تراثه الضائع ... وهذه العوامل كلها كانت هي العمدة لتحرير البلاد ، وان كانت فكرة الثورة قد نبعت في المدن .

والحقيقة أن المشكلة يمكن تلخيصها في ما يلي : وجدت فرنسا نفسها وجها لوجه أمام مجتمع حسن التنظيم ، له حضارته الخاصة الشبيهة الى حد ما بحضارات البحر

الابيض المتوسط ، وهذا المجتمع لا يخلو من عيوب ، ولكن حبّه للحرية وتمسكه بالأرض ، واتحاد كلمته ، وأصالة ثقافته ، وصدق وطنيته ، وغزارة موارده الطبيعية ، ونبل مثله العليا ، كل ذلك أعطى البرهان الساطع والدليل القاطع على أصالته التي لم تنل منها حرب استعمارية ضروس تواصلت حوالي أربعين سنة . ان هذا المجتمع الذي قضت السلطات الفرنسية على اطاراته وكفاءاته ، وأحلّت محلها الاقطاعية المرتزقة ، هذا المجتمع آل به الأمر الى الفقر والخراب . وقد حاول الاستعمار في الثلث الأخير من القرن الماضي أن يصبّ في المجتمع الجزائري أعدادا كبيرة من الأوربيين ، وأن يخص هؤلاء بالسلطة السياسية وبما يحفل به الوطن من خيرات وأرزاق . ولكن المجتمع الجزائري قاوم بكل الطرق ، وخاصة الطرق السلمية ، وهلك منه من هلك في المجاعات والأوبئة ، وذهب العديد من أفراده ضحية القوانين الجائرة ، فلم تلن له قناة ، ولم يستسلم ، بل أخذ بجميع فئاته يداوي جروحه . وهكذا استطاع في أوائل هذا القرن أن ينتصر ، لأن الهدف الصريح أو الخفي للاستعمار ، وهو ابادة الشعب الجزائري ، واحلال شعب آخر محله ، هذا الهدف باء بالفشل . ولنا أدلة قوية على أن حرب الابادة ، بنتائجها المباشرة وغير المباشرة ، أدت بين 1830 و 1870 الى هلاك عدة ملايين من السكان . والضحايا هم سكان الأرياف الذين أهلكتهم المجاعات وأعمال التخريب والمعارك الطاحنة والتشريد . وهم كذلك سكان المدن اللذين أخرجوا من ديارهم ، وأصبحوا يعيشون في المنفى .

ان المجتمع الريفي الذي عانى هذه المحنة القاسية كان من الممكن جدا أن يعبّيء طاقاته وأن ينظم امكانياته ليقطع على المدى البعيد مرحلة جديدة ، لو أن الوعي السياسي انتشر بين جميع أفراده ، انطلاقا من بعض المدن التي توفّر لها هذا الوعي . ولكن المجتمع الريفي كان في أسوء حال ، ولم يبق منه الا هيكل جامد من العادات والتقاليد التي حافظت على الرمق الأخير من الحياة ، ولم يبق فيه أثر للثقافة ، ولم يجد أية مساعدة من النخبة المثقفة المحظوظة . ولهذا كان هذا المجتمع في حاجة الى اصلاح جذري ، خاصة أن البون الشاسع بين تخلّفه وبين تقدّم الحياة العصرية يبرز بكل وضوح عيوبه ، بل يكشف عن تصدّع بنيانه ، وهو ما يتمناه ويريده المستعمر الدخيل ... ألم يتنكّر له أبناء البلاد أنفسهم من سكان المدن الذين كانت اهتماماتهم الوطنية السطحية الخالية من كل إيديولوجية حوّلتهم الى وجهة أخرى غير المجتمع الريفي ، فكانت لهمْ أفكار بعضها مستمدّ من الغرب ، والبعض الآخر من الشرق ، والنزر القليل من المغرب العربي . ان المناسبات القليلة التي خرج فيها لأول مرة الى الأرياف ، أعيان الحضر من أتباع الأمير خالد ، وعلماء الدين المقيمون في المدن ، والمسؤولون والمناضلون والمنتمون

للطبقة البورجوازية أو المتوسطة ، أو للطبقة الكادحة ، هذه المناسبات القليلة التي خرج فيها هؤلاء الى الأرياف للقيام بالعمل السياسي أو ما يشبهه ، يمكن تحديدها بالتوالي في فترة الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918) ، والفترة الواقعة حوالي عام 1936 ، والفترة التي جرت فيها الانتخابات الفرنسية و «الجزائرية» في 1946 و 1948 . ويمكن القول بأن اندلاع حرب التحرير هي المناسبة الكبرى الوحيدة التي استطاع فيها العمل السياسي خلال ما يزيد على قرن ، أن ينفذ الى الوسط الريفي وأن يتغلغل فيه ، وأن يحوّل الكفاح تحويلا جذريا من حيث المنطلقات والأهداف . فهذا التحويل ما كان ليحصل لو أن البورجوازية المتحيّزة التي همّها الوحيد تأمين مصلحتها هي التي تكلفت بتنظيم الثورة . ان «الوجوه السياسية القديمة» ممن كانوا يعملون في المنظمات السياسية الطليعية ، ظلوا مدة طويلة من الزمان يقومون بدور سلبي على مسرح الأحداث الوطنية . وكان يجدر بهم أن يقوموا بعمل ايجابي ، وأن ينشروا الوعي ، وأن يستعينوا في عملهم هذا بالمناضلين المخلصين ، وبالعمال ، وبأناس من عامة الشعب ، بعد تكوينهم تكوينا سياسيا . ومضت خمس عشرة سنة ، واذا بهذا الدور السلبي يتجدد في الجزائر المستقلة عندما نشأت البيروقراطية واستفحل أمرها ، وتكاثر أفرادها ، وأصبح هؤلاء البيروقراطيون يعتقدون بأنهم دعامة البلاد ، في حين أنهم قوم لم يتعلموا أي درس من الثورة ، ولم يقلعوا أبدا عن عادتهم في تأليف عصب فيما بينهم .

## آفاق الثورة الزراعية :

ولنا أن نتساءل اليوم ماذا يخبىء لنا المستقبل ، وعلى الاخص ، ما هو مستقبل الثورة الزراعية ، وهل سوف يبقى الفلاحون على ما كانوا عليه من بؤس ، وهل سوف تستمر تلك المأساة الفريدة في نوعها ، أم سيوضع حد لتلك الحالة الرهيبة التي يعاني منها الثلثان من السكان ، وهل سوف تنشأ في كل دائرة ، بل في كل مدينة وقرية ، اقطاعيات من نوع جديد ، بيروقراطية غوغائية الاتجاه ، وهل تقوم تكتلات جديدة بين ذوي المصالح المشتركة الذين سوف يتهافتون على الرزق مثلما كان يفعل المحتكرون والمضاربون في عهد الاستعمار وعزّه ؟ وهل سوف يحتفظ المجتمع الجزائري ، مسايرة منه للنزعة الديماغوجية ، ببعض المحرّمات البائدة التي من شأنها أن تعرقل تطور الوسط الريفي وأن تقيّد حريته في التصرف ، وأن تحول دون ازدهاره الاقتصادى والاجتماعي ؟

ان تطوّر الوسط الريفي لا يمكن أن يحصل تلقائيا . ومن الناس من يدّعي بأن الفلاح قادر بمفرده أن يغيّر وضعيته ، نظرا لما يتحلى به من خصال حميدة ، ونظرا لصبره واستعداده للنضال . فهل من المعقول ، في هذا العصر ، عصر التقنيات ، وعصر الجهد

العقلاني والتحولات الجذرية ، عصر المنهجية والتنظيم الاجتماعي ، هل من المعقول أن يتمّ تطور الوسط الريفي تلقائيا ، وأن يغير الفلاح ، بدون مساعدة ، وضعيته المعقدة التي تتمثل في سوء التغذية وفي الجهل والبطالة ، علما بأنه كان دائما هو الضحية : ضحية الأرض التي تنتزع منه ، وضحية الناس الذين يغدرون به غدرا . فالثورة مرحلة عاشها قوم بالتصور فقط ، وان كانوا على العموم مخلصين في مواقفهم ، وكانوا أحيانا يضحون بعض التضحيات في سبيلها ... وعاشها قوم آخرون ، أى الأكثرية من الشعب ، عاشوها وأحسوا بها في الوقائع والأحداث ، كمأساة حتمية متوارثة منذ القدم ، مأساة يتناوب فيها اليأس والأمل ... عاشوها وأحسوا بها كمستقبل يتلمّحونه من خلال الماضي الحافل بالبطولات والمحن والأهوال ، وكمصير لابد من السعي لتحقيقه ، ببذل الدماء ، والتضحية بالغالي والنفيس ، لكي يسيروا بالأمة قدما الى الأمام ، ولكي تتخطّى المرحلة الراهنة الى مرحلة أخرى ينشأ فيها مجتمع جديد .

اننا ، يوم كنا أطفالا في القرية نلعب ونمرح ونتحدث بلغتنا البريئة ، لغة الصغار ، كانت تراودنا الذكريات التي بقيت راسخة في الأذهان منذ القرن الماضي ، حول الحكم على الأهالي بالأشغال الشاقة ، ونفيهم وابعادهم الى تاجدمت Tagdempt وكايين cayenneوأوبوك Obock . وكنا نحفظ عبارات الاحتقار البذيئة التي كان ضباط الصّف الفرنسيون يخاطبون بها الأهالي . ومما يدل على وعي الفلاحين ، أن أهالي احدى القرى الواقعة في منطقة البيبان ، نصحوا في بداية الكفاح المسلح عام 1955 ، نصحوا المسؤولين عن الثورة بتجنّب الأخطاء التي ارتكبها الثوار عام 1871 في خطتهم العسكرية ، مما ألحق أضرارا بالغة بهم وبذويهم . ان هذه الاستمرارية في التجربة المتوارثة ، وفي العبر المستخلصة من الانتفاضات الفاشلة ، هي من الأمور الملحوظة لدى الفلاحين خلال حرب التحرير ، لا في مجال اتخاذ المبادرة الثورية ، وهو المجال الذي تفوّق فيه الحضر أو المتحضّرون ، بل في المجال الذرائعي المتعلق بالنظرة الواقعية وبالتطلعات . وقد تختلف صورة هذا المجتمع الذى يطمحون اليه من شخص الى آخر . ألا أن ذلك لا يضر في شيء ، لأنهم على أية حال يعرفون صورته حق المعرفة . انهم يعرفونها لأن الاستعمار ما فتيء منذ قرن يحاول أن يمسخها ويشوّهها ، ولأنهم لم يدّخروا جهدا في الدفاع عنها وصيانتها من المسخ ، ولأنهم أشدّ الناس تمسّكا بالتراث الشعبي ، وبالمثل العليا ، وبالتقاليد والآمال ، ولأنهم يحبّون العمل ويتعاونون في ساعة المحنة ، ويتمسكون بالحياة مهما كانت قاسية عليهم . ولاشك أنهم كانوا يشعرون بأن الاستعمار الذى قام على الاستغلال والتجهيل والاقطاع ، سوف يحل محله — بعد تصفيته والقضاء عليه — سوف يحل محله مجتمع يسلك طريقا آخر غير الذي سارت عليه البلاد في عهد الاستعمار . فلا

نستغرب بعد هذا اذا كان الفلاح دائما على أهبة الاستعداد من أجل تحقيق المستقبل المنشود . ولاشك أن الأختيار سوف يكون اشتراكيا ، وهو المسار الذى لن يحيد عنه نظام الحكم القائم مهما كان نوعه . ولاشك أيضا أن فعالية هذا الاختيار وجدّيته متوقف كل منهما على من سوف تؤول اليهم السلطة ، وعلى درجة وعيهم الثورى ، وعلى تكوينهم الإيديولوجي ، وانتهاجهم الطريقة العقلانية ، وتقديمهم للمصلحةالعامة على المصلحة الخاصة . ومن الناس من يأبى — لغرض في نفسه — الا أن يعقد مقارنة بين عهدين مختلفين هما : عهد الثورة والحرب ، وعهد الاستقلال . فهؤلاء بدون شك يضمرون للجزائر نوايا سيئة .

على أن هناك تساؤلا لابد منه : هذه البوادي والأرياف التي شهدت في تاريخها الطويل وفي كفاحها المرير حركات تحررية عديدة ، خائبة أحيانا ومظفرة أحيانا أخرى ، وكانت تجابه من يحاربها أو يعرقلها أو يحيد بها عن طريقها (والأمر يختلف بحسب ما اذا كان نظام الحكم أجنبيا أو قوميا) ... هذه البوادي والأرياف ، هل كان من الممكن — بعدما نالت البلاد استقلالها — أن تسلك بمفردها ، ومن تلقاء ذاتها ، طريقا مستقيما يفضي بها الى نتائج محسوسة ، فلا تنحرف عنه ، وبذلك تتفادى الانحرافات والمكائد التي قد تعود بها القهقرى الى نقطة الصفر ؟ واذا افترضنا أن عهد الاستقلال مفصول عن امتداده الثوري الصحيح ، أليس هناك احتمال في أن يصاب الفلاحون بنوع من الكفّ يمنعهم من العمل ، اذ ربما يتوهمون بأن قادة البلاد هم الذين يتوقّع منهم ، حاضرا ومستقبلا ، إحداث التحويل الاجتماعي المنشود . وهنا نلاحظ ظاهرة كثيرا ما أخطأ الناس في فهمها ، ولم يدركها كما ينبغي قسم كبير من الجناح اليساري الفرنسي ، والجناح اليساري المتطرف ، لأن عين الرضى على بعض الدول الفتية جعلتها لا تفطن لما في تلك الدول من عيوب . وهذه الظاهرة هي الخلط ، بصورة مقصودة أو غير مقصودة ، بين الاستقلال والثورة . ففي بعض البلدان ، ما لبثت الثورة أن تقلّص ظلها لصالح الاستقلال الذي أصبح يعني ، أول ما يعني ، الاستيلاء على السلطة . وهذه مشكلة لا تزال قائمة ، وسوف تستمر بوجود عصب قوية clans تمارس نشاطها في ظل دولة يدبّر شؤونها ثلاثة عقول أو أكثر ، وهذا أمر سوف يؤدي ، ان عاجلا أو آجلا ، الى القضاء على تعدّد الحركات السياسية والعسكرية ، وقيام سلطة واحدة ذات سيادة . وكان ينبغي أن تستمر الثورة في الفترة الفاصلة ما بين الحصول على الاستقلال (الذي توّج بتأليف حكومة) ، وبين تطبيق الاشتراكية (التي لم تتوفر لها قيادة متكاملة) . فنحن اذن لا نبالغ اذا قلنا بأن الاستقلال في مثل هذه الظروف قد يتشوه من حيث المحتوى ، ان لم يكن من

حيث الشكل . وكم من دولة حاولت أن تعالج الأمر بوضع «ميثاق» لها . ولكن المواثيق تظل دائما حبرا على ورق ، ولا تغيّر من الأمر شيئا .

## البرجوازية الانتهازية

وهكذا فإن الكفاح بعد انتهاء الحرب التحريرية قد تغير مغزاه بالنسبة للفلاح ، ولكن ضرورة بناء مجتمع جديد بقيت على حالها ، لم تتغير ، وكذلك ضرورة تحقيق المطامح الجديدة التي ظهرت . وفي هذه المرحلة بالذات ، يلعب التوجيه من القمة دورا أساسيا ، فاما للخير أو للشر ، واما للنجاح أو للفشل . ويظل الوسط الاجتماعي ، في هذه المرحلة العصيبة ، مرتعا خصبا لكل دعاية ، فتبرز من جديد الاقطاعية والطرقية المحافظة الضارة ، ويميل الناس الى الاحتكار ، ويتهافتون على المال ، وتتخذ اجراءات حرمانية تحت ستار العمل التنظيمي ، ولكن هذا العمل يرجع أساسا الى التشيع لهذا الحزب أو ذاك ، لا الى الايمان بمبادىء سياسية معينة ، لأنه خال من كل ايديولوجية ثورية منظمة تقدمية ، وهي الايديولوجية التي يمكن بواسطتها تغيير البنيات الاقتصادية والاجتماعية البائدة تغييرا جذريا .

والسبب في ذلك راجع في أكثر الأحيان الى سوء تفاهم ، اذ يوجد منذ البداية فرق في مستويات المعيشة ، وفي طرق التفكير وأنماط السلوك ، وهذا الفرق قد يتراوح من الصفر الى اللانهاية . وبالفعل ، فإن تغيير بنية المجتمع ، والقضاء على تقاليده البائدة ، مسألة لها جوانب تختلف باختلاف المكان . ولذا ، فإن الاعتزاز القومي ، اذا كان مبعثه الوحيد هو الحصول على الاستقلال ، فإنه قد يجعل المواطن غير مكترث بضرورة تغيير بنية المجتمع ، وبضرورة القضاء على تقاليده البائدة ، فيركن للقيم السائدة ويطمئن اليها . وفضلا عن هذا ، فبما أن أنشطة الدولة الفتية وأجهزة السلطة ، والمؤسسات الاقتصادية متمركزة كلها في كبريات المدن ، لذلك فإنها جميعا تصبح بيد الطبقة البرجوازية الصغرى التي قد تجد بين أفرادها من هو مناضل أو انتهازي أو من ذوي الطموح . وهكذا فإن مختلف الفئات التي شاركت في الثورة قد تطورت اجتماعيا واقتصاديا وعقليا بعد الحصول على الاستقلال ، مما أدى الى انشطار السكان انشطارا ملحوظا على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، أكثر مما هو ملحوظ على الصعيد الايديولوجي . فالفرص المتاحة في المدينة ، والمرتبة المكتسبة في الماضي ، والمكانة الاجتماعية المنشودة في المستقبل ، واهتمام الفرد أو الجماعة بالترقية ، كل ذلك قد تغلّب على سائر الاعتبارات الأخرى ، اما بسبب الحرص على الوضعية والمرتبة المكتسبة ، أو بسبب الاقتداء بالآخرين والحذو حذوهم فيما يفعلون ... أما سوء التفاهم ، فمصدره الظاهرة القومية التي قد نجدها خفية لدى

فئة ، وصريحة (لغرض ما) لدى فئة أخرى ... في حين أنك تجد الأكثرية من الناس لا ينشغلون بها ، لأن العاطفة القومية لديهم بقيت كما كانت ، ثابتة لم تتغير ، ولم تصبح مجرّد مظهر من المظاهر ، وبقيت معها الحاجة الملحة لاصلاح المجتمع الريفي ، بل لبنائه من جديد ، بعدما تعرّض للتخريب والتعويق في تطوره ، بخلاف المجتمع الحضري الذي لم يتضرّر نسبيا ، واحتفظ بامكانياته في التقدم والرقي . على أن هناك قوما آخرين ، توفّر لهم (نسبيا) الكفاف من العيش في عهد الاستعمار ، والقدر الكافي من الحياة الكريمة ، فلم يبق على هؤلاء بعد نيل الاستقلال الا أن يبذلوا جهدا بسيطا ليحصلوا على ما كان ينقصهم ، وعلى المزيد من الكماليات . وحتى ولو فرضنا أنهم لم يسعوا للحصول على هذه الكماليات ، بل هي التي سعت اليهم ، فإن هذا الأمر على أية حال يتم دائما على حساب أولئك الذين فقدوا كل شيء لا خلال حرب التحرير فحسب ، بل منذ القدم ، وحرموا من الحد الأدنى ، أو من الشروط الأساسية للمساهمة في بناء صرح المجتمع .

وهناك عامل هام قد يعتبره البعض مجرد عرض من الأعراض الاعتباطية الزائلة ، ونعني به وجود طبقة برجوازية صغرى ، تشكّلت في المدن من كلّ من هبّ ودبّ ، والتفّت حول السلطة القائمة . وأفرادها متفاوتون في وعيهم السياسي ، ولكنهم جميعا من ذوي النشاط . فهذه الطبقة ما كادت تستقر في المدن حتى اتسع نفوذها بسبب تقرّبها من السلطة ، ومبادرتها للحصول على المرافق المادية ، واتقانها للصنائع المختلفة . وهذه المرافق والصنائع غير متاحة للطبقات الريفية وللطبقة الكادحة المستقرة في المدن . وليس لنا ما نؤاخذ به النخبة من هذه الطبقة البرجوازية ، وهي نخبة متنوّرة مناضلة ومخلصة في عواطفها الثورية ولكن الظروف التي سادت بعد حرب التحرير قد أدخلت شيئا من الاضطراب في طرح المشكلات . وهذا الأمر شبيه بظاهرة التضخم المتعمدة التي لاحظناها منذ اعلان وقف اطلاق النار ، بل حتى فيما بعد ، عندما عمد بعض زعماء الثورة المسلحة ، والجيش على وجه العموم ، والفئات المتنازعة ، والعصب المشغولة بالاستيلاء على الحكم ، وكذلك الحزب وغيره من المنظمات ، عمد كل هؤلاء الى تضخيم صفوفهم بعناصر متنافرة مشبوهة ، ليس لها من النزاهة ومن الوعي السياسي الا قدر ضئيل . وكان القصد من ذلك مضاعفة عدد الأفراد الموالين لهم ، كما لو أن الاستقلال (الذي تحقق وأصبح مفروغا منه) هو أهمّ في نظرهم من الثورة التي لم تتحقق بعد ، وتحتاج الى مواصلة الجهاد .

## الوضع بعد وقف اطلاق النار

وربما يحق لنا أن نتساءل عن الحكمة في «القوة المحلية la force locale » التي أنشأها الفرنسيون بعد وقف اطلاق النار : أليس قصدهم من ذلك مزدوجا : أولا :

إيجاد مخرج لكثير من العملاء الجزائريين المجنّدين سابقا في جيش الاستعمار ، وكانت لهم مواقف مضادة للثورة ، ومازالوا بعد الاستقلال على استعداد للمغامرة وخدمة مصالح فرنسا ... ثانيا ، اتاحة الفرصة لمن بقي على قيد الحياة من جنود جيش التحرير ، ولقادته في الداخل والخارج ، لتشكيل جيش من عناصر جديدة ، وتجهيزه بالأسلحة والعتاد ، لكي يستعينوا به في حالة الصراع والنزاع ، أو من أجل تعطيل الانطلاقة الثورية ... وأما بالنسبة للمدن التي هي بمثابة القوة المحركة للبلاد ، فإن التيارات المنطلقة منها خيبت الآمال ، لأنها استمرت على نفس الخط الذي سارت عليه الادارة الاستعمارية والبرجوازية التي حلت محلها ، فظهرت آثار ذلك في التنظيم السياسي الجديد . وفضلا عن هذا ، فمن المعروف أن الطبقة الكادحة الدنيا **lumpen-prolétariat** التي عاشت في المدن ذات الحضارة العريقة ، كانت دائما لا تشارك في السياسة ، وكانت لها مواقف معادية أحيانا للمجتمع ، وكانت تتعاون مع النظام البوليسي للعهد البائد ، مما جعل الحركة القومية تحاربها وتراقب تصرفاتها عن كثب . ومما يؤسف له أن هذه الطبقة آلت اليها الأمور اليوم ، بفضل مساندة البرجوازية لها ، على حساب الطبقة الكادحة النظامية المناضلة من أجل احقاق حقوقها .

ومما لا جدال فيه أن الفرق كبير جدا في المستوى الاجتماعي ، بين الطبقات الناشئة في الحواضر ، المتمتعة بكثير من الامتيازات ، والقادرة بحكم موقعها على التأثير في نظام الحكم والاستفادة منه ... وبين الطبقة التي أبقتها السيطرة الأجنبية في عهد ما قبل التاريخ ، وحرمتها من كل شيء . ولكن هذا الفرق أمر حتمي ، ويرجع أساسا الى سير الأمور في عهد الاستعمار . ومن المؤسف أن بعض الناس صاروا يستغلّون هذا الفرق بعد زوال الاستعمار ، ويتخذونه وسيلة للحصول على ترقية سريعة منافية أحيانا للعرف الاجتماعي ، ويعتبرون الاستقلال مجرّد عملية انتقالية في مسيرة التاريخ يتم خلالها اقتسام السلطة على أساس العصبية . . من المؤسف أن يحدث هذا ، من غير أن تتدخل الدولة بكل حزم لاعادة الحق الى نصابه . وان دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن الاستقلال الذي لم تستفد منه الا فئة قليلة ، أصبح مقدّما على الثورة التي كان من الممكن أن تستفيد منها فئة كثيرة . وقد وقعت محاولات للرد على هذا الاتجاه المضاد للثورة ، ولكن هذه المحاولات لم تتجاوز في أكثر الأحيان مرحلة الأقوال والمبادىء ، ولم تصدر الا عن الأشخاص الانتهازيين أنفسهم ، ممن يخططون لمصالحهم الخاصة ، ويستعملون مع الشعب أسلوب الديماغوجية . وفي ذلك دليل آخر على أن التعبئة السياسية في البلاد أخذت تتراخى بصورة مقصودة أو غير مقصودة . وهكذا أصبح الاستقلال أهم من الثورة في أنماط من السلوك العاطفي ، من نوع كلمات السرّ ،

والشعارات والمناورات الجهوية وسياسة الارتجال ... وأفرغت القومية من محتواها ، ولم يبق منها الا الأساطير والخرافات التي أصبح الناس يجترّونها وينشغلون بها ، عوضا من أن يختاروا طريق الاشتراكية ، وهو الاختيار الحتمي الصحيح الذي يجدر بالدولة وبالحزب أن يعملا ما في وسعهما من أجل تعميقه وتعميمه . أما وحدة الصف على الصعيد القومي ، فقد حلت محلها وحدة أخرى مضيّقة يدعي أصحابها أنها ثورية ، في حين أنها مفتوحة لكل انتهازي ، ولجميع العناصر المعادية للمجتمع .

والحقيقة أن هذه الأمور ليست جديدة : فقد رأينا كيف نشأت ضمن الحكومة المؤقتة نفسها ــ وهي المسؤولة عن الكفاح المسلّح ــ نشأت سلطة اجتماعية عليا ، فصارت تنتهج مع المجاهدين ومع قادة الكفاح سياسة المغامرة والتنافس على السلطة ، ولا تهتم بالجانب العسكري ، مما شكل قدوة سيئة لغيرها بعد الاستقلال ... ورأينا أيضا عند اعلان وقف اطلاق النار ومنذ الاستقلال ، كيف تضخمت صفوف الانتهازيين ، وتناقصت صفوف الاطارات الثورية الحقة ، بعدما نسي المسؤولون أن استخدام الناقصين كفاءة واخلاصا يؤدي الى الفساد والخراب ... ورأينا ايضا كيف أن المعارضة ، أو قسما منها ، أخذت تبحث بأي ثمن عمّن يمكن ان يعزز صفوفها ، فتحالفت مع من كانوا بالأمس يحفرون القبر للجزائر ، ويزجّون بالبلاد في أزمة قومية وخيمة ... وسمعنا أيضا بعض القادة النقابيين يتدخلون في أمور لاتعنيهم ، وينادون بالتعليم الديني الالزامي في المدارس ... وسمعنا فئة من الماركسيين يخوضون في امور الدين ، ويعتبرونه من العوامل المعجّلة بالاشتراكية ، ويستنكرون اضرابات العمال المشروعة ، وكل ذلك لا لشيء سوى لمجاملة نظام الحكم .

عندما تقع كل هذه الاشياء وغيرها من الامور الاخرى ، فإن تراخي الشعور السياسي لدى الشعب لا يجوز أن ننظر اليه كشيء عارض زائل فيما بعد ، بل هو أمر ثابت يحول دون انتشار الوعي ، ولا يقيم حسابا للرأي العام . وربما كان هذا هو مصير البلدان التي هدفها الوحيد هو الحصول على الاستقلال ، وما عدا ذلك فليس من المهم . وبما أن الطبقة الحاكمة تدعي بأنها ترعى مصالح الشعب ، فإن تدبير الانقلابات يبرّره حرصها على المصلحة العامة ، وعلى تحرير البلاد . وهكذا فإن «العناصر النشيطة» التي لمعت أسماؤها في محيط الأحزاب القديمة ، بلغ بها التكيف مع الوضع الجديد ، وأدى بها النشاط (وان كان الآن في غير محلّه) ، ووصلت في تلاؤمها مع الظروف ــ بما لهذا التلاؤم من دوافع وأغراض خاصة ــ الى درجة أن هدفها الوحيد ، كمرحلة أولى ، هو استلام السلطة . واذا آل اليها الحكم ، فإنها على أية حال ، مستعدة لتعديله بما يناسب الظروف ، وبروح التحرر والتسامح ، وبالعمل الارتجالي ، وبتوفير الكماليات بين

الحين والآخر ، علما بأن هدفها الأخير بعد هذا كله ، هو الاحتفاظ بتلك السلطة ، لأن انتهاج الطريق الايديولوجي ، أو الالتزام بميثاق معين يفرض عليها واجبات تجاه الشعب المكافح . ولكن ، نظرا للحاجات الملحة التي تحس بها جماهير الشعب ، وقاعدة الحزب ، والمنظمات النقابية ، والشبيبة ، وغيرها من المنظمات والهيئات الأخرى ، فإن التوعية السياسية سوف تؤدي بالمجتمع على المدى البعيد ، الى المطالبة بحقوقه . وعندئذ سوف يبدو سوء التفاهم على أوضح صورة . فالقومية المبنية على العاطفة ، والتي تمارسها القمة (القيادة) والمتحالفون معها من البرجوازية الصغرى والاقطاعية الجديدة ، هذه القومية رغم أنها استعارت ثوب النزعة التقدمية لكسب الأصوات ، الا أنها لم تحقق من المطالب ، سوى مطالب الأغنياء والانتهازيين ، وبذلك أصبحت عاجزة عن تلبية مطامح مجتمع بائس لا يزال رغم بؤسه يحتفظ بجزء غير قليل من رصيده الثوري . ولا شك أن بقاء ذلك الرصيد فرصة تاريخية لا يجوز تضييعها في الأعوام القليلة القادمة ، لأنها اذا ضاعت ، يفوت الأوان .

ولئن كان الشك قد سيطر على بعض النفوس، بعدما خيّب الاستقلال الآمال المعقودة عليه ، بسبب الفقر الايديولوجي ، وبسبب ضياع الجهود والامكانيات ، فلا يمكن مع ذلك لأي أحد أن ينكر أمورا ثلاثة : الأمر الأول أن الثورة حقيقة من الحقائق التي عاشها كل فرد . الأمر الثاني ، أن الشعب الجزائري الذي صادفته عقبات كثيرة غداة الاستقلال نتيجة لحالة الاضطراب المادية والمعنوية ، لن يقصر مع ذلك في استعادة زمام المبادرة ، ولكن في اطار آخر هو اطار الصراع الطبقي . الأمر الثالث ، أن الشبان الذين يحسون بالحاجة الى وضعية سياسية ثابتة ، وجديرة بمجتمع متطور ، سوف يرفضون يوما بعد يوم المبادىء السقيمة المرتجلة الباطلة التي ينادي بها الكبار . وبما أن الثورة كما قلنا ، حقيقة من الحقائق التي عاشها الشعب ، فإن كل هذه الأمور أصبحت ممكنة ، بصرف النظر عن المحاولات الفاشلة العقيمة ، والمشاكل المفتعلة ، والمضايقات الفكرية ، والحنين الى العهود السالفة ، وبصرف النظر كذلك عن المشكلة التي لا تزال معلقة ، وهي مشكلة الاستيلاء على السلطة . وعندما تنتهج هذه السلطة طريق الجد والعمل والعدل ، وتهتدى بهدي الثورة المستمرة ، حينئذ يمكن القول بأن عهد الاضطراب والارتجال والدسائس قد ولّى . وهذا لا يتحقق الا اذا كفّت القوى العاملة عن تصرفاتها الطائشة المتهورة ، وشعرت بأن عليها من الآن فصاعدا ، أن تعمل يدا واحدة كي تسد الطريق على الانتهازيين وحلفائهم ... وينبغي كذلك أن يتخلص جهاز الحزب والدولة من العناصر التي تعوق السير ، وتؤدي بالبلاد الى الخراب ، كما ينبغي أن تعمل السلطة ما في وسعها كي تستجيب لتطلعات الجماهير الشعبية التي ستكون كلمتها ، ان عاجلا أو آجلا ، هي العليا .

## متى نكتب تاريخ الثورة ؟

سوف يأتي يوم نكتب فيه تاريخ هذه الثورة ، ولكن لا على مستوى القمة ، أي على مستوى انتصاراتها وهزائمها ، وخلافاتها الداخلية وعيوبها ونقائصها والعقبات التي واجهتها ... بل سوف يكون على مستوى القاعدة ، أي على المرحلة التي يكتسي فيها العمل الحاسم أهمية كبرى من حيث أبعاده ومدلوله . ولقد أشار البعض الى نقائصها وتجاوزها للحدود ، ولكن الأمر الذي لا يمكن لأحد أن ينكره هو أنها دفعت الجماهير الشعبية في انطلاقة كبرى حافلة بالأمل والقوة والايمان والتمسك بالحياة والاستعداد للعمل الايجابي . وقد نجح الكفاح المسلح ، وانتصرت الحركة الثورية التي دفعت الشعب لخوض معركة كان أكثر الناس يعتقدون بأنها خاسرة . وهناك ظاهرة تستحق الذكر في هذا المجال ، وهي أن الحركة الثورية تميزت بنوع من القيادة الذاتية ، ويرجع ذلك الى شعور كل فرد ، ضمنيا ، بضرورة توحيد الكلمة ، وربما كانت هذه القيادة من الأمثلة النادرة بالنسبة للتاريخ المعاصر للمقاومة . وحتى في أوربا ، شاهدنا في كثير من البلدان قيام العديد من الشبكات والمجموعات المسلحة التي لا يوجد بينها أي ارتباط ، ولا أي تنسيق في العمل الثوري .

ولعله من الضروري مرة أخرى ، أن نتفاهم حول المقصود بكلمة الثورة . ولئن أعوزها المحتوى الايديولوجي الدقيق في بداية حرب التحرير ، فإنها مع ذلك استطاعت أن تثبت وجودها ، وأن تفتح لنفسها آفاقا جديدة ، وأن تغرس الثقة في النفوس ، وأن تفرض في المجتمع الجزائري نوعا من الانضباط لم يكن قادة الثورة أنفسهم يتوقعونه . وقد توصلت الثورة الى هذه النتائج الايجابية بعد التجربة الصعبة التي مرت بها في السنة الرهيبة ، سنة 1959 ، وبعد انضمام المدن للثورة في 1960 بطريقة صريحة . ان اثبات الوجود ، وفتح الآفاق ، وغرس الثقة ، وفرض الانضباط ، كل ذلك تحوّل الى صفات راسخة في نفوس الجماهير الشعبية التي يدّعي البعض بأنها اعتادت الخضوع والطاعة . وبما أن الثورة كانت مفتقرة الى المحتوى الايديولوجي اللائق بها ، لذلك ما لبثت هذه الصفات أن نابت مناب الايديولوجية ، وصارت بمثابة قوة ديناميكية متكاملة ومستقلة بذاتها ، وأصبحت أداة يرجى منها كل خير لتحويل المجتمع تحويلا جذريا . وبطبيعة الحال ، فلا فائدة من أن نرسم صورة مثالية عن الثورة ، لأنها كانت ، في تطلعاتها المشروعة ، وأعمالها البناءة ، واهتمامها بترقية العقول ، وتصميمها على هدم البنيات القديمة البائدة ، كانت الى جانب كل ذلك لا تخلو بين الحين والآخر ، في الأزمات الأليمة من الكفاح المرير ، والقمع الشنيع ، لا تخلو من الرجوع القهقرى الى أنماط بالية من الفكر والعمل ، وارتكاب أخطاء ، وتصور مستقبل ما بعد الحرب تصورا

ساذجا . ولكن ، على وجه العموم ، يمكن القول بأن البلاد دخلت مع الثورة في طور جديد ، وأنها — رغم ما عانته من محن ، وما دفعته من تضحيات — قد حددت لنفسها هدفا استطاعت به أن ترفع مستوى طموح الأمة .

وقد سبق لنا أن أشرنا الى الكفّ والحرمان الذي عانت منه الجماهير الشعبية في عهد الاستعمار . ثم جاء الاستقلال ، ونالت البلاد حريتها في ظل دولة تعمل ما في وسعها من أجل تحقيق ما تصبو اليه الجماهير . وهنا تجدر الاشارة مرة أخرى الى أن هذا الكف والحرمان ظل هو هو في كلتا الحالتين (قبل الاستقلال وبعده) ، وان كانت الأسباب مختلفة . ويمكن تفسير هذا الكف بعقد مقارنة بين الحالتين ، وهذه المقارنة — فضلا عن كونها تكشف عن مغالطة كبرى — فإنها فضلا عن ذلك تكشف عن عجز القيادة على مسايرة العصر ، ومواكبة التاريخ ، بسبب عدم توفير الشروط اللازمة لمواجهة المستقبل بفكر عقائدي عقلاني ، وبرجال أكفاء .

## نقطة التحول في تاريخ الحركة القومية

في أواخر سنة 1959 ، صرح أحد المسؤولين الكبار للثورة الجزائرية ، وهو رجل من ذوي الاخلاص والنزاهة ، وان كان — على غرار جميع القادة الجزائريين — شديد التأثر بالشعور القومي وحده ، صرح هذا المسؤول في معرض الحديث عن الماضي أمام اطارات جبهة التحرير الوطني قائلا بالحرف الواحد : «بدأ الشعور القومي يتكون في حوالي عام 1947 . وفي الفترة الواقعة ما بين 1947 — 1949 ، خطونا خطوات متعثرة . وتيقنت عندئذ بأن حركتنا ما تكونت الا كنتيجة لانتشار الشعور القومي في الجزائر . وبذلك حقق الشعور القومي هدفه المنشود : وهو أمر على غاية من الخطورة ، لأننا بعدما حققنا هذا الهدف ، واجهنا مشكلة جديدة ، وهي : هل نحدّد هدفا آخر ، ونستبدل رجال المرحلة الأولى برجال آخرين ؟ لقد طرحت هذة المشكلة في اجتماع عقدته اللجنة المركزية في أواخر 1948 وأوائل 1949 ، وعرضتها على الشكل الآتي : اذا كان الداعي لقيام حركتنا هو خلق الشعور القومي ، فيجب علينا أن نهنيء أنفسنا لأننا بالفعل نجحنا في خلق هذا الشعور ... أما اذا كان هدفنا — بعد غرس ذلك الشعور في النفوس — أن ننتقل بالشعور الداخلي الى حيز الحقائق المحسوسة ، بتشييد صرح الأمة الجزائرية ، حينئذ يحق لنا أن نتساءل : ألا يجدر بنا أن نستبدل طرائق العمل ، وطرائق التفكير ؟ألا يجدر بنا كذلك أن نستبدل رجالا برجال آخرين ؟ وكان الجواب الذي سمعته من البعض : «نحن رجال المرحلة الأولى ، ونحن كذلك رجال المرحلة الثانية . نحن رجال السياسة ، ونحن القادة العسكريون» . وعندما لاحظت لهؤلاء بأنه يتحتّم علينا حينئذ أن

نحوّل كل طاقاتنا الى سلاح نستعمله في الحرب ... فهل نحن قادرون على القيام بهذا التحويل ؟ قيل لي : «بلى ، نحن قادرون» ، غير أنني لم أقتنع بهذا الكلام ، لأن النتائج التي انتهت اليها اللجنة المركزية كانت متناقضة . فمن جهة نلاحظ أن (ح .ن . ح .د)(*) ظلت تمارس نشاطها كحزب سياسي وتشارك في الانتخابات . ومن جهة أخرى أخذت في انشاء المنظمة الخاصة (م .خ .) (1) . وكان رأينا يومئذ أن الأمرين لا يجتمعان ، فجاء المستقبل مؤيدا لما رأيناه . ولا شك أن حزب (ح .ن .ح .د) حقق هدفه الذي كان يعمل من أجله في الخفاء . وهو خلق الشعور القومي ، وبذلك وصل الى نقطة لم يتمكن بعدها ، (أو لم يعرف) كيف يغير طرائقه في التفكير ، وأساليبه في العمل ، تبعا للهدف المرسوم الجديد ، وهو تشخيص الشعور القومي في أمة جزائرية ذات كيان . ولهذا ، فلم يكن هناك مناص من أحد أمرين : فاما أن يتلاشى هذا الحزب ، واما أن يصبح معوّقا للحركة القومية . الا أن الحزب ظل مع ذلك يستجدى أصوات الشعب الجزائري في الانتخابات ، مما جعل الناس في آخر الأمر يملّون ويضجرون ، وقد استمر حزب (ح .ن .ح د) في العمل السياسي ما بين 1949 و 1953 ، فتسبب في اثارة الاستياء بين صفوف الشعب والمناضلين ، الى أن جاء اليوم المحتوم الذي انشق فيه هذا الحزب من أجل مسألة ثانوية . والحقيقة أنه كان مقطوعا عن مجرى التاريخ » . ثم أضاف نفس هذا المسؤول الذي أوردنا كلامه : «ونحن الآن ، أي في نهاية عام 1959 ، وصلنا الى نصف المرحلة الثانية ، وهي مرحلة بناء الأمة الجزائرية» (2) .

لقد استشهدنا بهذه الفقرة الطويلة ــ ونرجو من القارىء أن يتمعّن بصورة خاصة في بعض الجمل المؤكدة ــ استشهدنا بها لكي نقيم الدليل أولا وقبل كل شيء على أن القيادات القومية ، كلما وصلت الى منعطف وحققت هدفها ، فإنها تصبح غير قادرة على تجاوز الخط الذي وصلت اليه ، ويعتريها الشعور بالعجز ، وان كانت لا تقرّ بعجزها ، فتظل مع ذلك تمارس مسؤوليات العمل النضالي أو السلطة السياسية . ومن جهة أخرى ، اذا رجعنا الى هذه الفترة (1948 ــ 1949) التي كان فيها مصالي

---

(*) هو حزب «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» وسوف نشير اليه في هذا الكتاب بهذا الرمز (ح.ن.ح.د) ، اختصارا ، ورمزه بالفرنسية هو .M.T.L.D (المترجم) .

(1) هي «المنظمة الخاصة .O.S» وهي نواة ثمن الحزب كانت تعمل في السر ، وبقي أمرها في حالة من الاضطراب الى غاية 1953 ، وكان الهدف من انشائها هو التدريب العسكري لمجموعات صغرى من المناضلين .

(2) هذا النص منقول عن مقال غير منشور ، وجاء في شكل محضر لاجتماع سياسي رسمي .

الحاج وبعض أصحابه القدامى يتحكمون بدون منازع لهم في مقدّرات حزب (ح .ن ح د) ، فان القول بأن نفس الرجال صالحون للمرحلتين ، أي قادرون على أن يكونوا زعماء سياسيين وقادة عسكريين في نفس الوقت ، ان هذا القول ، وان كان مجرى الأحداث قد أظهر مافيه من الزيف ، بخصوص الحزب الذي أسسه مصالي الحاج فيما بعد ، (حرب الحركة القومية الجزائرية) ، وأظهر كذلك مافيه من تناقض بخصوص الأحزاب الأخرى ، فقد تبين مع ذلك فيما بعد أن هذا القول يعبر عن ظاهرة ثابتة راسخة من ظواهر الحركة القومية في الجزائر ، ولكن الظاهرة قلما تظل على حالها ، بل تتغير على يد من تؤول اليهم السلطة ، عندما يأخذون في المساوامات والبحث عن الحلول الوسطى ، وهي حلول لا يستفيد منها في أغلب الأحيان الا من ورعه قليل ، ووعيه السياسي ضعيف . وقد كان لهذا الأمر أثره في مصير الشعار المرفوع أيام كانت الثورة على أشدها ، وهو «اعطاء الأولوية للسياسي على العسكري ، وللداخل على الخارج» .

ان هذا المبدأ الذي دارت حوله مناقشات كثيرة ، تعرّض لهزّات عديدة ، ووقعت بسببه أزمات حادة على مستوى القيادة ، ولم يخفف من حدتها سوى حرص المسؤولين على توحيد الكلمة ، وعلى تعبئة جميع الطاقات لخوض الحرب التحريرية . أما بالنسبة للعبارات التي استشهدنا بها ، وهي أن «الحزب ظل مع ذلك يستجدى أصوات الشعبّ الجزائري في الانتخابات» و «نحن الآن وصلنا الى نصف المرحلة الثانية ، وهي مرحلة بناء الأمة الجزائرية» ، فهذه العبارات تدل على أن الأمور ظلت تسير على نفس المنوال ، وبقيت متأثرة بالعقلية القومية القديمة ، ومحافظة — مع تعديل طفيف — على نفس الشعارات السابقة .

## من الشعور القومي الى الشعور الثوري

ان هذا الأمر يدعونا الى الاعتقاد بأن نشوء الشعور الثوري لدى جماهير الشعب بعث الاضطراب في نفس الزعماء القوميين ، فأخذوا تدريجيا — بعدما حيرهم هذا الشعور الذي لابد من التنفيس عنه — أخذوا يحلون محله الشعارات والعبارات الجوفاء . ومما لاشك فيه أن النية كانت حسنة وأن الاخلاص كان متوفرا . غير أن هذه النية وهذا الاخلاص منبعهما العاطفة وحب الخير ، لا الوعي السياسي الخلّاق . وبعبارة أخرى ، فإن «الفكر» القومي التقليدي الذي كان يوجه المواطن الجزائري — من حيث لا يشعر ، في كل أعماله وتصرفاته — هذا الفكر لايجد ما يغذي به الشعور الثوري سوى بالمواقف المفتعلة والشعارات الغامضة والحلول المرتجلة ، والألفاظ الجوفاء والعلاقات «الأخوية» العقيمة . ولما كان الواقع السياسي كله قائما على أمثال هذه الشعارات

الزائفة والمواقف المفتعلة ، فلا الحزب يجدي ، ولا المجلس الوطني ، بسبب فقدان قاعدة شعبية متينة ، وناخبين يختارون ممثليهم على بصيرة ...

وحتى التسيير الذاتي ، الذي كان من المفروض أن يندرج في اطار سياسي رحب ومتميز بوضوح الرؤية وبتمكن العمال من اتخاذ ما يرونه من قرارات ، هذا التسيير الذاتي لم يحقق الهدف المقصود من انشائه كمؤسسة اجتماعية متعددة الخدمات ومنفصلة عن رأسمالية الدولة وعن البيروقراطية الفاشلة التي ليس لها من هدف سوى الارتزاق ، وتجميد الأمور ، وتحقيق الأرباح الفاحشة ، وعرقلة التقدم بصورة مقصودة أو غير مقصودة في بلادنا التي تعاني من الفقر والجهل . وبما أن الوازع الاخلاقي مفقود فيما يخص كسب الرزق — لأن الضمير المدني مفقود — وبما أن التقشف الشامل للجميع مفقود أيضا ، لذلك ظهرت الدعوة الى المحافظة على الأخلاق ، ولكن على شكل مبادىء صبيانية ، بأسلوب شبيه بالأسلوب المعهود لدى البرجوازية الجديدة في مجال الوعظ والارشاد . وهكذا أصبح كل شيء حراما وممنوعا ، وصارت الأحكام البائدة المقطوعة عن الواقع وعن الحياة العصرية تطلق جزافا .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذه الدعوة الزائفة الى الأخلاق ، ليست لها أية صلة بالقيم الروحية الأصيلة ، بعدما أصبح تأويل أحكام الدين سلاحا ذا حدين ، فيستعمل بدعوى تحقيق المساواة (تارة من طرف الرجعيين المعروفين لعرقلة التقدم ، وتارة أخرى من طرف التقدميين الزائفين لحثّ الناس على الأخذ بأسباب التقدم) .

ان أخوف ما أخافه أن يؤدي زوا ل الوعي السياسي ، وانشغال الفرد بالرفاهية والبذخ — متناسيا ما عليه من واجبات نحو المجتمع كمواطن يعمل للصالح العام — وظهور نوع من التعصب القومي (الشوفيني) في ثقافتنا المنكوبة ، وازدياد نفوذ سكان الحواضر ، واستلامهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة للسلطة ، واستحواذهم على الاقتصاد الوطني ... أخوف ما أخافه أن يؤدي ذلك كله — اذا لم نحتط له — الى نوع من البوجادية (*) poujadisme الضارة التي ظهرت بعض النذر منها .

ان الطبقة العمالية لا تزال تربطها صلات بالبرجوازية الغوغائية الصغرى المتواجدة في الادارة ، فلا ينبغي أن يكون مصير هذه الطبقة العمالية هو نفس المصير الذي آلت اليه البرجوازية الأهلية عندما تحالفت مع الاقطاعية الزراعية والادارية في عهد الاحتلال .

---

(*) البوجادية : نسبة الى بيير بوجاد ، مؤسس هذه الحركة التي قامت في فرنسا عام 1954 للدفاع عن حقوق التجار وأصحاب الحرف . ويطلق هذا الاسم أيضا على كل حركة تعمل من أجل تحقيق المصالح الخاصة ، متناسية المصلحة العامة (المترجم) .

ونحن اليوم ، اذ نتحدث عن ضرورة استلام العمال والطبقات الوسطى النزيهة لمقاليد الأمور ، فإننا نعبر بذلك عن أملنا في أن يقطع هؤلاء كل صلة ، لا فقط مع البرجوازية الصغرى ذات الشعور القومي العاطفي الزائف ، والتي لا يهمها سوى رسم الخطط لضمان مصالحها الخاصة ، بل كذلك مع كل من يتجاهل الحقائق ويصدر في عمله عن الارتجال . وهذا ما درجت عليه كثير من البلدان الفتية التي تزعم أنها ثورية ، في حين أنها تصدر في أعمالها عن وعي ضعيف ، وخوف من المسؤولية ، مما جعلها تتنكر للثورة وتقطع كل صلة بها .

وهناك مأساة أخرى تتمثل في زوال ما هو قائم ، من غير أن يكون له بديل . والمأساة هنا مؤلمة أكثر ، لأن الأمر يتعلق بمجتمع ظل مدة طويلة من الزمان محافظا على تقاليده ، وبقي على حالة من الجمود كوسيلة للدفاع عن كيانه . وكما أن التقاليد عندما تزول ، يبقى أثرها عميقا (لأن الهزات القاضية على التقاليد تعقبها فترات من الهدوء والركود) ، كذلك فإن الفراغ الناجم عن هذه الوضعية يؤدي بالمجتمع الى الانفتاح والانغلاق بصورة متناوبة ، ويفضي به الى نوع من الصراع اللامنطقي اللامعقول بين القديم والجديد ، في حين أنه من الممكن الاستفادة من التطلعات الجديدة والمكاسب المبشرة بالخير ، والمشاريع النافعة ، والمبادرات الديناميكية التي من شأنها — فيما لو استفيد منها — أن تعدّل كفة الميزان مع الاتجاهات الضارة المتمثلة في التشبث الجامد بالماضي . ومن ينظر الى ما أظهره الشعب الجزائري الأبي من انضباط ثوري ، في كل مناسبة ، بل حتى في الفترات الحرجة ، كالأزمة التي وقعت في الصيف من عام 1962 ، فإن هذه القاعدة الشعبية التي لا تزال سليمة ، وهذا الاستعداد الملحوظ للأخذ بأسباب التقدم ، وهذا النقد البناء لجميع المحرّمات والممنوعات مهما كانت مقدسة ، هذه العناصر الثلاثة تمثل في آخر الأمر أبرز الحقائق في الجزائر المعاصرة . على أن هذه العناصر تصبح عديمة الجدوى عندما يفقد الشعب ثقته في قادته .

واذا كان لابد ، في خاتمة هذا المطاف ، من العودة ثانية الى بعض النقاط الهامة ، فإننا نقول بأن مقاومة الفلاحين الطويلة يمكن أن تعتبر الى حدّ ما مقاومة ثورية ، لأن الفلاحين هم الفئة الوحيدة التي كان نضالها مستمرا نسبيا ، وهذا يرجع الى أن الغزو الفرنسي ، وابتزاز الموارد الطبيعية ، وحرب التحرير ، كل ذلك وقع في بلاد ثلاثة أرباع سكانها من أبناء الريف الذين كانوا من أنصار الكفاح المسلح . أما المجتمع الحضري ، فقد أخذ منذ 1830 ينزح على نطاق واسع الى البوادي والأرياف ، وأحيانا الى خارج البلاد ، وكان نزوحه هذا أوسع من نزوحه خلال حرب التحرير الأخيرة . والهدف من هذه الهجرة الداخلية أو الخارجية هو الهروب من السيطرة الأجنبية ، ومواصلة الكفاح في

مكان آخر ، أو البحث عن مستقر دائم يناسب نمط حياته وذوقه الطبقي . وهذا ما وجده في المدن ذات الطابع البرجوازي كتطوان في المغرب الأقصى ، والاسكندرية في مصر ، ودمشق في سوريا ، وأزمير واسطمبول في تركيا ، الخ ... واذا استثنينا الأمير عبد القادر الذي اختار في 1855 دار الهجرة لأسباب أخرى غير التي ذكرناها ، وكان مصحوبا بشخصيات تنتمي الى المجتمع الريفي ، وبأفراد عائلته وأركان قيادته ، فإن اختيار دار الهجرة يدل على وجود روابط عاطفية روحية وحضارية مع العديد من المدن الاسلامية الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط . فالهجرة الجزائرية قد انطلقت في بداية الأمر من المدن ، ثم تواصلت من الأرياف أيضا ، على أعقاب ثورة 1871 . وتميزت هذه الهجرة بنشاط كبير ، وبالعمل من أجل القضية الوطنية ، وأنشأت جاليات في برقة (ليبيا) ، وفي فلسطين ، وتمركزت في بعض الأقاليم من الدولة العثمانية ، وعلى الخصوص في شمال سوريا ، وفي ما يسمى اليوم بالأردن . وكانت مشاركتها فعالة في حركات الثورة ، وبقيت على صلة وثيقة بالمغرب العربي . وعلى وجه العموم ، فإن المدن الجزائرية التي أخذ الطابع الأوربي يغلب عليها بعد الاحتلال ،تضرّرت كثيرا من جرّاء الهجرة الأولى ، ولم تسترجع الى حد ما صورتها الطبيعية الا في العقد الأول من القرن العشرين ، الى أن أخذت على اثر الحرب العالمية الأولى (1914 ــ 1918) تشارك مشاركة ضعيفة غير واعية ، في الكفاح ، ذلك الكفاح الذي بدأ يتزايد في 1930 ، ويشتد ابتداء من 1945 .

## مقارنة بين المجتمع الحضري والمجتمع الريفي

ان انشطار المجتمع الحضري الجزائري الى طبقات قد تميز بعد الاحتلال بالتقلب النسبي ، ولم يكن هذا الانشطار واضحا ، لأن السكان الجزائريين ، بعضهم لم يستقر في المدن الا حديثا . أما الذين كانوا يقيمون فيها منذ القديم ، فقد كان عددهم قليلا ، وكانوا في معزل عن الحياة السياسية وعن تسيير الشؤون البلدية . وهناك عوامل كثيرة ساهمت الى غاية 1945 ــ 1947 ، في الحدّ من انشطار الحضر الى طبقات اجتماعية واقتصادية ، وأدت الى عرقلة الكفاح في المدن ، بسبب سوء التنظيم فيها ، فلم تقف في صف المواجهة مع الاستعمار ، على عكس الأرياف . ومن بين هذه العوامل ، تعايش المجتمع الحضري مع الأوربيين الذين استطاعوا ــ بعدما تكاثر عددهم ، وأصبح لهم جاه وسلطان ، وتنوعت مصالحهم ، وصاروا يتمتعون بالسلطة وينعمون بالأمن ــ استطاعوا بفضل ذلك كله أن يفرضوا على الجميع ، بما في ذلك الأهالي ، نمطا معينا من الحياة ، وميلا الى الرغد من العيش . والعوامل الأخرى هي : تأخر نشوء الحركة القومية ، والشعور الديني ، وفقدان طبقة كادحة حقّة في المجتمع الجزائري ... وكان الأمر على

العكس من هذا في البوادي والأرياف ، حيث كان النضال ، وكانت المقاومة ، وان تكن سلبية أو خفية ، موجّها كلّ منهما ضد أعوان الاستعمار الاداري والزراعي وكذلك ضد الاقطاعيين ممن همهم الوحيد الارتزاق على حساب الشعب ، والاستغلال . ومن جهة أخرى ، فإن الاستماتة في القتال ، ودرجة الوعي القومي متعلقتان بعدد الاطارات العاملة في الارياف ، وبنشاط المناضلين السياسيين الذين كانوا يعملون في مناطق نائية غير خاضعة نسبيا للاستعمار ، مما جعلها تحافظ على التقاليد الاجتماعية النافعة ، على عكس الأهالي المقيمين في السهول الذين عانوا أكثر مما عانى غيرهم من ويلات الحرب ، ومن النظام الاستعماري الظالم .

ومن الحقائق الثابتة التي لا تنكر ، وحدة المجتمع الريفي ، وترابط مصير أفراده ، من أقصى البلاد الى أقصاها . فمن الملاحظ في الأرياف أن ظهور الخصائص الاجتماعية فيه أوضح مما هي في الحواضر . فالحركة القومية التي نشأت في هذه الحواضر يغلب عليها الطابع البرجوازي . وقد أخذت بالفعل تقاوم تدريجيا الايديولوجية الاستعمارية ، الا أنها كانت أقل تعرّضا للقمع والاضطهاد مما تعرضت له الأرياف ، مع فارق بينهما ، وهو أن الرؤية الموضوعية لدى كل فئة من فئات السكان متفاوتة بحسب درجة مسايرتها للعصر . ونضيف الى هذا أن الاتفاق بين الحواضر والبوادي لم يكن يحصل في الماضي الا بحصول الوعي السياسي والاجتماعي ، عندما تدرك هاتان الفئتان بأنهما صنوان متكاملان ، وأن الواحد منهما هو السند القوي للآخر في الملمّات . وهذا ما حصل ابتداء من شهر نوفمبر 1954 ، عندما برز فكر عقائدي يعتمد على العقل ، ويحكم بالعدل ، فبث في نفوس المواطنين ، سواء منهم المقيمون في الحواضر أو البوادي ، بث في نفوسهم جميعا الوعي بقضيتهم ، وجعلهم يتجاوزون الهدف القومي المتمثل في الحصول على الاستقلال ، ويعملون بكل جدّ لحل المشاكل المرتبطة بمجتمع ثوري ، ذلك المجتمع الذي يواجهون فيه وقائع وأحداثا مشتركة ، وينهضون فيه بمشاريع بناءة على مستوى البلاد ، سعيا لتحقيق المصالح الاقتصادية القومية ، وضمان المستقبل المنشود ، ولعله من النادر أن تجد في أي بلد ، ما يمكن أن تجده في بلادنا ، حيث حصلت القطيعة بين الحواضر والبوادي ، وأصبح الهمّ الوحيد بالنسبة لأهالي البادية هو النزوح الى المدن مهما كان مستوى الحضارة فيها متدهورا . ولا شك أن هذه الظاهرة لها أسوء الأثر . على أن معالجة هذه المشكلة العويصة لن يكون بالطرائق المرتجلة ، أو بالنصائح العقيمة ، أو بالحلول المتطرفة ، خاصة أن الأمر قد تفاقم بعد الاستقلال ، حيث شاهدنا انتقال مجموعات كاملة من الفلاحين الذين لا مأوى لهم ، ولا أرض يستثمرونها ، الى المدن التي سلمت من ويلات الحرب ، والى المراكز البلدية . وقد انتقلت الى المدن أيضا طائفة كبرى من

كانوا قد اكتسبوا في الدواوير (*) مراكز سياسية اقطاعية جديدة ، فصاروا يحاولون أن ينقلوا معهم الى المدن نفس التقاليد البائدة التي سادت في المجتمع الريفي . وقد بات لزاما أن يوضع حدّ لهذا الوضع المتردّي ، ولهذه الاقطاعية الناشئة تحت ستار الحزب ، والا ، فإن البلديات التي سوف تنبثق عن الانتخابات المقبلة من أجل النهوض بالبلاد ، سوف تفشل في أداء مهمتها فشلا ذريعا ، بسبب انبعاث هذه الاقطاعيات البائدة .

لنعد مرة أخرى الى موضوع هذه الدراسة أو هذه اللمحة : فنحن نعتقد أنها ــ اذ تبرز حاضرنا الذي لا يخلو من امكانيات ــ سوف تجعل القارىء يتتبع مسيرة شعبنا على الصعيد الاجتماعي والسياسي ، تلك المسيرة التي يتناوبها التقدم حينا ، والتخلف حينا آخر ، ولكنها لا تقف في وضعية الجمود والسكون أبدا ... كما سوف تجعله يتتبع مختلف مراحل الكفاح الذي كثيرا ما وجدناه ينحرف عن هدفه الأول . ونحن لا ننكر بعد هذا أن هذه الدراسة أو هذه اللمحة ، تتميز بتصور المثل الأعلى للثورة ، خاصة عندما تعرضنا لتحليل الاطار الدينامي لتلك الثورة ، وما لها من امكانيات في المستقبل القريب أو البعيد . فالأحداث التي سلطنا عليها الأضواء تدل على أن هدف الثورة لم يقتصر على السعي للحصول على الاستقلال ، بل كان الهدف الأسمى هو تحرير البلاد . وهذه الأحداث حافلة بالانتصارات والامكانيات والارهاصات الفكرية المترابطة في مسيرة متجهة دوما لبلوغ الهدف المنشود . ومما لا شك فيه أن هذه الجهود الجبارة لتحرير البلاد قد استمدت قوتها من الكفاح الذي ما فتيء الشعب يخوضه منذ 1830 ، ومن مصائب الحرب ، ومن الانتفاضات القومية . فهذه الجهود تعتبر من جهة حدثا لا رجعة فيه ، كما أنها من جهة أخرى تشير الى ما حققه الشعب من انتصارات ، وما قطعه من أشواط ، علما بأن كل هذه الجهود لن تضيع ولابد من أن تظهر آثارها ان عاجلا أو آجلا .

## نهب الوثائق التاريخية

ونحن اليوم ننشر هذه النصوص على علّاتها ، بدون أن ندخل عليها تعديلات أو اضافات جوهرية ، باستثناء بعض الفقرات القصيرة التي رأينا من الأفضل حذفها ، نظرا لمقتضيات الصياغة الشكلية ، أو لمقتضيات النشر . وبناء على هذا ، نعيد اليوم نشرها ، على ما فيها من اختلاف ، علما بأننا قد نقع في تناقض بالنسبة للأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية ، أو على الأقل بالنسبة لتفسيرها ، واستخلاص العبر منها على المدى البعيد . وعملنا هذا شبيه الى حد ما بعمل من يسجل بدون تنقيح مذكراته التاريخية

(*) الدواوير : جمع دوار ، ويدل في الأصل على مجموعة من الخيام المنصوبة على شكل دائري ، ثم صار بالتوسع في المعنى ، يدل على القرية الصغيرة (المترجم) .

ان هذه الدراسات عبارة عن وثائق تتعلق بفترة حافلة بأنواع من الصراع والنزاع . وغنيّ عن البيان أن هذه الفترة محدودة من حيث مداها الزمني . ولئن كان الاستعمار قد استعمل في بداية عهده الأسلحة الفتّاكة ، والقوانين الجائرة ، بقصد اخضاع المغلوب ، فقد أعقبه استعمار آخر استعمل أسلحة من نوع آخر ، كالوقاحة والخبث والاستهتار والغدر والتظاهر بالشفقة ، والموضوعية الكاذبة ... هذة الأسلحة استعملها مؤرخون فرنسيون عكفوا ، بطرق مختلفة ، ولكن بعقلية واحدة ، على اقامة الحجج بقصد التشكيك في الشخصية الجزائرية وانكار وجودها ، مع محاولة تبرير الغزو الاستعماري والحضاري الذي قامت به بلادهم . ولقد تجد منهم من يتظاهر بالانصاف ، فيستنكر «السيئات» المفضوحة التي ارتكبها الاستعمار ، ويتأسف على «الفرص الضائعة» كما لو أن النظام الاستعماري نظام عادل وقابل للتحسن من حيث الأساس . ولكن هذه الفئة من المؤرخين تريد في الواقع أن تؤثر نفسيا على القارىء الجزائري ، وأن تضلّله بعملها المزدوج : بالتشكيك في الشخصية الجزائرية ، وبتشويه الحقائق التاريخية . ومنهم أيضا من رأى لزاما على نفسه أن يعدّل بين كفّتي الميزان ــ علما بأن الميزان مغشوش ــ وأن يحافظ ــ ولكن هيهات ــ على نوع من التوازن بين طرفي النزاع ، كما لو كان من الممكن في نفس الوقت ، التماس الأعذار وتوجيه اللوم للمستعمر والمستعمر ، وللجلاد والضحية ! ومنهم أيضا من ينافق ويقول بأن المؤرخين الجزائريين ما عليهم الا أن يستعدوا ليحلّوا محلّ المؤرخين الفرنسيين ... ولكن هؤلاء ربما نسوا أن الباحثين الجزائريين ما كانت الفرصة تتاح لهم لكي يطلعوا على الوثائق المتعلقة بتاريخ بلادهم ، مثلما كانت تتاح للمؤرخين المأجورين المسخّرين لخدمة النظام الاستعماري . وقد كان مصير هذه الوثائق السلب والنهب على نطاق واسع ، والنقل بعشرات الأطنان الى فرنسا ، بناء على طلب فئة من هؤلاء «المؤرخين» . وكان ذلك على أعقاب وقف اطلاق النار مباشرة ، في شهر مارس 1962 . وهكذا فإن الاستعمار الطويل الذي ابتلي به تاريخنا القومي قد انتهى بعملية سطو كبرى هدفها استنزاف المصادر الرئيسية لهذا التاريخ ، أو تحريفها .

* * *

لا يسعنا الا أن نؤكد مرة أخرى بأن المهم ليس هو المظهر الزائف للسلطة التي كانت بيد بعض الأشخاص أو بعض الفئات أثناء الكفاح المسلح أو بعد الاستقلال . فالأحداث العارضة والمبادرات المرتجلة لم يكن لها ، ولن يكون لها شأنٌ كبير في مجرى الأمور ، ولن تغير من بنية المجتمع الاقطاعي ، ولن تغير من اتجاه الحركة القومية التي كانت وما تزال تعتمد على أفكار سطحية مستمدة من العاطفة ويغلب عليها طابع

المحافظة والغوغائية ... وانما الذي سوف يغيرها هو ما لدى الجماعة من استعداد على التقدم البطيء أو السريع ، وما قامت به في الماضي ، أو ما تقوم به في الحاضر من أعمال . ولا يخامرنا الشك أبدا أن بعض الاتجاهات الفردية البغيضة المتبقية من عهد «قومية المظاهر» سوف تزول ان عاجلا أو آجلا ، وسوف تحل محلها ايديولوجية صحيحة تعكس بكل صدق ما بذلته الجماعة من جهود ، وتعطي صورة صادقة عن ماضي البلاد المجهول ، وعن استمرارية الكفاح المشترك . وهكذا فإن «العظمة التاريخية» التي يتبجح بها بعض الأفراد زورا وبهتانا(*) ، والبطولات الخارقة التي تعزى الى منظمة سرية معروفة ، حتى أن البعض لا يزال يتباهى بالانتماء اليها ، في حين أن الثورة الموحّدة وضعت الجميع على قدم المساواة من حيث الفرص المتاحة للعمل ، واستحقاق الفضل ، ونيل الشهرة الخ ... كل ذلك سوف يزول ذات يوم عندما يتأسس مجتمع يعمل لصالح الأمة ، ذلك المجتمع الذي أصبحت طاقاته الكامنة في متناول اليد ، وما بقي عليه الا أن يتجه بكل جد وبكل ثبات ، الى المستقبل والرقي ، اذ لا يجدر به أن يرجع الى عهود الماضي المظلمة ، تلك العهود التي أرادت بعض الطوائف المؤمنة بالمهدي المنتظر ، أن تبعثها من جديد . وفي هذا السياق يقول جانكيليفيتش Jankélévich «ان الطوائف التي تنتظر المهدي» ، تتطلع الى المستقبل من خلال الماضي «الأصيل» كما تتصوره هي ، لا من خلال الحاضر المنبثق عن الماضي ، والذي يعتبر حلقة لا غنى عنها بين الماضي والمستقبل» (1) . ان المسيرة الطويلة التي قطعها الشعب الجزائري منذ عام 1830 ، وعرف فيها من الكوارث المهلكة ، والتجارب القاسية ما عرف ، وخرج منها رغم ذلك كأقوى ما يكون : مظفّرا غانما ، ومستعدا دائما للدفاع عن جميع القضايا العادلة ، هذه المسيرة الطويلة تملأنا ثقة ، وتزيدنا يقينا بأن هذا الشعب البطل سوف يستمر في مسيرته الزاحفة .

## كلمة الختام

وكخاتمة لهذه المقدمة ، لابد كذلك من الاشارة الى أن بعض الأخطاء ربماتسربت الى الجانب التاريخي لدراستنا هذه . وقد فطنّا الى بعض النقائص في عملنا ، ولكننا لم نجد متسعا من الوقت للمراجعة . ويكفينا في هذا الصدد أن نقول مثلا ، بأن التقاليد الشعبية ، والشعر الملحون ، لم تكن خالية من ذكر الأتراك ، بل خصصت لهم ركنا لا

(*) لعل المؤلف يشير بهذا الى ما ادعاه بعض زعماء الحركة القومية الجزائرية (بين 1945 و 1954) من أنهم يعدون من عظماء التاريخ ، ولذا فلا يجوز لأحد أن ينتقدهم . وكان ذلك من أسباب الانشقاق (المترجم) .

(1) Jankélevitch : Tradition et traditionalisme : Le mythe des origines, p. 13.

بأس به ، خلافا لما كتبه بعض المؤرخين . فإذا نظرنا الى الشعر القبائلي الذي سجله هانوتو Hanoteau حوالي 1867 (وأكثره يرجع الى بداية عهد الاحتلال) ، وانتقلنا الى «الأغاني العربية في المغرب Chants arabes du Maghreb»التي نشرها سونيك Sonneck في 1902 ، واطلعنا بعد ذلك على الآثار التي لا تزال تحتاج الى تصنيف ، وعلى ما كل ما سجل وحفظ من هذا التراث ، فإننا بذلك نأخذ فكرة واضحة عن الصورة التي كونها الشعب بالنسبة للانسان التركي : فهي صورة الرجل الشجاع ، التقي ، المنظم ، الحريص على المصلحة العامة . ومن الجدير بالملاحظة أنه لم يرد أبدا في ذلك الشعر ما يدل على الخضوع للأتراك ، وهذا أكبر برهان على أن الجزائريين مهما كان أصلهم ، كانوا يعتزون بانتمائهم الى بلد مستقل ومتمتع بالسيادة . وكذلك فربما سوف تتاح لنا الفرصة ذات يوم لالقاء المزيد من الأضواء على الدور الذي قام به ابن دران في اتصالاته مع المارشال بيجو . ونحن بعد هذا لا يخامرنا الشك أبدا في اخلاصه للأمير عبد القادر ، وللدولة الجزائرية . ومن جهة أخرى ، فإن الفتوى التي حصل عليها ليون روش Leon Roches من علماء مكة والقيروان ، هذه الفتوى تبدو لنا اليوم مشبوهة من حيث مصادرها . هذا ، وسوف نعيد النظر في بعض النقاط التي لم نعطها ما تستحق من البحث .

* * *

ونضيف في كلمة الختام ، أن هذا العمل التحليلي الذي ركّزنا فيه على التاريخ السياسي للجزائر ، كأمة وكمجتمع ، هذا العمل لم يخضع في اعتقادنا ، لأي اعتبار ، ما عدا الاعتبارات الموضوعية التي يتقيد بها كل باحث . ولئن كان حكمنا قاسيا أحيانا في استخلاصنا للعبر من بعض الأحداث السياسية التي وقعت في السنوات الأخيرة ، فإن هذا الحكم يظل مع ذلك خاليا من الانفعال . ولم يكن قصدنا من ايراده سوى خدمة الحقيقة التي اتخذناها رائدا في الادلاء بالشهادة النزيهة ، وتسجيل الظاهرة الملحوظة ، واستخلاص العبرة من هذه الأحداث التي دخلت في سجل تاريخنا القومي . وبعبارة أخرى ، فليس في عملنا هذا مجال للحقد أو للحساسيات ، وليس فيه تحامل على أحد ، لأن رائدنا في الكتابة عن هذه الفترة من التاريخ ، هو الصدق . انها بدون شك فترة كغيرها من فترات التاريخ ، ولكنها مع ذلك فترة هامة سوف يكون لها — شئنا أم أبينا — تأثير كبير على مستقبل مجتمعنا . وترجع أهميتها الى كونها ، منذ 1830 ، بل قبله بقليل ، قد انطلقت في حركتها الزاحفة ، بهدف تحويل المجتمع التقليدي . كما أنها تميزت بتوفر الاستعداد للعمل ، مما كان سببا في نشوء الحركات التحريرية العديدة التي

حاول الاستعمار أن يقضي عليها . ولا شك أن البلدان التي لم تعرف منذ القرن السادس عشر ما عرفته البلدان الأخرى في العصور الحديثة من تحوّلات عميقة ، ومن اكتشافات رائعة في الميادين العلمية والاقتصادية ، وفي مجال تشكيل المؤسسات وتنظيم المجتمع ، هذه البلدان سوف تظل دائما تعاني من التخلف مادامت عاجزة عن الاستفادة الكاملة من الثورات التي قامت بها ، ومن تجاربها وخبراتها العقلانية الصالحة . أما اذا عرفت كيف تستفيد من ثوراتها ، فسوف تصبح قادرة على أن تلحق بركب الانسانية وأن تساهم هي أيضا بما لديها من تجارب .

22 يناير 1965 .

# الفصل الاول

## بين الاستعمار والاقطاعية

**«ان باشا مدينة الدار البيضاء وأعوانه ومائتين من الأعيان المغاربة قاموا بزيارة قائد المنطقة العسكرية لمدينة الدار البيضاء ، لكي يعربوا له عن شكرهم على ما بذله من جهود لصيانة الأمن ، وليؤكدوا له من جديد مشاعر الولاء التي يكنّها المغاربة لفرنسا .»**

**نقلا عن الصحف الصادرة في شهر ديسمبر 1952 .**

### تعصب أعمى ، أم وعي سياسي ؟

ان الذي يتصفّح تاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر ، ويتذكّر في نفس الوقت الكفاح المسلح والنضال الثوري الذي قامت ، ولا تزال تقوم به بعض الشعوب من أجل تحقيق استقلالها أو تحسين وضعها السياسي ، لا يسعه الا أن يتعجب اذ يلاحظ بأن الجزائريين وزعماءهم الذين ظهروا على مسرح الأحداث من 1832 الى 1872 (الأمير عبد القادر ، المقراني ، بومزراق ، عزيز بن الشيخ الحداد) كانوا ثوريين بأتمّ معنى الكلمة ، لأنهم لم يولوا المساعي الدبلوماسية الا دورا ثانويا ، واعتمدوا في كفاحهم بالدرجة الأولى على الفكرة الأساسية التي ينبغي أن تكون قوام كل كفاح ضد الاستعمار . ولا يخطرنّ ببال أحد أن كفاحهم انحصر في رفع السلاح ضد العدوّ ، بل هناك جانب آخر يهمنا ، ألا

وهو الروح الثورية التي خاضوا بها المعركة ، تلك الروح التي كانت تغذّيها المثل السياسية والاجتماعية معا ، وان كانت هذه المثل غامضة بعض الشيء في أذهانهم . وعلى هذا ، فإن مقاومة الأمير عبد القادر ، الذي وحّد كلمة الفلاحين في غرب البلاد وفي ولاية الجزائر ، وقاد كفاحهم ضد ضباط الاحتلال الفرنسي ، وضد الاقطاعيين وبعض الأئمة الموالين لفرنسا ، هذه المقاومة كانت ثورية من وجهتين : أولا ، لأنها تهدف في نظر الأمير عبد القادر ، الى تحرير التراب الوطني ، بتعبئة طاقات الشعب ليخوض غمار الحرب . وليس الى ذلك من سبيل الا بالمبادرة لتأسيس دولة ذات سيادة ... ثانيا ، لأنها تهدف الى القضاء على السلطة الغاشمة ، عدوة الشعب والمجتمع ، تلك السلطة التي تمثلت في الأسر الغنية الكبرى ، الموالية للاستعمار ، .والمسيطرة على الأراضي . ومما يؤيد قولنا هذا ، أن الاستعمار الفرنسي باعتراف أوغسطين برنار Augustin Bernard نفسه ـــ لجأ للقضاء على الثورة الجزائرية في بايليك قسنطينة ، الى تدابير معاكسة للتدابير التي اتخذها الأمير عبد القادر بتأسيسه لنظام ديمقراطي . وهكذا ، فقد أخذ الاستعمار الفرنسي يساند الأسر الموالية له من الأهالي ، وأنشأ سلالات واقطاعات من الخلفاء والباشاغاوات . أما حركة التمرد التي اتسع نطاقها في القبائل الكبرى والصغرى بقيادة المقراني ، فقد تجاوبت معها حركة أخرى نابعة من صميم الشعب ، وهي الحركة التي قادها الشيخ الحداد وأولاده في الهضاب العليا ، ما بين الجزائر وقسنطينة ، وفي منطقة التل .

ان تاريخ الجزائر خلال القرن التاسع عشر حافل بالأحداث لمن شاء أن يستخلص بعض الأمثلة الحية عن الحركة القومية وعواملها ومقوماتها . ومما درج عليه بعض المؤرخين الفرنسيين الذين كتبوا عن عهد الاحتلال ، معالجة المشكلة الجزائرية ما بين **1832** و **1848** معالجة

سطحية ، مع أن هذه الفترة هي التي قامت فيها الجزائر — بعد أن شعرت بأن لها كيانا — لتدافع عن استقلالها ومؤسساتها ، بقيادة الأمير . فهؤلاء المؤرخون يرون بأن الشعور الديني — أو التعصب الاسلامي ، حسب زعمهم — هو وحده الذي جعل الشعب الجزائري يلتفّ للدفاع عن قضية تعتبر روحية أكثر مما تعتبر قومية . فالشعب — في زعمهم — لم يتحرك ضد العدو الغاصب ، ولم يصمد مدة سبعة عشر عاما ، الا بدافع من الدين ! ولم يكن للشعب — في زعمهم أيضا — لم يكن له من محرّك لطاقته الجبارة سوى التعصب !

ما من شك أبدا أن العاطفة الدينية قامت في بداية الأمر بدور هام ... غير أنها لم تكن هي وحدها التي دفعت الشعب الى الكفاح . ولا ننس في هذا المجال أن الجزائر من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط ، وأنها كانت نشيطة في مبادلاتها التجارية ، بفضل عاصمتها التي تعتبر ميناء من أهم الموانيء . وكانت في القرن التاسع عشر منفتحة نسبيا على الشرق والغرب ، وكانت بعض الشخصيات الجزائرية تشد الرحال الى البلدان المتاخمة ، وتتردد على مدينتي باريس ولندن . وكانت العلاقات وطيدة بين أهالي الجزائر وسكان المدن الكبرى في المشرق ، كالاسكندرية وبيروت ودمشق ، ناهيك بالأتراك الذين كانوا يفدون بانتظام من الأناضول ومن آسيا الصغرى ، أو يعودون الى تلك البلاد ، فأنشأوا بذلك علاقات متنوعة بين كبريات المدن التركية وبين الجزائر . وفي تلك الفترة قامت في المشرق حركة لم تعرفها من قبل ، اذ كان محمد علي في مصر ، والأمير بشير الشهابي في لبنان ، يحاول كل منهما بشتى الوسائل ، أن يخلص بلاده من سيطرة العثمانيين ، للسير بها في طريق الحرية والتقدم . ان هذه الاتصالات ، وهذا التبادل في الأفكار ، وتلك الأحداث الجسام المليئة بالعبر ، والتطورات الهامة التي شهدتها أوربا

وأقطار المشرق ، كان من نتائج كل ذلك أن وسّع الأفق السياسي للنخبة الجزائرية في المدن الكبرى . ورغم أن أصداء هذه الحركة في الجزائر كانت ضعيفة نسبيا ، الا أنها مع ذلك استطاعت أن تؤثّر على جماهير الشعب في المدن ، وأحيانا على سكان الأرياف القريبة من المدن الساحلية .

يمكن القول اذن بأنه كان يوجد وعي سياسي ، وكان الجزائريون غير غافلين عما يجري في أوربا ... وبطبيعة الحال ، ما من شك أن الأمور كلها نسبية . ولكنه يطيب لنا أن نلاحظ قبيل الاحتلال ، بأنه يوجد في الجزائر التي كانت متفتحة على الخارج ، يوجد فيها رجال مطلعون على تيارات الفكر المعاصر ، وعلى الأحداث الدولية ، أو على الأقل ، على الأحداث الجارية في بلدان حوض البحر الأبيض ، وفي أقطار المشرق . ومن بين هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، سيد أحمد بن الطاهر ، قاضي أرزيو ، في ولاية وهران ، وقد تتلمذ عليه الأمير عبد القادر ، فلقّنه منذ الصبا ، مبادىء السياسة ... وكذلك سي حمدان بن عثمان خوجة ، وكان قد تولّى الكتابة في آخر حكومة جزائرية ، وكان مثقفا ثقافة عالية ، وقام برحلات عديدة واطلع على أمور كثيرة من شؤون الحياة ... ومن بينهم أيضا جودة بن دران الذي أصبح فيما بعد ممثل الأمير في المفاوضات مع العدو المحتل ، فأظهر فيها حنكة سياسية معتبرة . وعلى هذا ، فالعامل الديني — أو التعصب كما قيل — لم يكن له دور أساسي في الحروب التي خاضتها الجزائر من أجل الاستقلال ، أو في الكفاح الذي قاده الأمير ، خلافا لما يدّعيه بعض المؤرخين السطحيين . فالجزائريون — كغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الاسلام أو غير الاسلام من الديانات الأخرى ، وتعرضت للغزو الأجنبي ، وقاومت وحاربت أعداءها في الداخل وفي الخارج — هؤلاء الجزائريون ، كغيرهم من الشعوب ، قد استجابوا لمختلف الاعتبارات ، من سياسية

واجتماعية وايديولوجية وعاطفية ، وهذه الاعتبارات جعلتهم يحددون مواقفهم المعادية للامبريالية ، فكانوا في صف الأمير ، بل وقف البعض منهم ضده . تلك اذن هي الاعتبارات التي يجدر بنا أن نتناولها بالبحث . ونحن بادىء ذي بدء نستبعد على وجه العموم قضية التعصب الذي يفترض فقدان أي وعي سياسي ، وذلك للأسباب الآتية : ان الجزائريين قبل الاحتلال ، بالرغم من أنهم كانوا منضوين تحت راية الدولة الحاكمة كغيرهم من الرعايا المسلمين ، الا أنهم لم يترددوا في التمرد ضد العهد القائم ، لشعورهم بأنهم ينتمون للرابطة المغربية من جهة ، ولأنهم من جهة أخرى ، كانوا دائما يشعرون بالحاجة للقيام بثورة سياسية . ومن بين هؤلاء ، على سبيل المثال ، عائلة الأمير عبد القادر بالذات في ولاية وهران ، والطائفة التيجانية (الاخوان) في الجنوب ، وأهالي بني عباس والحضنة في شرق البلاد ، وسكان جبال جرجرة في منطقة القبائل . والحقيقة أنه لم يكن هناك ما يدعو للتذمر من ملوك ايالة الجزائر ، والسخط عليهم ، فقد كان البعض منهم معروفين بالتقوى والصلاح ، وخاصة الداي الأخير حسين باشا ، الذي اشتهر بالتقوى ، وقام بواجبه الديني كإمام للمسلمين الى آخر لحظة من حكمه . ولا شك أن موقفه عقب الاستيلاء على مدينة الجزائر وأثناء توقيع المعاهدة مع دوبورمون de Bourmont كان مشرّفا ، كما أنه يدل على اهتمامه بمصير رعاياه ، لأن كثيرا من شروط هذه الوثيقة تضمن ، بعد الحاح شديد من الداي حسين ، تضمن احترام الدين والأسرة والتجارة والتقاليد الجزائرية .

وقد سقنا هذا الكلام لكي نبرهن أن الجزائريين الذين دينهم دين واحد كالأتراك ، كانوا يفرّقون بكل وضوح بين الشريعة والاخاء في الدين من جهة ، وبين المتطلبات القومية والسياسية من جهة أخرى . ونضيف الى ما سبق أن استخدام الأمير لليهود في بعض المأموريات

السياسية الهامة جدا بالنسبة لمستقبل الدولة الجزائرية الفتية ، لدليل آخر على أن فكرة التعصب غير معقولة . وبالفعل ، فإن عقد المعاهدتين الهامتين بالنسبة لتطور القضية الجزائرية (وهما معاهدة دى ميشيل Desmichels في 1834 ، ومعاهدة تفنة في 1837) يعتبر نجاحا لا يمكن أن ينكر ، وينمّ عن حنكة سياسية كبرى . والفضل في عقد الأولى منها يعود الى حدّ ما ، الى مهارة يهوديين من وهران ، هما بوشناق ومردوشي عمار . أما الثانية ، فقد عقدت بفضل مساعي جودة بن دران الذي سبق عنه الحديث . وكان هذا الأخير يحضر أحيانا الاجتماعات التي كان يدعو اليها الأمير للتشاور في أمور الدولة مع خلفائه في جميع الولايات . ان الأمير عبد القادر ، اذ يرد على الفرنسيين بأن الدولة الجزائرية تمتد من «الحاوسة» الى «الكاف» ، واذ يلح على نقاط الخلاف في الاتفاقيات المعقودة حول الحدود الجغرافية ، أو حول السيادة الوطنية ، قد وقف موقف الرجل السياسي الذي وضع نصب عينيه مصلحة البلاد ، لا الواجبات الدينية وحدها . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن المراسلات الرسمية لبعض من أعوانه أو ممثليه لتدل هي أيضا على فهم عميق للحقائق الجزائرية المجردة من كل غموض ايديولوجي .

أما اعلان الجهاد ــ وهو الأمر الذي يتذرّع به البعض كلما أرادوا أن يطعنوا في الاسلام ــ فلم يكن في الواقع ، ومن حيث المبدأ ، الا حربا دفاعية . وما من أحد يستطيع أن ينكر بأن الحرب التي خاضها الأمير عبد القادر ، وكذلك الثورات التي اندلعت بقيادة الزعماء الجزائريين الى غاية 1884 ، ما قامت الا من أجل تحرير التراب الوطني . واذا كان بعض الزعماء قد أعلنوا الجهاد ، فما كان ذلك منهم الا لكي يدفعوا الناس الى خوض غمار حرب فرضها الأجنبي الدخيل . ان هذا النداء من أجل انقاذ «الأمة الاسلامية المهددة» ليس الا شعارا يضاهي

الشعار الذي رفعته الثورة الفرنسية ، واعتبرته من أقدس مقدّساتها ، ألا وهو : «الوطن في خطر La patrie en danger» .

## بين الجهاد المشروع والصليبية الحاقدة

واذا تقرر هذا ، فماذا ترانا نفكّر في الجنرال دوبورمون ، الذي قال ، وهو يخاطب جنوده بعد ما استولى على مدينة الجزائر : «لقد جدّدتم عهد الصليبيين» ؟ بل هناك ما هو أبلغ من هذا الكلام : فقد كتب بوجولا Poujoulat ، وهو رحالة فرنسي وثيق الصلة بالمارشال بيجو Bugeaud وبأسقف الجزائر دوبوش Mgr. Dupuch ، كتب في 1844 ، أي في الفترة العصيبة من عهد الاحتلال ، كتب مذكرات عن رحلته ينوّه فيها برسالة فرنسا التبشيرية في الجزائر . وقد أورد وصفا لما دار بينه وبين بيجو من حديث : «قال لي المرشال بيجو يوم قابلته منذ سنتين في منزله بمدينة الجزائر : «ماذا جئنا نعمل في افريقيا ؟» فأجبته : «لكي نواصل العمل الذي بدأه غودفروا Godefroy ولويس السابع ، وسان لويس» . وبعد أن تحدث بوجولا طويلا عن «رسالة فرنسا التبشيرية» مع المرشال بيجو الذي كان يصغي اليه بكل اهتمام ، أنهى كلامه قائلا : «ان الحرب التي تقوم بها في افريقيا انما هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية» (1) .

ولقد حاول هذا المبشر المتحمس أن يبرر بكل مهارة ما تميزت به «حملات افريقيا من وحشية» ، متذرّعا بأن الله «من أسمائه الحسنى أنه إله الجيوش وإله المعارك» وأن «المجتمعات لا تتقدم الا بالدماء والدموع(2) .» غير أنه استدرك في صفحة أخرى من الكتاب مؤكدا بأنه ليس ممن «يؤمن بالخرافات والأباطيل» لأنه على يقين بأن «الهدف

(1) Poujoulat : Voyage en Algérie, pp. 285-288.
(2) Id., p. 298.

الذي نسعى لتحقيقه من حروبنا في افريقيا لهو أسمى وأقدس من الهدف الذي نسعى لتحقيقه من حروبنا في أوربا» ، وأن المسألة تتعلق «بقضية روحية هي قضية الحضارة ، وقضية التعاليم المسيحية الخالدة التي كتب الله لها النصر المؤزّر في هذه الدنيا ، وقيّض لها فرنسا لتكون لها سندا قويا (1) .»

ان الانسان اذ يسمع هذه العبارات «الرائعة» لا يسعه الا أن يعتقد بأن صاحبها يتحدث عن شعب متوحش متجرد من الأخلاق ومن الدين . ولكن ، لنستمع الى البقية الباقية من كلامه : «نحن نمتاز على العرب بالقوة التي تتمثل في الانضباط واستعمال الحراب والمدافع . ولكن ، يجب أن نمتاز عليهم أيضا بالأخلاق ... وما من شك أن أهالي الجزائر يشعرون بالاستياء من سلوك بعض الأوربيين الذين توافدوا الى بلادهم . ألا يجدر بنا ــ وقد عزمنا على أن نعمل من أجل تثقيف العرب والأمازيغ ــ ألا يجدر بنا أن نكون أفضل منهم وأكثر منهم أمانة وصدقا ؟ (2) .» انه اعتراف صريح من المؤلف ، وكأنه تكذيب قاطع للرسالة الأخلاقية التي يتشدّق بها . ويضيف في مكان آخر ، بعبارات صريحة تقضي قضاء نهائيا على الادّعاء برفع مشعل الحضارة في افريقيا : «ان العرب أحسن أخلاقا من كثير من الأوربيين المقيمين بالجزائر ، فكيف يمكن اذن أن نتوقع منهم الامتثال لقوانيننا ومبادئنا وأوامرنا ؟ فالانسان بطبيعته لا يمكن أن يتخذ كقدوة له شخصا يحتقره . ونحن اليوم لا نلتقي في المقاطعات الجزائرية سوى بالسفلة من الأوربيين ، وكل بناء يشيده أمثال هؤلاء السفلة فمصيره الانهيار ...» غير أن هذا كله لا يمنع المؤلف من أن ينطلق مع أفكاره الهوجاء وأن يصيح بحماس :

---

(1) Id., p. 301.

(2) Id., p. 324.

«أحييك يا كنيسة افريقيا الجديدة ، يا بنت القديس سيبريان وأوغستان . لقد بعثت من القبر بفضل عبقرية بلادي وايمان أبنائها . وأنا فخور أن أراك قد انتعشت تحت راية فرنسا (1) .»

## صراع بين الحركات الشعبية والإقطاعية المحلية

لئن كنا قد استطردنا في القول بعض الشيء ، فما كان قصدنا سوى أن نلقي بعض الأضواء على الجو السياسي والفكري الذي كان سائدا في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي بمدة قصيرة ، وأثناء المقاومة الوطنية . ومن جهة أخرى ، فقد عقدنا العزم ـــ بكل تواضع ـــ على أن نعيد النظر الى القضية الجزائرية في القرن التاسع عشر من زاوية موضوعية ، اجتماعية بالدرجة الأولى ، مع تنبيه القارىء الى النظريات السطحية المغرضة التي يروّجها بعض المؤرخين . ونحن نرمي من وراء هذا ، الى شرح قضية الحركات الشعبية الناشئة في البلدان غير المستقلة ، في صراعها مع الاقطاعية المحلية التي تخدم الاستعمار ، وتعمل جاهدة لتصدّ الشعب عن تيار التحرر الاجتماعي ، ذلك التحرر الذي لا يتم الاستقلال الا به .

بدأ التهديد بالاحتلال الأجنبي ـــ بكل ما تحمله هذه الكلمة من عواقب وخيمة ـــ بدأ يثير القلق على اثر هزيمة اسطاوالي ، واستيلاء الجيش الفرنسي على مدينة الجزائر . وحينئذ اتخذت القضية مظهرين : فمن جهة ، قام الشعب في الأرياف ، والفلاحون من ذوي الدخل المتوسط ، وسكان بعض المدن والقرى ، قاموا قومة رجل واحد ليدافعوا عن كيانهم ، رغم فقدان القيادة الموجهة لحركتهم أحيانا ... ومن جهة أخرى ، ظلت العائلات الكبرى من الادارة القديمة (المخزن) ، وأعيان العهد البائد ، ظل هؤلاء، مترددين حائرين ، لا يعرفون ما اذا كان عليهم

(1) Id., p. 324.

الحذو حذو الأمة بأسرها ، أو صيانة مصالحهم ومناصبهم بعرض خدماتهم على العدو . ولكن لم يطل بهم التردد . وكان في مقدمة هؤلاء ، البايات ، ثم المرشحون الجدد لشغل منصب البايليك ، باستثناء بومزراق ، باي مدينة المدية ، وأحمد ، باي مدينة قسنطينة ، ثم اقتدى بهم الملّاك الكبار الذين جمعوا ثرواتهم بفضل الامتيازات العقارية التي منحهم اياها الأتراك ، مقابل تعهدهم بجباية الضرائب . وكان حكم هؤلاء ــ مع شيء من الاختلاف البسيط ــ كحكم الاقطاعيين في فرنسا على عهد الملوك ، قبيل اندلاع الثورة الفرنسية . والفرق بينهما أن أفراد المخزن يتم اختيارهم بين ذوي الرتب العليا في الجيش ، وكانوا مكلفين ــ زيادة على جباية الضرائب ــ بحفظ الأمن في العشائر . ولم يحدد هؤلاء موقفهم الى غاية 1832 ، اذ أنهم لم يشعروا بأي خطر يهدد مستقبلهم ومناصبهم ، الى أن أخذ الأمير الشاب الذي بويع في الغرب الجزائري ، ينظّم صفوف الشعب ، بالاستعانة بشخصيات غير معروفة في أكثر الأحيان نظرا لأصلها الشعبي المتواضع ، لأن العبرة في نظر الأمير ليس في الأصل ، بل في الاخلاص والكفاءة . وهكذا لم يجد الاقطاعيون الذين كانوا يحكمون بالحديد والنار ، لم يجدوا مفرّا من أن يخدموا قضية غير عادلة ولكنها غانمة ، ألا وهي قضية المستعمر الدخيل ، وذلك بعدما تبيّن لهم أنهم لا يستطيعون ــ بحكم طبائعهم وعقليتهم ومصالحهم الطبقية ــ أن ينزلوا الى مستوى الشعب ، وأن يشاركوا معه في الدفاع عن قضية ليس من ورائها أي مغنم . هذا ، مع العلم أنهم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بوجود رغبة شديدة في التحرر تختلج في نفوس الطبقات الشعبية ، وهي رغبة لن تلبث أن تضع حدّا للظلم الذي كانت تقوم به الطبقة الاقطاعية . ومما يدل على اضطراب أمر هذه الطبقة ، أنها بادرت للبحث عن حلفاء يساندونها . ولو كان هؤلاء الاقطاعيون يتمتعون

بالنفوذ والسلطة والسمعة الحسنة في أوساط الشعب ، ولو لم تكن الجزائر حينذاك أمة ذات كيان ومؤسسات ، لحاولوا أن يستقلوا بأمرهم وأن يؤسسوا امارات ، وأن يتفاوضوا مع الفرنسيين مفاوضة النّد للنّد . وكيف لا وهم يملكون أراضي مترامية الأطراف . أما عبد القادر ، فلم يكن ينتمي لاقطاعية المخزن الادارية ، ولم يكن من أفراد الطبقة العسكرية أو طبقات ملّاك الأراضي ، بل ينحدر من وسط اجتماعي متوسط الحال ، ومن أسرة متمسكة بالأخلاق وتحترم العادات والتقاليد . وكان أفراد أسرته وكثيرون غيرهم حينذاك ، أي قبل الاحتلال ، يرون بأن رسالتهم في هذه الدنيا تتلخص في خدمة الشعب : من مساعدة الفقراء ، وتعليم الأطفال في البوادي والأرياف وتثقيفهم في الزوايا ، والفصل في الخلافات بين الفلاحين . وما كادت معاهدة ديميشيل توقّع حتى اغتنم الملّاك الكبار والاقطاعيون العسكريون من المخزن ، اغتنموا الفرصة ، اذ كانوا لا يفتأون يتقربون من العدو المحتل ، فألفوا بينهم رابطة قوية . ومن المعروف أن معاهدة ديميشيل تلك تقرّ للأمير الحق في اخضاع هؤلاء الاقطاعيين لسلطته التامة ، باعتبار أنهم كغيرهم من رعايا الدولة الجزائرية.إنّ هذه الرابطة التي تزعّمها مصطفى بن اسماعيل والغماري ، وقدور بن مخفي ، وسيد العريبي وغيرهم من العملاء الخائفين من تطور الأحداث التي أخذت تهدد مصالحهم ، ان هذه الرابطة انهارت في 12 يوليو 1834 . ويمكن القول بأن هذا التاريخ قد آذن باضمحلال الاقطاعية الجزائرية في ولاية وهران وفي سهل نهر شلف . ولا شك أن الأمير كان قد أدرك بأن هؤلاء الملّاك الكبار الذين يمثّلون الطبقة العسكرية والادارية من المخزن السابق هم عناصر الشقاق والخيانة في البلاد التي استعدت للكفاح ، لتدافع عن استقلالها . وكان على علم بمناوراتهم وكان يعرف الى أي الفريقين يميلون . وفي ما يلي شهادة فيليب دوكوسي

بريساك Philippe de Cossé-Brissac الذي كتب يقول : «كان عملاء الأتراك سابقا قد استجابوا للعروض المغرية التي قدّمها لهم الجنرال بوايي Boyer ، قائد الجيش الفرنسي في وهران ، وهو أول من أدرك التوافق بين مصالحهم ومصالحنا ، والفائدة التي يمكن أن نجنيها من ولائهم لنا . وكانوا لا يفتأون يعربون عن استعدادهم لتقديم خدماتهم لنا ، ومن ذلك أن أحد أصدقاء الباي السابق خاشان ، وهو ابن غماري ، شيخ قبيلة الأنجاد الواقعة على الحدود ، والتي نصبت خيامها بين وجدة وتلمسان ، هذا الشيخ عرض على القائد الفرنسي أن يقوم بمهاجمة الوفد الجزائري الذي كان في طريقه الى المغرب ... (1) .»

ان بعض المؤرخين الفرنسيين الذين كتبوا عن فترة الاحتلال ، بالرغم من المودة التي يبدونها لعملائهم الاقطاعيين ، يقرون مع ذلك بأن معركة «محارز» التي وقعت في 12 يوليو 1834 ، وكذلك معركة «مينة» التي وقعت بعدها ببضعة أشهر ، هاتان المعركتان «وضعتا حدا للفوضى ، ووحّدتا الامارة الجزائرية» (وهذه هي نفس العبارات التي استعملها الجنرال آزان) ، واقتلعتا جذور الاقطاعية المحلية الخبيثة من كيان الوطن . وهكذا فقد ألقي القبض على زعماء المؤامرة وحوكموا أمام مجلس القضاء وأعدموا . وكذلك كان مصير الغماري وسيد العريبي وغيرهما . وبعد هذا الحادث بقليل ، لم يتردد الأمير في اصدار أوامره باختطاف اقطاعي آخر كبير معروف بدسائسه ، وهو فرحات بن السعيد بوعكاز من المنطقة الجنوبية لولاية قسنطينة ، وكان قد تحالف مع الفرنسيين ، فنفاه الأمير الى تاجدمت ليتخلص من شره . ان هذه الاجراءات التي اتخذها الأمير لصالح بلاده ، قد استوحاها من تجاربه في الحياة ، ومن وعي سياسي ثوري أصيل ، وهذا الوعي مجرد من كل عاطفة زائفة . لقد أدرك الأمير

(1) Philippe de Cossé-Brissac : Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie.

بثاقب فكره أن هؤلاء الملاك الكبار الذين دأبهم السعي لنيل المناصب والألقاب الجديدة ، ولا يقيمون أي وزن للشعب الذي سلك طريق البناء والتشييد ، هؤلاء الملاك الكبار يشكّلون خطرا كبيرا قد يفرّق وحدة الصف ويشتت شمل الفلاحين الذين هم أمل البلاد لتحرير التراب الوطني .

ولا بأس هنا أن نسوق فكاهة أوردها الجنرال آزان في كتابه عن الأمير عبد القادر ، وهي تدل من جهة على ما يتحلى به الأمير من تواضع وروح ديمقراطية ، كما تدل من جهة أخرى على ترفّع العائلات من المخزن وتكبّرها على الشعب . يقول آزان : «كان القائد العسكري الكبير (ويقصد به مصطفى بن اسماعيل ، شيخ الزمالة والدواوير) يعتبر الشاب عبد القادر سليل أسرة أدنى مرتبة من أسرته . وكثيرا ما كان يتحدث عن الفترة التي كان فيها هذا الطفل يأتي الى وهران ، فيتناول الطعام مع الخدم ، وكيف أنقذه هو وأبوه من انتقام الباي حسن . وذات يوم لم يجد بدا من الذهاب لزيارة الأمير في معسكره ، رغم أنه شق عليه أن يتنازل للقيام بتلك الزيارة ، فوجده قد عقد مجلسا للاستماع لشكاوى الشعب . غير أن عبد القادر الذي كان يعامل هؤلاء الناس بالحسنى ، لم يقطع الجلسة لاستقبال شيخ الدواوير ، فقال له مصطفى ، وقد حزّ ذلك في نفسه : «بما أن الذين كانوا بالأمس عندي خدما ، أصبحوا اليوم من ذوي الكلمة النافذة ، بل صاروا يرفعون أصواتهم أمامي ، فإني أقسم بالله أن لا تقع عيني على عينك بعد اليوم » (1) .

### اتفاق مصالح الاقطاعيين المستعمرين

غير أن الشيء الذي يميز العقلية الاقطاعية هو حرص هؤلاء الملاك الكبار على اعتبار قضيتهم وقضية الغزاة المستعمرين قضية واحدة .

(1) Col. P. Azan : L'Emir Abdelkader, p. 33.

ويشهد التاريخ أن المستعمرين تعهدوا لهم بضمان أوضاعهم ومصالحهم المادية ، وزيادة ثرواتهم ، كما عملوا على اخضاعهم لمشيئتهم ، وتعويدهم على الذل . وفي هذه الأثناء كانت محاصيل الفلاحين الزراعية تحرق ، كما يخبرنا بذلك أوغسطين برنار ، وكان مخطط المارشال بيجو «يتضمن عدة أساليب ، من بينها تخريب القرى التي يسكنها الأهالي تخريبا تاما» ، وكانت السلطات الاستعمارية تحاول «الاضرار بالأهالي في أرزاقهم ، كالمحاصيل والمزارع والدواوير والمواشي والأغنام والمطمورات (1) .» وكان الفلاحون في السهول والجبال ، والمحاربون في ثيابهم الرّثة البالية ، وسكان المداشر والقرى الذين جوعتهم الحرب وشتّت شملهم طوابير بيجو ، كانوا يجيبون المارشال بيجو باعتزاز ، على لسان شيوخهم : «مهما أحرقت ، ومهما أتلفت محاصيلنا ، وقطعت عنا القمح والشعير ، وأعملت يد السلب والنهب في مطموراتنا ... فإننا سوف نحاربك عندما تدق ساعة الحرب ... ولو كنا متعادلين في العدد : واحد ضد واحد ، أو عشرة ضد عشرة ، أو مائة ضد مائة ، أو ألف ضد ألف ، لعرفت يومئذ بأننا لا نولّي الأدبار أمام العدو (2) .» وهكذا فبينما كانت مصيبة ما بعدها مصيبة قد تسلّطت على الشعب الذي كان رائعا في حبه للوطن ، ومقاومته للأعداء ، اذا بالاقطاعيين من الأهالي يزوّدون الغزاة بالرجال والعتاد ، ويتقاسمون معهم الغنائم التي كانت تنهب من اخوانهم . ولقد تميّز الدوق دي روفيغو Le duc de Rovigo الذي كان في السابق وزيرا للشرطة ، تميز بقسوة لا نظير لها اذ أباد قبيلة من الأهالي العزّل عن بكرة أبيهم (3) . أما سانت آرنو Saint-Arnaud ، فكان يفتخر بكل وقاحة في رسائله (4) بأنه محا من الوجود عدة قرى ، وأقام في طريقه جبالا من

(1) Aug. Bernard : L'Algérie, pp. 208 et 211.

(2) Op.cit., Azan, p. 172.

(3) هي قبيلة الأوفياء في سهل متيجة ، ويبلغ عدد أفرادها حين أبيدت 12000 نسمة .

(4) Saint-Armaud : Lettres.

جثث القتلى . أما بيليسي Pèlissier ، فقد أحرق جماعات من البدو بنسائهم وأطفالهم في المغارات . وكان مونتانياك Montagnac يتبجّح بأنه سار على رأس جنوده الذين كانوا يعرفون باسم «مشاة الموت» ، فقام بمذبحة رهيبة ، حتى أصبحت الدواوير خالية من السكان . أما مصطفى بن اسماعيل فكان حينذاك يتباهى برتبة جنرال ويطعن اخوانه بالضربة القاضية ، كما أن الأغنياء من أفراد المشور في تلمسان كانوا مستبشرين بانتصارات لاموريسيير Lamoricière وبيجو . وصار الانتهازيون من المخزن القديم ، الذين أغدقت عليهم فرنسا الأموال والألقاب ، صاروا يفكرون في الدور الكبير ، أو بالأحرى في الدور الوضيع الذي سيقومون به حين يستتب الأمن في الجزائر التي أصبحت خرابا ، وخيم عليها الحزن . وقد أدرك الامبرياليون الفرنسيون من سيصبح لهم حليفا وعميلا من الأهالي ، فعمدوا ــ لكي يحطموا وحدة الصف ، ولكي يناهضوا مشروع الأمير الرامي الى بث الروح الديمقراطية بين الاطارات (1) ــ عمدوا منذ السنوات الأولى من الاحتلال ، الى إنشاء مخزن جديد ، وتشجيع طبقة جديدة من ذوي الامتيازات ، ومن الاقطاعيين المسخّرين لخدمة أغراضهم . وقد رضيت بذلك نفوس العملاء لأن فرنسا تحميهم من انتقام الشعب ، وتساندهم في قمع حركة التحرر التي يقوم بها الفلاحون . وفي هذا المجال يقول أوغسطين برنار : «ان العمل الأساسي

---

(1) قد يكون من المفيد أن نورد هنا رأي الدوق دورليان Duc d'Orléans وكان معاصرا للأمير عبد القادر ، وخصصا له : «انه (أي الأمير) قد استبدل الادارة التي كانت بيد المخزن ، وقضى على الخلافات التي كانت تنشب بين القبائل ، وأقام العدل والاخاء بين الناس وبفضلهما ازدهر العالم الاسلامي في عهد من العهود . وقد استطاع هذا الرجل الفذّ بموهبته وعبقريته أن يجد في الحين حلا لمشكلة أعيى حلّها الدول الحديثة ، رغم لجوئها أحيانا الى الثورة كحل جذري ، ونعني بذلك تحقيق التوازن بين الطبقات الغنية المحافظة على التقاليد من جهة ، وبين الكفاءات البشرية التي برزت من الشعب ، فاختارها للقيادة ومنحها ثقته » .

انظر : Duc d'Orléans : **Campagnes de l'Armée d'Afrique**, pp. 408 et 409.

الذي قام به المارشال فالي Valée هو تنظيم اقليم قسنطينة، فطبق فيه أساليب السياسة الخاصة بمعاملة الأهالي ، تلك السياسة التي أصبحت فيما بعد تطبق على مستوى القطر الجزائري بأكمله . وقوام هذه السياسة هو اسناد ادارة البلاد الى الأعيان من الأهالي ، تحت اشراف القائد الأعلى للاقليم ، وذلك أن فرنسا لم تكن تريد أن تحكم البلاد حكما مباشرا . ان **المارشال فالي ، اذ قسّم السلطة ووزعها على عدة رؤساء ، انما كان يريد أن يتجنب الغلطة التي ارتكبت في المنطقة الغربية من البلاد ، بتوقيع معاهدة تفنة التي زادت الى حد كبير من نفوذ الأمير عبد القادر** . ان قرارات 30 سبتمبر 1838 التي تركت أثرا عميقا في تاريخ الجزائر ، وكانت بمثابة نقطة الانطلاق لعلاقاتنا مع العائلات الكبرى في اقليم قسنطينة ، هي التي ركّزت دعائم ذلك التنظيم . وكان عدد هؤلاء الأعيان خمسة ، وهم : ابن عيسى ، وحملاوي ، وعلي بن با أحمد ، ومقراني ، وفرحات بن سعيد الذي حل محله بوعزيز بن قانة في 1840 . ولم يكونوا موظفين بأتم معنى الكلمة ، والأصح أن نسميهم عملاء . وكان لهم حرس خاص ، ومن مهامهم جباية الضرائب ، وتعيين شيوخ القبائل (1) .»

أما المؤرخ لويس رين Louis Rinn ، فقد حدّد بكل وضوح نوع الخدمات التي أدتها العائلات الكبرى للغزاة الامبرياليين ، تلك العائلات التي ضمن لها القرار الصادر في سبتمبر 1838 كامل الامتيازات في ولاية قسنطينة ، لأن مصالحها السياسية والمادية منسجمة معهم . يقول رين : «لم نكن في حاجة لا الى رجال الادارة ، ولا الى موظفين ، بل كنا في حاجة الى حلفاء من ذوي الجاه والسلطان ، أي الى قوم يمكن — بما لهم من شخصية ومن حسب ونسب — أن يكونوا خير رسل لنا لدى

(1) Augustin Bernard : **L'Algérie**, pp. 198-199.

الأهالي الذين استطاع الأمير أن يؤثر فيهم باسم الاسلام . وقد يكون من السخف بمكان أن نتوقع من هؤلاء الحلفاء الذين لم نكن نحلم بهم — اذ عرضوا علينا فتح مناطق لم نكن نعرفها ، ولم تطأها أقدامنا من قبل — قد يكون من السخف أن نتوقع منهم شيئا آخر غير الدعم السياسي والعسكري . وكذلك كان الأمر (1) .»

## موقف موحد بين الاقطاعية والبرجوازية

وهكذا ، فبعد أن تمّ الاحتلال ، وتركزت دعائم الاستعمار ، لم يبق بعد الكارثة سوى فئة قليلة من الشعب ظلت على قيد الحياة ، بعدما أبيد نصف السكان . وهذا الشعب يتألف من الفلاحين الذين أفقرتهم الحرب والغرامات الباهظة المفروضة عليهم ، عقابا لهم على مقاومتهم ... وبقي بعد الكارثة أيضا ، الاقطاعيون الذين لم تمس أموالهم ، وظلوا اما على الحياد ، أو انحازوا للمعمّرين ، بل صاروا يتقاسمون مع الملاك الأوربيين ، الأراضي التي انتزعت من الفلاحين .

وقد اهتزت الجزائر للثورة الشعبية الكبرى التي اندلعت في 1871 ، بتدبير محكم من عزيز بن الحداد ، وطريقة الرحمانية ، وتحت قيادة الحاج محمد المقراني وأخيه بومزراق ، تلك الثورة التي أججتها الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتردّية (مجاعة 1868 التي ذهب ضحيتها أكثر من

(1) مما تجدر الاشارة اليه — بخصوص القياد — ما جاء في رسالة وجهها عزيز ، وهو أحد زعماء الثورة ، الى الكولونيل بونفالي Bonvalet ، بتاريخ 14 مايو 1871 ، وهي تعبر عن رأي الأهالي فيهم : «لقد أصبح المسلمون في أسوء حال ، بعدما سلّمت اليهم الحكومة القيادة والاشراف على شؤون القبائل والعشائر . وهم يعاملون الناس بدون شفقة ولا رحمة . ومن أجل هذا قمنا للجهاد ، من غير أن نستعد للحرب من حيث المال والعتاد ...» وكان هؤلاء القياد يمثلون أبشع أنواع الاقطاعية الادارية والزراعية .

خمسمائة ألف نسمة) ، وزادها لهيبا التهديد بانتزاع الأراضي من الأهالي ، لكي توزّع على الفرنسيين القادمين من الألزاس واللورين ... ويومئذ استيقظ الوعي الوطني ، وانتفض الشعب انتفاضة جديدة بالشعوب المضطهدة المهددة في حياتها وأراضيها ، وأعطى الدليل القاطع على أن هذا الوعي متغلغل في النفوس ، وخاصة نفوس الفلاحين . ان هذا الوعي لا علاقة له بالإديولوجيات المعروفة لأنه وليد الشعور بالخطر الذي يهدد مصير الأمة ، وهو في الحقيقة يحتاج الى مزيد من الدراسة . ونحن نعتقد أن الفلاحين وحدهم ، هم الذين تمثّل فيهم هذا الوعي الجماعي الذي انتشر في 1871 ، بعدما انتزعت منهم الأراضي ، وأهلكتهم المجاعات ، ونالهم على يد القيّاد (*) ما نالهم من الظلم والاضطهاد (1) ، وصاروا يتخوّفون من مزيد من النهب والحيف . وكم من فرق بين موقف هؤلاء الفلاحين ، وموقف أمثال موحند السعيد بن علي الشريف أمزيان ومحمد الصغير بن قانة ، وميهوب بن شنوف ، وابن هني بن بوضياف ... فهؤلاء ما كادت الثورة تندلع حتى أعلنوا عن اخلاصهم للسلطات الفرنسية ، وعرضوا خدماتهم لمساعدة المستعمرين في سحق الثورة . ومما يدل على ذلك أن ابن قانة ومن لفّ لفّه ، قالوا في الخطاب الذي وجهوه للوالي العام ، بتاريخ 18 مارس 1871 : «بدأنا نخدم الحكومة الفرنسية منذ عهد بعيد ، وسنظل نواصل ، كما في السابق ، القيام بواجبنا ، بإخلاص تام ، ونية صافية ، ما بقيت الحكومة الفرنسية في الجزائر . **وحتى لو لم يبق لها من يمثلها في الجزائر الا شخص واحد من رعاياها ، فسوف نظل له خاضعين خضوعا تاما** . وقد علمنا أن محمدا بن أحمد المقراني تمرّد على الحكومة الفرنسية ... فمهما يكن من أمر ،

---

(*) القيّاد : جمع قائد ، وكان في عهد الاحتلال من أعوان الاستعمار (المترجم) .

سننفصل عنه منذ هذا اليوم ، وسنحاربه ، كما لو كنا فرنسيين (1) .»

واذا ثبت أن الاقطاعية قد وقفت دائما موقفا متخاذلا ، فقد يبدو غريبا بعض الشيء أن نلحق بموقفها ذاك ، موقفا آخر هو موقف البرجوازية في المدن الكبرى ، لأن الكثير منا قد لا يتوقعه ، وان كان الأمر طبيعيا بالنسبة اليهم ، ولا يقلّ خيانة عن الموقف الأول . وبالفعل ، فإن أعيان قسنطينة كانوا هم أيضا ، وعلى غرار الباشاغاوات قد أعلنوا عن اخلاصهم للوالي العام في ذلك الوقت ، مع التنديد بموقف الفلاحين المتمرّدين ، كما جاء ذلك في رسالة جماعية لهم بتاريخ 21 أبريل 1871 . كان هؤلاء البرجوازيون الذين أورد رين عبارات ولائهم «يتوسلون للوالي العام أن يميز بينهم — أي بين جماعة مثقفة ومتنوّرة تقدّر مع الشكر والامتنان حماية فرنسا وعدالتها — وبين جماعة أخرى من البدو ، أو من أفراد العشائر» . وقد وصفوا أنفسهم بأنهم «من سكان المدن المستقرين المثقّفين الميالين للهدوء والسلم والطمأنينة والهناء ... وبما أن غايتهم هي كسب الرزق ، فإنهم يمارسون المهن اليدوية والتجارة والفلاحة وجميع أنواع الصنائع . وهم يحترمون السلطة ويحبون النظام ... وكل ما يأملونه أن يعيشوا في هناء مع زوجاتهم وأولادهم ...(2) .»

ما من شك أن هؤلاء البرجوازيين أنانيون اذ يتحدثون عن الهناء والرزق واحترام السلطة والرفاهية ،بينما كان اخوانهم من أبناء الشعب يعانون الأمرّين من الاستعمار ، وبذلك رسموا لأنفسهم صورة حية عن أنانية الطبقة البرجوازية . والأدهى من هذا أنهم لم يقتصروا على ادانة الفلاحين ، بل صاروا يطالبون بتطبيق أقسى العقوبات عليهم . ومما جاء في رسالتهم للوالي العام : «ان العبرة التي يجب أن نستخلصها من هذه

(1) L. Rinn : **Histoire de l'Insurrection**, p. 184.

(2) نفس المصدر .

الأحداث ، هي أن هؤلاء البدو لن يتراجعوا عن مواقفهم التقليدية وعن عاداتهم الشنيعة الا اذا بطشت السلطات بهم بطشا شديدا لا هوادة فيه ، بطشا يلقي الرعب والفزع في قلوبهم ، ويجعلهم يخافون على حياتهم . فما من قوة تستطيع أن تنال منهم سوى البطش والعنف ... (1) .»

اننا اذ نستعرض أسماء الموقعين على عريضة قسنطينة هذه ، لا نستغرب أن نجد بينها بعض الأسماء التي اعتدنا عليها منذ 1830 ، وهي : علاوة بن ساسي ، وحمودة بن الشيخ ، ومحمد بن عزوز ، وبن وادفل ، والصغير بن كوجيك علي ... وحتى المؤلف الذي نقلنا عنه هذه الأخبار ، رغم أنه كان كثير التحامل على الفلاحين المتمرّدين ، الا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من وصف هؤلاء البرجوازيين بأنهم «جبناء وأنانيون» ومن القول بأن عريضتهم تلك للوالي العام «تدل على القساوة ، وربما كان ذلك هو السبب في أن الصحف الصادرة في قسنطينة تهجمت تهجما شديدا على المتمردين ، من غير أن تلتمس لهم أي عذر (2) .»

### اللجان الحرة أو الشرطية

على أن الشيء الذي يهمنا بالدرجة الأولى في هذا الجزء من دراستنا التي أثبتت بالدليل القاطع وجود وعي شعبي قبيل اندلاع ثورة 1871 ، هو أن كثيرا من المنظمات الشعبية في ذلك الوقت تفرعت عنها لجان حرة كانت تسمّى «الشرطية» ، وكانت منتخبة من طرف الدواوير ، ومتألفة من عشرة الى اثني عشر عضوا . وكانت هذه المجالس الشبيهة بالمجالس البلدية تتمتع بسلطة مطلقة ، وقد تكونت سرا في الأوساط الريفية ، كردّ فعل على سلطة القياد عملاء الاستعمار ، وما كانوا يقومون

(1) انظر : لويس رين : المصدر السابق ، ص 214 — 215 .
(2) نفس المصدر .

به من ظلم ومنكر . وقد تحددت مهمة هذه الشرطية في «مراقبة تصرفات القياد وفرض الغرامات ، ومصادرة أملاك العصاة والمنشقين عن رأي الجماعة ، وشراء الخيول والأسلحة والعتاد ، واعادة النظر في أحكام القاضي واللجان التأديبية» . وقد تألفت هذه الشرطية في كل أنحاء القطر تقريبا ، بل حتى في الجنوب . وقد تحدّث المؤرخ رين عن هذه اللجان الشعبية بعدما شاهدها تتكاثر في نواحي بسكرة ، فكتب يقول : «لقد قامت ، الى جانب رابطة الاقطاعيين ، رابطة أخرى أصبحت مصدر قلق لحكومتنا ، وهي رابطة الفلاحين والكادحين ، مما جعل بعض القياد والشيوخ ممن كانوا يتعاونون معنا ، يتراجعون عن تعاونهم ذاك ، ويحرّضون الناس ضدنا ، بقصد استعادة مكانتهم في قبيلتهم ، بعدما شعروا بأن هذه الشرطية تهددهم تهديدا مباشرا (1) .» ان رابطات الاقطاعيين التي أشار اليها هذا المؤرخ — وعددها على أية حال قليل — قد تشكلت على إثر قيام ثورة الحاج محمد المقراني ، وكان هو كذلك من الباشاغاوات . أما العائلات الاقطاعية الأربع أو الخمس التي استجابت لندائه ، فما كان ذلك منها الا بسبب العصبية قبل أي شيء آخر (عشيرتا أولاد مقران بلحاج ، ومجانة ، والى هاتين العشيرتين تنتمي تلك العائلات) . وقد أدرك المقراني تمام الادراك لماذا كانت القبائل والعشائر ترفض الامتثال لأوامر الرؤساء الذين عينتهم فرنسا وهم أصحاب اتجاهات لا تتفق في شيء مع تطلعات الفلاحين . غير أن العساكر الذين جنّدهم هو وأفراد عائلته كان عددهم لا يكفي لنجاح مشروعه . ولذلك اضطر على مضض فيما يبدو أن يستنجد بالشيخ الحداد وأولاده ، على أمل أن يلتف حول الشيخ الحداد جميع الفلاحين نظرا لما عرف عنه من ميول شعبية ديمقراطية ، وبذلك تصبح الحركة أوسع نطاقا . وقد سبق لنا أن

(1) لويس رين : المصدر السابق ، ص ص 91 — 92 .

رأينا بأن القياد لم ينضموا لحركة التمرد الا خوفا من الأهالي . وبلغ الحماس والتضامن والشعور بالمسؤولية الجماعية درجة جعلت العديد من شيوخ القبائل الذين عينتهم السلطات الاستعمارية ، ينحازون لحركة التمرد وينضمون اليها ، لأنهم ان لم يفعلوا ، فإن الشعب سوف يحتقرهم . وكان هؤلاء الشيوخ والرؤساء يعرفون بأن الثوار لا يثقون بهم . وبالرغم من مشاركتهم في الثورة ــ غصبا عنهم بطبيعة الحال ــ فإن ذلك لم يمنع الفلاحين من أن ينددوا بهم جهارا . وقد رأينا بعض الفقرات من رسالة عزيز ، وها نحن نستشهد بنص آخر يؤيد ما نقول ، وهو الرّد الذي بعثت به احدى القبائل المتمردة بأفرادها ورؤسائها المعينين من طرف فرنسا ، في نواحي باتنة ، جوابا على الشروط التي عرضتها السلطات العسكرية من أجل اعادة السلام : «نراكم اليوم تتحدثون عن السلام والخضوع للحكم ... فلتعلموا أننا عاهدنا الله أن نؤلف صفا واحدا مع بقية القبائل الثائرة . فإن كنتم حقا ترغبون في تحقيق السلام ، فلتعزلوا من عينتموهم قيادا علينا ، ووالله ما كنا لنثور لو لم يفعلوا المنكر في الناس (1) .»

ومن ناحية أخرى ،فقد يكون من الخطأ القول بأن الثورة اندلعت تلقائيا على اثر النداء الذي وجهه المقراني في مارس 1871 . فقد ظهرت الارهاصات الأولى لهذه الحركة الكبرى قبيل ذلك التاريخ بثمانية أشهر ، وبلغت درجة الخطورة في شهر يناير 1871 ، عندما تمرد الصبايحية(*) في كثير من جهات القطر لرفضهم الذهاب الى فرنسا ، وكذلك وقعت اضطرابات في سوق أهراس ، وتعرضت الميلية للهجوم المسلح واحتشد

---

(1) لويس رين : نفس المصدر ، ص 481 .

(*) الصبايحية : ويسميهم الشعب السبائس spahis ، وأصل الكلمة تركي ، وتعني الخيالة . وقد أنشئت فرق الصبايحية في 1834 (المترجم) .

الجزائريون الذين كانوا يعيشون في المنفى ، على الحدود التونسية الجزائرية ، وكان من بينهم شخصيات معروفة كسلمان الجلابي ، وهو آخر من بقي على قيد الحياة من زعماء المقاومة في توقرت ، وناصر بن شهرة ، الزعيم الثائر من جماعة أربعاء لغواط ، وكان منذ 1851 ، لا يني يحرّض المنطقة الشرقية من الصحراء ضد العدو الغاصب .

ولكن الشيء الذي ينبغي أن نسجّله باعتزاز ، بالنسبة للثورة ، هو ذلك الوعي الذي سبق أن تحدثنا عنه ، وكان يقوّي النفوس والهمم بين أوساط الفلاحين ، بطريقة محسوسة أحيانا ، وغير محسوسة أحيانا أخرى . ويمكن القول بأن هؤلاء الفلاحين هم الذين أجبروا بعض الرؤساء والزعماء على اتخاذ مواقف معينة . على أن الانتفاضة التي قام بها الفلاحون لم تكن نتيجة للطيش والتهوّر . وهناك عوامل متضافرة جعلت الفلاحين أولا ، وأفراد الطبقة المتوسطة ثانيا ، يشعرون بسوء حالتهم العامة في تلك البلاد التي أصبحت لقمة سائغة للمعمرين الجشعين ، وللضباط العسكريين ، والأوربيين المقيمين في المدن الكبرى ، وأصحاب الربا والاحتكار ، والاقطاعيين الظالمين ، ممن خانوا بلادهم بثمن بخس . هذه العوامل هي أولا ، التجربة العظمى التي عاشوها على مستوى الشعب بأسره ، ذلك الشعب الذي يشكلون منه خير عنصر ضحّى بكل ما لديه . ثانيا ، المشاكل الاجتماعية التي كانت تزداد سوءا على مر الأيام ، وهي مشاكل زراعية بالدرجة الأولى . ثالثا ، مصير الجزائر الذي آل بالغصب والقوة الى «لجان الدفاع» الأوربية ، والى «المواطن» فيلرموز .Vuillermoz. وهذه اللجان كانت تتلاعب بكل القوانين ، بل حتى بالقوانين التي تصدرها الحكومة الفرنسية ، وتتجاهل وجود الأهالي ، وتنازع «مكاتب شؤون الأهالي العرب»(*) في السلطة ، من أجل

(*) مكاتب شؤون الأهالي العرب : هي المكاتب التي أنشأتها السلطات الاستعمارية في الجزائر سنة 1833 (المترجم) .

استغلال الأهالي أبشع استغلال . رابعا ، دخول الاستعمار في مرحلة حاسمة ومخرّبة للبلاد ، وهي مرحلة «الاسكان والتوطين» . ولئن كان الجزائريون في 1871 قد ضعف عندهم الشعور بالانتماء الى أمة ، أو الى دولة محتاجة لمن يحمي حماها ويشيد علاها ، كما كان الأمر في عهد الأمير عبد القادر ، فقد كانوا على أية حال مدفوعين بوعي لا يخلو من الوضوح والايجابية ، وهذا الوعي اكتسبوه بالتدريج نتيجة للتحولات العنيفة والتصرفات التعسفية التي عانى منها المجتمع الجزائري من جراء الاستعمار . ومن جملة تلك التحولات ، اقصاء القدامى من قادة الشعب ، وتمركز الطبقة الكادحة في الأرياف ، ومنح اقطاعات أشبه ما تكون بالامارات لبعض من رؤساء الأهالي ، وادخال شيء من المرافق المادية الى البلاد ، وان كانت هذه المرافق بعيدة عن متناول الأغلبية من السكان ، وسيطرة الأقلية الأوربية في المجال السياسي ، وهذه الأقلية ما لبثت أن أخذت تتشدد في علاقاتها مع الوطن الأم (فرنسا) وتعبّر علانية عن رغبتها في الانفصال والاستقلال ، وعن حاجتها الى المزيد من الأراضي على حساب الجزائريين . ولعله من المفيد في هذا المجال ، أن ندرس هذه الفترة من تاريخ الجزائر ، من وجهة نظر السياسة الفرنسية المحضة .

## المعمرون والخطة الانفصالية

ان «لجنة الدفاع لمدينة الجزائر» ما كادت تتشكّل حتى وقعت في 8نوفمبر 1870 ، في نزاع مع الحكومة الفرنسية المركزية التي كانت قد اتخذت لنفسها مقرا في مدينة تور . وقد نشب هذا النزاع على إثر اغتصاب هذه اللجنة للسلطة حينما عيّنت رئيسها فيلرموز «مفوضا مدنيا فوق العادة» للجزائر ، أي حاكما عاما على البلاد ، ومستبدا بأمره . وعلى إثر هذا العمل غير الشرعي الذي كان المعمرون يتفاخرون به ، حدثت اضطرابات مؤيدة للجمهورية ، ومناهضة ـــ حسبما يدّعي

مدبروها ـــ للحزب البونابارتي . ولكنها في الواقع نتجت عن استياء شديد ، وأنانية ضيقة ، واعتقاد خاطيء بأن الاجراءات «الليبرالية» التي وعد بها نابليون الثالث الجزائريين ، سوف تكون على حساب المستوطنين الأوربيين . وقد ترك المؤرخ ج . هاس J. Hess صورة طريفة عن «وطنية» هؤلاء المعمرين ، فقال على سبيل السخرية منهم : «كانوا قد عقدوا العزم على انقاذ الوطن من هجوم بروسيا ، فتصدّوا لمجابهة الفيالق الألمانية ... في سهل متيجة !» كما أنهم «برهنوا عن شجاعتهم الخارقة ، فصبوا جام غضبهم على جنرال عجوز عيّنته فرنسا واليا عاما ، هو السيد فالسين ايسترهازي Walsin Esterhazy ، فأوسعوه ضربا حتى صرعوه» وأضاف هذا المؤرخ بصدد الحديث عن معمر يدعي بأنه «وطني» ، واسمه مارشال : «ان هذا الوطني كان مستعدا للمجازفة بحياته ، ولكن بالمشاركة في التصويت ، لا بمحاربة الألمان» ، الى أن يقول : «كان هذا هو موقف العديد من الجزائريين الأوربيين الذين كانت نسبة المتطوعين منهم في الجيش ضئيلة جدا . واذا أردت أن تعرف عدد المتطوعين بالضبط ، فلا سبيل الى ذلك ، لسبب بسيط ، وهو أن قوائم المتطوعين لم يبق منها أثر ، بل فقدت من محفوظات الادارة (الارشيف) ، لكيلا تكون شاهدا عليهم . أما عدد الناخبين فهو معروف ...(1).»

وبالفعل ، فقد كان خوض المعارك السياسية بالنسبة للمعمرين أسهل وأقل مشقة ، وكانوا يطالبون بجملة من الأمور ، منها انشاء «مجلس للنواب في الأقاليم المستعمرة (الجزائرية) ، يتعامل على قدم المساواة مع مجلس النواب في فرنسا» . وبطبيعة الحال ، «كانوا في خطتهم الانفصالية هذه ، لا يقيمون أي وزن للانسان العربي» ، لأن أرضه وحدها هي التي تهمهم . غير أنهم لم يقفوا عند هذا الحد في مشاغلهم السياسية : فقد

(1) J. Hess : La vérité sur l'Algérie, p. 294.

كانوا يتصورون أن آفاقا واسعة سوف تنفتح أمامهم باسكان الجزائر بعرق لاتيني جديد ، لا يفتأ يتزايد باستمرار ، ولن يلبث هذا الجنس اللاتيني ــ فيما يظنون ــ حتى يغمر الأهالي الذين كادت تقضي عليهم المجاعات . ان هذا «العرق الجديد» المتمتع بالسيادة ، بالرغم من أنه أقلية ، الا أنه سوف يقرّر مصيره بنفسه ... بل كذلك مصير الآخرين . ومن أجل تحقيق هذا الغرض ، فإن هؤلاء المعمرين ، بما أنهم يتصورون الوطنية تصورا غريبا ، لم يتورّعوا في 1870 ــ 1871 عن الاستنجاد بالأجنبي ، والتواطؤ مع المنظمات الأجنبية التي أعربوا لها عن استعدادهم للخضوع لها . وقد استشهد ج . هاس بالفقرة التالية التي اقتبسها من كتاب يتحدث عن أسباب ثورة 1871 ، وهذه الفقرة هي أبلغ شاهد على الجو السائد بين أوساط الأوربيين : «كان أحد أعضاء بلدية الجزائر ، (واسمه كريسبو Crispo يدل على أنه من أصل ايطالي) ، كان على اتصال بغاريبالدي Garibaldi الذي التجأ الى كابريرا . وكان جنوده المشردون في كل مكان ، يتوافدون الى الجزائر حيث كان المعمّرون يعتزمون استخدامهم للقيام بانقلاب . وقد قابل وفد من المعمرين غاريبالدي ، وطلبوا منه أن يستلم زمام الحكم في الجزائر (1) .» وهناك حجة أخرى أبلغ من الأولى ، وتدل دلالة صريحة على أن بعض المعمرين لا يقيمون أي اعتبار للمصلحة القومية . فالمهم في نظرهم أن تضمن لهم الدولة الأجنبية سائر الامتيازات ، وأن تتغاضى عن أعمالهم التعسفية . وما أشبه اليوم بالبارحة ... فسيّان موقف الذين كانوا في 1942 يزودون جيوش روميل Rommel بالمؤن والذخيرة ، وأنخرطوا في حزب هتلر النازي ، وهددوا منذ عهد ليس بالبعيد ، بالانفصال عن فرنسا والاستنجاد بأمريكا ... ما أشبه موقف هؤلاء بموقف الذين كتبوا في

(1) J. Hess : La vérité sur l'Algérie, p. 298.

جريدة «الاستقلال L'indépendant» الصادرة في قسنطينة بتاريخ 9 فبراير 1871 : «لن نرضى أبدا بهذا الشخص المنتمي لعائلة بونابارت . فالولاء لأنجلترا أفضل لدينا من الخضوع لأوامر هذا السافل الدنيء (هكذا حرفيا) . وربما سوف نفقد حينئذ اسم الجمهورية ، وسوف نصبح شكليا من رعايا الملكة ، الا أننا سوف نتمتع على كل حال باستقلالنا الذاتي ، بل سوف نتمتع بحرية ما كنا لنحلم بها في ظل الجمهورية . وسوف تعرف الجزائر حينئذ عهدا من الازدهار والتقدم ، وسوف يتطور الاستعمار تطورا منقطع النظير . ويومئذ سوف تكون ممتلكاتنا وحقوقنا مقدسة وسوف تزداد ثمرة على مر الأيام . ومن المؤكد أن روح المبادرة ، ورؤوس الأموال سوف تحوّل تلك الأراضي التي تركتها حكومتنا العربية الميول (هكذا حرفيا) للمسلمين الكسالى ، سوف تحولها الى تربة خصبة غنية بالخيرات» . ان ذنب هذه «الحكومة العربية الميول» هي أنها ، في نظرهم ، لم تقم بإبادة الجزائريين عن بكرة أبيهم ، أو تجريدهم من جميع أملاكهم لصالح المعمرين ، أو طردهم الى أقصى الجنوب . والحقيقة ، أن الحكم العسكري الذي كان بيد «مكاتب شؤون الأهالي العرب» لم يكن يرحم الجزائريين الذين عانوا الأمرين منها ومن القياد ... الا أن الادارة المدنية التي كانت يومئذ بيد المعمرين ، وبيد العنصر اللاتيني الجديد ، كانت أشد وأقسى على الجزائريين ، اذ لم يكن لها من عمل سوى اغتصاب الأراضي ، والاعتداء على حقوق الناس بالظلم والاستبداد .

## ثورة المقراني

لنعد بعد هذا الاستطراد الى حالة الجزائريين ، لنرى كيف كانوا قبيل ثورة 1871 وأثناءها ، وهو الهدف الرئيسي لدراستنا . ونلاحظ في هذا المجال أن العاطفة التي كانت تدفعهم للكفاح ، أقرب الينا في بعض جوانبها مما نتصور . وهكذا نجد أن المقراني سرعان ما أدرك أنه سيبقى

وحيدا في الميدان ، ولن يكون له أي أمل في النصر اذا هو اعتمد على العدد الضئيل من الرجال الذين استجابوا لندائه من الطبقة الاقطاعية ، تلك الطبقة التي ينتمي اليها من حيث الجاه والمنصب ، ان لم يكن من حيث الروح والاتجاه . وقد اضطر الى التغلّب على أمر ربما كرهته نفسه ، وهو التحالف مع الطبقات الشعبية ، مما جعل رفاقه الاقطاعيين يذكّرونه دائما بهذه الغلطة ، لأنه في نظرهم ، مسخ الحركة حين نزل بها الى مستوى العامة ... هذا ، مع العلم أنهم كانوا مستعدين لحمل السلاح ضد فرنسا ، ولكن لغرض في أنفسهم ، وهو المساومة . وكان أحدهم (أوقاسي) قد حاول أن يصرفه عن رأيه في التحالف مع الطبقة الشعبية ، كما أن بعض الاقطاعيين الآخرين عبّروا له علانية عن استيائهم منه ، بعدما تعهدوا بتأييده ، بشرط أن لا يشارك في الحرب الا العائلات الكبرى . غير أن المقراني لم يكن أمامه مجال للاختيار ، فقد كانت الأيام معدودة عليه ، واذا ما تراجع فإنه سيلحق بعائلته ضررا كبيرا ، وسيعرّضها للمثول أمام المحكمة العسكرية . ويضاف الى هذا أن انطلاقة الفلاحين كانت جارفة ، وما من سبيل للتحكم فيها ، وكل ما أصبح بيده ، هو أن يسايرها . ومن فضل المقراني أنه استطاع أن يدرك بثاقب فكره السياسي بأنه لابد — للقيام بحركة قومية واسعة النطاق — لابد من الاعتماد على رجال الزوايا ، لما لهم من نفوذ في الأوساط الشعبية ، كما كان الأمر في عهد الأمير عبد القادر . على أن الشيء الذي يشرّف هذا الرجل الشهم الكريم ، هو اخلاصه لأنصاره من أبناء الشعب ، وشجاعته المعنوية ، لأنه رأى لزاما على نفسه أن لا يتراجع بعدما تبيّن له أن الرعيل الأول من حلفائه الاقطاعيين قد خذلوه .

وكان من جملة ما تطرقنا اليه أيضا ، «الشرطية» ، تلك المؤسسة التي يمكن أن تعتبر من أهم مظاهر اليقظة في المجتمع الجزائري ، ومن أبرز الأدلة على وجود وعي في الوسط الفلاحي .

ومع ذلك ، فإن الوضع لم يبلغ من الخطورة في بداية الاحتلال مثلما بلغه الآن . فمنذ تلك الفترة ، أي بعد القضاء على ثورة 1871 ، قررت السلطة الفرنسية في 1872 مصادرة جميع أراضي المتمردين لفائدة الدولة والمعمرين ، (2.640.000 هكتار) . وعلى إثر ذلك صدر قانون 1873 العقاري ، كتكملة للقرار المشيخي الصادر في 1863 ، وأدت هذه الاجراءات كلها الى افقار الفلاحين ومضاعفة عدد الكادحين في الأرياف . وقد لاحظ المؤرخ أوغسطين برنار الى أي حد تأثر الفلاحون في بلادنا — على غرار الفلاحين في كل العصور وفي كل الأقطار — الى أي حد تأثروا لهذه القضية الحيوية التي هي في نظرهم أهم من القضية السياسية نفسها ، أو تتداخل معها . ونجد في كتابه تلميحا للنتائج الوخيمة التي نجمت عن تطبيق قانون 1873 ، والى الأعمال التعسفية التي قام بها المضاربون وغيرهم من المعمرين الطامعين في أراضي الجزائريين ، فكتب يقول : «بعد مضي بضع سنوات على تطبيق هذا النظام ، تبين أنه لابد من وضع حد له ، خوفا من قيام ثورة عارمة بين الفلاحين (1) .» وهكذا فإن الانتفاضة الشعبية ، وانطلاقة الطبقة المستغلة نحو التحرر ، والحركة القومية الأصيلة التي تمهد السبيل لمختلف الثورات ، تنشأ كلها عن تجربة قاسية يعيشها الشعب في صورة مأساة ، وهي — بخلاف بعض الأفكار القومية الزائفة — تنشأ لا عن وهم وخيال ، بل عن تبصر بما يخبئه المستقبل ،وتصوّر واضح لمصير الانسان ، وبالدرجة الأولى ، لمصيره كفرد من أفراد المجتمع . وقد تأسس النظام الاستعماري بالحديد والنار ، ولكن ركائزه تدعمت فيما بعد بفضل الظروف السيئة التي خلقها بنفسه ، أو خلقتها الاقطاعية الخائنة المتواطئة مع الملاك الأجانب الكبار . ثم تفاقمت الأمور والأحوال من

---

(1) Augustin Bernard : l'Algérie, p. 283.

سيء الى أسوء لصالح أقلية هجينة (لا هي فرنسية ، ولا هي عربية) ، أقلية أصبحت تقوم بدور الخصم والحكم في نفس الوقت . فالاقطاعية المحلية كانت اقطاعية مرتزقة ، متحالفة مع المعمرين على حساب الشعب . وقد أدرك الامبرياليون أن ولاء هذه الطبقة التي أوجدتها من العدم ، هو الضمانة لبقاء العهد القائم . ومن المعروف أن المدارس الفرنسية المخصصة في كل من الجزائر والمغرب للأهالي ، كانت تسمّى رسميا «مدارس أبناء الأعيان» ، وكانت هذه العبارة الأخيرة تشير الى طبقة جديدة محدودة العدد ، تتألف من الأهالي المتمتعين بالامتيازات . كان هؤلاء ينتمون ــ بحكم تحالفهم أو ولائهم أو تفانيهم في خدمة الاستعمار ، أو بحكم القرابة والانتساب للطرقية ــ ينتمون للاقطاعية الادارية أو شبه الادارية ، كالباشاغاوات ، والقياد ، والنواب ، ورؤساء الجماعة ، والمندوبين في مجلس الولاية . أما اليوم(*) ، فإننا نرى بأن المندوبين «المستقلين» ، (كما يسمون أنفسهم) الذين أصبحوا أعضاءا في المجلس الجزائري بفضل التدخل السافر من الولاية العامة ، هؤلاء المندوبون لا يختلفون في شيء عن أولئك لأنهم ينتمون الى عائلات القياد والمرابطين وأشباههم . وقد أصبح أساطين الاستعمار منذ بضع سنوات ، أي منذ أن ترك نايجلين Naegelen الولاية العامة ، أصبحوا حريصين كل الحرص على تعيينهم في المجلس الجزائري ، وبذلك أخذوا زمام المبادرة من الادارة الاستعمارية ، وان كانت هذه الأخيرة لا تقل عنهم فعالية . ولعلها مرحلة جديدة في تاريخ الاستعمار ، اذ عندما تتفق مصالح الطرفين ، فلا داعي لوجود الوسطاء .

★ ★ ★

(*) اليوم ، أي في شهر أبريل عام 1954 ، وهو تاريخ صدور هذا المقال (المترجم) .

# الفصل الثاني

## الوطنية في البوادي والأرياف

### بين الوطنية والقومية

كثر الحديث عن الحركة القومية في شمال افريقيا ، ولكن قلما وجدنا من اهتمّ بتحديد خصائصها كحركة أهلية محلية نبعت من صميم واقع البلاد . ونجمت عن تطور تاريخي وطني أصيل . فهناك ميل لدى الكثير من الناس الى اعتبارها «دخيلة» على البلاد ، وجعل الجامعة العربية أو اذاعة القاهرة مسؤولة عن نشوء الحركات القومية المغربية . والحقيقة أن هذه الحركة مختلفة في طبيعتها عن الحركات القومية التي نشأت في الشرق الأوسط ، لأنها قامت كنتيجة حتمية للمشكلة الزراعية العويصة ، وللتعايش التعسّفي بين طوائف متفاوتة في الحقوق ، وكنتيجة للسياسة القائمة على قمع كل حركة تسعى الى استرداد السيادة الوطنية . ولئن كانت الحركة القومية قد نشأت في الشرق الأوسط كردّ فعل على الامبريالية الادارية والاقتصادية ــ علما بأن هذه الامبريالية لم تكن متغلغلة في البلاد ــ فإنها ، بالنسبة الى شمال افريقيا ، قد نشأت كنتيجة لاستعمار غاشم مستديم .

ونحن هنا سوف نحاول أن نضع جنبا الى جنب الكلمات الأساسية المستعملة للاحاطة بهذه القضية ، وبذلك سوف نتوصل الى فئتين من الكلمات ، متلازمتين مثنى مثنى ، مجموعهما أربعة ، ولابد من التمييز بينها تمييزا دقيقا لفهم الموضوع الذي سوف نشرحه . فالفئة الأولى هي (الوطنية ـــ القومية patriotisme-nationalisme) . والفئة الثانية هي (الاستعمار ـــ التعمير colonialisme-colonisation) . وبالمقابلة بين هذه الكلمات يكون الحاصل لدينا هو : الوطنية ضد التعمير من جهة ... والقومية ضد الاستعمار من جهة أخرى . وقد رأينا كيف وقع الصراع بين الوطنية والتعمير ودام خمسين سنة كلها حروب فتاكة وثورات مسلحة ، أدى فشلها الى الاستيلاء على مئات الآلاف من الهكتارات ، واستقرار عدد كبير من المستوطنين الأجانب في البلاد . ان تلك الحروب والثورات التي اندلعت ما بين 1830 و 1834 ، وبلغت ذروة العنف في 1845 و 1849 و 1857 و 1864 و 1871 ، وما نجم عنها من سياسة القمع الشديد ، قد أثّرت بالدرجة الأولى على سكان البوادي والأرياف في نتائجها المباشرة (كالتخريب والتهديم) ، وغير المباشرة (نزع الملكية عن الفلاحين) . وبما أن التعمير يعتمد على ادخال العنصر الأوربي الى البلاد ، فقد عمدت السلطات الى تطبيق نظام الأحكام العرفية لدعم ذلك الاحتلال المزدوج للأراضي والمنازل ، وكانت هذه الأحكام أشد وقعا على سكان البوادي مما هي على سكان المدن .

ولعل الفلاحين كانوا أكثر تفطّنا من أهالي المدن للخطر الداهم الذي كان يهددهم بالدرجة الأولى . ولذلك عبّروا عن وطنيتهم بالمحاربة وحمل السلاح . وسلوكهم هذا لا يرجع الى غريزة المحافظة على الذات فحسب ـــ بعدما أدركوا أن أراضيهم هي المستهدفة ـــ بل يرجع كذلك الى الروح الجماعية التي امتزجت فيها الدوافع القومية والروحية

والأخلاقية . ان هذه الوطنية القائمة على الدفاع عن حياض الوطن ، كانت بدون منازع ريفية المنشأ ، ثم حلت محلها ـــ فيما بعد ـــ القومية الناشئة في المدن . وكانت لهذه القومية خصائص ميّزتها عن الوطنية ، ولعل فشلها النسبي يعود الى كونها أهملت ، أو تجاهلت العناصر والمقومات الأساسية التي اعتمدت عليها الوطنية الريفية العتيدة ، في انطلاقتها من 1830 الى 1871 .

ولكن ... لكل أجل كتاب : فهذه الوطنية الريفية انتهت من أداء دورها على أعقاب الثورة الشعبية الكبرى التي قامت في 1871 ، وتواصلت ـــ ولكن على فترات متقطعة ـــ الى غاية 1884 . وذلك أن هذه الحركة ما لبثت أن أصبحت عاجزة عن القيام بنشاطها الأساسي في الأرياف ، وهو الحرب ، وكان عجزها أكبر فيما يتصل بالنشاط الايديولوجي . وكانت أجهزة الاستعمار قد أخذت تستقر وتعزّز مواقعها بين الدواوير والقرى ، وبذلك تأتّى لها أن تتحكّم في سكان البوادي ، وأن تنزع عنهم وسائل المقاومة ، وأن تقوم بالتفرقة بين القبائل والعشائر ، وأن تخلق بينها اقطاعية محلية من أجل اخضاعها لمشيئتها . وبما أن السواد الأعظم من الجزائريين كانوا آنذاك يعيشون في البوادي ، ويتعاطون الفلاحة ، لذلـك لم يكن من الممكن الاعتماد في ميدان الكفاح على سكان المدن ، بحكم قلة عددهم ، مع العلم أنهم كانوا قبل الاحتلال خاضعين لشيوخ القبائل ، ثم تعرضوا للنفي والتشريد ، بعد احتلال البلاد ، وتخريب المدن . وهكذا ، فلم تظهر القومية في المدن الا بعد مضي خمسين سنة تقريبا . وقد نشأت هذه القومية على شكل فكرة غامضة آمن بها فريق من السكان ، صبروا وصابروا ، وعاشوا على هامش المدينة من غير أن يندمجوا فيها . وكان الفكر الايديولوجي لديهم ضعيفا ،

ولم يبلغوا في هذا المجال ما بلغه أسلافهم من سكان البوادي ، على صعيد المقاومة المسلحة .

ومن الجدير بالملاحظة أيضا أن قومية المدن هذه ، نشأت أول ما نشأت بين الفلاحين الجزائريين المغتربين في فرنسا . وهذا أمر ربما يستغربه البعض . ومن جهة أخرى ، فنحن نعرف أن الأمير خالدا بمبادرته الشجاعة استطاع أن يدق ناقوس الخطر ، وأن ينبّه الشعب الى ضرورة استئناف الكفاح السياسي وبذلك ساعد في ايقاظ الوعي الجزائري الذي آل به الأمر الى الغفلة . ولكن حركة الأمير خالد في 1921 لم تصادف لدى المثقفين وسكان المدن وأعيان البوادي ، سوى الخوف واللامبلاة ، ولم تؤثر في الطبقات الشعبية التي كانت لا تزال ترزح تحت نير القوانين التعسفية الخاصة بالأهالي . ومن ناحية أخرى ، فإن العمال الجزائريين في باريس ، وأغلبهم من أهالي البادية ، كانوا في ذلك الوقت بعيدين عن الجو الرجعي التعسفي السائد في بلادهم ، فما لبثوا ، بحكم ظروف معيشتهم القاسية نسبيا (اذا ما قورنت بظروف الفرنسيين) ، وبحكم اتصالاتهم الجديدة وتفتّحهم على ما يجري في العالم من وقائع وأحداث ، كالشيوعية في بداية عهدها ، وكفاح الطبقة الكادحة ، وانتداب فرنسا على سوريا ، وثورة كمال أتاتورك ، وثورة الريف في المغرب ... ما لبثوا أن تأثروا بهذه العوامل كلها ، فانتهجوا طريقة جديدة في العمل الوطني ، سماها البعض بالقومية ، وان كانت مخضرمة بين الوطنية والقومية في بداية أمرها . وهكذا ، فقد استأنفوا في صفوف «نجم شمال افريقيا» الكفاح الذي توقّف بعد 1871 ، ولكن في مجال آخر غير المجال الأول . وكان عملهم هذا ــ بعد نصف قرن من الركود ــ مضافا اليه انتفاضة الأمير خالد القصيرة التي تكاد تكون صورية ــ كان عملهم هذا بمثابة البادرة الضعيفة الأولى من وعي سياسي أعقب غفوة طويلة . على أن هذا الوعي

أخذ ينمو بسرعة ، ويشتد يوما بعد يوم ، رغم التهديد والوعيد . ولا غرو في ذلك : فالشعور القومي لم يخمد أبدا في ربوع الجزائر .

## ثلاثة مراحل متمايزة

وفي الواقع ، يمكن أن نقسم تاريخ الجزائر الحديث الى ثلاثة مراحل متمايزة تماما . فالمرحلة الأولى تمتد من 1830 الى 1871 ، ومن أبرز وقائعها المقاومة التي نظّمها الأمير عبد القادر ، وتأسيس الدولة الجزائرية الفتية بقيادته . بدأت هذه المقاومة على صعيد محلي جهوي ، ثم توسّع نطاقها ، وتواصلت حلقاتها بواسطة الثورات العديدة التي كانت خاتمتها ثورة المقراني الفاشلة . وكان الدافع الأساسي لمواصلة هذا الكفاح المسلّح الذي خاضه الفلاحون مدة أربعين سنة ، هو حبّهم للوطن الغالي ، وتعلّقهم بأراضيهم المهدّدة من طرف المعمرين . وتبدأ المرحلة الثانية على أعقاب ثورة 1871 الكبرى التي قامت لأسباب سياسية وزراعية ، وتنتهي هذه المرحلة في حوالي سنة 1920 ، وتتميز بالهمود التام ، ولكن من غير هوان ولا استسلام ، رغم كل ما تعرّض له الشعب من سلب ، ونهب ، وتشريد ، واضطهاد ، كل ذلك من أجل ارضاء الأقلية الأوربية التي أصبحت تأمر وتنهى في البلاد ، وتتصرف في طاقاتها البشرية والمادية ، وفي مصيرها السياسي . أما المرحلة الثالثة — وهي المرحلة المعاصرة — فتبدأ مع «المبادرة» التي قام بها الأمير خالد عندما أسمع صوت الجزائر في 1921 ، ثم دخلت المرحلة طورها الايجابي بإنشاء «نجم شمال افريقيا» في 1923 . ونظرا الى شخصية خالد ، وانتمائه الى النخبة من الطبقة البرجوازية المعتدلة في ميولها السياسية التي تزعّمها ، ما كان لها أن تكون سوى حركة تطالب ببعض الحقوق ، وتقترح اجراء شيء من الاصلاح ، بحيث تكاد لا تعدّ حركة قومية بأتم معنى الكلمة . ولعل

السر في ذلك أن الجزائر التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال ، فقدت الكثير من امكانياتها خلال الخمس والتسعين سنة المنصرمة ، بل يمكن القول بأنها كادت تبلغ الحضيض في تدهورها ، اذا ما قورنت بما كانت عليه بين 1830 و 1871 . ومنذ ذلك التاريخ الأخير أصيبت الحركة الوطنية بنكسة كبرى ، لأن البلاد آلت الى يد الاستعمار الغاشم الذي كان يزداد قسوة وشدة على مر الأيام ، وهذا ما أفقدها أهم مقومات نشاطها .

## الهدف من الاحتلال : الاستيلاء على الأراضي والثروات

لم يكن لعملية الاحتلال الشاقة التي دامت ما يقرب من أربعين سنة ، لم يكن لها من هدف في نظر الكثير من الفرنسيين سوى استملاك الأراضي والثروات الطبيعية للبلاد(1) .

أما الجزائريون ، وخاصة منهم من كان يعتمد في معيشته على الفلاحة ، فقد أدركوا الخطر الذي يهدّدهم من ذلك الاحتلال . وهكذا انصرفت جهودهم في بداية الأمر الى مقاومته في مواقعه الحساسة ، بسدّ المنافذ على المدن ، وقطع المواصلات عنها ، والاستيلاء على المواد والمؤن المرسلة اليها ، أو اتلافها . أما أهالي المدن ، فقد قاموا بدور لا يستهان به في تعزيز المقاومة والدفاع عن كيان الدولة الجزائرية ، على قدر ما سمحت به ظروفهم . ولكن أنصار الأمير ، وأعوانه ، والنخبة من الساسة والحكام الذين استعان بهم لادارة البلاد ، لم يكونوا من أهل الحضر ، بل

(1) فيما يلي ، الكلمة التي وجهها المارشال كلوزيل الى الأوربيين في الجزائر ، بمناسبة تقلّده لمنصبه كوال عام في 10أغسطس 1835 : «لكم أن تنشئوا من المزارع ما تشاءون ، ولكم أن تستولــوا عليها في المناطق التي نحتلها ، وكونوا على يقين بأننا سنحميكم بكل ما نملك من قوة ... وبالصبر والمثابرة سوف يعيش هنا شعب جديد وسوف يكبر ويزيد بأسرع مما كبر وزاد الشعب الذي عبر المحيط الأطلسي واستقر في أمريكا منذ بضعة قرون» (نقلا عن : .C. Rousset, T. II, p. 4) . ومن الجدير بالذكر أن المارشال كلوزيل قام هو بالذات بالاستيلاء على كثير من الممتلكات الواسعة ، فكان بذلك قدوة لغيره .

انطلقت الحركة من الأرياف . وكان زعماء المقاومة ، واطارات جيش عبد القادر النظامي ، وخلفاؤه الذين كانوا يقيمون في المدن المتحضّرة العريقة ، بل حتى القضاة أنفسهم ، كانوا كلهم من أهالي البادية وسكان الجبال ، ومن الأرياف بصورة عامة . ولعل السبب في ذلك أن الجزائر ــ باستثناء بعض المدن التي سيطرت فيها روح المحافظة وانصرفت للتجارة ــ قد غلبت عليها الحياة الزراعية . ويمكن القول على وجه العموم ، بأن عهد الأتراك الذي طبق نظام المخزن(*) ، كان متسلطا على المدن أكثر مما كان متسلطا على البوادي ، بينما نجد أن الاستعمار الفرنسي على العكس ، قد تسلّط على البوادي حيث صادف مقاومة أشد وأعنف . ولكن هذا الأمر لم يمنع فئة من أهالي الريف من أن تتثقف وتتكون ، وذلك ما نجده في محاضر جلسات «لجنة افريقيا» وفي تقاريرها : فقد لاحظ الجنرال فالازي Valazé في جلسة يناير 1834 أن «جميع العرب تقريبا يعرفون القراءة والكتابة . وتوجد في كل قرية مدرستان (1) . وبالاضافة الى المدرسة توجد الزاوية ، وهي مؤسسة تعليمية ريفية تماما ، وكان الشبان من أبناء الفلاحين ، زيادة على هذا التكوين المعرفي ، يمارسون الرياضة البدنية التي جعلت منهم رجالا اكتملت فيهم صفات الرجولة ، خاصة أنهم كانوا يعيشون في الهواء الطلق ، وأن حياتهم كانت تمضي في الرخاء والهناء . ولا شك أن منظر هؤلاء الرجال المتمتعين بالكمال الجسماني هو الذي أثار اعجاب الجنرال بيجو ، وغيره من القادة الفرنسيين الأشداء الذين جعلت الحرب قلوبهم قاسية . فقد صرّح الجنرال أمام مجلس النواب : «لو كان سكان الجزائر

---

(*) المخزن : في الأصل ، مكان لخزن البضائع والمؤن . ثم صارت هذه الكلمة تطلق للدلالة على القوة التي يستعملها الداي لفرض سلطانه ، وتتألف من الميليشيا التركية ومن بعض أفراد قبائل العرب والبربر (المترجم) .

(1) A. Guibert : **Colonisation du Nord de l'Afrique**, p. 144.

قوما آخرين غير العرب ، أو كانوا يشبهون شعوب الهند المخنّثة لما أوصيت أبدا بصرف الأموال الطائلة في سبيل تعمير البلاد بالعساكر والجنود . ولكن وجود هذه الأمة القوية العتيدة المستعدة كامل الاستعداد للحرب ، والمتفوّقة على العناصر الأوربية التي كنا ننوي ادخالها الى البلاد ، كل ذلك يحتّم علينا أن نختار العناصر القوية من الأوربيين لتوطينهم أمام أولئك العرب ، وجنبا الى جنب معهم ، وبين ظهرانيهم» ، ومن هذا القبيل أيضا ما كتبه القائد ويستي Westée في 1842 : «انه شعب عريق ، ولابد لمن شاء أن يتعامل معه أن يكون على دراية بنفسيته» ثم أعطى مثالا عما أسماه «رباطة جأش» ذلك الشعب ، بإثنين من الجزائريين اتّهما بقتل عرّيف تركي منخرط في الجيش الفرنسي ، فجيء بهما أمام جلّاد باي مستغانم ، الذي كلّف بقطع يديهما . ووصف القائد ويستي ذلك المشهد الرهيب بقوله : «قام الجلّاد بشدّ الأوردة فوق المعصم بواسطة حبل ، ثم أخذ في خلع المعصم عن المفصل ببطء ، وأخيرا قطع يد المتهم ورماها على وجهه . وقد رأيت ذلك رأي العين يا سيادة الجنرال ، فما ظهرت على وجههما أية علامة تدل على الألم ، بل كانا هادئين . ثم التقط كل منهما يده ، وراح في حال سبيله وهو يتبادل أطراف الحديث مع الناس» . واستخلص الضابط من هذا أن «أمثال هؤلاء القوم قادرون على القيام بالعجائب (1) .»

ومن أجل قهر هذه القوة الجبارة ، عمدت السلطات الى اضعافها تحت وطأة الكثرة الكاثرة من الأجانب ، بمساعدة الجيش ، كما عمدت الى نزع الأراضي من الشعب وافقاره لصالح الوافدين الجدد . ومما يؤكد هذا الرأي ، شهادة العديد من المشاركين في الغزو الاستعماري ، أو المعاصرين له . فقد كتب نائب المعتمد العسكري مالارمي

(1) **Campagnes d'Afrique (1835-1848), p. 263.**

Mallarmé[^] ، بصدد الحديث عن قبيلة كبرى من مقاطعة قسنطينة كانت قد تعرضت لحملة تأديبية : «لقد أخضعنا لسلطتنا أولاد يحي وتركناهم في حالة من الفقر بعدما جردناهم من أرزاقهم ، وهي خير وسيلة للاطمئنان في المستقبل (1) . أما بوجولا الذي لم يكن من العسكريين ــ وان كان أسلوبه في الرحلات التي كتبها موسوما بأسلوب الملاحم ــ فقد لاحظ بأن «الدولة تعمل دوما من أجل الاستيلاء على أراضي القبائل الخاضعة لسلطتنا ، وهذا ما حصل بالنسبة الى الكثير منها . أما القبائل الأخرى ، فإنها أصبحت تخشى من أن تطرد من الحقول التي تقوم بحراثتها ، والتي تضم رفاة الأجداد» . ثم أضاف ، بعد عشر صفحات ، مفنّدا رأي من يقول بطرد العرب ، لأن ذلك في اعتقاده «يتطلب بذل جهود جبارة واستعمال قوة غاشمة (2) ،» فاقترح بأن : «نعيش مع العرب ، جنبا الى جنب ، وأن نضيّق عليهم الخناق ، وأن ننتزع منهم أراضيهم ، كلها أو بعضها» . ومن هنا ندرك كيف كان الاستعمار يتوسع تدريجيا . وهو المنهج الذي سار عليه خلال قرن من الزمان .

## أساليب وحشية رهيبة

غير أن الغالبية العظمى من الجزائريين ما كانوا ليرضوا بأن يضيق عليهم أحد الخناق في بلادهم ، وأن ينتزع منهم أراضيهم . وهكذا ، ففي الجهات التي تعرضت أكثر من غيرها للأعمال التعسفية اعتصم الفلاحون بالجبال . ولكن الأمر لم يكن كذلك في بقية الجهات ، وخاصة في مقاطعتي الجزائر ووهران ، رغم أعمال الهدم والتخريب التي تعرض لها السكان . ومما سجّله القبطان دي ومبفن de Wimpfen في مراسلاته العسكرية : «قضينا أربعا وستين يوما كنا خلالها نجوب نواحي الأصنام . واستطعنا أن ندمّر وأن نخضع جميع القبائل الثائرة . ولكن بدا

(1) Campagnes d'Afrique, p. 417.
(2) Poujoulat : Voyage en Algérie, p. 319.

لي ممارأيت أنها لا تطيع أوامرنا الا بالقوة ... اذ ما كادت طوابيرنا تبتعد عن ميدان المعركة ، بعد أن أتلفت الحصاد ، وقطعت الآلاف من الأشجار ، وأحرقت الدواوير ، وفتكت بالعرب ، ما كادت تبتعد حتى استجمع العدو قوته ، فأباد مفررة من جيشنا بقيت متخلّفة في نواحي الأصنام ، وقتل أحد المتعاونين معنا من الأهالي (1) .» ويمضي نفس هذا الضابط قائلا : «مررت ثانية بالدواوير التي أحرقناها ، فما وجدت فيها أية محاولة تبذل لبناء ما هدمناه» . وهكذا يتبين لنا أن الفرنسيين لا يتم لهم فتح منطقة حتى يضطروا لاعادة فتحها من جديد ، مما دعا الكولونيل دومونتي Dumontet لأن يقول : «لست متفائلا بمستقبل هذه المستعمرة التي أردنا أن ننشئها على مثل هذه الأسس ، هذه المستعمرة التي لابد من اعادة احتلالها كل ثلاث سنوات (2) .»

وبطبيعة الحال ، فإن هذه المقاومة الباسلة دفعت المستعمرين الى القيام بقمع شديد ، حتى أن أكثر الضباط قسوة ، كالكولونيل كانروبير ، كانوا يشعرون بتأنيب الضمير أمام المناكر التي ارتكبها جنود الغزو الاستعماري في عمليات السلب والنهب المدروسة : «لا يسعني كمشارك أو كمتفرج مجبر في العديد من هذه المآسي — لا يسعني الا أن أعترف بالأضرار الفادحة التي تلحقها هذه الأعمال الوحشية الرهيبة . ولكم تألمت للانحطاط الذي آل اليه الجندي حين يقوم بالذبح والسلب والنهب ، وهتك الأعراض ، وحين يقاتل من أجل مصلحته الخاصّة ، وذلك بحضور الضباط الذين لا يستطيعون في أغلب الأحيان أن يمنعوه (3) .» على أن بعض الضباط لم يتأثروا أبدا لتلك المناظر الرهيبة ، ومن هؤلاء الكولونيل فوري Forey الذي سجّل ما يلي في تقاريره : «لم أر

(1) **Campagnes d'Afrique**, p. 417.

(2) Dumontet : **Campagnes**, p. 442.

(3) Canrobert : **Campagnes**, p. 413.

في حياتي ، ولم يخطر ببالي أن أرى ما رأيته من تجمعات سكانية في جبال بني بوعيش ، وبني بومالك . ان بيوت السكان هنا ليست أكواخا متناثرة ومتباعدة عن بعضها ، بل هي عبارة عن قرى أشبه ما تكون بقرانا في فرنسا : فهي مرتبة أحسن ترتيب ، وكلها محاطة بحدائق وحقول مترامية الأطراف من أشجار الزيتون ... وقد اندهشنا كلنا أمام تلك المناظر الطبيعية الخلابة ، الا أن الأوامر كانت صارمة . وأحسبني أدّيت مهمتي على أكمل وجه ، اذ أننا دمرنا تدميرا كاملا جميع القرى والأشجار والحقول . والخسائر التي ألحقها طابورنا بأولئك السكان لاتقدّر . واذا تساءل البعض : هل كان عملنا خيرا أو شرا ؟ فإني أجيبهم بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لاخضاع السكان وحملهم على الرحيل ... (1) .»
وكثيرا ما كانت عمليات تجويع السكان من طرف بعض الضباط توصف بأنها «بطولات عسكرية رائعة» . والشاهد ما كتبه الضابط السابق الذكر فوري : «ان محاصرة ذروة الجبل الذي أهلكنا فيه عددا كبيرا من السكان بالجوع والعطش لتعدّ من البطولات العسكرية الرائعة (2) .»
ولكن الجزائريين ظلوا رغم البؤس والشقاء يحاربون ، ما بقي في يدهم سلاح ، وما بقي فيهم ساكن يتحرك ، لأنهم جميعا ـــ سواء كانوا «أصدقاء» فرنسا أو أعداءها ـــ مهددون بخطر واحد ، وهو تجريدهم من أموالهم . وفي هذا الصدد يقول كانروبير : «لقد سرنا في طول البلاد وعرضها لكي نقوم بإحراق ونهب وتخريب ممتلكات القبائل الساكنة في ما بين البليدة ونهر الشلف ونواحي شرشال . ورغم أننا استطعنا أن نلقي الرعب في قلوب السكان ، الا أننا لا نزال أبعد ما نكون من بلوغ الهدف الرئيسي ، وهو اخماد الفتن والقضاء على الثورات (3).»

---

(1) **Campagnes**, p. 310-311 et suivantes.

(2) **Campagnes**, p. 310-311 et suivantes.

(3) **Campagnes**, p. 271.

## مقاومة لا تقهر

وهكذا فقد تبيّن أن المقاومة لا يمكن أن تقهر : فالثورات تتعاقب ، والأهالي لا يخضعون للقوة عن طواعية . ما العمل اذن لمعالجة الموقف ، بعدما تمكنت السلطات من بسط نفوذها في البلاد ؟ وكيف يمكن للمعمرين تأمين الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم؟ ذلك ما يجيب عنه لاموريسيير Lamoricière بقوله : «من أجل تحقيق هذا الهدف ، لابد من الاستعانة بالمعمرين الأوربيين ، وذلك أننا لا نستطيع على أية حال أن نثق ثقة تامة بالأهالي . فهؤلاء سيغتنمون أول فرصة ليثوروا ضدنا . فإخضاع العرب لسلطتنا ان هو الا مرحلة انتقالية ضرورية بين حرب الاحتلال ، والفتح الحقيقي . والشيء الوحيد الذي يجعلنا نأمل أن نتمكّن ذات يوم من تثبيت أقدامنا في الجزائر هو اسكان هذه البلاد بمعمرين مسيحيين يتعاطون الزراعة» . الى أن قال بلهجة صارمة : «ينبغي أن نبذل جميع المساعي لترغيب أكبر عدد ممكن من المعمرين في المجيء فورا الى الجزائر ، وتشجيعهم على البقاء فيها باقطاعهم الأراضي فور وصولهم (1) .»

ولنلاحظ بأنه كان يوجد في الجزائر حينما كتب لاموريسيير هذه الرسالة ، ما لا يقل عن مائة ألف معمّر (وهذا باعتراف منه)(1 مكرر) . وقبل كتابته هذه الرسالة بشهر واحد فقط ، صرّح القائد العسكري مارتنبري (الذي صار واليا عاما) صرّح بلهجة لا تقل صرامة عن الأولى : «يمكن أن يستتب الهدوء وأن يدوم بعض الوقت ، باستنزاف الأهالي وإفقارهم . ولكن ذلك وحده لا يكفي ، بل لابد من ادخال عناصر جديدة من السكان ، واخضاع الأهالي للوافدين الجدد ، وبذلك يمكن تحقيق السيطرة الكاملة على المناطق المحتلة . وبعبارة

(1) Lamoricière : Campagnes d'Afrique, p. 460.

(1 مكرر) المقصود عنده بكلمة «معمّر» كل من أتى الى الجزائر ناويا الاستيطان ، والمدنيون الأوربيون على العموم .

مختصرة ، فهذا يتحقق عن طريق الاستيطان (1) .» ولا شك أن القارىء لاحظ العناصر التي ترتكز عليها سياسة القادة الفرنسيين ، وهي : التجويع ، والمجاعة ، والشقاء ، وهي عبارات تتردد على ألسنتهم كأنها هدف محدد ، أو برنامج مدروس ، أو طريقة ناجعة لاخضاع السكان .

ان الوطنية كانت راسخة في البوادي والأرياف قبل حلول الامبريالية وبعد حلولها . وقد كتب أميل دوكافينياك Emile de Cavaignac في معرض الحديث عن حب الجزائري للأرض : «لعله من المهم أن نقدر تقديرا صحيحا الحالة التي آل اليها العرب من جرّاء الحرب . فالعربي حريص كل الحرص على أرضه أكثر مما نتصور ، والملكية الزراعية عند العرب قائمة على أسس ثابتة ، خلافا لما يعتقده البعض ، وما أحوجنا الى أن نستفيد منهم في هذا المجال ... ولهذا ، فمن الخطأ الاعتقاد بأن العرب — نظرا الى قلة عددهم في تلك الأراضي المترامية الأطراف — لا يتحسّرون على الأراضي التي نطردهم منها ، لأنهم يرحلون عنها ويعوّضون عنها باحتلال أراض أخرى ليس لها مالك . والحقيقة أن الغارات العسكرية التي نشنها عليهم تصيبهم في أعز ما يملكون ، وهو الأرض ... (2) .» ويضاف الى هذا أن الملكية كانت مشاعة لدى الأغلبية العظمى من الجزائريين . وكانت أراضي «العرش» أو الشمل أساس هذه الملكية المتوارثة التي قوامها عدم تقسيم مناطق شاسعة من الأرض ، واستثمارها من طرف فئة أو عدة فئات من السكان . ونحن نعتقد بأن هذه الروح الجماعية التي تربط بين الفلاحين دفعتهم الى أن يحاربوا من أجل الأرض ، ومن أجل التراب الوطني ، بل من أجل البلاد بأسرها ، لأنها ملك مشترك للجميع . والتاريخ يروي لنا كيف بادر هؤلاء

(1) Campagnes, p. 448.

(2) E. de Cavaignac, in : A. Guilbert, op.cit., p. 442.

الفلاحون لاغاثة المدن ، أو لسد المنافذ المؤدية اليها ، أو لمحاربة الخونة والمتقاعسين عن أداء الواجب بين سكانها . ويروي التاريخ بأن الفلاحين في سهل متيجة زحفوا على مدينة الجزائر ، فاستطاعوا بعملياتهم الفدائية وبالكمائن التي ينصبونها للعدو ، أن يعرقلوا المواصلات في ضواحي مدينة الجزائر (1) . وقد أشاد الدوق دورليان الذي عرف بالنزاهة في الحكم ، أشاد بوطنية هؤلاء المناضلين فقال : «ان هؤلاء المناضلين الشجعان ألحقوا الفرنسيين من الأضرار ما لم تستطع قوات العدو الأخرى أن تلحقه بنا . وهم بذلك يشبهون الكوزاك (الجيش الروسي غير النظامي) : فقد كان نصيبهم في تحطيم الجيش الامبراطوري الفرنسي أكثر من نصيب كل الجيوش النظامية الأخرى ... وعلى سبيل المثال فإن الفلاحين في ناحية حجوط حرمونا من النوم ، لأنهم أجبرونا على أن نظل دائما في حالة استنفار ... ولكن وفاة فارس واحد من بني حجوط ، وهو الشاعر بوثلجة الذي لقي مصرعه في احدى المعارك ، كانت خسارة كبرى بالنسبة اليهم . فقد كان بوثلجة ــ بتجاوبه مع ذلك الشعب الثائر الذي يستمد عزيمته من تضحيات أبنائه ــ كان بوثلجة أصدق تعبيرا من جميع الشعراء ، لأنه كان أكثر منهم إيمانا . وقد عبّر في قصائده الرائعة عن الألم الذي يحز في نفسه ، وعن الوطنية التي آمن بها ايمانا صادقا ، ولذلك فإن الشبيبة العربية صارت تتناقل أشعاره . وقد كان هذا الشاعر في الرعيل الأول من المتطوعين من بني حجوط ، الى أن لقي مصرعه ، جنديا بسيطا ، مثل كورنير Kœrner ، على يد أحد

(1) ان الجنرال شانغارنيي الذي حارب البعض من هؤلاء ، كتب يقول بعد ان وصفهم بكونهم من «السكان المتمردين على الحكم الأجنبي» بأنهم «وطنيون شجعان» : «ان بني حجوط استطاعوا أن يجندوا طيلة سنوات جيشا يتراوح ما بين 1000 و 1800 من الفرسان الشجعان الذين قاموا بأعمال يمكن أن يفتخر بها أشهر الفرسان في أوربا ...»

انظر : Changarnier : Mémoires, p. 229.

الفرنسيين . وهكذا مات كل منهما وهو يحارب من أجل وطن كان يتمنى أن يراه عزيزا منيعا . ولكن هذا الحلم لم يتحقّق ، فمات ، وهو لا يزال على حاله من البؤس والشقاء(1).»

وقد برهنت هذه الوطنية في مناسبات كثيرة عن بعد نظرها ، اذا صح التعبير . فمدينة عنابة التي كان الأتراك قد سلموها بدون قتال ، سدّت عليها المنافذ مدة طويلة من طرف الفلاحين . وقد شارك سكان مدينة بجاية ، رغم بعد المسافة ، في الدفاع عن مدينة دلس الساحلية الواقعة في منطقة القبائل ، عندما هاجمها المارشال بيجو سنة 1844 للاستيلاء عليها . الا أن أروع الأمثلة عن هذا العمل الفدائي الذي جعل المناضلين يهبّون للدفاع عن اخوانهم رغم بعد المسافة ، ان أروع الأمثلة عن ذلك نجدها عند الزعاطشة ، وايشرّيضن . فالزعاطشة واحة صغيرة تقع في نواحي بسكرة ، وكانت في 1849 ملتقى تجتمع فيه القبائل من جنوب الأوراس والهضاب العليا . وكان الهدف من هذه التجمعات هو بذل المستطاع ، وتكتيل الجهود ضد الجيش الفرنسي الذي كان آنذاك قد تخلّص من مقاومة الأمير عبد القادر . وقد صمدت هذه الواحة عدة شهور أمام سائر الهجومات ، الى أن دمّرت عن آخرها . ولم تشارك بعض الطوابير الفرنسية في محاصرة الزعاطشة ، لأن المهمة المحددة لها اقتصرت على صدّ الامدادات بالأسلحة والمؤن ، وكانت هذه الامدادات تأتيها أحيانا من مناطق نائية ، في تلك الفترة التي توقف فيها كفاح الأمير عبد القادر المنظم ، وحلت محله المعارك التي يخوضها المناضلون . أما ايشرّيضن ، فإنه سيبقى على مدى التاريخ مكانا مشهودا في سجل المقاومة الجزائرية في منطقة القبائل . وكان هو أيضا من الأماكن التي يلتقي فيه سكان الجبال ، لتكتيل صفوفهم ، وخوض المعارك الأخيرة

(1) Duc d'Orléans : **Campagnes de l'Armée d'Afrique.**

دفاعا عن الاستقلال . ويقول المؤرخ روسي Rousset بأن معركة ايشرّيضن ذكرته بحصار أليزيا Alésia . ثم يقول : «ان البقية الباقية من حامية الدفاع شيدت هناك ، على قمة ايشرّيضن ، وفي مكان يطل على سوق الأربعاء ، شيدت هناك تمثال الاستقلال ، مقابل تمثال الاحتلال (1) .»

وكانت لهذه الحركة الوطنية نفس الخصائص المميزة لجميع حركات المقاومة المعروفة في العالم ، وخاصة منها الحركات التي نشأت خلال الحرب العالمية الثانية ، ومن بين تلك الخصائص ، اعدام الخونة ، والتخريب ، والارهاب . وقد عثرنا في مراسلات بعض الضباط الفرنسيين على عبارات تنذر بسوء العاقبة . فهذا كانروبير يقول : « قام بومعزة (وهو زعيم رجال المقاومة) قام بإعدام أحد الأغاوات وثلاثة من القيّاد الموالين لفرنسا» . الى أن يقول : «ان هذه الطريقة في معاقبة الرؤساء العرب المعيّنين من طرف السلطات الفرنسية ، والتنكيل بهم جزاء خدمتهم لقضيتنا ، سوف تلحق أضرارا فادحة بمصالحنا ، فيما لو اتسع نطاقها (2).»

ومن بين أعمال الارهاب التي سجلها الجنرال دومارتنبري De Martimprey خلال ثمانية أيام من فصل الخريف عام 1845 ، في مختلف المناطق الريفية من ولاية وهران ، من بين تلك الأعمال : قتل قائد عسكري برتبة كومندان ، ومسؤول فرنسي لمكتب شؤون الأهالي والمرافقين لهما ، واعدام أحد القيّاد وبعض الأعوان من الأهالي ، ومحاولة اغتيال ضابط فرنسي ، واختطاف ضابط آخر ، وقتل المرافقين له ، وفرار خيالة المخزن في تيارت ، وتحطيم الجسور فوق النهرين (ايسر) و (تفنة) ،

---

(1) Rousset : **Histoire de l'Algérie.**

(2) Canrobert : **Campagnes d'Afrique**, p. 415.

والاستيلاء على الذخائر والمؤن لقافلة عسكرية ، واحراق أحد مستودعات جيش الاحتلال ، وهو مخزن للمواد الغذائية وعلف الدواب ، وسد المنافذ والطرق على بلدة سان دوني دوسيج . وفضلا عن هذا كله «فقد انقطعت المواصلات بين وهران ومعسكر وسيدي بلعباس (1) ،» نتيجة لهذه الأعمال الفدائية .

أما المقاومة التي نظمتها حكومة الأمير عبد القادر الفتية ، فقد كانت لها أهداف أخرى مخالفة للأهداف الأولى بعض الشيء ، ولذلك استخدمت وسائل أخرى ، واستعانت لأداء مهامها بنخبة من الرجال . وقد كتب الجنرال شانغارنيي في هذا المجال : «استعملنا مع الأمير عبد القادر نفس الخطط العسكرية التي استعملناها في الحروب الأوربية ، وذلك طوال المدة التي كانت له فيها قوات عسكرية ، وحكومة كسائر الحكومات ، ومراكز لادخار المؤن والعتاد ، ومخازن ، وأنهار (2) .» وحينما بويع الشاب عبد القادر في الرابعة والعشرين من عمره ، فتقلّد الامارة في شهر نوفمبر من عام 1832 ، وبدأ في تنظيم شؤون البلاد ، انضمّ اليه من سائر نواحي الجزائر رجال في مثل عمره ، لا يقل البعض منهم ثقافة ووعيا سياسيا . وبمثل ذلك الوعي أصبح الأمير من ألدّ أعداء الاستعمار ، ومن أشد الناس بطشا بأعوان الاستعمار ، من الأتراك والاقطاعيين الجزائريين . وقد وضع رجال المقاومة أنفسهم رهن إشارة الأمير ، ومنهم بنو حجوط الأشداء ، وكانوا يعملون في مكان يبعد عن عاصمة الأمير الجديدة بما يزيد على أربعمائة كيلو متر . وحتى ابن زعموم ، الذي كان له نفوذ كبير في منطقة واسعة من جبال جرجرة ، فقد بايع الأمير ، ولكنه لم يقبل — لتواضع في نفسه — أن يكون

(1) C. Rousset : **La conquête de l'Algérie,** tome II, p. 68-69.

(2) Changarnier : **Mémoires,** p. 316.

خليفته . وبناء على توصية منه ، قام الأمير باختيار رجل يعدّ من أحسن مساعديه ، وهو ابن سالم . وقد كان هذا الشاب الذكي الذي تولى خليفة للأمير في منطقة سباعو بالقبائل ، كان «يتمتع بنفوذ كبير بين جميع السكان في القسم الشرقي من ولاية الجزائر(1).»

**بعض الأعوان والخونة**

ظل الفرنسيون مدة طويلة من الزمان ، يبحثون — ولكن بدون جدوى — عن رجال من ذوي الكفاءة يتخذونهم بين الشعب أعوانا.ويقول المؤرخ روسي : «كان من الصعوبة بمكان اختيار من يليق ، بين الأعيان الكبار ، لأن الأمير عبد القادر كان أدرى الناس بأقدار الرجال ، فاختار من بينهم النخبة ، ولم يترك لنا سوى الأوباش (2) .» ونرى لزاما على أنفسنا — اقرارا للحقيقة — أن نضيف بأن الاختيار كان يتم تلقائيا في أغلب الأحيان : فالوطنيون ينضمون الى أحد الصفين ، والجبناء والخونة الى الصف الآخر . وقد عرفت الجزائر ، باعتراف المؤرخين ، عهدا تعاونت فيه الحثالة من الشعب مع الاستعمار ، بينما كانت الأغلبية العظمى منه معتصمة بالجبال ، أو منخرطة في جيش الأمير . وبالفعل ، فقد كان هؤلاء المتعاونون من الحثالة ، الى درجة أن بعض الضباط الفرنسيين كانوا يصفونهم أوصافا تدل على الاحتقار . ومن ذلك ما وصف به الكولونيل مان Menne في معرض حديثه عن «حلفائنا الحقيرين» .

وقد كان لبروز الوطنية الجزائرية في مختلف المناسبات تأثير كبير على عقلية العملاء ، وغيرهم من أعوان الاستعمار الفرنسي . فسلوك هؤلاء كان متقلبا ، مما يدل على أنهم كانوا يشعرون بتأنيب الضمير ، وبمركب

(1) Ducrot : Correspondance, T. I, p. 170-171.

(2) C. Rousset : Op.cit., t.I, p. 284.

النقص تجاه الشعب . ونلاحظ بادىء ذي بدء أن الفرار من الوحدات العسكرية التي شكّلها الفرنسيون من الأهالي المتطوعين ، بلغ درجة جعلت الماريشال فالي Valée يطلب في شهر يناير 1838 من وزير الحرب تسريحهم من الجندية . وفي هذا المجال يقول روسي : «ان الماريشال فالي يعتقد بأن هؤلاء المتطوعين من الأهالي سوف يشكلون النواة الأولى لجيش الأمير عبد القادر النظامي . فالجنود المشاة الذين وفّرنا لهم التدريب ، وأعطيناهم العتاد والسلاح ، يفرون زرافات ووحدانا وينضمون الى كتائب العساكر التابعة للأمير . أما الفرسان منهم ، فينضمون الى سرية الخيالة (1) .»

وكان الصبائحية spahis من الأهالي ، والقوم les goums من الأعوان ، الذين عملت فرنسا ، بتواطؤ مع الاقطاعيين ، على تجنيدهم ، كانوا يتصرفون في المعارك تصرفا لم يكن ليرضي الضباط الفرنسيين . ومن ذلك أن القبطان دوكرو Ducrot لاحظ في 1846 بأن «وجود الأمير عبد القادر في المعركة كان دائما يؤثر على الخيالة من الأهالي تأثيرا لم يكن من السهل أن يتخلصوا منه . ومهما بذلنا من جهود ، فقد كان ذلك التأثير يحط من معنوياتهم وشجاعتهم ...(2) .»

ان هذا الاشمئزاز الذي لا يخلو من تأنيب الضمير ، نجده مثلا عند ذلك الجندي المنخرط في الجيش الفرنسي ، الذي ذهب الى قائده العسكري ليحتج بشدة على الأوامر التي صدرت بقطع الأشجار عن آخرها ، في منطقة متمردة . ونجده أيضا في أجلى مظاهره لدى الجنود الصبائحية الذين أمروا بإعدام أحد زعماء النضال . ولنترك الضابط مونتانياك Montagnac يصف لنا المشهد : «ان موت هذا الرجل الكبير

(1) L'Algérie, t. I.

(2) Ducrot : Correspondance, p. 155, T. I.

الشأن (واسمه سي زردود) أصاب جميع الصبائحية الحاضرين بالوجوم ، الى درجة أنني لم أجد من بينهم من رضي أن يتنازل لي عن حصانه لكي نحمل عليه جثة القتيل من أسفل الوادي ، الى أعلى سفح الجبل ، حيث كنت أنوي أن أصدر الأمر بقطع رأسه ، بمحضر جميع أفراد الكتيبة ، وأمام الصبائحية كلهم . وقد وجدت نفسي مضطرا على أن أطيح بأحدهم أرضا ، وأن آخذ منه حصانه عنوة . وكان مسترسلا في البكاء بكل بلادة . أما بالنسبة لقطع رأس القتيل ، فقد كان الأمر أصعب . وكنت حريصا على أن تنفّذ العملية من طرف الصبائحية الذين شكلنا منهم فرقة في المدة الأخيرة ، والقصد من ذلك افساد العلاقة بينهم وبين بقية السكان العرب . ولكن جميع الصبائحية العرب رفضوا أن يمتثلوا للأمر . أما الصبائحي التركي الذي قطع رأسه ، فقد هددوه بالقتل (1) .» وهكذا نرى بأن بعض هؤلاء الجنود الذين يتصرفون كالمرتزقة ، ويستبسلون في المعارك ، ويظهرون أحيانا كثيرا من آيات الاخلاص والوفاء لفرنسا ، لم يكونوا مع ذلك كله ليقبلوا عن طيبة خاطر أمرا تستنكره الأغلبية العظمى من الشعب . وهذا ما جعل الكولونيل كانروبير متذمرا : «ليس لنا بين الأهالي سوى أعداء ... وليس لنا بين العرب أصدقاء (2).»

## الوطنية : من المستوى المحلي الى المستوى القومي

تلك اذن هي بعض الجوانب من هذه الوطنية التي غلب عليها الطابع الريفي . فهي ريفية ، لأنها انطلقت من الأرض ، في نطاقها المحلي ، ثم توسعت حتى شملت أراضي البلاد كلها ، على الصعيد القومي . وكان الشغل الشاغل هو الاحتفاظ بالحقل والملكية ، وأراضي

(1) C. Rousset, Op.cit., Algérie, 1841-1857, p. 256.

(2) Canrobert : Campagnes d'Afrique.

الشمل ، وهي من الأمور التي هددها الغزو الأجنبي بالدرجة الأولى ، واستولى عليها المستوطنون . ولا شك أن الأرض في نظر الكثير من الناس ، هي قضية حياة أو موت بالنسبة للفرد والجماعة والأمة .وأكبر شاهد على ذلك ما قاله ذلك الفلاح من أولاد الرشائش في الأوراس ، بعد تطبيق قانون 1873 المشؤوم : «هزمنا من طرف الفرنسيين في سهل سبيخة فقتلوا منا الشبان ، وفرضوا علينا غرامات الحرب . ولو وقفت المسألة عند هذا الحد لهان الأمر ، ولاندمل الجرح . ولكن استحداث الملكية الفردية ، والسماح لكل فرد ببيع نصيبه من الأرض بعد تقسيمها ، معناه القضاء نهائيا على أراضي الشمل ، والحكم على القبيلة بالموت . ولذلك فلن تنقضي عشرون سنة على تطبيق هذه الاجراءات حتى ينقرض أولاد الرشائش عن آخرهم (1) .» وهكذا فقد كان التجار المضاربون ينتزعون الأراضي من القبائل ، وذلك بموجب القرار المشيخي sénatus-consulte ، وقانون 1873 ، مما جعل المؤرخ أوغسطين برنار يقول : «كان لابد من الوقوف عند حد معين ، بعد أن طبق هذا القانون عدة سنوات ، خوفا من احداث ثورة بين أوساط الفلاحين (2) .» وقال مؤرخ آخر ، وهو ريمون اينار ، متحدثا عن هذا القانون بأنه «شبيه بيوم الحساب والعقاب بالنسبة لملكية الأهالي» . وقد تحدث هذا المؤلف عن نتائج الاستيطان في الجزائر ، فقال : «وعلى العموم ، فإن العنصر الفرنسي استفاد فائدة كبرى من الجهود المبذولة في العمران . ولكن ، ماذا كان نصيب العنصر العربي من هذا العمران ؟» ثم أجاب على سؤاله : «أول ما نلاحظه أن الاستيطان ظهر أول ما ظهر باقتطاع ما يقرب من مليونين من الهكتارات ، أي خمس الأراضي الصالحة

---

(1) Pouyanne : La propriété foncière en Algérie, p. 923-924.

(2) Aug. Bernard: l'Algérie

للزراعة ، في التل ، وفي الهضاب العليا ... (1) .» ان الرقم الذي أعطاه المؤرخ اينار فيه من التحفظ ما يجعلنا نعتقد بأنه ليس صحيحا ، بل ليس محتملا . هذا ، علما بأن المؤلف أغفل ذكر الأملاك الجزائرية الأخرى ، كالغابات والأنهار والمناجم وأراضي الشمل والطرق العامة ، وهي الأملاك التي حجزتها الدولة الفرنسية وبذلك يتبين أن نسبة هذا «الاقتطاع» تتراوح ما بين 8 و 9 ملايين من الهكتارات . ومع ذلك فهو يقرّ بأن «الجزء الأكبر من الأملاك الموزعة على المستوطنين ، أصلها من الأملاك والعقارات التي حجزت وصودرت بعد كل ثورة من الثورات الكبرى» . كما يقرّ بأن الفرنسيين الغزاة «لم يجدوا بلادا خالية من السكان» وأن «الاستيطان الأوربي ، وان كان قد أفاد بعض العمال المياومين(*) ، الا أنه من جهة أخرى جعل العديد من الملاك المسلمين يشتغلون بالأجرة ، بعد انتزاع أراضيهم» ، وأن «رعايانا المستوطنين يعرفون جيدا نفسية الفاتح المنتصر ، وهذا الأمر دفع بهم الى الغرور ، وجعلهم يعتزون بالقوة المساندة لهم في البلاد التي جاءوا منها ...(2).»

وأبلغ من هذا كله ، الكلمة التي رواها هذا المؤرخ في كتابه الصادر في 1913 ، فهي تكشف عما سبقت الاشارة اليه ، من وجود «شغل شاغل» يتعلق بالأرض . فقد قال أحد المعلّمين العرب ، لدى استلامه المرسوم القاضي بتجنّسه بالجنسية الفرنسية : «متى تعاد الينا أراضينا ؟» وانه لسؤال عميق الدلالة ، ولا أعتقد أن أي حزب من الأحزاب التي تشكلت في المدن قد طرحته . ولو أن الفلاحين كانت لهم منظمة تتكلم باسمهم لطرحوه منذ 1913 . على أن سؤال هذا المعلم الريفي يفضي بنا الى تطور آخر من تطورات المشكلة . ويقول اينار بهذا

(1) R. Aynard : L'oeuvre française en Algérie, p. 288-289.

(*) المياوم : من يتقاضى أجره يوميا (المترجم) .

(2) R. Aynard : L'œuvre française en Algérie, pp. 249-250-292.

الصدد : «ان هذا السؤال سوف يردده جميع اخوانه العرب ، يوم يتحررون من ظلمات الجهل . وليس عليه من جواب سوى أن نعمل جميعا متحدين ، حتى تصبح هذه المستوطنة الفرنسية مزدهرة ، وعندئذ يمكن تسوية جميع الخلافات القائمة مع العرب(1) .»

ان هذه العبارات المزخرفة التي نجدها تتردد على لسان جميع الرسميين تذكّرنا بنفس العبارات التي نسمعها اليوم ، ولهي في نظرنا ميزة اختص بها ذلك النظام الدخيل ، بل تلك العقلية التي هي عقلية الاستعمار وأساطينه من معمّرين وغيرهم . وقد عثرنا على معلومات كثيرة ومتناقضة أحيانا ، وهي كلها مفيدة لفهم القضية الجزائرية . ومن ذلك أن المؤلف السابق أفادنا بأن صاحب السؤال معلم جزائري متجنس بالجنسية الفرنسية . وهذه نقطة هامة ، لأنها تدل على أن الاندماج «التلقائي» للنخبة المثقفة ، منذ أربعين سنة خلت لم يمنع هذه النخبة من طرح المشكلة الزراعية التي ظل الشعب الجزائري منشغلا بها منذ 1830 . ولابد أيضا من الاشارة الى أن هذا الاندماج لم يقع الا نادرا . ولعل هذا المعلم قد أدرك أن الاندماج الذي يدعو اليه الامبرياليون ليس له من هدف سوى وضع نظام يحدد الأسلوب القانوني الذي يضمن استغلال الفلاحين وافقارهم من طرف العنصر الأوربي . ومما يدل على ذلك أن الغزو الاستعماري ما كاد يبدأ حتى وجّه تجار مدينتي مرسيليا ورّوان وغيرهما ، عرائض للحكومة لمطالبتها بضمّ الأراضي الجزائرية المحتلة لفرنسا .

### هل من سبيل الى التعاون ؟

ان سياسة الاندماج ، أو على الأصح سياسة الادماج ، هي التي دفعت السلطات الاستعمارية فيما بعد الى مصادرة المناجم الجزائرية

(1) R. Aynard : L'œuvre française en Algérie, mêmes pages.

واصدار قانون الغابات ، وسنّ بعض القوانين العقارية الجائرة . ثم عمدت هذه السلطات الى الغاء «المكاتب العربية» فوضعت نظاما مدنيا في الجزائر شبيها بالنظام المطبق في فرنسا . ولكن الناس سرعان ما أدركوا بأن الأوربيين هم الذين يستفيدون من هذه العملية ، خاصة وأن السلطات ـــ لكي تبدد الشكوك حول نواياها ، ولكي تخفف من آثار ذلك التشريع الليبرالي في الجزائر ـــ عمدت بمنتهى الشدة الى وضع القانون المشؤوم الخاص بالأهالي Code de l'indigénat ، ذلك القانون الذي اعتبره بعض رجال القضاء الفرنسيين شبيها في تعسفه بالقانون المطبق في القرون الوسطى من طرف الاقطاعيين على الفلاحين العبيد . ونحن عندما استشهدنا بكلام اينار ، لم يغب عن بالنا أنه لا ينفرد بهذه الآراء ، لأن المستعمرين لا يزالون الى يومنا هذا يرددونها . ولقد قال بأن الجواب الوحيد على سؤال المعلم هو «أن نعمل جميعا متحدين حتى تصبح هذه المستوطنة الفرنسيّة مزدهرة» . الا أنه لاحظ في الصفحات السابقة من كتابه بأن «هناك شيئا يحول دون التفاهم بين العنصرين الفرنسي والجزائري ، وهو سيطرة أحدهما على الآخر» . ثم تطرّق للحديث عن مسألة «العمل متحدين» في مجال الزراعة فقال : «لا يمكن أن يقوم التعاون بين العنصرين في هذه البلاد المغلوبة الا على أساس ايجار الأرض ، أو على أساس دفع الأجور للعمال ، أي على أساس استيلاء الوافدين الجدد على جزء من الأراضي ... وهنا تتعقد المشكلة بل تصبح من المشاكل العويصة ... (1).»

لقد تحدث هذا المؤرخ عن «تحرير» الجزائريين ... ولكنه كان يعني بالتحرير ، تمكينهم من التجنّس بالجنسية الفرنسية . واذا كان «تحرير الجزائريين» كما تفهمه السلطات الفرنسية ، مترابطا مع التمتع بحقوق

(1) R. Aynard : L' œuvre française en Algérie.

المواطن ، واذا كانت «تسوية الخلافات القائمة مع العرب» بطريقة سلمية لا تتم الا بعد التجنس ، فإن كلا من هذين الأمرين خيال في خيال . والحقيقة أن الجزائريين يعتقدون بأن المنجزات مهما كانت رائعة ، ونوايا الاصلاح مهما كانت صادقة ، والتجهيزات مهما بلغت من درجة في الاتقان ، فإنها تفقد حتما فعاليتها وقيمتها ، بل لا يبقى هناك من مبرر لوجودها اذا كان المجتمع الذي ندخلها اليه محطما ومحروما من وسائل التطور والنمو . فلا يمكن تحقيق الرخاء والازدهار لشعب من الشعوب ، الا اذا توفرت الشروط الأساسية التي بها ينمي امكانياته ، ويفجر طاقاته الكامنة . وما من شك أن هذه الشروط لم تكن متوفرة بالنسبة للشعب الجزائري . فبينما نسمع الجماهير الشعبية تطالب بالأرض والحرية واللغة القومية والشخصية الجزائرية ، اذا بالسلطات الفرنسية ترد عليها : «ها نحن عبّدنا لكم الطرق وأنشأنا السدود والمستشفيات» فما من شك أنها بالفعل منجزات رائعة ، خاصة اذا كان الناس جميعا ينتفعون منها . ولكن العنصر الأساسي غير موجود في كل هذه المنجزات . ويخيّل للانسان أن الاستعمار فتح الباب للمجاعات حتى تتاح له الفرصة بين الحين والآخر لكي يوزّع الصدقات على الناس ، في جو من الدعاية الواسعة ... وفتح الباب كذلك للأمراض المتفشية في كل مجتمع يعاني من البؤس والشقاء ، لكي يتباهى بما أنشأه من مستشفيات .

فهل من الممكن أن نتصور أي شكل من أشكال التعاون بين الأغلبية المحرومة من كل شيء ، وبين الأقلية الأوربية الجشعة التي آلت اليها مقاليد الحكم ، وأصبحت تتصرف في معظم ثروات البلاد ؟ وهذا الأمر يثير مشكلة أخرى هي بدورها مرتبطة بمشكلة الأراضي المحتلة ، أي بمشكلة توطين الأوربيين في الجزائر . انها ظاهرة أصبحنا منذ بضع سنوات نلاحظها في كل من آسيا وافريقيا الشمالية ، عندما أخذت الشعوب في

هذه المناطق تطالب بسيادتها أو باستقلالها الداخلي ، أو بالحقوق الأساسية التي تطمح اليها . وهكذا تحوّل هذا التوطين الى سلاح شبيه بحصان طروادة ، فاتخذت السلطات وجود الأوربيين ذريعة لتطبيق سياسة الأمر الواقع ، ومقاومة أي حل يستجيب للمطامح القومية ، وحرمان الأهالي من كل شيء من أشكال الاستقلال المشروع ، حتى ولو كان صوريا . ولذلك أصبحت جميع الأمور معلقة على هؤلاء المستوطنين الأجانب الذين لهم في أغلب الأحيان وطنان ، أو ثلاثة أوطان ، كالايطاليين والمالطيين المستوطنين في تونس : فهؤلاء تذرعوا بأصلهم الايطالي والمالطي لكيلا يطبق عليهم التجنيد الاجباري في الحرب العالمية الثانية . ان المستوطنين الأجانب ينازعون الأهالي حق احتلال المرتبة الأولى في بلادهم ، بل يعتبرونهم أدنى منزلة منهم . وقد أصبحت هذه الأقلية التي ما فتئت تطالب بالمزيد من الامتيازات ، أصبحت ، لأسباب سياسية ، تستخدم من طرف بعض الدوائر الرسمية لتعويق حركة التحرر في البلدان غير المستقلة ، أو لعرقلتها . وليس هذا بالمستغرب ، لأن المبدأ الذي تقوم عليه سياسة الاستعمار في كل مكان ، هو استخدام الأقلية ضد الأغلبية .

ان الدافع الأساسي للكفاح المسلّح الذي سمّاه البعض بالفلاقية fellaghisme (للحطّ من قيمته) هو شعور الانسان الجزائري بأن آفاق المستقبل مسدودة . وبالرغم من الاحصائيات الرسمية التي تقدّم أرقاما متفائلة لستر المشكلة الحقيقية ، فإن الجزائريين أصبحوا منذ 1830 ، يشعرون بأنهم فقدوا ، بسبب الاستعمار ، أمورا لا يمكن الاستغناء عنها ، ألا وهي الأرض ، والحرية ، والصحة البدنية ، والمؤسسات القومية ، واللسان القومي . أما الطرق والمستشفيات والسدود التي بنتها السلطات الفرنسية بأموالهم وعرق جبينهم فهم لا يستفيدون منها اطلاقا ،

وان هي الا مظاهر مزيّفة من الحضارة . وهذا الأمر ينطبق أيضا على الورشات التي تفتح بين الحين والآخر للقضاء على البطالة في الأرياف . فهذا التدبير لا يحل المشكلة الزراعية اطلاقا ... وينطبق كذلك على تأسيس المجلس الجزائري : فهذا الاجراء لا يكفي حتى بالنظر الى أبسط المبادىء الديمقراطية . وأمثال هذه التدابير ان هي الا محاولات مزيفة في مجال الاصلاح الاجتماعي والسياسي .

مارس **1955**

# الفصل الثالث

## الجوانب النفسية في الغزو الاستعماري

### فتوى بوقف الحرب

لكي نفهم جيدا كيف نشأ الشعور القومي وكيف ظل ثابتا في الجزائر ما بين 1830 و 1871 ، نرى لزاما على أنفسنا بادىء ذي بدء أن نتحدث عن المآسي التي مرت بها الوطنية الجزائرية التي برزت في نضال الشعب من أجل البقاء وتحقيق المصير . ونحن نتحدى كل من اطّلع على تاريخ الجزائر من خلال وصف المعارك ومذكرات قادة الغزو الاستعماري اذا كان يستطيع أن يبقى جامد الشعور وأن لا يتأثر قلبه أمام تلك المأساة التي تفوق كل ما يمكن أن نتصوره من محن وأهوال . وكانت بالفعل مأساة ماثلة للعيان ، نابضة بالحياة ، وكفاحا متعثرا ولكنه لا ينقطع ، لأنه لابد من مواصلته الى النهاية ، لا من أجل بطولة استعراضية مزيفة ، بل لأن الشعب كان عنده من القوة ، ومن الحيوية التي لا تقهر ، ما جعله يعقد العزم على أن لا يستسلم قبل أن يستنفد جميع طاقاته المادية والمعنوية .

ويخيّل للمرء ــ حينما يقرأ وصف المعارك ، ويسمع بتلك المجازر الرهيبة ، وبتلك «المطاردة للانسان» ، وهو عنوان كتاب ألّفه ضابط اسمه الكونت ديريسون le comte d'Hérisson ، وأثار استنكارا شديدا في زمانه ، أي حوالي 1844 ... وحينما يتذكر على الخصوص تلك الانتفاضات المفاجئة وتلك المقاومة العنيدة التي أظهرها الشعب الجزائري ــ يخيّل اليه أنه أمام انسان صلب شديد لا تجدي معه أية محاولة لخنقه أو قتله ، بل لا يكاد يشرف على الهلاك حتى يبعث حيا من جديد . ولم يكن في هذه المأساة شيء من الهوان أو الاستسلام للمكتوب . وذلك أن الشعب ــ خلافا لما قيل هنا وهناك ــ لم يخض غمار الكفاح باسم الدين فقط ، أو بدافع مما أسماه البعض بالتعصب الاسلامي . والدليل على ذلك أن الجاسوس ليون روش Léon Roches حينما استطاع أن يحصّل من علماء القيروان ومكة على فتوى تدعو الجزائريين باسم الاسلام الى وقف الحرب والاستسلام ، بدعوى أن القتال غير متعادل وأن مواصلته سوف تترتب عليه عواقب وخيمة ... فإن هذه الفتوى التي صدرت عن كبار علماء الاسلام في ذلك العصر ونشرت في سائر الجهات من الجزائر ، قد اعتبرها الشعب بأجمعه عملا انهزاميا . وبالفعل ، فإن المؤرخين سجلوا في الفترة التي تلت صدور الفتوى ، معارك تدل على أن المقاومة الجزائرية بلغت ذروتها ، ومنها معركة سيدي ابراهيم في 1845 ، وغيرها كثير .

وفي معركة سيدي ابراهيم هذه بالذات ، لقي أشد ضباط الغزو تكالبا حتفه ، وهو الكولونيل مونتانياك Montagnac . وتشير رسائله الى مشروع كان يدافع عنه بكل حماس : فقد كان يريد أن ينفي الشعب الجزائري بأسره الى جزر ماركيز ... ولئن كانت هذه الأفكار تبعث اليوم على الرثاء لأصحابها والسخرية منهم ، فقد كان الكثير من الضباط الذين

جنّدتهم فرنسا منذ صغرهم ضدّ شعب أرادت اخضاعه بأي ثمن ، فوجدوا أنفسهم بعيدين عن أوربا حيث كانت تراعى بعض القوانين الانسانية في ميادين القتال ، هؤلاء الضباط ما لبثوا أن تحرروا اذا صح التعبير ، من كل وازع أخلاقي ، فانساقوا مع ميولهم العسكرية انسياقا تاما ، وانقادوا للعنف وصاروا يطبّقونه لينفّسوا عما يعتمل في نفوسهم من أهواء . بل لا يملك المرء نفسه من أن يعتقد بأن ذلك الجيل من الضباط الذين تأثروا في بلادهم بالرومانسية المعتدلة التي اتسم بها العصر ، هؤلاء الضباط صاروا في افريقيا ، وأمام عدوّ صعب المراس ، عرضة لهوس رومانسي آخر ، مليء بالقسوة ، قائم على حب المغامـرة التـي أيقظتها الحرب في نفوسهم . ولربما كان هذا الهوس مظهرا آخر من مظاهر الرومانسية العسكرية التي سيعكف المؤرخون وعلماء النفس ذات يوم على دراستها . وكيف لا يتملكنا العجب أمام ذلك الموقف المغاير تماما للمبادىء التي أشاد بها الشاعر الفريد دوفينيي في كتابه «الحرب ، بين العظمة والعبودية» ، وهو أيضا من الرومانسيين ، ولكن على النمط الأوربي . وقد كان بعض هؤلاء الضباط يتقن أساليب التعبير ، على أن الصفة المشتركة بينهم هي الأسلوب الغنائي ، وبروز النغمة السادية المتميزة بالميل الى القسوة والتعذيب .

## الميول السادية في الحرب

ان الأمثلة على هذه السادية sadisme ، وعلى التغني والتفاخر بتعذيب الأهالي ، أكثر من أن تحصى . فأغلب هؤلاء القادة العسكريين تأثروا في صباهم أو في شبابهم ــ وان كانوا لا يقرّون بذلك ــ تأثروا بالبطولات التي قام بها نابليون ، وشهدوا فيما بعد عهدا مظلما برجوع الملك لويس الثامن عشر الى الحكم ، وحزّ في نفوسهم ما فرضه الحلف المقدس sainte alliance من شروط مجحفة على فرنسا التي تقلّص نفوذها

وصارت غيورة من انتصارات أنجلترا وهيمنتها ، وتألموا لما آلت اليه بلادهم من انحطاط في العهد الملكي (يوليو) . ولذلك كله كانوا يشعرون بالاحباط ، وبشيء من عدم الارتياح . فلما قامت حرب الجزائر ، وجدوا الفرصة لينفسوا عن كربهم ، وليتخلصوا من همومهم ، وليستعيدوا شيئا مما فقدوه من احترام وتقدير . وأحسن سبيل الى ذلك هو العمل على احياء العهد الزاهر ، عهد نابليون ، ولكن لا عن طريق خوض المعارك الكبرى واحراز النصر المؤزّر ، بل بالرجوع الى الفترة الأخيرة من عهد نابليون ، وخاصة منها حرب اسبانيا الرهيبة ، وحصار مدينة ساراغوس ، وغير ذلك من الأعمال التي تشرّف المغلوب ، ولا تشرّف الغالب .

ان اسبانيا لا تقع بعيدا عن افريقيا ، ولذلك فليس من المستغرب اذا كان الجزائريون ، على غرار الاسبان ، يقومون على الصعيد القومي بحرب العصابات أو حرب المجاهدين ، تلك الحرب التي قال عنها الدوق دورليان بأنها «**ألحقت بالفرنسيين من الأضرار أكثر مما ألحقته جيوش العدو الأخرى بأكملها . وقد حرمت جيشنا من النوم لأنها أرغمته على أن يظل دائما في حالة استنفار !**»(1) وهذا ما أثار حفيظة الضباط الفرنسيين وجعلهم يتشددون في الحرب التي ما لبثت أن دخلت في مرحلة فظيعة هي : الحرب من أجل الحرب . وصارت هواية لا واجبا ، وصار القتال مهنة كغيره من المهن الأخري ، لأن صاحبها لا يقف عند أي حد ، فلا يكفيه أن يخضع العدو كما هو الشأن في الحروب الأخرى ، لأن هدفه الوحيد هو القيام بغارات للسلب والنهب ، تلك الغارات التي كانت تسلية من جهة ، وذريعة لشن حرب ابادة متجردة من الاعتبارات الأخلاقية ، من جهة أخرى . وهذا ما يستفاد مما كتبه في مذكراته قائد يعد من أكبر القادة الفرنسيين ، وهو الجنرال شانغارنيي ، اذ قال متحدثا

---

(1) Duc D'Orléans : **Campagnes de l'Armée d'Afrique.**

عن جنوده الذين خرجوا في عملية عسكرية لهم غربي سهل متيجة : «**لقد وجدوا خير تسلية لهم في الغارات المتكررة التي كنت أشنها في الشتاء ضد القبائل المناهضة لنا فيما بين الحراش وبوركيكة**» . ثم أضاف ، مستشهدا بالانجيل ، لتبرير هذا النوع من السلب والنهب المبيّت الذي كان يلحق خسائر فادحة بالناس ، بدون تمييز بينهم : «**ان الكتاب المقدس قد علمنا بأن يشوع وغيره من القادة الذين بارك الله في عملهم كانوا يقومون بغارات رهيبة**» . الى أن يقول : «زيادة على الأمثلة السابقة ، لابد أن أضيف ، تبريرا لعملنا ، بأنه اذا كان من الممكن في الحروب المعهودة في أوربا ، أن نرغم العدو على طلب الصلح بعد الحاق الهزيمة به في معركة أو معركتين ، واحتلال عاصمة بلاده ، والاستيلاء على الخزينة العامة ، وفرض الضرائب الباهظة عليه ، وايقاف الحركة التجارية في بلاده ، فليس الأمر كذلك بالنسبة للعرب ، لأننا ، بعد أن قضينا على حكم عبد القادر ، وشتتنا جيشه ، كان لزاما علينا أن نستولي على الأموال والأرزاق ، وأن نتلف المحاصيل الزراعية لكي نرغم القبائل على الاستسلام (1) .»

**الحرب من أجل الحرب**

ان هذه الفقرة التي تكشف النقاب عن المبادىء العقائدية للاستعمار ، ستساعدنا في فهم جانب من جوانب هذه الحرب ، وهو رد فعل الجزائريين على أعمال الهدم والتخريب ، كما ستجعلنا ندرك كيف تطورت النزعة العسكرية وتشددت حتى تجاوزت الهدف الذي وضعته لنفسها وصارت لا تقف عند حد . وقد سبق لنا أن قلنا بأن هذا المذهب doctrine قائم على فكرة «الحرب من أجل الحرب» . ويجب أن نضيف ، في معرض الاستشهاد بعنوان كتاب لتوماس دوكوانسي

---

(1) Changarnier : Mémoires.,

Thomas de Quincey ، بأن «**الحرب صارت تعد من الفنون الجميلة**» .
ولا شك أن الأمثلة التي سنوردها ستكون أبلغ وأوضح ، ولا نقصد من وراء ذلك سوى الاتيان بالبرهان على ما اتسمت به الوطنية في الأرياف من شدة في المقاومة .

ومن ذلك ما كتبه الكولونيل فوري Forey في سنة 1843 : «**انطلقت من مليانة وشرشال سبعة طوابير بهدف التخريب واختطاف أكبر عدد ممكن من قطعان الغنم ، وعلى الأخص اختطاف النساء والأطفال ، لأن الوالي العام (وهو بيجو) كان يريد بارسالهم الى فرنسا ، أن يلقي الفزع في قلوب السكان**» . ثم أعطى فوري النتائج التي حصل عليها الطابور التابع له ، فقال بكل برودة : «**اختطفنا في هذه الحملة ثلاثة آلاف من رؤوس الغنم . وأشعلنا النار في ما يزيد على عشرة من القرى الكبرى ، وقطعنا أو أحرقنا أكثر من عشرة آلاف من أشجار الزيتون والتين وغيرها(1)** .»

أما الكومندان ويستي ، فقد كتب في 1841 ، متحدثا عن حملة في جنوب مقاطعة الجزائر : «**ان عدد الدواوير التي احرقت ، والمحاصيل الزراعية التي أتلفت ، لا يكاد يصدّق . فلم يكن أحدنا يرى على الجانبين من الطابور سوى النيران(2)** .»

وفي شهر يونيو 1842 سجل ضابط آخر في مراسلاته ، واسمه بوتايو : «**منذ شهر ديسمبر يقوم جنودنا بغارات منظمة في سائر النواحي القريبة من البليدة . وهذه الغارات التي نظمت بكثير من الدقة ، قد خرّبت أو على الأصح بدأت تخرّب البلاد . وعندما حلّ**

(1) Forey : **Campagnes d'Afrique**, p. 310.
(2) Westée: **Campagnes d'Afrique**, pp. 236-237

**شهر مارس خرجت الطوابير فصارت تتلف المحاصيل الزراعية وجعلت منها مرعى للدواب التي أخذتها معها . لقد ألحقنا بأولئك الفلاحين الآمنين أضرارا فادحة(1) .»**

وفي رسالة بعثها بيير دو كاستيلان ، ابن المارشال المسمى بنفس الاسم ، بعثها بتاريخ 28 مارس 1844 ، كتب يقول بعد أن وصف الظهرة بأنه بلد غني خصب ، فيه كثير من أشجار الفواكه ، وبعد أن تحدث عن سكانها الذين «**يعيشون في نظام يشبه النظام الجمهوري**» ، تابع كلامه قائلا «**مكثنا عدة أيام في مخيمنا العسكري ، ونحن خلال تلك المدة نتلف أشجار التين والمحاصيل الزراعية . ولم نغادر المنطقة الا بعد أن خربناها تماما ... وبذلك أعطينا درسا قاسيا لهؤلاء السكان**» . ثم انتهى الى القول بأن : «**العرب لا يخضعون الا للقوة الغاشمة (2)**» وبذلك أخذت تظهر العقائدية المطبقة لا في الحروب الاستعمارية فحسب ، بل حتى في أوقات السلم .

ولابد كذلك من القول بأن بعض الضباط كانوا ربما أقل قسوة من غيرهم ، وأكثر واقعية ، وان كانوا على أية حال لا يقلون عن غيرهم تحمسا لأداء مهمتهم . وكان هؤلاء الضباط يفضون لمراسليهم بما يجري في البلاد من مناكر ، بعبارات فيها كثير من الاعتدال ، بل لا تخلو أحيانا من شيء من الشهامة . الا أن هؤلاء قلة ، ويعدّون على الأصابع . ومن هذه الشهادات ما كتبه الكومندان ليو Lioux متحدثا عن الحملة التي شارك فيها عام 1842 في سهل الشلف : «**منذ انطلاق الحملة الى يومنا هذا ، أي من 4 مايو الى 20 منه ، خرّبت كثير من القرى الآمنة وكمية هائلة من المحاصيل الزراعية . واني متأسف لهذا العمل**

(1) Bouteilloux : **Campagnes d'Afrique**, p. 273.

(2) P. de Castellane : **Campagnes d'Afrique**, (1835-1848), p. 338.

**العسكري المحتّم ، وهذه الوسيلة القاسية التي كرهتها كرها شديدا . وحينما مررت ، لم أر في تلك المنطقة الرائعة سوى حقول زرعها العرب بمنتهى العناية (1) .»**

وفي العام التالي كتب نائب مدير مقاطعة قسنطينة (دوسير) متسائلا : «**قام الجنرال باراقي ديليي في حملاته الأخيرة بإتلاف ما يزيد على 5000 من أشجار الزيتون . واذا كنا نعمل على افقار البلاد ، فماذا سنفعل بها حينما نحتلها ، على فرض أننا سننجح في احتلالها ؟ (2)»**

وفي نفس السنة ، عاد الضابط ليو الى الاحتجاج مرة أخرى اذ كتب في سنة 1843 ، عندما كان في ناحية شرشال : «**لقد هدمت كثير من الدواوير وأزيلت من الوجود قرى بكاملها بعد اشعال النيران فيها . وقطعت عدة آلاف من أشجار التين والزيتون وغيرها . وأنا لا أرى من مبرّر لهذا النوع الأخير من التخريب ، خاصة اذا كنا نريد حقا أن نحتل البلاد ، أو على الأقل أن نفرض على أهلها الضرائب(3) .»**

وهناك أخيرا ملاحظة تقدّم لنا الجواب على كل الأسئلة السابقة . فقد رأينا في الصفحات الماضية بأن حرب الجزائر كانت حربا «مطلقة» قام بها ضباط محترفون ، وتجاوزت في أغلب الأحيان هدفها الأساسي . والدليل على ذلك ما كتبه القبطان كلير : «ان الحرب التي نقوم بها اليوم في الجزائر حرب استثنائية ... فلا تتّبع فيها القواعد المقررة في الحروب الكبرى والصغرى . والانضباط بين الجنود قليل . والتكوين العسكري

---

(1) Lioux : **Campagnes d'Afrique**, pp. 307 et suivantes, P. 267

(2) Dussert : **Campagnes d'Afrique.**

(3) Lioux : **Campagnes d'Afrique.**

يكاد يكون مفقودا . وكل ضابط يتصرف كما يريد ... ويخيّل الى الانسان أن هدف هذه الحرب ليس هو حمل العرب على طلب الصلح ، بل تمكين بعض المتنفذين من الحصول على المزيد من الأوسمة والرتب العسكرية» . ثم يمضي هذا الضابط متحدثا في الصفحات التالية عن أصل هؤلاء الجنود وأين كانوا في فرنسا : «**لابد من الاعتراف بأنني كثيرا ما واجهت صعوبات مع الجنود الذين تتألف منهم سريّتي ، فأصل هؤلاء الجنود كما لا يخفى عليكم من السجون ومن حثالات الجيش**(1) .»

**هذا الجيش الذي كان أحسن جيش في أوربا وأقواها وأكثرها انضباطا ، ما لبث أن تحول خلال سنوات الى جيش جرّار من جنود ليس لهم من هدف في أغلب الأحيان سوى تدبير عمليات السلب والنهب ، وشن حملات الارهاب . فهناك بون شاسع بينه وبين جيش الامبراطورية الأولى الذي كان يتغنى بأمجاده الشاعر «هوغو» . واذا تساءلنا عن سبب هذا التحول ، وهذا التجرد من كل وازع أخلاقي ، فلابد كذلك من القول بأن هذه القاعدة لم تكن عامة . فبعض القادة العسكريين كانت عندهم فكرة غريبة بل فظيعة عن الحرب ، لأن شن الغارات قد أثار جشع النفوس ، مما جعل الكولونيل كانروبير يتشكّى من : «الجندي الذي أفسدته غنائم السلب والنهب ، فأصبح يقوم بأفظع المناكر»** ، وهذا ما دعا الجنرال شانغارنيي الذي يعتبر من نخبة القادة في بلاده ، الى التهكم من «الدور الانساني للجيش» .

ومع هذا ، فإن الجنرال شارنغانيي لا يعد شيئا اذا ما قورن ببعض الخبراء في «الـه ليات داخل المغارات» ، أمثال كانروبير ، وكافينياك ،

(1) Cler : **Campagnes d'Afrique**, pp. 276-277.

وسانت آرنو ، وعلى الأخص بيليسيي . وذلك أن اثنين من هؤلاء الضباط الكبار اهتديا ــ وكأنهما يتنافسان ــ اهتديا الى وسيلة فعالة للفتك بأكبر عدد ممكن من السكان ، خلال بضعة أشهر أو بضع سنين ، بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة . ففي سنة 1844 ، طبّق كافينياك لأول مرة طريقة تشبه الاعدام في غرف الغاز ، مع الاستعاضة عن غرف الاختناق بالمغارات ، وعن الغاز بدخان النار التي كانت توقد عدة ساعات ، بل عدة أيام أحيانا . ويقول روسي في هذا المجال بأن كافينياك كان في 1844 **«قد خرج في عملية عسكرية على الضفة اليسرى من شلف ، متوجها الى قبائل سبيعة التي اعتصمت بالمغارات . وكان أفرادها قد رفضوا جميع الأوامر التي صدرت اليهم بالاستسلام ... وعندئذ أصدر الكولونيل أمره بمهاجمة احدى المغارات بواسطة تفجير لغم ، كما أمر باشعال نار كبيرة أمام مدخل مغارات أخرى ... وفي اليوم التالي اضطر المحاصرون الذين مات بعضهم اختناقا ، على أن يخرجوا(1) .»**

وكان ذلك بمثابة التجربة الأولى . وبما أن عدم معاقبة المجرمين من طرف السلطات يعدّ نوعا من التشجيع ، فقد قام كولونيل آخر (بيليسيي) في السنة التالية ، أي في 1845 ، بعمل اجرامي أشنع من الأول بمنطقة الظهرة . وكان أولاد رياح قد لاذوا مع نسائهم وأطفالهم بالمغارات ، فهلكوا فيها اختناقا . وقد أشعل الجيش النار في كمية كبيرة من الحطب لمدة تزيد على أربع وعشرين ساعة . وقد وصف المؤرخ روسي هذا المشهد الرهيب بالعبارات التالية : **«كان الحريق قد وصل الى أمتعة اللاجئين . وفي الليل خيل للجنود أنهم يسمعون ... ضجة لا تكاد تبين ، وصيحات خافتة ، ثم ساد صمت عميق . وفي وقت**

(1) T.H.C. Rousset : **La couquête de l'Algerie, 1841-1857**, p. 21.

مبكر من الصباح استطاع بعض الرجال أن يخرجوا من المغارات فسقطوا مخنوقي الأنفاس ، أمام الحرس . وكان الدخان الذي انتشر في المغارات كثيفا مؤذيا الى حدّ أن الجنود لم يتمكنوا في بداية الأمر من الدخول . على أننا كنا بين الحين والآخر نرى مخلوقات بشرية مشوهة تخرج من المغارات زحفا على البطون ، فيحاول آخرون ممن بقي متمسكا بمبادئه الى آخر رمق ، أن يمنعوهم من الخروج ... وحينما تمكنّا في آخر الأمر من زيارة ذلك الجحيم بعد أن خمدت فيه النيران ، عددنا أكثر من خمسمائة من الضحايا ، ما بين رجال ونساء وأطفال . وقد أصيب جميع الحاضرين بوجوم شديد لهول الفاجعة (1) .» والحقيقة أن قوله «أكثر من خمسمائة من الضحايا» يعني ما يزيد على الألف .

وعندما بلغ هذا الخبر مجلس النواب الفرنسي أعرب أعضاؤه عن قلقهم وطلبوا من وزير الحرب ، المارشال سولت Soult ايضاحات . فماذا كان رد فعل الجيش وقائده بيجو ؟ ان بيجو ، الذي كان منطقيا مع نفسه ، وفيا للعقائدية العسكرية التي لقّنها لأعوانه وجنوده ، ما كان منه الا أن احتج لدى الوزير فكتب اليه يقول : «**يؤسفني أن أراك متحاملا بدون أي تحفظ ، على سلوك الكولونيل بيليسيي . وأرى لزاما على نفسي أن أعتبر الكلمات الصادرة عن النواب في جلسة 11 يوليو ، غير لائقة ، لأنها ستحدث أثرا سيئا في الجيش . وأنا أرى بأن مراعاة القواعد الانسانية تجعل الحرب في افريقيا تمتد الى ما لا نهاية ، كما أن الثورة فيها لن تخمد أبدا ...(2) .**»

---

(1) C. Rousset : **La conquête de l'Algérie, t. II, p..23.**
(2) C. Rousset : **La conquête de l'Algerie, t. II, p. 24.**

ان فكرته هذه عن الحرب (وهي أيضا فكرة شانغارنيي وغيره) لا تبدو غريبة الا من حيث الظاهر ، لأنها تكشف عن الرغبة المسيطرة على نفوس العسكريين ، وهي نيل المجد ، واخضاع البلاد . انها الحرب من أجل الحرب ، أو التغني الرومنسي بالتقتيل . وما أشبه هؤلاء المجرمين بذلك الضابط النازي الذي يتحدث عنه روبير ميرل Robert Merle في روايته الأخيرة :«**مهنتي هي القتل**» . ومما لا شك فيه أن تلك العقلية العسكرية قد غلبت عليها النزعة العدوانية الوحشية الى درجة أن المرء لا يستغرب التسمية شبه الرسمية التي أطلقها القائد السفاح مونتانياك على جنوده ، وهي «**مشاة الموت**» ، كما أنه لا يستغرب اذ يجد كبار الضباط والمؤرخين يطلقون على طوابير التخريب التي سلّطها بيجو على الجزائر تسمية شبه رسمية هي «**الطوابير الجهنمية**» .

من خلال كل ما سبق ، ومن خلال أهوال الحرب والتخريب والتقتيل الجماعي في المغارات ، من خلال هذا نتلمح مقاومة الشعب ووطنية الفلاحين التي لا تفتر . وذلك أن هذه الحرب القاسية وتكالب الضباط الغزاة ، وهدم القرى الآمنة ، وقطع أشجار الزيتون ، كل ذلك من الأعمال المدفوعة بإرادة معينة ، اذ لابد من القاء الرعب في قلوب الأهالي ما داموا قد رفضوا الاستسلام . وكان الجنرال شانغارنيي صريحا حين قال بأن الجيش «**يتسلط على أرزاق الناس وأملاكهم من أجل ارغامهم على الخضوع**» ولكن الفلاحين ، رغم الخراب الذي آلت اليه بلادهم ، كانوا دائما يخيّبون آمال الضباط العسكريين فيستأنفون الكفاح من جديد . وكثيرا ما كان هؤلاء الامبرياليون يتشكّون من فشلهم الذريع ، ومن ذلك ما كتبه كانروبير ، في نوفمبر 1845 ، أي بعد مرور خمسة عشر سنة على احتلال مدينة الجزائر : «**مما يدعو الى الحزن**

**والأسى أن أضطر للاعتراف بأن الاحتلال يجب أن يستأنف من جديد»** .

وتساءل ضابط آخر هو دومونتي في نفس تلك الفترة ، معبّرا عن أسفه : «**لا أرى من مستقبل لنا في هذه المستعمرة التي لابد من اعادة احتلالها بعد كل ثلاث سنوات**»(1).

على أن هذه الأمور ، وان كانت مصدر حزن لبعض القادة العسكريين ، الا أنها كانت في نفس الوقت مصدر فرح وسرور للبعض الآخر ، ومنهم القبطان كلير الذي كتب في 1845 : «سأكون سعيدا كل السعادة اذا بقيت في هذه البلاد التي لن يستتب فيها السلام ، والتي تفتح أمامي مجالا للمجد والترقية(2).»

وختام هذه الآراء ما قاله الجنرال دي ويمبفن de Wimpffen الذي أصبح فيما بعد واليا عاما على الجزائر :«أمام مثل هذا العدو ، قد لا يكفي جيش يتألف من مائة ألف جندي . ومهما أتلفنا المحاصيل الزراعية ، وقطعنا الأشجار ، وأحرقنا الدواوير ، وفتكنا بالعرب ، فلا تكاد طوابيرنا تغادر المكان حتى نضطر لارسال الجيش من جديد» . (يعني الى نفس المكان) .(3)

## الأمير عبد القادر يقود النضال

وهكذا نرى بأن الوطنية الجزائرية برزت بروزا واضحا في ذلك الكفاح المرير الذي ليس فيه تهريج ولا خطب رنانة . ولقد تسلط الجيش الفرنسي على أرزاق الخواص من الناس ، وعلى الأرض التي كان المعمرون يريدون الاستيلاء عليها . وأمام هذا الخطر الداهم اتخذ الكفاح القومي شكلا

(1) **Campagnes d'Afrique** : Dumontet.
**Campagnes d'Afrique** : Cler, p. 274.
(3) **Campagnes d'Afrique** : Wimpffen, pp. 416-417.

آخر هو حرب المناضلين . وفي الواقع ، لم يكن جيش عبد القادر النظامي — في عزّ قوته — يتألف من أكثر من خمسة عشر ألفا من الجنود ، بينما كان جيش الغزو الاستعماري يتجاوز في نفس تلك الفترة تسعين ألفا ، حتى بلغ في وقت من الأوقات مائة وثمانية آلاف محارب . وبما أن البلاد تعرضت عدة مرات للتخريب ، فإن عبد القادر كان أحيانا في حاجة ماسة للمؤن والعتاد ، ولذلك بذل كل ما في وسعه لانشاء مصانع للأسلحة ، ومعامل ، ومخازن عسكرية للتموين . ويمكن أيضا أن تعزى قلة عدد جيشه النظامي الى الظروف التي كانت تفرضها الحرب على الشعب ، تلك الحرب التي كانت تهدد بالخراب كل شبر من الأرض ، وكل دار ، وكل شجرة من أشجار الفواكه ، مما جعل الفلاحين دائما في أهبة الاستعداد للدفاع عن قراهم وحقولهم . ومن هنا ندرك كيف نشأت وتطورت حرب العصابات ، وكيف تكاثر عدد قادة النضال الذين كانوا ينضمّون من تلقاء أنفسهم في جهاز الدفاع الذي أنشأه الأمير عبد القادر .

ان كتائب الجيش النظامي التي أحكم اختيارها وتدريبها كانت كل واحدة منها تشكّل نواة للمقاومة المنظمة تنظيما عقلانيا في البوادي والأرياف . وكان كل خليفة من خلفاء الأمير مسؤولا عن اثنين أو ثلاثة من هذه الكتائب في المقاطعة . وقد وجدنا في مراسلات ضباط الغزو الفرنسي تنويها بذلك الجيش النظامي وشجاعته واخلاصه للأمير . ومن ذلك ما قاله الكولونيل دي مونتي في معرض الحديث عن الألفين من الجنود الذين حشدهم عبد القادر في ممر موزاية الجبلي معترضا سبيل الجيش الفرنسي الذي كان عائدا من المدية . قال ساخطا منهم ، في أسلوب لا يخلو من الاعجاب : «**ان هؤلاء الألفين من الجنود تجاسروا على التربص لجيشنا وخوض المعركة معه**» ، ثم أضاف : «**ان خيالة**

العدو التي تجاسرت على النزول من الخيل غير بعيد من ذلك المكان ، ما كان منها ، بعد أن خاضت المعركة ، الا أن عادت راكبة بكل هدوء» . الى أن يقول : «هذه الحفنة من الجنود انصرفت في حال سبيلها حين شاءت وحيثما شاءت ، بعد أن ألحقت بنا كثيرا من الأضرار(1) .»

وكتب ضابط آخر هو القبطان برابر في 1840 ، متحدثا عن بيجو ، وساخطا هو أيضا لأن «المارشال كان معه ، في المناطق الجبلية بالجزائر ، جيش يتألف من ثلاثين ألفا أو ستة وثلاثين ألفا من الجنود ، ضد ألف وخمسمائة أو ألفين من الفرسان(2).»

على أن السنين مرت سراعا ، واذا بالقائد بيجو يدفع الحرب دفعا جديدا ، فيعمد الى القضاء على منشآت الأمير العسكرية ، الواحدة تلو الأخرى . ولكن هذا لم يمنع الأمير من أن ينقل معه ما استطاع من تلك المنشآت ، استعدادا لحرب مقبلة ، وأن ينقذ سكان الحواضر وأن يذهب بهم بعيدا عن المدن المخربة . وكل هذا نجده في مراسلات أحد الضباط : «مر الجنرال باراجي ديلير بمدن المدية ثم بوغارة ، ثم تازة ، فوجدها خالية من السكان . وقد لاحظنا بأن أجهزة المصانع العسكرية قد نقلت من هذه المدينة الأخيرة قبيل وصولنا اليها بعدة أيام(3)

ولكن الأمير عبد القادر ما لبث أن فقد الجزء الأكبر من جيشه النظامي في المعارك الكثيرة التي خاضها هو وأعوانه . والى هذه الفترة يشير الجنرال شانغارنيي حين يحدثنا عن «الفلول الصامدة» من الكتائب التابعة لبعض أعوان الأمير . وقد بلغت الحرب أوجها في 1845 ، ولم يبق للأمير آنذاك الا وحدات نظامية قليلة ، أما الباقي من الجيش فقد سقط

(1) **Campagnes d'Afrique** : Dumontet, p.192.
(2) **Campagnes d'Afrique** : Brayer, pp. 186-187
(3) Changanier : **Mémoires**, p. 202.

تقدر بثمانين كيلومترا متر في ليلة واحدة . أما نحن ، فليس لنا في صف المواجهة أمام هذا النشاط المدهش ، الا ضباط عاجزون أو منهكون ، وجنود متعبون ومستسلمون لليأس بعد النتائج الفاشلة التي حصلوا عليها . وعلى أية حال ، فنحن نعتمد بالدرجة الأولى على الوقت ، وعلى قوة عتادنا الحربي ، أكثر من اعتمادنا على عبقرية قادتنا العسكريين(1) . »

ان عبد القادر ما قام بهذا النشاط ــ بعد أن فقد كل شيء في الحرب ــ الا بمؤازرة الشعب . ولئن تعذّر ارسال المؤن والعتاد اليه ــ لأنها غير متوفرة في البلاد ــ فقد هبت جماعة من المناضلين لنصرته وتعبئة الناس للانضمام الى صفّه . وهذا ما يستفاد من كلام الماركي دي كاستيلان الذي قال بأن الجيش الفرنسي اعترض في جنوب الجزائر سبيل ثلاثمائة فارس كانوا في طريقهم للالتحاق بعبد القادر على ضفة نهر المولوية في المغرب . وكانت المؤازرة الشعبية تبدو في أجلى صورها حين يتحرك الأمير في مختلف أنحاء الجزائر ، أو حين يحاصر من طرف الطوابير المطاردة له .

وهناك شهادتان تشير احداهما ــ لما فيها من الصراحة ــ الى جانب من جوانب اخلاص الشعب ، ووطنية الفلاحين الصادقة النزيهة التي لا تسمو الى مقامها البطولة المصطنعة الخرقاء المزيفة . وكان ذلك في 1846 ، حينما دخل عبد القادر ــ رغم مراقبة الجيش الفرنسي للطرق ــ الى منطقة القبائل حيث كان ينتظره خليفته هناك ابن سالم . وما أن سمع الجيش الفرنسي بذلك حتى أعلن النفير ، فأراد الأمير أن يذهب الى مدينة بجاية والى وادي السومام ، وكان العدو قد حلّ بالمنطقة .ويقول أحد الضباط الفرنسيين بأن «الماريشال بيجو كتب

(1) Campagnes d'Afrique : Cler, p. 458.

يقول بأنه عرف كيف أفلت منه عبد القادر حينما مرق أمامه كالسهم فوق الجبال المتراكمة على قمم جرجرة» . وأضاف هذا الضابط بأن الجيش الفرنسي كان ينوي أن «يقطع على الأمير خط الرجعة وأن يحشره بين جبال جرجرة وبين البحر ، الا أنه تعذّر على الجيش أن يتقدم الى الأمام(1) .»

هذا ما شهد به الكولونيل لونوبل . على أن هناك ضابطا آخر اسمه دوماس (وهو مؤلف كتاب عن تاريخ منطقة القبائل الكبرى) قد شرح لنا الأسباب التي جعلت جيش بيجو لا يستطيع أن يتقدم الى الأمام ، فكتب يقول بأن «الأمير عبد القادر كان تحت حماية ألف وخمسمائة من أبناء القبائل (2) » وهكذا نرى بأن الأمير لم يستقبل في منطقة القبائل من طرف الجنود ، بل من طرف الفلاحين الذين أحسنوا مثواه في ديارهم ورافقوه وحالوا ساعة الخطر بين الجيش الفرنسي وبين ضيفهم الكريم ، وبذلك لم يتمكن بيجو من القبض على الأمير .

لقد ظهرت هذه الوطنية الشعبية بخصائصها المميزة في عدة مناسبات . ففي سنة 1844 ، سئل رؤساء منطقة القبائل لماذا دافعوا بضراوة عن قراهم ضد جيش كامل قاده بيجو بنفسه ، فأجابوا : «كنا مستعدين أن نستسلم بعدما شاهدنا ذلك الجيش الجرار ، الا أن نساءنا اللواتي ساءهن ميلنا الى طلب الصلح ، أقسمن اليمين على أن يخرجن عن طاعتنا اذا لم ندافع عن أنفسنا مهما يكن من أمر(3) .»

وقد جاء في كتاب دوماس الآنف الذكر ، على لسان أحد الجواسيس من عملاء الامبرياليين ، بأن طلاب زاوية ريفية تقع في ناحية

(1) **Campagnes d'Afrique** : Lenoble, p. 472.

(2) **La Grande Kabylie** : Daumas.

(3) **La Grande Kabylie** : Daumas.

جامع الصهريج بمنطقة القبائل ، وهي زاوية سيدي عبد الرحمن ، شكلوا فيما بينهم فرقة من الفدائيين ، وأن عددهم بلغ 600 أو 700 طالب **«وكلهم يجيدون القراءة والكتابة ، كما أنهم مدربون على القتال ومسلحون بالبنادق والسيوف الطويلة والعصي الحديدية(1).»**

## دور ابن سالم في النضال

وقد سبق لنا أن تحدثنا عرضا عن الدور العظيم الذي قام به خليفة الأمير في منطقة القبائل ، وبالفعل ، فإن ابن سالم استطاع أن يشكل في تلك المنطقة قوات احتياطية قدّمت للحركة القومية دعما قويا . فبعد سقوط مدينة المدية وتكليف خليفتها بقيادة أخرى في مكان آخر ، التحقت فيالقه النظامية ، بأمر من عبد القادر ، بابن سالم في القبائل . وتوجد رسالة مؤثرة جدا ، بعث بها قادة هذه الفيالق المنضمة الى ابن سالم ، بعثوا بها الى عبد القادر الذي لم يبلغهم عنه أي خبر منذ عدة أشهر . وكانوا في تلك الرسالة يتشكّون للأمير ، مع مراعاة واجب الاحترام ، من الفقر الشديد الذي هم فيه ، ويبلغونه بأنهم استهلكوا كلّ ما يملكه ابن سالم من مؤن ضئيلة ، الى درجة أن هذا الأخير ضحّى بما لديه من ثيران الحرث ، فقدّمها اليهم طعاما . وهكذا نرى بأن ابن سالم الذي كان من الأغنياء ، ضحّى بكل شيء في سبيل قضية بلاده . وكان يحاول أن يطمئن الناس وأن يبعث فيهم الثقة لأنه هو أيضا لم يتلق أي خبر من الغرب الجزائري . ومن جملة ما كان يقوله لهم ــ نقلا عن الجنرال دوماس ــ : **«ان أميرنا عبد القادر لا يزال على قيد الحياة . وقد بايعناه في السراء ، فينبغي أن نظل له أوفياء في الضراء»** .

---

(1) **La Grande Kabylie** : Daumas, p. 291.

ان التصريحات والكتابات والكلمات التي خلّفها ابن سالم تقدّم عن شخصيته صورة شاب مدرك تمام الادراك للوضع السياسي ، ومتمتع بالذكاء الى أقصى حد . ويكفينا في هذا المجال أن نضع بين يدي القارىء نصين يكشفان بكل وضوح عن السياسة الاستعمارية التي اتبعها المارشال بيجو ، وأن نقارنهما بعد ذلك بنص منسوب الى ابن سالم ، لكي تكون لدينا فكرة واضحة عن ذلك الحوار الذي تمثلت فيه مأساة الجزائر بتمامها في ما بين 1842 و 1844 ، ولكي نعرف قدر هذا الرجل الذي كان يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه . قال بيجو ، مخاطبا أبناء منطقة القبائل : «... **ان فرنسا تريد اليوم أن تحكم بلادكم لكي تعيشوا في نعيم ، ولكي يتمتع كل واحد منكم بثمرة عمله ، وبرزقه بدون خوف من أن يجرده أحد من ماله ... ولتعلموا بأن فرنسا دولة كبيرة وقوية ، وسوف تصبحون معها كبارا أقوياء**(1) .»

وفي نفس تلك الفترة تقريبا ، كتب العبارات التالية الى وزير الحرب الفرنسي ، متراجعا عن الضمانات التي أعطاها للجزائريين : «**ان نتائج هذه الحملة القصيرة هي أنها وسعت المنطقة المحتلة الى بعد ثمانين كلمترا شرقي الجزائر ، وأنها أضافت الى ممتلكاتنا أراضي خصبة وآهلة بالسكان ، تلك الأراضي التي ستكون موردا جديدا لتجارتنا وعائداتنا من المستعمرات . كما أن هذه الحملة مكّنتنا من الاستيلاء على أرض واسعة صالحة للزراعة ، وسوف نوزعها على المعمرين الأوربيين** ...(2) .»

ولنقارن الآن بين النصين السابقين وبين الكلمة التي وجهها ابن سالم للجزائريين : «**لا تنخدعوا أيها الجزائريون ، ولتعلموا أن فرنسا دولة قوية .**

(1) **La Grande Kabylie** : Daumas, p. 249.

(2) **La Grande Kabylie** : Daumas, p. 333.

**وما أرسلت قواتها العسكرية الى هذه البلاد الا من أجل احتلالها بأكملها . انها لا تصرف كل هذه الأموال الطائلة ولا تضحّي بأبنائها الا لكي تخضعنا جميعا لسيطرتها . وما أنا الا مواطن مثلكم ، وربما لم تسمع بي فرنسا أبدا . ان الوسيلة الوحيدة لايقاف هؤلاء الغزاة هي أن تقاتلوهم متحدين وبدون هوادة ، وأن تعاقبوا الخونة الذين رضوا بالذل واستسلموا (1) . »**

ولم ينحصر نشاط ابن سالم في مركز قيادته بمنطقة القبائل . فقد التحقت به وحدات من الهضاب العليا ومن الجنوب لتأتمر بأمره بعد مغادرة قائدها بركاني للمنطقة . كما أن ابن سالم قام بعمليات عسكرية في مكان بعيد عن مركز قيادته ، وخلّص مدينتي بوسعادة ومسيلة من براثن جماعة من الاقطاعيين كانوا يتعاونون مع الامبريالية ويحاربون عبد القادر .

ولما كان أعوان الامبرياليين لا كفاءة لهم ، فقد عملت السلطات كل ما في وسعها لاستمالة خلفاء الأمير عبد القادر الى صفها . ومما يدل على ذلك أن أحد الضباط بعث في 1842 برسالة الى المارشال دي كاستيلان يقول له فيها : «يجب أن ينفصل خلفاء عبد القادر عنه ، ولكننا الى يومنا هذا لم نحصل على أية نتيجة من هذه الناحية . ولو أن محمد بن علال ، وبركاني ، وابن سالم ينضمون الينا ، لحصلنا على ما نبتغيه من السلم ... وبناء على ذلك فاذا لم ينضم الينا محمد بن علال على الأقل ، فان استسلام الأهالي هنا وهناك ، لن يكون له من أثر ، رغم كل ما صرفناه من أموال ... (2) . »

**استمالة ابن علال من طرف الفرنسيين**

ذكر الجنرال شانغارنيي بأن المارشال بيجو الذي كان هو أيضا حريصا كل الحرص على هذه الفكرة ، قد عرض على ابن علال في نفس تلك

(1) **La Grande Kabylie** : Daumas, pp. 258-259.
(2) **Campagnes d'Afrique** : pp. 273-274.

السنة ، وفي الأشهر الأولى من عام 1842 ، عرض عليه أن يعيد اليه جميع أملاكه وأن تخصص له الدولة معاشا كبيرا اذا ما وافق أن يستسلم لفرنسا .

وهذا ما كتبه شانغارنيي في مذكراته : «عرض المارشال بيجو ، في أواخر شهر فبراير من عام 1842 ، على الخليفة ابن علال ، وهو أكثر أعوان الأمير دهاء وقوة ، عرض عليه مبلغ 500.000 فرنك ، واعادة أملاكه الواسعة اليه ، ومعاشا سنويا قدره 50.000 فرنك ، على شرط أن يستسلم لفرنسا وأن يقيم بمدينة الجزائر أو القليعة ، مسقط رأس عائلته ذات الجاه والسلطان . وقد وصلنا جواب هذا الخصم الأنوف في 12 مارس حينما كنا نستعد للقيام بنزهة طويلة في الغابة الجميلة التي تحيط بالبليدة . وطلبنا من الترجمان أن يعيد قراءته على مسامعنا مرتين ، فارتسم القسم الأول من جوابه في ذاكرتي ، وهذا قوله : «ليكن في علمك أنني أحكم وأقتل (1) ، وأعفو ضمن منطقة تمتد من جبل دخلة الى وادي فضة . وماذا أراك تعرض عليّ مقابل هذا الحكم الذي أمارسه لاعلاء كلمة الله ، وفي خدمة سيدي السلطان عبد القادر ؟ أراك تعرض عليّ أملاكي ، تلك الأملاك التي سوف أستعيدها بالبارود ، مثلما فقدتها بالبارود ... وتعرض عليّ المال والخيانة ...» أما نهاية الجواب فلا تقل أنفة وترفعا عن البداية (1) .»

وكان ابن علال ، الذي ولد بناحية القليعة ، قد انضمّ منذ شبابه الى صف الأمير عبد القادر الذي عيّنه خليفة له في مليانة . وعندما سقطت هذه المدينة بيد الفرنسيين صار ابن علال يقاتل بكتائبه ما بين

---

(1) انظر شانغارنيي : مذكرات Mémoires . ص. 219 ومن المحتمل أن الترجمان أخطأ في نقل هذه الكلمة لأن الفعلين قاتل وقتل أصلهما واحد أو صيغتهما واحدة . ومن الجائز أن ابن علال قال : «أقاتل» عوضاعن «أقتل» .

سهل متيجة الى الحدود المغربية ، الى أن مات شهيدا في معركة وقعت في 1843 ، ولم يكن عمره آنذاك يتجاوز 29 سنة . وقد أحدثت وفاته في ميدان المعركة أثرا كبيرا في نفوس الأعداء ،حتى أنهم أدوا له تحية الأبطال ، ثم قطعوا رأسه وعلّقوه على أسوار مدينة مليانة .

ومضت أعوام ، واذا بالأمير عبد القادر الذي اعتصم بالمولوية ، يضطر في شهر ديسمبر من عام 1847 للاستسلام ، بعد أن وقع بين نارين ، وصار يطارد من طرف الجيش الفرنسي والجيش المغربي على السواء . ويستفاد من أقوال المؤرخين بأن الشعب الجزائري تلقّى هذا الخبر بحزن شديد . ويقول المؤرخ روسي بأن «**استسلام عبد القادر كان له وقع شديد على العرب . وقد انتشر** الخبر في مثل سرعة البرق من الحدود المغربية الى الحدود التونسية ، ومن البحر الى أقصى نواحي الصحراء (1).»

على أن الحرب ما لبثت ــ بعداستبسلام الأمير ــ أن اتخذت شكلا آخر . ولئن صارت متقطعة وجهوية ، فإن ذلك لم يمنعها من أن تسبّب للقادة الامبرياليين كثيرا من المتاعب . وقد التحق بالجبال الزعماء الذين كانوا يعملون تحت راية الأمير عبد القادر ، ونجوْا من الأسر ، فكانت تجاربهم الثمينة وأخلاقهم العالية خير معين للمناضلين الذين أصبح عددهم يتزايد باستمرار . ومن ذلك أن الخليفة محمد بلحاج قاد لمدة طويلة حركة المقاومة في منطقة الجريد والأوراس ، وأن مساعد الخليفة بركاني ، واسمه بوشارب ، بقي ينظم بدون هوادة حركة التمرد في المنطقة الواقعة ما بين جبل ديرة والقبائل السفلى والبيبان .

---

(1) **Campagnes d'Afrique**, pp. 273 274. Comte .

## قيادة النضال بعد انسحاب عبد القادر

كان قادة النضال كثيرين ، وبعض هؤلاء ـــ مثل سي الجودي وبو بغلة في القبائل ، ومحمد بن عبد الله في الجنوب ـــ كانوا يظهرون تارة على مسرح الأحداث ثم يختفون ثم يعودون من جديد على فترات متفاوتة في المدة . وكان سي الجودي يتمتع بنفوذ كبير في جبال جرجرة بكاملها ، وكان قد انضم للأمير عبد القادر في 1839 بمناسبة سفر هذا الأخير الى منطقة القبائل . وقد خلّف لنا رسالة كتبها للخليفة ابن محي الدين الذي عينه الفرنسيون لمناهضة الخليفة ابن سالم . وفي هذه الرسالة التي كتبها سي الجودي حينما اشتدت الأزمة ، فيها دعوة موجهة الى ابن محيي الدين لكي يكف عن خدمة ركاب أسياده المستعمرين . وتدل هذه الرسالة على وجود ذلك الأمل الذي يخفق به قلب كل مناضل . ومما جاء فيها : «... نحن لا نخاف من شيء ، لأن الله ورسوله معنا ... وعار عليك أن تفرح بما يصيب المسلمين من أذى ... واذا كان الفرنسيون قد انتصروا هنا ، فلن يكتب لهم النصر في مكان آخر . ولهذا أدعوك أن تنضم الينا ، وأن تكون في صفنا لا في صف الفرنسيين . فارقهم ، واستصحب معك كل ما لديك من الامكانيات والوسائل التي قد تساعدنا على احراز النصر ...(1).»

وقد واصل سي الجودي كفاحه مدة طويلة ، وآزر بوبغلة في نضاله ، وحاصر مدينة بجاية في 1852 .

ان أخوف ما كان يخافه المستعمرون ، ما كان يتمتع به بعض أعوان الأمير عبد القادر ـــ ومنهم البشير في متيجة ، وابن زعموم وسي الجودي في القبائل ، وبومعزة في الظهرة ، وسي زردود في ناحية عنابة ، وغير هؤلاء ـــ من تقدير واحترام لدى الشعب رغم قلة الوسائل المتوفرة

(1) Daumas : **La Grande Kabylie**, p. 483.

لديهم ، وان كانت مكانتهم لا تسمو الى مكانة الأمير . ولا شك أن العبارات التي أوردها المارشال بيجو في رسالته للجنرال لاموريسيير في 1845 بخصوص الأمير ، تنطبق تماما — مع مراعاة الظروف — على أولئك الرؤساء الذين قادوا حركة النضال ، وضربوا أروع الأمثلة عن وطنية الشعب . **وفيها يقول لمساعده : «ما من يوم الا وأتوقع فيه خبر تحرّك عبد القادر الى جهة من جهات التل ، وهذا أمر لا أستطيع ، لا أنا ولا أنت ولا أي انسان آخر ، أن أمنعه ، رغم أن القوات التي لدينا أكثر** بعشرين مرة مما يلزم للتغلب عليه . والمهم قبل كل شيء هو أن نبادر الى الحد من نفوذه المعنوي لدى الشعب ، وهو أكبر من نفوذه المادي بعشرات المرات ... فلابد اذن من العمل لوضع حد لهذا النفوذ تماما (1) » .

## محاولة تحطيم البلاد ماديا ومعنويا

ولقد يكون من العبث أن نستعرض سائر الانتفاضات التي اهتزت لها ربوع الجزائر الى غاية 1871 . وفي الواقع ، فقد بقيت المشكلة مستعصية على الضباط الامبرياليين ، وذلك أن مقاومة الشعب ووطنيته لم تخمد جذوتهما رغم الحرب الطاحنة التي تميزت بأحداث وأهوال جسام ، ومن بينها مثلا تحطيم الزعاطشة في 1849 ، والاستيلاء على الأغواط في 1852 بعد مجزرة رهيبة ، ومعركة ايشريضن في 1857 ، وتمرّد أولاد سيدي الشيخ الأول في 1864 ، الى غير ذلك من الأماكن والأيام المشهودة التي لم تخمد فيها نار الحرب أبدا . وأمام هذا الصمود ، ما كان من أساطين الاستعمار أمثال لامورسيير ، الا أن عملوا على وضع الحلول «الجذرية» لاخضاع الجزائر وجعلها تحت رحمة الغزاة الآثمين . ومن ذلك أن الجنرال دوكرو كتب في هذا المعنى عام 1864 تقريرا موجها الى

(1) C. Rousset : **L'Algérie**, Tome II, C. p. 28.

نابليون الثالث ، وسماه : «**تقرير حول الوسائل التي يجب استعمالها من أجل فرض السلام في الجزائر**» .

ومن بين العديد من الوسائل التي يمكن تصوّرها ـــ لأنها لم تتغير منذ ما يقرب من قرن ـــ سنحتفظ بهذه الوسيلة التي اقترحها صاحب التقرير ، والتي تلخص أهداف الاستعمار في الجزائر . فقد كتب الجنرال دوكرو يقول : «**يجب علينا أن نضع العراقيل أمام المدارس الاسلامية والزوايا كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ... وبعبارة أخرى يجب أن يكون هدفنا هو تحطيم الشعب الجزائري ماديا ومعنويا**» . ثم أضاف صاحب التقرير : «**وعكس هذا يجب أن نفعله مع العنصر الأوربي : فلنعمل اذن على تنمية الروح العسكرية ، واحكام التنظيم العسكري لدى المعمرين بكل الوسائل الممكنة** (1) .»

## رد الفعل الشعبي

ذلك ما كتبه دوكرو في 1864 . أما في عام 1871 ، فقد شهدت الجزائر أكبر انتفاضة عرفتها البلاد ، وتجنّد فيها مئات الألوف من الرجال وانتشرت في رقعة تقدر بثلثي القطر . ومن العجيب أن هذه الانتفاضة وقعت بعد بضع سنوات فقط من المجاعة التي ذهب ضحيتها أكثر من خمسمائة ألف نسمة في الجزائر . ومن جهة أخرى ، فقد بدأ وعي سياسي جديد يتكون ابتداء من 1871 ولم يكن هذا الوعي يعتمد على الكفاح المسلح وحده . وهذا الوعي تجلّى في منظمة شعبية لا تخلو من شيء من الغرابة ، وكانت تسمى «**الشرطية**» . وذلك أن كثيرا من الجماعات الريفية نشأت فيها لجان حرة منتخبة من طرف الدواوير ، ويتراوح عدد أعضائها بين عشرة واثني عشر عضوا . وكانت هذه الجمعيات الشبيهة بالمجالس البلدية ذات نفوذ قوي لدى الشعب ، وقد

(1) Général Ducrot : **Correspondance**, Tome II.

نشأت بصورة مشروعة كرد فعل على سيطرة القياد أعوان الاستعمار ، وعلى تصرفاتهم الجائرة . وتهدف هذه الشرطيات أول ما تهدف ، الى **«مراقبة تصرفات القياد ، وفرض الغرامات ، ومصادرة أملاك العصاة المنشقين عن رأي الجماعة ، وشراء الخيول والأسلحة والعتاد ، واعادة النظر في أحكام القاضي واللجان التأديبية»** . وقد وصف الكولونيل لويس رين هذه اللجان الحرة بأنها عبارة عن **«جامعات تضم الفلاحين والكادحين»** وأنها **«تمثل خطرا جسيما على الأهداف التي تسعى الحكومة الفرنسية لتحقيقها** (1)**.»**

وهكذا نلاحظ بأن الوطنية الريفية أخذت منذ 1871 تبحث عن طريقة جديدة للكفاح ، زيادة على الطريقة التي درج عليها منذ 1830 . وما من شك أن «الشرطيات الجزائرية» رغم أنها كانت مجرد نواة للتنظيم الصحيح ، الا أنها كانت ، في ذلك المجتمع المهدد من طرف الاستعمار بقوانينه الجائرة وسياسته الهادفة الى توطين البلاد بالعدد الأكبر من الأجانب ، وسعيه لتجويع السكان وافقارهم ، كانت هذه الشرطيات هي البادرة الأولى لوعي سياسي جديد لا يعتمد السلاح وحده كوسيلة للكفاح ، وانما يهدف الى تهيئة النفوس وتوفير الأسباب لاستئناف الكفاح المسلح في الوقت المناسب .

ولقد يكون من المفيد هنا ــ بالرجوع الى النصوص التي جمعها ضباط الغزو الفرنسي ــ أن نضع الخطوط الرئيسية للعقائدية التي ، رغم بساطتها ، كانت هي المورد الذي نهل منه الفلاحون الجزائريون في اتجاهاتهم الوطنية . وهذه النصوص عبارة عن أجوبة كان يرد بها الأهالي

---

(1) Loüis Rinn : L'Insurrection de 1871.

انظر كذلك دراستنا :

Colonialisme et féodalité. Revue Esprit, avril 1954.

في البوادي والأرياف ، على الانذارات الشديدة المحملة بالتهديد ، والتي كان المارشال بيجو يوجهها اليهم حتى يحملهم على الخضوع .

**التهديد والوعيد :**

ويمتاز أسلوب هذه الأجوبة بالصراحة ، والتشابه في الشكل والمضمون ، ونجد فيها صورا مؤثرة تدل على التعلق بالأرض والتفاني في سبيل الوطن ، والعمل من أجل تحقيق العدالة . ويستخلص الانسان من هذه النصوص الخالية من التنميق ، المليئة بالجد ، والتعقل ، يستخلص منها وجود شعور وطني قائم على عناصر مترابطة هي : الجماعة والأمة والكيان الجغرافي . قد رأينا في موضع آخر (1) كيف أن حمدان خوجة ، وهو من رجال الفكر ، ومن الحضر ، قد عبّر عن رأيه في هذا الموضوع بأسلوب المناضل القومي . أما الفلاحون الذين كانوا يجمعون بين القول والعمل ، فقد كانت لهم لغتهم الخاصة في التعبير ، الا أن الهدف الأسمى الذي يسعى اليه الجميع ، هدف واحد .

ان أحد هذه النصوص يتعلق بالوالي العام بيجو عندما مرّ على قبائل فليتة (في نواحي غيلزان) عام 1841 ، فقرر أن يوجه رسالة الى رفاق عبد القادر في النضال ليطلب منهم أن يكفوا عن مساندته . وهذا هو رد قبائل فليتة كما رواه الجنرال دوماس : «قلت لنا بأن الأمة الفرنسية أمة كبيرة وقوية . فلتعلم اذن أن العدل من شيم الكبار الأقوياء . فلماذا تريدون الاستيلاء على بلاد هي ليست لكم ؟ واذا كنتم أغنياء ، فماذا جاء بكم الى شعب ليس له ما يعطيه لكم سوى البارود ... ؟ وأنتم بعد هذا تهددوننا بحرق محاصيلنا الزراعية واعطائها علفا للخيل والدواب ، وقد أصبنا بأمثال هذه المصائب عدة مرات ، فمرت بنا سنوات عرفنا فيها القحط والجراد والجوع ، ومع ذلك فقد كان الله دائما معنا ، لأننا

(1) الاشارة هنا الى دراسة سوف ننشرها تحت عنوان «الوطنية الحضرية والحركة القومية» .

مؤمنون ولأننا عرب ، وليس العرب ممن يقضي عليهم البؤس والشقاء ...
فلتعلم اذن بأننا لن نخضع لكم أبدا ...(1).»

وهناك انذار آخر وجهه المارشال بيجو في 1844 الى رؤساء القبائل وطلب فيه منهم أن يسلّموا اليه الخليفة ابن سالم وأن يستسلموا ، وان لم يفعلوا يحرق قراهم ومحاصيلهم الزراعية ، فتلقّى منهم الرد التالي :
**«قامت الحرب بينكم وبين أعدائكم فبقينا على الحياد ، وبذلك تغلبتم على عبد القادر ثم على السكان العرب جميعا لأننا لم ننجدهم في ساعة المحنة . أما اليوم فتصرّفكم معنا يدل على اعتقادكم بأننا خرجنا عن الاسلام بعد سقوط عبد القادر ... لقد وقعتم في خطأ كبير ، فنحن أيضا مسلمون ... ان ثلث جبالنا عبارة عن حصون طبيعية . والله ينصر المسلمين . فلا تعدونا اذن من بين رعاياكم ... وطلبتم منا أن نطرد ابن سالم ، فكيف نوافق على ذلك ، والحال أنه مسلم وأننا مسلمون ؟ واذا كنتم قد صممتم على أن تحكموا الجزائر بأكملها وأن تتغلبوا على قوم اعتصموا بالصخور والجبال فإننا نقول لكم : يد الله فوق أيديكم ، ولتعلموا أن الخسارة والربح عندنا سيان ، ومن عادتنا دائما أن نتحدّى النفي والتشريد والموت ... وجبالنا مترامية الأطراف ، فهي تؤلف سلسلة تمتد من بلادنا الى تونس . واذا لم نقدر على الصمود أمامكم ، فسوف ننسحب من موقع الى آخر ، الى أن نصل الى تلك البلاد التي سوف يجنّد ملكها ــ نصره الله ــ جيشا . وجيشه اليوم يتألف من اخوان لنا هاجروا الى تلك الديار ، وسنحذو حذوهم للانخراط في جيشه ... ولا تظنوا كذلك أن اتلاف محاصيلنا الزراعية أو أشجارنا سيجعلنا ننخذل أمامكم ، لأن هذه المحاصيل**

(1) Daumas : **Les chevaux du Désert**, pp. 102-103.

**كثيرا ما يقضي عليها الجراد أو تجرفها السيول ، وتلك الأشجار كثيرا ما تيبس وتموت ... وما الرزق الا من عند الله (1).»**

ولكي نتفهم جيدا الظروف المرافقة لهذا الانذار وللرد عليه ، ينبغي أن نعرف بأن بيجو كان قد أنكر على رؤساء القبائل نزولهم بجنودهم من الجبال الى السهول لمهاجمة القوات الفرنسية ومساندة اخوانهم العرب والأمازيغ والأمير عبد القادر .

وقد جاء في كتاب دوماس «القبائل الكبرى» ، على لسان بيجو : «**لماذا بدأتم بمحاربتنا ؟ هل تنكرون بأنكم خرجتم من جبالكم لمهاجمتنا في السهول ، بل حتى وراء أسوار البليدة ؟ وحينما قامت الحرب بيننا وبين عبد القادر ، ألم تؤيدوا قضيته جهارا ؟ ألم تتوغلوا بغاراتكم في الساحل ؟ ألم تشنوا هجومات متتالية على برج الحراش ؟ ... وكنت على استعداد لغض الطرف عن جميع الأمور التي أنكرتها منكم ، على شرط أن تنشقوا عن الأمير وخليفته ... فهل قمتم بشيء من ذلك ؟ ولقد أمددتم ابن سالم بالرجال ، فقاتلونا تحت لوائه ، وبادروني بالهجوم في وادي (السفلى) ... انكم بانضمامكم الى صف خليفة الأمير ، قد بايعتم عبد القادر** (2) .» وقد أكد الجنرال دوماس أن رسالة المارشال بيجو هذه «**قرئت عدة مرات ، وأن رؤساء القبائل أعلنوا بأن ما جاء فيها صحيح**» . وهكذا نرى بأن القسم الأول من الرد لا يخلو من الدهاء السياسي ، لأن رؤساء القبائل أعلنوا الحياد من جهة ، ولكنهم من جهة أخرى لا يستطيعون البقاء على الحياد ، لأن ذلك معناه الانشقاق عن رأي الجماعة ، وهذا ما يريده بيجو الذي يسعى الى تفريق شمل الأمة . وقد رأينا كيف أن أبناء جبال القبائل لم يقصّروا في الدفاع

(1) Daumas : **La Grande Kabylie,** pp. 301 et suivantes.

(2) Daumas : **La Grande Kabylie,** pp. 305 et suivantes.

عن سهل متيجة ومساندة ابن زعمون وخليفة الأمير في توغلهما عبر السهول والهضاب العليا ، ولم يقصّروا أيضا في ايواء المناضلين القادمين من التل ومن الجنوب ، وحمايتهم من الجيش الامبريالي المطارد لهم .

## ما أنتم الا عابرو سبيل

أما النص الأخير — وقد عزاه البعض خطأً للأمير عبد القادر — فيعدّ ، حسبما قال المؤرخ روسي «جوابا مليئا بعزّة النفس» على الانذارات التي وجهها المارشال بيجو الى السكان في سهل غريس الواقع في نواحي مدينة معسكر ، ودعاهم فيها الى الاستسلام . وهذا النص الذي نقتطف منه بعض الفقرات ، مهمّ من ناحيتين : ففيه اشارة الى القضية المصرية حينما أخلفت فرنسا وعدها بمساعدة محمد علي أثناء التدخل الأنجليزي . فأصحاب هذا الرد يستنكرون موقف فرنسا بعبارات وصفها روسي بأنها لاذعة ، مما يدل على اطلاعهم على الأحداث السياسية . ومن جهة أخرى ، فإن سكان غريس — ومثلهم في ذلك مثل أغلبية الجزائريين في ذلك الوقت — لم يمنعهم اتحادهم في الدين مع الأتراك ، من أن يعتبروا هؤلاء أجانب عن البلاد ، مما يدعو الى الاعتقاد بأن وطنيتهم متجردة عند الاقتضاء من العواطف الدينية . ومما جاء في ردهم على المارشال بيجو : «نقسم بالله أنه لن يكون بيننا وبينك لقاء الا في ميادين القتال . ولعلكم أيها الفرنسيون تظنون بأنكم قادرون على أن تحكموا العرب ... فَهَلّا حكمتم بلادكم ! أما سكان هذه البلاد ، فلن تنالوا منهم سوى البارود . ولتعلم أن رئيسنا وامامنا عبد القادر نعدّه منا والينا . ونحن أصحاب البلاد ، وما أنتم الا عابرو سبيل . وحتى لو بقيتم ثلاثة قرون كالأتراك ، فلابد من أن تخرجوا . وهل يخفى عليك أن بلادنا تمتد من وجدة الى تونس ، وأنها تضم الجريدَ والتل والصحراء ، وأن المرأة عندنا قد تقطع وحدها كل هذه المناطق الشاسعة من غير أن يصيبها أي

سوء من أحد ، وأن نفوذكم لا يتجاوز التراب الذي تدوسه أقدام جنودكم ؟ ولكي تتأكد من هذا ، ما عليك الا أن تذهب الى الصحراء ، فسوف ترى كيف أن سكان الجزائر ووهران ومستغانم يجردون من أرزاقهم ويقتلون تقتيلا على أبواب هذه المدن (1—2) .»

## وطنية الفلاحين وأبعادها القومية

وهكذا يتبين لنا أن وطنية الفلاحين في الجزائر كانت في الفترة الممتدة ما بين 1830 و 1871 ظاهرة عمّت سائر أرجاء البلاد وتغلغلت في النفوس . ولئن لم تتبلور تلك الظاهرة عن فكر عقائدي واضح ، فقد كانت بدون جدال ذات أبعاد قومية . واذا كان الفلاحون في السهول أو في جبال القبائل يقولون عن أنفسهم بأنهم «عرب» أو «مسلمون» ، فلم يكونوا في الواقع يقصدون بهذه العبارات أي تعصّب لشعب من الشعوب أو لدين من الأديان . ولئن صح أن ابن سالم ، خليفة الأمير عبد القادر ، كان قد صرّح لدى استسلامه في شهر فبراير 1847 ، حسبما رواه أحد الشهود (3) : «**لقد حاربنا الى يومنا هذا للدفاع عن حريتنا وديننا** .» ، لئن صحّ ذلك ، فإن الدفاع عن الحريات ، على أية حال ، قد احتل الدرجة الأولى بالنسبة لاهتمامات الأفراد والجماعات . ومما يذكر في هذا المجال ، أن الأمير عبد القادر دخل الى منطقة القبائل في 1837 برضى أهلها ، لكي يطرد منها الزواتنة ويعاقبهم . والزواتنة هؤلاء جالية من العساكر يتعاطون الزراعة ، وقد استقروا في البلاد منذ عهد بعيد . ورغم كونهم مسلمين ، فقد ظلوا يعتبرون جالية أجنبية ضررها أكثر من نفعها في حظيرة الأمة الجزائرية ،

(1) C. Rousset : **La conquête de l'Algérie**, 1841, T. I, pp. 50-52.

(2) C. Rousset : **La conquête de l'Agérie**, mêmes pages.

(3) Général Ducrot : **Correspondance militaire**, T. I, p. 172.

خاصة أنهم أقبلوا بعد 1830 على خدمة ركاب الامبريالية الفرنسية ، مما حمل الأمير عبد القادر على أن يتصدى لمعاقبتهم .

وهناك أحداث أخرى نأمل أن نلقي عليها في المستقبل مزيدا من الأضواء ، وهي تدل على وحدة الأهداف القومية والعواطف الوطنية التي كانت تجيش بها نفوس الجزائريين من أقصى البلاد الى أقصاها . ومن تلك الأحداث ، الاجتماع العام للوفود الجزائرية في 1838 ، بمعسكر بوخرشفة (الواقع بالقرب من مليانة) في مؤتمر هام حضره الأمير عبد القادر ... ومنها أيضا أن عددا من رؤساء منطقة القبائل توجهوا مرتين ، بقيادة خليفتهم ، لملاقاة الأمير من أجل تبادل الآراء معه . وتمّ الاجتماع الأول في 1841 ، بقرية تدعى شهبونية ، بجنوب بوغارة ، والثاني في 1846 ، أي عندما بلغت الحرب أشدها ، بجبال صحارى ، في الجنوب الغربي من ولاية الجزائر ... ومنها أيضا ذهاب الأمير عبد القادر الى وادي الصومام ، وتنظيم الكفاح المسلح في الأوراس ووادي سوف من طرف مساعده محمد بن الحاج . ولابد من أن نضيف الى هذه الأحداث ، أمثلة أخرى تدلنا على مدى اتساع تلك الحركة التاريخية ووحدتها ، وذلك النضال القومي الذي ما فتيء ينمو ويتزايد وينتقل من مكان الى آخر حتى عمّ سائر أرجاء الجزائر . ومن تلك الأمثلة أن الأمير عبد القادر ، حينما كان في ولاية وهران ، أصدر أوامره لخليفته في ولاية الجزائر الوسطى (بركاني) الذي كان مركزه في مدينة المدية ، بأن يتوجه بجيشه للاستيلاء على مدينة بسكرة ، في جنوب ولاية قسنطينة ، تلك المدينة التي كان سكانها على استعداد للانضمام للأمير ، رغم المنافسة القوية على هذه الواحة الهامة بين الاقطاعيين المتحالفين مع الامبريالية الفرنسية ، وبين آخر باي تولى الحكم في مدينة قسنطينة ... ومن تلك الأمثلة أيضا أن مائتين من الشبان الذين كانوا قد انخرطوا في الجيش الفرنسي بقسنطينة في 1837 ،

لم تطل بهم المدة في صفوف العدو ، فأخذوا ينسحبون الواحد بعد الآخر أثناء تحركات الجيش الفرنسي ، الى أن اجتمع شملهم مرة أخرى تحت الراية الجزائرية وفي صفوف الجيش النظامي الجزائري بولاية وهران ... ومنها أيضا أن الجنرال شانغارنيي ، حينما زار في شهر أكتوبر 1842 منطقة التيطري الشرقية «**التي لم يدخلها بعد أحد من الفرنسيين**» ، كتب في مذكراته يقول : **بالرغم من أن سكان التيطري لم يعانوا بعد من الحرب ، فقد ملّوا منها سلفا بسبب الخسائر الفادحة التي ألحقتها بأبنائهم في مختلف المعارك** (1) وبالفعل فإن أهالي هذه المنطقة التي تقع في جنوب جبل ديرة ، كانوا قد حاربوا الجيش الفرنسي في مختلف أنحاء الجزائر تحت راية خلفاء الأمير : ففي نواحي المدية وشنوة ، بالقرب من شرشال ، حاربوا تحت راية بركاني . وفي الحضنة والبيبان حاربوا تحت قيادة ابن سالم . وفي الصحراء الشرقية وفي الأوراس حملوا السلاح تحت راية عبد الباقي ومحمد بن الحاج . هذا ، مع العلم بأننا لم نذكر الا منطقة واحدة كمثال ، من بين العديد من المناطق التي شارك سكانها في المعارك بعيدا عن مسقط رأسهم ، أو أرسلوا نجدات الى الولايات الجزائرية الأخرى .

يناير 1976

★ ★ ★

---

(1) Changarnier : Mémoires, p. 271.

# الفصل الرابع

## مسيرة الجزائر إلى الحرّية

### القانون الأساسي الجزائري

تحدثنا في مقال سابق خصصناه للمغرب(1) ، عن الخطأ الذي وقعت فيه السلطات الرسمية في تكهناتها حول تطور الأحداث الخطيرة التي عرفتها تلك البلاد طيلة سنتين . ولذلك أصيب الضباط المتخصصون في شؤون افريقيا الشمالية ، وأساتذتهم من أساطين «السياسة الاسلامية» ، أصيبوا جميعا في هذه الأيام الأخيرة بخيبة الأمل ، فتزعزعت ثقة الناس في عملهم واطلاعهم على الأمور . ولقد يتساءل الانسان عما اذا كانت تكهناتهم تلك تنطبق على الجزائر ... وحينئذ ما علينا الا أن نرجع الى ما قاله أحد هؤلاء ، وهو روبير مونطانيو Robert Montagne الذي يعتبر صاحب مدرسة معروفة بالتفاؤل المفرط ، وبالأفكار المغرضة . فهذا المؤلف يقول في كتابه «ثورة في المغرب» ، قبيل اندلاع الثورة الجزائرية بحوالي سنة : «ان الولايات الجزائرية الثلاث — بفضل وجود المجلس الجزائري المتمتع باختصاصات مالية واسعة — تؤلف اليوم مقاطعة فرنسية ذات نظام شبيه بالاستقلال . ويجري اعداد

(1) انظر مجلة : Présence africaine décembre 1955, – janvier 1956.

القوائم الانتخابية المشتركة «**بين الأحزاب الفرنسية والأحزاب الاسلامية في جو من التحالف والوئام ، وهذا الأمر من شأنه أن يهيء تدريجيا لقيام اتحاد تام بينها . فالجزائر بأكملها تبدو اليوم ، في هذا الخضم المضطرب الذي عمّ الشرق كله ، تبدو كأنها الصخرة الصماء التي تتهالك أمواج البحر أمامها ، وفوق هذه الصخرة يرفرف العلم الفرنسي حرا طليقا**» .

ان هذه اللوحة المثالية ، لو أنها كانت لأحد الصحافيين المبتدئين من ذوي الخيال الخصب ، لقابلناها بابتسامة المتسامح . ولكن مكانة هذا المؤرخ ، وما لأفكاره من تأثير على رجال الادارة الاستعمارية وعلى كبار الموظفين ، جعلت هذا الخطأ في الحكم يبدو فادحا جدا . ويمضي المؤلف على نفس الفكرة المتفائلة التي هي بالنسبة اليه حقيقة مسلّم بها ، لأنها حدث مسجل في صفحات التاريخ ، وستبقى مثالا تحتذيه الشعوب الآسيوية والافريقية التي لا تزال تعيش في حكم التبعية ، وهكذا يمضي في كلامه الى أن يقول : «**اذا نظرنا الى افريقيا ، فإن الجزائر وحدها هي التي استطاعت فيما يبدو ، بفضل قانونها الأساسي ، أن تجد الحل الملائم للتعاون بين الأجناس والطوائف الدينية المتواجدة ، في ظل حكم شبيه بالاستقلال . ونحن نعتقد بأن النجاح هنا مرجعه إلى كونها تضمن للمسلمين السائرين في طريق التقدم والرقي ، نصيبا أوفر في الادارة وفي مناصب الحكم في البلاد** (1) .»

ان القارىء ، مهما كان جاهلا بالموضوع ، سوف يدرك ولو من التعليقات التي رافقت منذ 1947 صدور قانون الجزائر الأساسي التعس ، سوف يدرك أن الحالة التي كانت عليها البلاد في 1953 تكذّب تكذيبا قاطعا كل ما ادّعاه روبير مونطانيو . فهذا القانون ، ما

---

(1) Robert Montagne: Révolution au Maroc, éd. 1953.

كاد يمضي عام واحد على اقراره من طرف المجلس الوطني الفرنسي ، حتى أخذ بعضهم منذ 1948 ، أي قبل الشروع في تطبيقه ، يدينونه في خطوطه العامة ، ويتوقعون للجزائر أسوء العواقب في ما لو طبّق (وهل طبق في يوم من الأيام ؟) . وينبغي أن نضيف بأن الممثلين الجزائريين في البرلمان الفرنسي لم يوافقوا عليه ، وأن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري قابلته بمزيج من اللامبالاة والمناهضة والخيبة في الأمل ، بل أن بعض المفكرين السياسيين الواعين ـــ وان كانوا أحيانا متحاملين على القومية الجزائرية ، ومن الدعاة الى نوع من أنواع الاندماج ـــ وجدوا أنفسهم مضطرين للقول على لسان أحدهم (سيلفان ويسنر Sylvain Wisner) بأن «**القانون الأساسي الجديد لا يعتبر في الحقيقة جديدا ، بل هو قانون ثابت لا يكاد يختلف عن وضعه الأول ، ومستور بطلاء ناعم رقيق لاخفاء فظائع النظام القديم ...(1)** » ومضطرين أيضا للاعتراف بهذه الحقيقة الرهيبة : «**ها هي ذي سنة بالضبط تمضي ، ولا نزال في نفس المكان ندور ... ان مفترق الطرق أخذ يتحول أمامنا الى طريق مسدود . ولا نزال نتردد في انتهاج المنهج القويم المؤدي الى المستقبل . وفي هذه الأثناء نرى الأبواب كلها تغلق أمامنا ، وبذلك أخذت تتضاعف الأسباب الداعية لانفجار القوى الشريرة المضغوطة ، والعواطف المكبوتة في هذا الطريق المسدود (1)** .».

والحقيقة ان ويسنر ، اذ يتحدث عما سماه «القوى الشريرة» و «العواطف المكبوتة» ، قد نسي أن يتحدث عن مسؤولية المعمرين وشركائهم في نشوء هذه القوى وانفجار هذه العواطف ، بعدما تجاوزوا الحدود في التمرد على القوانين . ان تزوير الانتخابات ، وفرض المرشحين على الناس ، وشراء الضمائر ، كل ذلك أفضى الى بروز مجلس جزائري

---

(1) Sylvain Wisner : L'Algérie dans l'impasse, éd. 1948.

يضم بين جنباته أتعس من احتلّ مقاعد النيابة من مخلوقات الله ، علما بأن ذلك المجلس مجلس استشاري لا أكثر ، وهو خاضع كل الخضوع لارادة الوالي العام الذي بيده حق الرفض ، ويتمتع هو ، ورجال الادارة التابعون له ، بالسلطة المطلقة . والحقيقة أن سيلفان ويسنر نفسه ، قال بصدد الحديث عن هذا المجلس ، بأنه «**مظهر مزيف من مظاهر الحكم الديمقراطي**» ، وأنه «**مؤسسة أقرب ما تكون الى الأنظمة البائدة القائمة على سيطرة الحزب الواحد**» . ومن الجدير بالذكر أن هذا الكلام قيل في 1948 . وأن الوضع ما فتيء يتدهور في السنوات التالية ، بسبب القوانين الجائرة التي وضعها المجلس الجزائري . ومما زاد الطين بلة أن مصدر الشر لم يقتصر على كبار الموظفين الذين «منحهم القانون الأساسي مزيدا من السلطة» بل تعدّى هؤلاء الى النواب الذين أخذوا يمارسون سياسة وخيمة قائمة على تبذير الأموال ، والتنكّر للقوانين الاجتماعية والاعراف الديمقراطية . وهكذا تجمعت القوى الرجعية في ارذل صورة ، فتشكلت هيئة من الملّاك الكبار ، ومن المعمرين الأوربيين ذوي التصرف الصبياني ، ومن الأعيان المسلمين الذين رفعهم الوالي العام نايجيلين Naegelen في الانتخابات الى مقاعد النيابة ، رغم جهلهم وخمولهم ، بعدما أخذ يطارد الوطنيين المترشحين في الانتخابات أو يزج بهم في السجون . وعلى إثر ذلك ظن المنتخبون من طرف الادارة ، والمعمرون أن النصر أصبح حليفهم ، وأن المشكلة سوّيت نهائيا ، وأن الأمر آل اليهم الى أبد الآبدين . على أن هذه المهزلة المتمثلة في المجلس الجزائري ، من نتائجها أنها أوضحت للعيان ، وأبرزت هذا الداء الوبيل ، داء الاستعمار الذي تفشّى في كل مكان ، وهذا «الاستياء» الذي عمّ السكان ، والذي كثيرا ما تحدث عنه المؤلفون في السابق ، وظنوا أنه محصور في النطاق الاقتصادي والاجتماعي .

## نشاط الأحزاب القومية

وقد سبق لنا أن أشرنا الى أن القانون الأساسي الجزائري ، عندما صادق عليه المجلس الفرنسي ، لم يحصل هناك على أصوات النواب القوميين الجزائريين ، لأن هؤلاء ــ بالاتفاق مع الكتل السياسية ذات الاتجاه المتماثل أو المتقارب ــ كانوا يطالبون اما بإقامة مجلس وطني تأسيسي متمتع بالسيادة ، ينبثق عن انتخابات عامة تشارك فيها جميع عناصر السكان للسير بالبلاد في طريق الاستقلال ... واما بتأسيس دولة فيدرالية متمتعة باستقلال ذاتي واسع ضمن الاتحاد الفرنسي ، أو اعتبار الجزائر بلدا عضوا له برلمان ومؤسسات خاصة به . وكانت الحركة القومية آنذاك ، والمتمثلة في حزب «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطيـة» (ح . ن . ح . د . M.T.L.D.) وحـزب «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري» (ت .د . ب . ج . U.D.M.A.) ، كان شأن هذه الحركة يتعاظم باستمرار ، مما أدى الى نجاح عدد كبير من المناضلين في الانتخابات البلدية والولائية ، وبذلك أتيح لهؤلاء أن يعبروا الى حد ما عن الشعور الجديد الذي كان يختلج في نفوس أبناء الشعب قبيل المصادقة على القانون الأساسي وبعده . وقد أحرزت الأحزاب القومية ، وبالأخص حزب (ح.ن.ح.د) ، وهو أكثرها شعبية ، على نجاح منقطع النظير ، وازداد المنخرطون فيها ، كما ازداد عدد الناخبين لصالحها من حيث الكم ، ان لم يكن من حيث الكيف . وهذا الأمر يدل على أن القانون الأساسي ، في صورته تلك ، كان بكثير دون الهدف القومي ، ودون مطامح الشعب الجزائري عامة . وقد ظنت الحكومة الفرنسية التي لم تضع في الحسبان ما يمكن أن تصادفه من عقبات وضغوط من طرف المعمرين وكبار الموظفين أن القانون الأساسي عندما يطبق تطبيقا صحيحا ، سوف يساعد في احباط ما كان يسمى «الخطر» المتمثل في

الحركة القومية ، في حين أن هذا «الخطر» ليس في الحقيقة سوى التعبير الصادق عن الارادة القومية في تقرير المصير وتحقيق الاستقلال السياسي . ونحن نعرف اليوم ماذا كان مصير هذا القانون الأساسي ، أولا في عهد الوالي العام نايجلين ، مع أنه من رجال الفكر ، ومن الأساتذة الجامعيين الكبار سابقا ، الا أنه فيما يبدو ، كان يعاني من العقد النفسية تجاه كبار المعمرين المتعصبين ، فأراد أن يتفوق عليهم في التعصب ونجح في مسعاه ... ثم في عهد حاكم آخر من حكام البلاد ، وهو السيد ليونار Léonard الذي كان عمله سلبيا ، من حيث أنه سعى لارضاء الجميع . ومنذ سنة 1955 آل أمر الجزائر الى رجل آخر من رجال «الفكر» ، وهو السيد سوستيل Soustelle الذي اتخذ فيما يبدو نفس الموقف الذي اتخذه السيد نايجلين من الاقطاعيين الأوربيين .

ومن الغريب أن العمل من أجل احباط الحركة القومية ، عوضا من أن يتم عن طريق تطبيق القانون الأساسي ، كما كان مقررا في البداية ، قد تمّ على العكس عن طريق عرقلته ، باستعمال وسائل القمع ، واستنزاف ثروات البلاد من طرف الملّاك الكبار . وقد كان من الواضح أن فريقا من المستعمرين كانوا يتظاهرون ــ نفاقا ــ بأنهم لا يكرهون سوى المناضلين القوميين ، في حين أن فريقا آخر منهم كانوا يحقدون على الشعب بأسره ، من غير تمييز . والدليل على ذلك أن كبار المعمرين ، وكبار الموظفين ، لم يكونوا يميزون بين أفراد الشعب وبين قادة الحركة القومية ، فأدانوهم جميعا ، وحكموا عليهم حكما عاما ، وهذا ناتج عن قصورهم في النظرة السياسية وتهافتهم لقضاء مصالحهم الخاصة . ولقد **يصدف** أحيانا ــ نظرا لوجود أواصر ومصالح مشتركة بينهم ، ونظرا كذلك الى احتياجهم للدعم والمؤازرة في مساعيهم للسيطرة ــ قد يصدف أحيانا أن يتخذوا لأنفسهم بعض الأعوان من أعيان المسلمين ، ومن القيّاد

والمرابطين وغير هؤلاء من العملاء الذين مكنهم الاستعمار من الحصول على الثروة العاجلة ، وعلى المقاعد في مختلف المجالس ، بل في البرلمان الفرنسي بالذات . وهكذا ، فإن الأقليات الصغرى المحظوظة أخذت تكتّل صفوفها في اطار نظام تشريعي زائف ، وتحت ستار الديمقراطية الكاذبة ، لكي تواجه الأغلبية الساحقة من الشعب . أما الأحزاب السياسية ، وبالأخص حزب (ح.ن.ح.د) ، وهو الحزب القوي الجماهيري الذي اتسع نفوذه بشكل خارق للعادة في السنتين 1946 و 1947 ، هذه الأحزاب ما لبثت أن أخذت تصادف عراقيل في انطلاقتها ، وأصبحت مهددة في وجودها الشرعي منذ فصل الربيع من عام 1948 ، وهو العام الذي جرت فيه الانتخابات للمجلس الجزائري . على أن نشاط حزب (ح.ن.ح.د)بقي على ماكان عليه رغم القمع الشديد ، .كما أن عدد المنخرطين في صفوفه لم ينقص ، وان كان مركز اهتمامهم منصبا بالدرجة الأولى على الانتخابات ، مما جعل نشاطهم يستقطب حول أهداف محدودة ومشكلات ثانوية . وهكذا أصبحت الحاجة ماسة الى التجديد في الطرائق والكفاءات البشرية ، بالرجوع الى القاعدة الشعبية ، عن طريق عقد مؤتمرات دورية موسّعة . ولكن شيئا من هذا لم يحصل ، وبقي الحزب يدور في هذه الحلقة ، وبذلك فقد الدفع الثوري الذي انطلق به ، وصار عمله عقيما .

## أزمة في صفوف الحركة القومية

هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فلم يحصل الاتحاد بين الاتجاهات التقدمية المتماثلة ، مما جعل السلطات الاستعمارية تتجاسر على هذا الحزب الجماهيري بالبطش والقمع . وكانت هذه السلطات تطارد المناضلين وتعاملهم لا على أساس أنهم وطنيون يتألمون لما حل بوطنهم من ظلم واضطهاد ، بل تعتبر كل معارضة لسياستها عملا

محصورا في نطاق حفنة من الزعماء ومن القوميين المنخرطين في الأحزاب .
فهل كان من الممكن ــ أمام تلك الوضعية الخطيرة ، وأمام ذلك الكفاح الذي خرج عن صورته القديمة ، أي الصراع بين الادارة الاستعمارية والحركة القومية ــ هل كان من الممكن أن لا تتحرك الأجيال الصاعدة والشبيبة الشغّيلة والمثقفة ، والعمال المستغّلون ، والملايين من البطالين ، والعديد من ذوي العقل والفكر السليم ؟ ان بعض المتخصصين في «الشؤون الاسلامية» ، ومن سار على منوالهم من رجال الادارة الاستعمارية ، كانوا يظنون بأن القومية الجزائرية انما هي عقائدية مستعارة (أصلها من المشرق العربي) ، وأنها دخيلة على البلاد ، وليس لها أي ارتباط بتاريخ الجزائر ، ولا تلبي أية حاجة للكفاح . فالقومية الجزائرية في زعمهم انما هي من صنع حفنة من المشاغبين والمثقفين ، في حين أن الجماهير الشعبية والطبقات الوسطى لا علاقة لها بالنضال السياسي ، ولا تهتم الا بمشاغلها المادية . والحقيقة أن المناضلين كانوا مرتبطين أشد الارتباط بالشعب ، وكان هذا يتقبّل كل ما يأتيه من هؤلاء ، وكان متهيئا لنشر الأفكار القومية ، الى درجة أن اضطهاد السكان اقتصاديا وعسكريا (وما أكثره قبيل فصل الخريف من عام 1954 !) ــ وكان بالأصل مسلّطا على الوطنيين وحدهم ــ قد أخذ فيما بعد يصيب بصورة مباشرة أو غير مباشرة جماعات كثيرة من الشعب ، مما ساعد على خلق الجو النفسي الذي عجّل بانتشار الوعي السياسي . ولكن ، على الرغم من كل ذلك ، فقد كانت آفاق المستقبل لا تبشر بالخير ، لأن الأحزاب السياسية آل بهاالأمر الى الدوران في حلقة مفرغة ، بل كان هناك خطر في أن تتحول الى مجرد حركة اصلاحية عديمة الجدوى ، بحكم تنازلها عن المبدأ الأساسي القومي ، وأن يقتصر عملها على صيانة المظاهر ورفع الشعارات الديماغوجية .

وعلى أية حال ، فإن الاستياء أخذ ينتشر بين المناضلين حتى شمل أكبر الأحزاب القومية شأنا ، وهو حزب (ح.ن.ح.د) ، فالمؤتمر الذي عقد بمدينة الجزائر في شهر أبريل 1953 — وهو الثاني ، بعد المؤتمر الأول الذي مضت مدة طويلة على عقده — هذا المؤتمر حاول أن يرتفع الى مستوى الأحداث ، وأن يحدد سياسة مناسبة ، وأن يضع خطة جديدة للعمل . وكان زعيم هذا الحزب — وهو السيد مصالي الحاج — كان آنذاك في اقامة جبرية بمدينة نيورت Niort بفرنسا . ومما لا شك فيه أن موقفه من اللجنة المركزية للحزب ، وتصوّره الاقطاعي لنفسه كزعيم أوحد ، كانا من بين العوامل التي عجّلت بقيام هذه الأزمة ، وأحدثت نتائج غير متوقعة بالنسبة الى الكفاح القومي . فعلى الرغم من أن زعيم حزب (ح.ن.ح.د) كان بعيدا عن البلاد في اقامته الجبرية ، وأنه كان مقطوع الصلة مع الحزب ، وأن معرفته للوقائع الجزائرية الراهنة ، وللعمل السياسي المتطور يوما بعد يوم كانت ناقصة ، فإنه رغم ذلك كله أصرّ على المطالبة بالسلطات المطلقة على مدى الحياة . وبما أن اللجنة المركزية اعتبرت هذا المطلب منافيا للمبادىء الديمقراطية ، وغير ملائم للأوضاع الراهنة ، بحكم وجود مصالي الحاج في المنفى ، فإن هذه اللجنة دعت المؤيدين لها الى عقد مؤتمر في بلجيكا ، في السنة التالية ، أي في الصيف من عام 1954 . ولم يمض الا وقت قصير على هذا الحدث حتى حصل الانشقاق بعدما أعلن أصحاب مصالي الحاج حلّ اللجنة المركزية للحزب ، مما جعل هذه اللجنة تعقد بمدينة الجزائر مؤتمرا قوميا للاعلان عن فصل رئيسها السابق ، واعتبار نفسها هي السلطة السياسية الوحيدة للحركة .

**الحركة القومية : من الانشقاق الى الوحدة**

ولا شك أن هذه الأحداث كلها جعلت الادارة الاستعمارية تستبشر بها خيرا وتعتبرها من علامات انحلال هذا الحزب الذي يعدّ

أكبر الأحزاب القومية الجزائرية وأعظمها شأنا . وقد تأسّف العديد من المناضلين لهذا الانشقاق ، وأخذوا يستعدون للانفصال عن هذا الحزب . على أن هناك مناضلين آخرين لا يقلون عن أولئك عددا ، بل يتميزون عليهم بالجد والنشاط . وكان هؤلاء في صف المعارضة داخل الحزب ، بسبب استيائهم من مشاركة الحزب في الانتخابات ، ومن العمل الارتجالي الذي درج عليه بعض قادة الحزب ، ومن انسياق هؤلاء للحياة البرجوازية . وكانوا على العموم ساخطين على ما آل اليه الحزب من جمود ، بعدما تبين لهم أنه لا أمل في تغيير الأوضاع اذا ما انحصر العمل في الاطار القانوني ، مما جعلهم ينتهجون طريق العمل السّري . وفي هذه الأثناء نظموا صفوفهم في نطاق اللجنة الثورية للوحدة والعمل (ل.ث.و.ع. .C.R.U.A) . وكان أعضاء هذه اللجنة لا ينحازون لفريق من حزب (ح.ن.ح.د) دون فريق ، وبذلك تشكلت منهم قوة ثالثة اعتمد عليها مناضلو القاعدة ، بل حتى الاطارات العليا منهم ، اعتمدوا عليها من أجل استئناف الكفاح بطريقة جديدة ، وانقاذ وحدة الحركة القومية التي أصيبت بالانشقاق نتيجة لعدم تقدير قيادة الحزب للمسؤولية . وهذا الأمر هام جدا ، لأن القاعدة قلما أتيحت لها الفرصة في السابق كي تفرض آراءها . فهي ، بحكم صلتها الدائمة بالجماهير الشعبية التي انبثقت منها ، وبحكم اطلاعها على ما يعتمل في نفوس الشعب ، قد أدركت قبل أن تدرك القيادة المسؤولة ، الخطر الذي يهدد حزبا آل به الأمر الى الجمود والتفرق .

## اندلاع الثورة في 1954

ان المبادرة الجريئة التي اتخذتها (ل.ث.و.ع) عشية عيد القديسين (La Toussaint) ، أي في أول نوفمبر من عام 1954 ، قد عبّرت أحسن تعبير عن الرغبة الكامنة في النفوس ، وعن تصور القاعدة للنضال . ولم

يكن أحد في الماضي يحفل بآرائها . وكان اندلاع الثورة مفاجأة للجميع . فالسلطات الاستعمارية كانت لا تزال تستبشر خيرا بالانشقاق الذي حصل في صفوف حزب (ح.ن.ح.د) ، والحكومة الفرنسية كانت مشغولة بالمشكلة التونسية ، والرأي العام الفرنسي كان يشاطر رجال الصحافة والسياسة تفاؤلهم بالنسبة للجزائر . وأول اجراء اتخذته الحكومة الفرنسية عندما علمت بما وقع في الجزائر ، هو القاء القبض على عدد من أعضاء القيادة المزدوجة لحزب (ح.ن.ح.د) ، واعلان حل هذا الحزب . وعندما أحسّ المناضلون بما يتعرضون له من مطاردة ، سارع البعض منهم الى الاختفاء والانزواء ، وسارع البعض الآخر الى الالتحاق بجبهة النضال في الأوراس والقبائل . وعلى اثر ذلك دعت (ل.ث.و.ع) ــ التي تحولت الى مجلس قيادة لجيش التحرير ــ دعت المناضلين الى التخلص من كل تبعية للأحزاب ، من أجل تحقيق الوحدة على صعيد آخر غير الصعيد الحزبي . ولجأت السلطات الى أسهل الحلول ، وهو القمع والاضطهاد، فأخذت في جبال الأوراس تقنبل القرى ، وتجلي السكان بالقوة ، وتقوم بترحيلهم الى مكان بعيد ، وامتلأت السجون والمعتقلات بخليط من الأبرياء ، من غير تمييز بين المشبوهين والمناضلين القدامى في الحزب المحلول . وفي السابع من شهر نوفمبر 1954 ، اعترف وزير الداخلية الفرنسي السيد ميتران Mitterrand في تصريح له، بأن القانون الأساسي لعام 1947 لم يطبق بعد في الجزائر . على أنه هو أيضا تبنّى الشعارات التي كانت تردّد في السابق ، من نوع : «الجزائر هي فرنسا وفرنسا لن تعترف بأية سلطة أخرى غير سلطتها» . أما السيد بيير منديس فرانس Pierre Mendès-France ، فكان هو أيضا يضرب على نفس الوتر ويقول : «ان ولايات الجزائر تعتبر جزءا من الجمهورية ، فهي فرنسية منذ مدة طويلة ، وسكانها يحملون الجنسية الفرنسية ، وقدموا البراهين

الكافية على تعلقهم بفرنسا» . وأخيرا ، فإن الوالي العام الجديد ، السيد جاك سوستيل ، ذهب الى أبعد من هذا في شهر فبراير 1955 عندما ركّز على بعض المبادىء البالية ، بلهجة السياسي المصمم على استعمال القوة مع شعب مغلوب على أمره : «**ان فرنسا هي هنا في بلادها ، بل ان الجزائر وجميع سكانها يشكّلون جزءا لا يتجزأ من فرنسا ... وهذا يعني أن فرنسا اختارت الحل الأنسب ، وهذا الاختيار هو الادماج** «intégration» .

ولا يخفى على أحد هنا أن الاختيار لم يكن الا من جانب فرنسا ، لأن الشعب الجزائري كان له دائما وأبدا اختيار واحد ، وهو الاعتراف بشخصيته القومية الخاصة ، كما برهنت على ذلك الأحداث والمآسي التي مرّ بها . وقد كان يظن أن النيران سوف تنطفيء بسرعة ، الا أن سعيرها بقي متأججا أشهرا طويلة . ورغم القمع الشديد ، فإن الجبهة المفتوحة في جبال الأوراس استقطبت العديد من الشبان ، وأيقظت النفوس من غفلتها . أما جبهة القبائل ، فقد أصبح لها نظام تسير عليه ، وتوسعت حتى بلغت السهول المجاورة لمدينة الجزائر . وفي شهر أبريل صوّت البرلمان الفرنسي على قانون الطوارىء الذي قدّمته الحكومة ، ويهدف في زعم أصحابه الى تصفية حركة التمرد بسرعة . وقد تبيّن للسلطات أن المجاهدين في الجبال كانوا يتلقون العون والمساعدة من أبناء الشعب ، ولذلك فإن قانون الطوارىء نصّ على نظام المراقبة الصارمة ليل نهار ، كما نصّ على أحكام زجرية عاجلة . ولكن هذا القانون الاستثنائي الذي طبق بمنتهى الصرامة ، والذي كان حافلا بأنواع من الظلم والاضطهاد ، لم يحدث الأثر النفسي المطلوب ، فلم يمض الا شهر واحد على التصويت الذي انبثق عنه قانون الطوارىء ، حتى فتحت جبهة أخرى تعدّ أكبر الجبهات ، وكأنها ما فتحت الا لكي تتحدى الاستعمار : فقد فتحت

في تلك المنطقة الشمالية من ولاية قسنطينة حيث أنشأ الفرنسيون العديد من المستعمرات ، فقوي نفوذها واشتد أزرها .

## جبهة التحرير الوطني تقود الكفاح

وعندما حلّ الربيع من عام 1955 ، بلغت المقاومة الجزائرية درجة من القوة والتنظيم لم يسبق لها مثيل . فجيش التحرير أصبحت تسانده هيئة سياسية نشيطة جدا هي جبهة التحرير الوطني التي حلت محل الأحزاب القومية الأخرى ، بعد ظهور فشلها . وتوحدت كلمة الشعب على الصعيد الايديولوجي ، وساعدت حركة القمع في توجيه أبناء الشعب للعمل في جبهات القتال . كما أن النواب في المجلس الجزائري ، والأعيان المسلمين الذين كانوا في معظمهم يخدمون ركاب الاستعمار ، لما له عليهم من فضل في رفعهم الى مقاعد النيابة وتوفير الرزق لهم ، هؤلاء النواب والأعيان أخذوا يتمرّدون على أسيادهم المستعمرين ، وكانت تلك بداية التعقل بالنسبة للنواب الجزائريين من صنائع الاستعمار . وبعد مضي ثمانية أشهر ، أي في شهر سبتمبر 1955 ، فإن تطور العقليات بلغ حدا جعل هؤلاء النواب الذين كانوا دائما من أعوان الاستعمار ، يتخذون موقفا متشددا من اصلاحات الوالي العام سوستيل ، ومن المشروع الرسمي للادماج ، حتى أن مجموعتهم (مجموعة الواحد والستين) التي تشكلت في 26 سبتمبر ، أخذت تتحدث عن «الفكرة القومية الجزائرية» التي لم يجد هؤلاء النواب بدّا من الاعتراف بها في آخر الأمر ، بحكم رضوخهم للأمر الواقع ، ولذلك أخذوا يدافعون عنها . والذي دعاهم الى اتخاذ هذا الموقف الواضح هو شعورهم بوجود وعي جديد في هذه البلاد التي تطورت فيها الأمور خلال عشرة أشهر ، من تمرد بسيط الى ثورة بالمعنى الصحيح للكلمة . ولكن السلطات الاستعمارية ، والجيش ، والشرطة ، والحكومة نفسها ، لم تفهم معنى لهذه الحركة ،

وظلت تمارس نفس الأساليب الادارية البائدة ، وتستعمل أحيانا أسلوب الأب النصوح ، وأحيانا أخرى أسلوب الارهاب ، وتعتبر أن المشكلة الجزائرية منحصرة في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ، وتستخدم ما لديها من نفوذ عن طريق القوة الغاشمة التي لم يعد أي جزائري يكترث لها ، ولا تريد أن تعترف بما أصبحت طبقة الفلاحين تقدّمه من دعم مادي ومعنوي للانتفاضة الثورية . وهذا العامل الأخير هو العامل الأساسي الجديد الذي جعل الأعيان والنواب الجزائريين يتدبّرون في الأمر ويفكّرون ، وذلك أن خوض المعركة لم يعد مقصورا على المنخرطين القدامى في الأحزاب القومية ، وأغلبهم سكان المدن ، من عمال أو أفراد من الطبقة البرجوازية الصغرى ... بل دخلت الى مسرح الأحداث طبقة أخرى أوفر عددا وأكثر نشاطا واستعدادا للتضحية بالغالي والنفيس ، وهي وحدها القادرة على اعطاء الكفاح بعدا جديدا .

### القضاء على نظام الأحزاب

ولا شك أن هذه الظاهرة مرتبطة بظاهرة أخرى متمثلة في القضاء على نظام الأحزاب القائم على الطاعة والامتثال للأوامر . وذلك أن مناضلي القاعدة الشعبية عاهدوا أنفسهم باخراج الحركة القومية من الطريق المسدود ، ولذلك التفّوا حول (ل.ث.و.ع) . وحتى لو فرضنا أن الفلاحين لم يكونوا أبدا يفكرون في الجانب السياسي من المشكلة الجزائرية ، فإن الاحتكاك يوميا بالادارة الاستعمارية ، على ما هي عليه من قصور ، وكثرة كاثرة في العدد ، وتكبّر ، وانفصال عن السكان ، وتعسّف في المعاملة ... والاحتكاك أيضا بالقيّاد ، على ما فيهم من جهل وتعامل بالرشوة ، هذا الاحتكاك لابد من أن يطرح أمامهم المشكلة في جانبها السياسي ، وأن يجعلهم يعملون من أجل التغيير الجذري . وعلى العموم ، فإن سكان البوادي والأرياف ، خلافا للحضر ، أو من على

شاكلتهم من المثقفين والبرجوازيين ، هم أبعد الناس عن العنصرية ، لأنهم أشد الناس تمسكا بالأرض والوطن والعوائد ، كما أنهم متشبعون بالروح الانسانية التقليدية التي تأثروا بها عن طريق الرواية ، ان لم يكن عن طريق الكتابة . ولئن كانوا يشعرون بوطأة السيطرة الأجنبية ، فهم في نفس الوقت يشعرون بأنهم في بلادهم ، وأنهم يتميزون بخصائص وفروق هي قوام شخصيتهم التي يتمسكون بها أشد التمسك ، وينتظرون بفارغ الصبر متى تبرز . ان نفوسهم الخالية من العقد ، وعقليتهم الواقعية ، وقدرتهم البدنية ، كل ذلك أعطى للمقاومة الجزائرية وجها فقدته منذ انتهاء الثورة السياسية ــ الزراعية الكبرى التي وقعت في 1871 .

## موقف النواب الحكوميين

أما الآن ، وقد تبدّدت الأوهام ، وبزع الحق ، فلم يعد يخفى على النواب الحكوميين الناجحين في الانتخابات المزورة ، أنّهم يمثلون سكان الأرياف غصبا عن ادارة هؤلاء ، ويتكلمون باسمهم ، أي باسم هيئتهم التي سماها المستعمرون «هيئة الناخبين الثانية»(*) ... ولا يخفى عليهم أيضا بأنه ــ رغم موقفهم هذا الذي وقفوه في آخر لحظة ضد سياسة الوالي العام سوستيل ، وضد أعمال القمع والاضطهاد ــ فإن أبناء الشعب وقادة الثورة في جبهات القتال ، لا يكنّون لهم أي عطف أو مودّة . ولا شك أن المواقف الحازمة التي اتخذتها مجموعة «الواحد والستين» منذ 26 سبتمبر 1955 ، تعد مساهمة لا تنكر في جمع كلمة الشعب الجزائري ، وهو ما كانت تسعى اليه الحركة القومية باستمرار ، ولذلك ، فإن هذا الندم ، رغم أنه لم يحصل الا في آخر لحظة ، الا أنه

(*) هيئة الناخبين الأولى 1er collège تشمل الأوربيين ، وهيئة الناخبين الثانية 2e collège تشمل الأهالي من سكان الجزائر (المترجم) .

مع ذلك يعدّ مساهمة ثمينة ، ويندرج في نطاق التطورات الحاصلة في سائر الميادين . وقد تجلّى وعي النواب الحكوميين على أوضح صورة في حوالي 20 أغسطس 1955 ، وكانت عمليات التمشيط ratissages ، والاعدام بدون محاكمة تجري قبل هذا التاريخ في وضح النهار من غير أن تشير اليها الصحافة أبدا . وفي المنطقة الشمالية من ولاية قسنطينة ، أرادت جماعات من السكان — بعدما عيل صبرها من هذه الأعمال المتكررة يوميا ، ومن عدم معاقبة المدنيين الأوربيين على فعالهم واستفزازاتهم — أرادت أن تشارك في العمل الثوري أثناء الهجوم العام الذي شنّه جيش التحرير على الأهداف العسكرية والاستراتيجية الفرنسية . وعلى إثر ذلك وقعت مرة أخرى حملة قمع شديدة باستعمال مختلف أنواع العتاد الحربي ، واستهدفت القرى الآمنة ودامت أكثر من أسبوع ، بل أن السلطات الرسمية اعترفت منذ الأيام الأولى من حملة القمع ، بتدميرها لحوالي عشرة من القرى ، علما بأن هذا العدد هو دون الحقيقة . وقد وصف بعض المراسلين الفرنسيين مجازر بلغ عدد الضحايا فيها رقما مذهلا . وعندئذ أخذ النواب الحكوميون التابعون لهيئة الناخبين الثانية ، أخذوا يخرجون من الصمت ، ويتحركون .

وكان أول من أخذ زمام المبادرة هو الدكتور ابن جلول . ان هذا الرجل الذي مارس السياسة الجزائرية منذ زمن طويل ، وكان على التوالي : رئيسا لاتحادية النواب المسلمين لولاية قسنطينة بين 1936 و 1938 ، ورفيق السيد فرحات عباس في الكفاح لمدة قصيرة ، هذا الرجل اشتهر في بداية الأمر بمواقفه الجريئة ، رغم أنه كان من أنصار الاندماج ، الا أنه ما لبث — قبيل الحرب العالمية الثانية ، وبالأخص ابتداء من 1945 — ما لبث أن فقد ثقة أبناء بلاده الذين صاروا ينظرون اليه بكل احتقار ، بعدما خان الهدف الأسمى وصار يعمل لصالح الادارة الاستعمارية .

## من الاندماج الى الادماج

ان مجموعة «الواحد والستين» التي تشكلت في 26 سبتمبر 1955 تحت رئاسته قد عارضت معارضة شديدة سياسة الادماج politique d'intégration ، علما بأن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري كانت قد أدانت هذه السياسة أو ما يماثلها ، منذ أن تغلغلت الحركة القومية بين صفوف الشعب . وكانت تسمى آنذاك سياسة الاندماج politique d'assimilation ، ولم يكن أحد يميل اليها ، باستثناء فئة قليلة من المثقفين والبرجوازيين . على أن البرجوازيين ما لبثوا أن أعلنوا عن رفضهم الشديد عندما تمّ التوقيع في شهر فبراير 1943 على «البيان Le Manifeste» الذي وضعه السيد فرحات عباس ، من طرف مجموعة من الشخصيات السياسية المعروفة ، والمستشارين العامين والمندوبين في المجالس الولائية وغيرهم من أنصار «دولة جزائرية مرتبطة باتحاد فيدرالي مع فرنسا» . والحقيقة أن معظم المنتخبين الحكوميين تراجعوا عن موقفهم الأول بسبب ما تعرضوا له من ضغط وتخويف . ولكنّ الشيء المهم في الموضوع أن صاحب «البيان» ، الذي أصبح فيما بعد زعيم الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (ت.د.ب.ج) ، والملتفّين حوله من ذوي العقول النيرة في البرجوازية الكبرى والصغرى ، هؤلاء جميعا رفضوا النظرية الاندماجية . وفي بداية عام 1955 ، عندما أعلنت الحكومة الفرنسية عن فكرة الأندماج ، كانت هي بالذات تجهل اطار هذه الفكرة وحدودها . وبما أن كبار الملاكين الأوربيين في الجزائر كانوا يعرفون بأنها من قبيل الخيال والمستحيل ، وأنها على أية حال مناقضة للتطلعات الجزائرية ، لذلك أعربوا عن موافقتهم المبدئية لها .

ان معارضة هذه السياسة الادماجية من طرف المنتخبين الحكوميين ، ومن طرف حزب (ت.د.ب.ج) ، ومن طرف الغالبية

العظمى من الشعب ـــ ناهيك بالقوميين العاملين في جبهة القتال ـــ هذه المعارضة جعلت الحكومة الفرنسية تعمد الى تأجيل الانتخابات التشريعية في الجزائر . وقد تميزت الحملة الانتخابية في فرنسا بنوع من المساومة الرخيصة ، وبغير قليل من الديماغوجية حول المشكلة الجزائرية . ففي 26 ديسمبر ، اقترح السيد منديس فرانس بمدينة مرسيليا تسوية للمشكلة تتضمن حلّ المجلس الجزائري ، واجراء انتخابات حرة ، على أن يعمد قبل ذلك كله الى بذل جهود «**في عين المكان (أي في مدينة الجزائر) من أجل التغلب على مختلف أشكال المقاومة الادارية ، ومن أجل اخضاع الاقطاعيات العسكرية والمالية التي تحكم كما تشاء في البلاد**» . أما الرئيس ايدجار فور Edgar Faure ، فقد صرح من جهته ، ودائما في اطار الحملة الانتخابية ، فقال : «**أنا متأكد أن الجزائر تحتاج الى ميثاق تأسيسي خاص ضمن المجموعة الفرنسية**» . وأكد في نفس هذا الخطاب رفضه لسياسة الاندماج . وتحدث هو أيضا عن ضرورة القيام «**باستشارة واسعة النطاق لسكان الجزائر ، ولجميع المنتخبين ، ولجميع الأعيان ، وذلك بقصد وضع ميثاق خاص يكفل للسكان المسلمين والأوربيين الضمانات اللازمة**» . وقد اعترف في خطابه ذاك بأن «**القانون الأساسي للجزائر تجاوزه الزمان ، علما بأنه لم يطبّق أبدا**» .

ولكيلا تتّهم بعض الأحزاب الفرنسية السياسية الأخرى بالتقصير ، فقد اتخذت علانية مواقف جريئة في هذه الحملة . ومن ذلك أننا سمعنا أحد المترشحين في قائمة دوبو بريديل Debû-Bridel يؤكد بأن نظرية حزبه فيما يخص الجزائر ، تنحصر لا أكثر ولا أقل في أن تعطى هذه البلاد ، في علاقاتها مع فرنسا ، وضعية تشبه وضعية كندا ضمن الكومنولث البريطاني . على أن المساومة الرخيصة سرعان ما انتهت بعد مرور

الانتخابات . والأكثر من هذا أن السيد جاك سوستيل أراد أن يفرض على الأذهان الخطّ الرسمي الذي كان دائما يدافع عنه بمساندة من الحكومة ، وبدعم من أصدقائه السياسيين ، ولهذا أخذ في 12 يناير يجدد الدعوة الى مشروع الادماج الذي أطلق عليه تسمية من عنده هي «المساواة في الحقوق والواجبات» . ولكننا نعلم بأن هذه المساواة في الحقوق ، التي زعم بأنها فكرة ثورية ، كانت مسجّلة حرفيا في قانون 1947 الأساسي . ونحن هنا في غنى عن الاشارة الى ما في هذه الخطة من تزييف للديمقراطية (دمج السكان والمزج بينهم اجباريا ، وغير ذلك من البنود الأخرى). ويكفينا أخيرا أن نقول بأن الحلول المتوخّاة كانت فيما يبدو تتجاهل الأسباب التي من أجلها حملت الجزائر السلاح .

## انفراج الأزمة

وهل هناك من داع لاخفاء الحقيقة ؟ ان طائفة من النـــاس ظلوا بعض الوقت مترددين في موقفهم ، رغم تجاوبهم مع كفاح الوطنيين ، ثم ما لبث هؤلاء المترددون أن شعروا بأنهم «تخلصوا» من تخوفهم ، وتحّينهم للفرص ، ومن كل ما جعلهم ينخدعون بالوعود الكاذبة ، ويقومون بالعمل الانفرادي ، ويركنون للخضوع والطاعة . ومما ساعد على هذا التحول في المواقف ، أعمال القمع في شهر أغسطس ، وتعزيز الكفاح في جبهات القتال ، ونجاح جبهة التحرير في عملها السياسي والاداري .

ولئن كان النشاط السياسي قد توقّف نتيجة لحل حزب (ح.ن.ح.د) الذي انضمّ الكثير من اتباعه الى حركة المقاومة ، وكذلك نتيجة لاعتقال «المشبوهين» ، ومنع بعض الجرائد الديمقراطية من الصدور ، وفرض رقابة على البعض الآخر ، فإن المنتخبين في جميع المجالس ، سواء منهم المستشارون البلديون أو المستشارون العامون ، أو

المندوبون ، أو النواب ، أو أعضاء مجلس الشيوخ ، جميع هؤلاء لم يجدوا بدّا من التجاوب مع الأحداث ، ومن تأكيد تضامنهم مع الشعب . وهكذا ، ففي أواخر شهر نوفمبر 1955 ، اغتاظ رؤساء المجالس البلدية (الجزائريون منهم) ، اغتاظ من الموقف المتحيز الذي اتخذته اتحادية شيوخ البلديات التابعة لولاية الجزائر ، وهي تضم ممثلي المستعمرات الفرنسية الكبرى ، فاخذو ينسحبون من هذه الاتحادية التي كانوا فيها اقلية ، والتي ليس لها أي دور في حل المشاكل البلدية الحقيقية . وفي 23 ديسمبر 1955 ، عقدت لجنة الواحد والستين اجتماعا في مدينة الجزائر ، فاقترح المنتخبون التابعون لحزب (ت.د.ب.ج) أن يقدم جميع المنتخبين استقالتهم . وعملا بهذا الاقتراح ، فإن حزب (ت.د.ب.ج) الذي يترأسه السيد فرحات عباس ، دعا الممثلين التابعين له **«في أي مجلس كان ، أن يستقيلوا من مناصبهم»** ، وفق السياسة الجديدة التي حددتها جبهة التحرير الوطني . وفي بداية شهر يناير قدّم الدكتور ابن سالم استقالته كرئيس للمجلس العام لقسنطينة ، وكمندوب في المجلس الجزائري . وكان قبيل استقالته قد تلقى استقالة تسعة عشر من زملائه الجزائريين . ومن جهة أخرى ، في نفس تلك الفترة استجاب اثنان من أعضاء حزب (ت.د.ب.ج) لتعليمات الحزب ، وكان أحدهما مستشارا في الاتحاد الفرنسي ، والآخر عضوا في مجلس الشيوخ . وفي أواخر الشهر السابق ، كان بعض المنتخبين المنتمين الى نفس هذا الاتجاه السياسي ، قد قدموا استقالتهم من المجلس العام ومن المجلس البلدي في مختلف الجهات من ولايتي وهران والجزائر . وعلى اثر ذلك أخذت الاستقالات تتتابع ، واتسع نطاقها خلال الأشهر التالية . أما الأعضاء «المستقلون» من مجموعة «الواحد والستين» ، واصدقاؤهم ، فلئن لم يسايروا هذا التيار ، الا أنهم عقدوا العزم على مسايرته فيما اذا كانت الحكومة الفرنسية

القادمة لا تقترح بعد مضي شهر على تشكيلها ، أي حل مرض للمشكلة الجزائرية .

وعلى أية حال ، فإن الشيء المؤكّد هو أن كل هذه المجموعات ، وهؤلاء المنتخبين وزعماء الأحزاب المجمّدة ، والأعيان على الاختلاث مشاربهم ، لم يكن أحد من هؤلاء يدّعي بأنه **«طرف صالح لمفاوضة فرنسا»** . وحتى لو افترضنا المستحيل ، وادّعى ذلك ، فلن يحظى لا بثقة الشعب ، ولا بثقة جبهة التحرير الوطني . وهذا أمر طبيعي جدا . ولقد قيل بأن الثوار مارسوا نوعا من الضغط والتهديد . ويبدو لنا أن هذا القول فيه مبالغة ، لأن الذي حدث ، هو نوع من الانضمام المعقول الى الصف ، على أساس المواقف السياسية التي يدافع عنها عشرات الألوف من الجزائريين ، من مختلف الأعمار ، بكل ما لديهم من وسيلة ، لا يثنيهم عن ذلك خوف من الموت أو من السجن والاعتقال .

وأخيرا ، لابد من التركيز على أمر هام يعدّ أحد الجوانب الرئيسية للثورة الجزائرية ، وهو اتحاد كلمة الشعب . على أن السلطات الاستعمارية ، ما كان منها ، أمام هذه الوضعية ، وهذه الحقائق الجديدة ، الا أن أخذت تضع العديد من المشاريع البالية ، وترسل الجيوش ، وتعزّز الجهاز الاداري ، ظنا منها بأن العلّة كامنة في نقصانها عددا وعدة ، وفاتها أن العلة في عجزها لا أقل ولا أكثر . وأثناء تلك المدة ، ظنت السلطات بأنها قادرة خلال بضعة أشهر ، على عزل حركة المقاومة المسلحة عن اطارها البشري والسياسي والاجتماعي الذي منه نشأت ، ومنه تستمد قوتها . الا أن سعيها خاب ، فأخذت حركة المقاومة توسع دائرة نشاطها ، وتدعّم مراكزها ، فوجدت لدى الجماهير الريفية كل تعاون ، ولدى سكان المدن كل تجاوب . وفي أول أكتوبر 1955 ، فتحت جبهة جديدة للقتال في ولاية وهران ، في نفس الوقت

الذي أخذ فيه الوالي العام سوستيل يتبجّح بما «يسود في هذه المنطقة من هدوء ، وما يظهره سكانها من ولاء» . ومنذ أواخر شهر ديسمبر صار نشاط جيش التحرير الوطني في ولاية الجزائر يشمل منطقة تمتد الى بعد 50 كلمترا في الجهة الشرقية والشمالية الشرقية من العاصمة .

واتفقت كلمة المراقبين السياسيين على القول بأن الوضع في الجزائر ، اذا نظرنا اليه من حيث قوة الثوار المتزايدة ، وما حققوه من بطولات ، وما أظهروه من اخلاص ايديولوجي وثوري ، كان لهذا الوضع أثر كبير على البلدان الأخرى الواقعة في شمال افريقيا ، مما جعلها تطالب بالمزيد من الحقوق لضمان استقلالها . ان جبهة التحرير الوطني ، التي تمثل القومية المناضلة ، وتتكلم باسم الوطنيين العاملين ، انما تطالب اليوم بحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال . ومن أجل تحقيق هذا الاستقلال لابد من المفاوضة ، ولابد من احلال نظام سياسي جديد محل القيد الاستعماري ، ولابد كذلك من انتخاب جمعية تأسيسية ذات سيادة ، من طرف جميع العناصر السكانية المؤيدة للجزائر الحرة . وهذه الجمعية هي التي ستحدد العلاقات التي سوف تنعقد بين الجزائر وفرنسا . وينبغي أن يكون الاعداد لهذه الانتخابات من اختصاص الحكومة الجزائرية المقبلة وحدها ، على أن يكون الأوربيون مخيّرين بين الجنسية الجزائرية والجنسية الفرنسية ... ولكن ، ما أبعد هذه الآراء عما يعدّه الاستعمار الجديد من مشاريع !

وقد تناولنا في مجلة «الفكر Esprit» (1) الفرنسية مشكلة الأقلية وانعكاساتها على ما تعتزمه الحكومة الفرنسية من اصلاحات ومشاريع أخرى ، فأعربنا عن رأينا بالعبارات التالية : «**ان هذه المشاريع لم تأخذ بعين الاعتبار ما قد يصدر عن الأقلية الأوربية من ردّ فعل ، وهذه**

---

(1) عدد مارس 1955 .

**الأقلية عملها سلبي أكثر مما هو ايجابي ، وبيدها جميع مقاليد الحكم في الجزائر ، والجزء الأكبر من الموارد الاقتصادية» ، ثم انتهينا الى القول بأن «توطين الأجانب في البلاد يشبه قصة حصان طراودة cheval de Troie ، ذلك الحصان الذي أدخلوه الى المكان من أجل فرض الأمر الواقع ، والحيلولة دون ايجاد أية تسوية للمشكلة القومية ... ونظرا الى الاعتبارات السياسية العليا فإن الدوائر الحكومية الرسمية تستعين في مخططاتها بهذه الأقلية لتأجيل أو تعويق حصول البلدان غير المستقلة على حريتها ...»**

وقد برهن التمرد على الرئيس الفرنسي جي مولي Guy Mollet في 6 فبراير ، بمدينة الجزائر ، كما برهنت الأحداث التي أعقبت ذلك التمرد ، أن الأوربيين من ذوي الامتيازات ، سواء كانوا من الاجراء أو التجار ، أو الموظفين ، أو المعمرين من أصغرهم الى أكبرهم ، هؤلاء جميعا ، بما أظهروه في تمردهم من غيرة مفتعلة على عظمة فرنسا ، كان لهم وزن أكبر من وزن الغالبية العظمى من الشعب الفرنسي ، بما في ذلك الحكومة الفرنسية نفسها . ومن أجل هذا أخذوا يتجاسرون في أقوالهم وأعمالهم على هذه الحكومة . وبما أن السلطات فسحت لهم المجال لكيلا يقيموا أي وزن للأغلبية الجزائرية ، فإن المشكلة لا تزال الى يومنا هذا معكوسة . وذلك أن أصل الداء ليس في التسعة ملايين من الجزائريين الرازحين تحت نير الاستعمار ، بل الداء كله في الأقلية الأوربية التي تحرص السلطات كل الحرص على مراعاة جانبها . وما من إنسان اليوم الا وتجده قد تطور في أفكاره ، سواء في فرنسا أو في غيرها من البلدان ، باستثناء هذه الأقلية الأوربية المتألفة من «مواطنين ممتازين» ، تلك الأقلية التي حافظت السلطات بسببها على الوضع الراهن ، وعملت على تجميده على

حاله ، في بلاد انطلقت فيها منذ شهر نوفمبر 1954 ، ثورة لا تقهر ، وهذه الثورة هي وحدها الكفيلة بتحقيق الحرية والازدهار الكامل لسكانها .

ان الوالي العام روبير لاكوست Robert Lacoste الذي يستقي معلوماته الخاطئة عن الوضع الداخلي من ضباط شؤون الأهالي ، أصحاب العقلية التقليدية البائدة ، ادّعى بأن الجزائريين يعانون من **«عقدة اللامساواة والحرمان»** . ومعنى هذا أن الجزائريين في نظره ، بحكم أنهم مندمجون في الشعب الفرنسي ، هم الذين يشكلون الأقلية المحرومة .. وفيما يتصل بالحرمان ، فإن الجزائر محرومة قبل أي شيء آخر ، من حريتها الأساسية التي هي الأصل الأصيل للمساواة والكرامة والعمل النافع والديمقراطية الصحيحة .

وتحدّث لاكوست أيضا عن احتمال **«المصالحة بين الطائفتين»** ،الا أنه كان يعمل على تقتيل الجزائريين دون غيرهم ، وبذلك شجّع المدنيين الأوربيين على التكاتف مع الجيش والشرطة ضد الأهالي ، وعلى الانتقال الى الخطوة التالية ، وهي التقتيل بدون تمييز . ومن المُتَوقَّع أن يتفاقم الوضع في المستقبل اذا نجحت السياسة القائمة على قمع الثورة ، وهي السياسة التي انتهجتها الحكومة الفرنسية ، كما يستدلّ على ذلك من عدم التفاتها الى إرادة الشعب الجزائري المتجلية في كفاحه القومي وشعوره الموحّد بعدالة قضيته . وقد أقامت الحكومة الفرنسية على طرفي نقيض ، حلين يتمثل أحدهما في اعتبار **«الجزائر فرنسية»** ــ ولا نرى في ذلك ما يشرّف فرنسا ــ ويتمثل الحل الآخر في تخويف الرأي العام الفرنسي باحتمال تأسيس «دولة إسلامية» مزعومة ، في حين أن الثوار والشعب الجزائري بأكمله يعملون من أجل تسوية جزائرية ديمقراطية ، ومن أجل القضاء على مخلّفات الاستعمار ، وعلى التسلط

العرقي ، وذلك كله في اطار دولة قائمة على المساواة ، ومتجردة من التعصب الديني .

ان الوضعية السيئة التي تعاني منها الجزائر اليوم لا يمكن معالجتها بعقلية استعمارية جديدة ، تعتمد تارة على الشدة ، وتارة أخرى على الاصلاحات السطحية . ولقد عبّر الشعب الجزائري عن رأيه النهائي في هذا الموضوع . وهو قادر — نظرا للأخطار التي تهدد مسيرته نحو الحرية — على أن يبذل كل ما في وسعه من أجل ضمان النصر لجيش التحرير الوطني ، وأن يقدم له العون الكامل بعدما أصبح أمله الوحيد . فاما النصر ، أو الاستشهاد معه ، لأن المجاهدين البالغ عددهم عشرين ألفا ، ما من أحد منهم الا وله صلة قرابة مباشرة أو غير مباشرة بكل أسرة جزائرية .

فبراير — مارس 1956

# الفصل الخامس

# مسيرة القومية التحريرية إلى الوحدة

## تشكيل جبهة التحرير الوطني

أخذ الناس منذ عام ونصف(1) يتحدثون كثيرا عن جبهة التحرير الوطني : فالبعض منهم يرى بأن هذه الجبهة ان هي الا منظمة حلّت محلّ حزب (ح.ن.ح.د) الذي ادّى انقسامه في الصيف من عام 1954 الى التعجيل باعلان الثورة ، وهذا خطأ فادح ، لأن تنزيل جبهة التحرير الوطني منزلة هذا الحزب الذي آل به الأمر الى الانهيار التام ، ثم حلّ نهائيا في 5 نوفمبر 1954 ، معناه الجهل بنوعية الحركة التي جعلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (وكانا خصمين لحزب ح.ن.ح.د) ، بل حتى المنتخبين المسلمين الحكوميين ، جعلت هؤلاء جميعا ينحازون الى نفس المواقف السياسية للجبهة . وتحدّث الناس أيضا عن مجموعة الواحد والستين ، وعن فرحات عباس الذي أثار موقفه الأخير مختلف التعليقات والشائعات . ولعله من الانصاف القول بأن الحكومة الفرنسية والصحافة التابعة لها ، خالفتا كل

(1) نشر هذا المقال في شهر يونيو / حزيران 1956 (المترجم) .

ما قيل أو كتب حول هذه الأحداث وحاولتا أن تطرحا هذه القضايا بطريقة تكاد تكون معكوسة ، فاعتبرتا الأحداث الجارية في الجزائر من الأمور أو من المشاكل العارضة الزائلة ، وخفي عنهما أن المشكلة الرئيسية متمثلة في الأقلية الأوربية التي يتذرع بها البعض دائما لتجريد الأغلبية الجزائرية من شخصيتها القومية ، ولممارسة نوع من الضغط على الرأي العام الفرنسي .

ان التصريح الذي أدلى به السيد روبير لاكوست بتاريخ 28 أبريل يندرج تماما في اطار هذه المحاولة المزدوجة ، كما أنها تعطي — مسبّقا — فكرة عما تعني كلمة ( مفاوضة ) ، وكيف سوف يعملون على تحريفها وتجريدها من معناها الأصلي ... هذا ، مع العلم بأن برنامج جبهة التحرير الوطني فتح المجال واسعا للمفاوضات . ومما صرّح به الوالي العام في هذا الموضوع : «لا سبيل الى اجراء مفاوضات قد تجعل الفرنسيين المتواجدين في هذه الأرض أجانب» . وقد يفهم من هذا بأن **مفاوضات أخرى** ممكنة ، (ولكن من غير تحديد ، لكي تبقى الأمور دائما في الغموض) ، وأن هذه المفاوضات (التي تستبعدها السلطات على أية حال) ينبغي ، اذا وقعت ، أن تدور بالدرجة الأولى حول مصير الأقلية الأوربية . وكما قلنا سابقا ، فهذه محاولة لتحريف الحوار المرتقب ، وان كان هذا الحوار في حد ذاته غير مفتوح ... كما أنها محاولة لطرح المشكلة الجزائرية طرحا معكوسا ، من أجل تغطية أبعادها الحقيقة . ولذلك فسوف يكون رائدنا في هذه الدراسة ، هو اعادة الأمور الى نصابها ، باستعراض العناصر المتعاقبة التي أفضت في النهاية الى وقوع هذا الحدث الهام الذي يمكن اليوم أن نطلق عليه بدون مبالغة اسم «الثورة» .

ان جبهة التحرير الوطني ليست حزبا كبقية الأحزاب ، كما أنها ليست من المنظمات القائمة على التنافس مع تشكيلات سياسية

أخرى ، بقصد استمالة أتباع تلك التشكيلات اليها ، ولا تمارس المزايدة السياسية ، ولا تقوم بنشاطها كما تقوم به منظمات أخرى توفرت لها الشرعية القانونية والثقة والطمأنينة . ان الحركة السرية السياسية ــ العسكرية التي انبثقت عنها جبهة التحرير ، آذنت بزوال الأحزاب الأخرى ، وأحدثت انقلابا تاما بالنسبة للفكرة المعهودة لدى الناس حول الكفاح «الشرعي» ضد الاستعمار . والأكثر من هذا ، أن جبهة التحرير الوطني ، المنبثقة عن تلك الحركة السرية المسماة (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) ، والمنبثقة كذلك عن العمل الثوري الذي انطلق في الخريف من عام 1954 ، هذه الجبهة هي التي استطاعت أن تنقذ العقائدية القومية الطلائعية من الفساد والحزازات ، وأن تعطي نفسا جديدا لنضال القاعدة الشعبية ، وأن تعزّز صفوف «الأقلية العاملة» بالرجال والعتاد ، وأن تحقق جبهة جزائرية بأتم معنى الكلمة . فقد أرادت الجبهة ــ كما جاء في بيانها الصادر في اليوم الثاني لاندلاع الثورة ــ أرادت أن «تقطع الصلة مع ماض كله أخطاء ونعرات اقليمية» . وألحّت على ما لهذه الكلمة الأخيرة من أضرار عندما أكّدت بأن «النعرة الاقليمية ، والمشاغبة السياسية العقيمة ، والديماغوجية الجوفاء ، والأبّهة الشخصية ، لم يبق لها الا حفنة من الأتباع الملتفين حول مصالي» . ولئن كانت الجبهة أقل تحاملا على المركزيين من حزب ح.ن.ح.د ، فإن هؤلاء مع ذلك لم يسلموا من نقدها اللاذع . ان رجال الثورة المسلحة لم يجدوا بدا ــ أمام الخلافات التي مزّقت شمل الحزب خلال عام 1954 على مستوى القيادة ــ لم يجدوا بُدًّا من القاء التبعة على «القادة كلهم ، بما فيهم مصالي» ، كما أنهم تخلّوا عن فكرة «توحيد كلمة الشقّين المتعارضين من الحزب» ، وأعلنوا بأن «الحفاظ على وحدة الحزب يكون بالرجوع الى القاعدة ، على مستوى المناضلين» . ولذلك أصدروا توصية الى هؤلاء المناضلين بضرورة «قطع الصلة مع القيادتين (مصالي واللجنة المركزية) ، وتجميع الصفوف من

أجل المناقشة الصريحة الديمقراطية» . ومع ذلك فقد أقرّ رجال الثورة المسلّحة بأن «بعض المسؤوليين من اللجنة المركزية انضمّوا الى جبهة التحرير الوطني ، وان كان بصورة شخصية ، لكيلا يكون في عملهم الزام للحزب» .

ان الجانب الذي تحدثنا عنه يتعلق بالوضعية الداخلية السائدة في هذه الحركة الجديدة ، وبالخطوات المقترحة والجهود المبذولة من طرفها بقصد توحيد الكلمة . أما فيما يتعلق بالسياسة العامة ، فنظرا الى أن جبهة التحرير الوطني قد دعت الى «**أخذ زمام المبادرة من جديد**» ، لذلك أكدت على «**عزمها على السعي الى الأمام في طريق الكفاح**» .

واذا كان حزب ح.ن.ح.د ، المتمسك بالشرعية القانونية والمشارك في الانتخابات الحكومية ، اذا كان قد مات ، فإن بعض الجوانب الأساسية للحزب السرّي الذي سبقه في النشوء ، وهو حزب الشعب الجزائري (ح.ش.ج) قد ظهرت من جديد بمزيد من الوضوح والحماس والفعالية ، وعلى مستوى يتجاوز التشيّعات الحزبية والمآرب الشخصية والنعرات الاقليمية البغيضة .

### العقائدية الممهدة للكفاح المسلح

ان كثيرا من المناضلين في ح.ش.ج الذين كانوا يعملون الى غاية 1946 في السرية ، خرجوا من هذا الحزب الذي خيّب أملهم بعدما تحوّل الى حزب (الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية) ، وتورّط في الانتخابات النيابية الحكومية ، وفرّط في المبادىء الأساسية وقصّر في التنظيم . لقد خرجوا من الحزب ، فحلّ محلهم آخرون من الراغبين في ترشيح أنفسهم للانتخابات ، وممن كانوا من أحباب الحزب ، وعلى الأخص جماعة كانوا من الرعيل الأول في الحزب ، ومعظمهم ممن لا ثقافة له ، وممن فاته ركب الزمان . وقد ذهب بعضهم الى حد القول بأن السبب الرئيسي للمشاكل الداخلية ، وللانحرافات الملحوظة في سياسة

الحزب ، وللجمود الذي وقع فيه ، هذا السبب يرجع الى الفترة التي عاد فيها مصالي الحاج من افريقيا الاستوائية ، والتفاف العناصر البائدة من الرعيل الأول حوله ، فهذه العناصر كرهت الكفاح السري ، لما فيه من مشقة ومن انكار للذات ، وفضلت عليه الدخول في «**الحياة النيابية**» الفرنسية ، بل حتى الحياة النيابية المشتركة بين الجزائريين والمعمرين . ولكنها لم تحدد مناهجها السياسي في الحياة النيابية ، ولم تعمل على اعداد الكفاءات اللازمة لها ، بل كانت هي في حدّ ذاتها ناقصة التكوين . ومن جهة أخرى ، فإن هذه العناصر لم يحصل بينها التفاهم مع المناضلين الشبان من أعضاء القيادة ، خاصة أن هؤلاء كانوا يهابون من شخصية مصالي نظرا الى موقفه المتصلب ، مما جعلهم يوما بعد يوم يتنازلون عن المبادىء الأساسية . وبما أن الحوار المجدي عن طريق المؤتمرات الديمقراطية مفقود ، ونظرا كذلك الى عدم تجديد المسؤولين تجديدا ملائما لمقتضيات الأحوال ، وعلى جميع المستويات ، لذلك أصبحت القيادة السياسية مقطوعة أو تكاد عن القاعدة الشعبية . ونحن نعلم أن مناضلي القاعدة الشعبية كانوا ، بالتعاون مع المناضلين القدامى في السرية ، هم أول من فتح صدره لاعتناق العقائدية الممهدة للكفاح المسلح والعمل في جبهة النضال . ولهذا ، فقد كان من الطبيعي أن تعمد اللجنة الثورية للوحدة والعمل ، ومن بعدها جبهة التحرير الوطني ، الى الاتصال بهؤلاء قبل غيرهم ، ادراكا منهما لأهمية هذه القاعدة الواعية التي بقي نشاطها مدة طويلة مجمّدا ، أو محصورا في الاعداد للانتخابات ، أو في القيام بمشاغبات عقيمة .

وقد حددت جبهة التحرير الوطني هويتها ، في بداية نشوئها ، بأنها «الأسلوب الجديد للتعبير عن القومية الجزائرية التحريرية الديمقراطية الاجتماعية» . واتخذت لنفسها مبدأ «الاعتراف للشعب الجزائري بحقه في الحرية والاستقلال» . وقد دعت جبهة التحرير الوطني الى اتخاذ «موقف

يتميز بعدم التعاون سياسيا» مع الامبرياليين ، وذلك مخافة أن تعمد الحكومة الفرنسية الى «تجميع الاتجاهات والشخصيات في صف واحد حول مبادىء معتدلة» ، وفي نطاق «استعمار جديد» ، بهدف التصدي للمقاومة المسلحة . ومن جهة أخرى ، فإن الوسائل المعتمدة لحمل النخبة المثقفة وأعيان البلاد على عدم التعاون مع السلطات الفرنسية ، كانت ولاتزال متمثلة في تحطيم الاقتصاد الاستعماري ، والمقاطعة والاضراب .

وقد برهنت الأحداث الجارية منذ نوفمبر 1954 على أن «تجميع الاتجاهات والشخصيات في صف واحد حول مبادىء معتدلة» لخدمة الاستعمار الجديد ، لم يحظ بأي نجاح لأن السياسة الوحدوية التي وضعتها جبهة التحرير الوطني أوقعته في الفشل ، ولكن لا بالتصدي له — لأن هذه المحاولة الفاشلة ما كادت تظهر حتى اختفت — بل بالتخلص من ذلك الحزب المهيمن ، ومن تلك المجموعة المتحيّزة الغيورة على مصالحها ، ومن ذلك الزعيم القومي والقائد الأوحد للشعب ، والاستعاضة عن كل هذا بتشكيلة واسعة تمثّل جميع الاتجاهات الملتفّة حول برنامج واحد للعمل والنضال . ومن آثار هذا البرنامج أنه أدخل الثقة في نفوس الفئات التي كان يعوزها التنظيم السياسي ، كما أنه أحلّ محلّ السلطة المعنوية التي كانت بيد حزب واحد ، سلطة أخرى أصبحت بيد الأغلبية من الشعب الجزائري الذي هبّ للكفاح بكل ما لديه من وسيلة . وقد كان من الطبيعي أن تفشل تلك المحاولة الاستعمارية الهادفة الى تمزيق شمل الشعب ، وذلك للأسباب الآتية : ان النخبة المثقفة الموالية للادارة الحاكمة ، وأغلبية «المندوبين المستقلين» في المجلس الجزائري ، وبعض النواب والأعضاء في البرلمان الفرنسي وفي مجلس الشيوخ ، كان هؤلاء جميعا من التفاهة بمكان ، وكان وزنهم السياسي والمعنوي لا يكاد

يذكر ، ولذلك فإن أية جهة رسمية تعتزم الاستعانة بهم سوف تعرّضهم للمزيد من الاحتقار من طرف الشعب .

## موقف المنتخبين الحكوميين

ان بعض هؤلاء ما نال الترقية الا من عهد قريب . والبعض الآخر جاءته المكانة عن طريق الوراثة ، من العائلات الكبرى التي لمع اسمها في خدمة الاستعمار . وأكثرهم من صنائع الادارة الفرنسية ومن أبواقها في الميدان السياسي . ومن أجل هذا كله ، فلا يشكلون طبقة مستديمة قائمة على أسس متينة . فليس لهم ولو ذرة من روح المبادرة ، أو من الأيديولوجية ، وليس لهم وزن مادي أو معنوي يمكّنهم من التأثير على الرأي العام الجزائري ، ومن ممارسة نوع من الضغط على أساطين الاستعمار ، علما بأن هؤلاء لا يحسبون لهم حسابا ولا يراعون لهم مكانة . ان «أصدقاءهم» المعمّرين الذين رفعوهم الى مقاعد النيابة يعلمون بأنهم لا يمثلون شيئا ، ولهذا فلا يتورّعون عن اشراكهم معنويا في مناكرهم ، وتسخيرهم في شتّى المجالات، ولا يقبلون منهم أية كلمة ولا أي تصرف قد يكشف عن حدّ أدنى من الكرامة . ومع ذلك ، فهؤلاء «المستقلّون» كما يسمون أنفسهم ، وهؤلاء «الانديجين»(*) التابعون للادارة الاستعمارية ، وهؤلاء الأعوان الحكوميون الذين لا حول لهم ولا قوة ، كانوا مع ذلك كله يتمرّدون أحيانا عندما يسمعون الخطب الهستيرية التي يلقيها زملاؤهم الأوربيون في المجلس الجزائري لحثّ الحكومة على مزيد من البطش والقمع ، اذ لا يخفى عليهم أن القمع الجماعي الذي يطالب به ممثلو المعمرين ليس فيه أي تمييز بين المذنب وغيره ، فكل الناس فيه سواسية : «المخلصون للحكومة» وغيرهم . وعلى اثر خطاب مليء بالحقد ألقاه المندوب دو كالان de Calan أمام المجلس

(*) الانديجين indigènes ، أي الأهالي من سكان البلاد (المترجم) .

الجزائري في يناير 1955 ، اتخذ بعض المندوبين الجزائريين موقفا يتّسم بشيء من الكرامة ، فألّفوا وفدا سافر الى باريس لاطلاع الرأي العام ، والاحتجاج أمام الدوائر الحكومية الفرنسية ، بل حاول هذا الوفد أن ينسّق عمله مع الفرنسيين ذوي الاتجاه الديمقراطي . ولكن هذه الانتفاضة لم تدم الا يوما أو بعض يوم ، وعندما رجع الوفد الجزائري ، فإن الموقف الوحيد «الحازم» الذي بدر منهم هو الاعراب عن تأييدهم لسياسة جاك سوستيل !

وما لبث المعمرون وأرهاط الضغط lobbies التابعة لهم أن تغلبوا فيما بعد على مقاومة الوالي العام الجديد لهم . وعلى أية حال ، فإن الوالي العام أدرك بأنه لا فائدة من الاعتماد على هذه «النخبة» من الأهالي المقطوعين عن القاعدة الشعبية ، والمحرومين عن قصد من امكانات العمل ، والمحكوم عليهم أن يقوموا ، بين الفينة والأخرى ، بدور لا يشرّف صاحبه . وتلك هي الصورة التي أرادها الاستعمار لهذه «النخبة» : أن تكون دائما خاضعة للأقلية الأوربية ، ومسايرة لأهوائها ونظرياتها السياسية الباطلة .

ولقد كان ضمير المنتخبين الحكوميين مرتاحا تجاه الناخبين يوم أن اقتصرت البليّة على الجوع والاضطهاد . ومما زادهم اطمئنانا ، اعتمادهم على الدولة الفرنسية القوية العتيدة . ولكن الداء أصبح الآن وبيلا : فالقضية هي قضية حياة أو موت ، ونزوح الفلاحين من الأرياف يتفاقم ، والعديد من القرى تعيش بأكملها في خوف من المشطيات ratissages ، والدولة الفرنسية عاجزة عن فرض سلطتها حتى على الأوربيين أنفسهم . ومن المؤكد أن الفائزين بالأمس في الانتخابات المزورة ، و «أعيان البلد» الحكوميين ، انتهى بهم الأمر الى التقرب من الشعب ، بعدما شاهدوا المناكر التي يرتكبها المعمرون ورجال الشرطة من غير

عقاب ، وبعدما ثبت عجز الحكومة الفرنسية عن وقف الأوربيين عند حدود القانون والطاعة ، كما ثبت فشلها في حل المشكلة الجزائرية حلا سلميا . وبطبيعة الحال ، لم يكن أحد يتوقع منهم أن ينخرطوا في النضال جنبا الى جنب مع القوميين . وقد ساعدت عمليات القمع ، وما نجم عنها من حصول الوعي لدى البعض منهم ، ساعدت في حثهم على العمل من أجل حلّ يخدم مصلحة الشعب ، ويضمن له الأمن كضرورة عاجلة ، علما بأن هذا الأمن لن يدوم الا اذا ارتبط بالحل السياسي . وانك لتسمع اليوم من يقول — وهذا القول تردده الصحافة الفرنسية — بأن فرنسا لن تستعيد ثقة الأعيان ، أي المتعاونين معها من الجزائريين ، الا اذا برهنت عن قوة بطشها مع الثوار . فالقوة وحدها هي التي سوف تستميلهم الى الصف الفرنسي . ونحن نرد عليهم بأن القوة لا يملكها أحد في الجزائر ، بسبب العجز عن معاقبة المجرم ، ولذلك فالقوة تنحدر يوما بعد يوم الى مآلها المحتوم ، وهو : طورا ، القمع والاضطهاد ، وطورا آخر أسلوب النصائح الأبوية .

ومما لاشك فيه أن فقدان الأمن يخلق جوا مؤقتا من الخوف ، ولكنه في نفس الوقت ينمّي لدى سكان الأرياف والمدن روح التضامن والتضحية من أجل مساعدة الثوار الذين تزداد قوتهم يوما بعد يوم . واذا كان المنتخبون الحكوميون ، والأعيان الأقل ارتباطا بالاستعمار في حاجة ماسة الى الأمن والطمأنينة على حياتهم ومستقبلهم ، فإن هذا الأمن سوف يجدونه بتضامنهم مع الشعب . وقد أدرك الجميع اليوم بأن المقاومة قضت قضاء مبرما على روح اللامبالاة وبثّت الوعي السياسي بين الناس ... وأدركوا أيضا بأن الأفكار المعتدلة لابد من أن تساير مجرى الأحداث ، وأن كل واحد أخذ عن قصد أو غير قصد ، يغيّر مواقفه بالنسبة الى هذا القاسم المشترك المتمثل في العمل السياسي والعسكري .

ولاشك أن الجانب السياسي هو الذي جعل هذا العمل لا مجرد حركة تهفو اليها النفوس عاطفيا ، بل جعل منه مذهبا فعالا متجاوبا مع رأي الأكثرية من الشعب .

## معارضة سياسة الادماج

ان الأغلبية العظمى من المنتخبين الجزائريين قد أعربوا عن معارضتهم لسياسة الادماج والاصلاحات الطفيفة التي وضعها الوالي العام سوستيل . وهذا أمر لا يخلو من أهمية في تاريخ الجزائر الحديث . وهكذا انهار آخر حصن من حصون النظام الاستعماري ، بفضل عزيمة هذه «النخبة» التي درجت في الماضي على خدمة الاستعمار ، والتي كانت السلطات العليا الحاكمة تتوقع أن تراها مرة أخرى تتخذ موقف التأييد لنظام بائد فاسد . ان أفراد هذه النخبة أصبحوا الآن مخيّرين بين الولاء لحكومة بلد أجنبي طالما خدموه ، وتفانوا في خدمته ، وبين التضامن مع القوميين الذين ظلّت أفكارهم السياسية غريبة بالنسبة الى اهتماماتهم ومشاغلهم ، ولكنها في الأخير فرضت نفسها عليهم عن طريق الكفاح الشعبي . ومن جهة أخرى ، فإن الأحداث الجارية أخرجت من موقف التحفظ أشخاصا آخرين لايزال عددهم يتكاثر ، فتوافدوا من كل حدب وصوب للقيام بدورهم في هذه الحركة . ونحن نعلم أن الفلاحين ، والجماهير الغفيرة من سكان البوادي والأرياف ، الذين زورت الحكومة ارادتهم في الانتخابات ، كانوا في طليعة الكفاح ، وانضموا الى الحركة القومية ، وكانوا أحيانا أكثر تطرفا من رجال الحركة ، ومدّوا يد المساعدة الى الكفاح المسلح ، بل شاركوا فيه مشاركة فعّالة . ومن المعروف أن أكثر المنتخبين في الهيئة الثانية ينتمون الى عائلات المرابطين أو القياد . ويوجد بين الذين يدلون بأصواتهم ــ قسرا ــ لهؤلاء ، يوجد بينهم عدد

لا بأس به من الفلاحين الذين تربطهم بهم أواصر القرابة أو واجبات الخدمة ، وذلك طبقا للعرف السائد في المجتمع العربي ــ الأمازيغي .

وقد ساعدت ظروف الحياة القاسية في الريف ، والمعيشة البائسة ، ومناكر الاستعمار الذي تسلّط على البوادي من غير وازع يردعه ، ساعدت هذه الظروف كلها ، كما كان الشأن في عهد الأمير عبد القادر والمقراني ، في تجميع الشمل بين قوم أصبحوا يشعرون بضرورة التضامن أمام الخطر المشترك ، وعلى الأخص بعدما أدركوا أن المنتخبين الحكوميين لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا . واذا كان الأعيان لا يكترثون لهذه الأمور في وقت السلم ، فلم يعد في امكانهم أن يتجاهلوها بعدما أصبح الناخبون ساخطين على الوضع ، وأخذوا يتحركون كغيرهم ، خاصة بعدما صارت الميليشيا ووحدات الجيش الاستعماري تضطهد الناس بدون تمييز ، وتصيب الأبرياء ، بل تصيب أحيانا أقاربهم . وهكذا ، فإن المنتخبين ، عندما فتحوا أعينهم تحت ضغط الأحداث ، وأدركوا أنهم يعيشون في عزلة ، وأن الركب يتجاوزهم ــ لا ركب القوميين فحسب ، لأن هذا أمر طبيعي ، بل ركب الناخبين لهم من الفلاحين ، وهذا الأمر أخطر ــ عندئذ أخذوا يعيدون النظر في الدور السلبي الذي يقومون به . ونضيف الى هذا أن الخوف المخيم على النفوس بسبب الثورة ، واستعمال الشدة في الاضطهاد الجماعي ، ويقظة الشعور ، وازدياد الوعي ، كل ذلك أدى الى نقصان عدد المشاركين في الانتخابات المزورة أو القسرية .

ان المهم قبل كل شيء ، بالنسبة الى جبهة التحرير الوطني هو ابراز النجاح السياسي الذي سيكون لا محالة ، ثمرة لعملها وكفاحها ... المهم هو دعم وحدة الشعب لكي يلتف كله حول مثل أعلى واحد ، هو الكفاح من أجل الحرية والاستقلال ، ومقاومة المشاريع الباطلة الهادفة

لتطبيق اصلاحات طفيفة لا تجدي نفعا . ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن بعض الصحف الفرنسية عمدت الى ترويج الشائعات القائلة بأن القوميين الجزائريين تحدثوا بلهجة الاحتقار عن «تمرد العملاء» ، أي عن تمرد هذه الفئة من المنتخبين المسلمين الحكوميين ، على السياسة الاستعمارية . ومن المؤكد أن هذا التفسير للأحداث يرجع أساسا اما الى تعليمات معينة مغرضة ، أو الى خطأ في تقدير الأوضاع . فهذه الصحف التي فتحت أعمدتها لنشر خبر ادّعت بأنه رسمي ــ وهو في الحقيقة مزوّر تزويرا ــ هذه الصحف ما كان منها الا أن روّجت محتوى منشور نسبته الى جبهة التحرير الوطني ، وقد جاء فيه بأن القوميين قابلوا بكل ازدراء واحتقار هذه المبادرة الحسنة من طرف المنتخبين الحكوميين ، وهي مبادرة تندرج في اطار الموقف السياسي الذي اتخذته الأغلبية العظمى من الشعب .

ان الجزائريين ، مهما كانت اتجاهاتهم ــ وعلى الأخص الوطنيين منهم ــ كانوا في تلك الفترة يعارضون سياسة الادماج ، ولهذا فليس من المعقول أن يتجرّد القوميون من النظرة الواقعية ومن القدرة على فهم النفسيات ، الى درجة الاستغناء تماما عن هذا الدعم الجديد ، أورفضه . وهذا الدعم كان بدون شك غير متوقّع ، ولكنه على أية حال دعم يضاف الى الرصيد من النجاح الذي حققه الكفاح القومي الجزائري يوما بعد يوم . وهذا لا يعني أن القوميين سوف يمنحون بين عشيّة وضحاها ثقتهم التامة للمنتخبين الحكوميين . ومهما يكن من أمر ، فالذي لا مجال الى انكاره بعد اليوم ، هو أن الحركة السياسية الثورية ، **بتحريرها للشعب** من الخوف ، واخراجها له من اللامبالاة ،قد كانت السبب المباشر في انطلاق قوتين جديدتين كانتا الى حدّ اليوم في حالة الجمود أو الانهيار أو الخمود ، وهما صف الفلاحين ، وصف الأعيان . ولقد يكون

صبر هؤلاء الأعيان على المكاره ، وتحملهم لهاضعيفا ، ولكن ، حتى مع الافتراض بأنهم قليلو الاخلاص ، فالذي لاشك فيه أنهم اتخذوا موقفا جديدا يتسم بالحياد والاقلاع عما كانوا فيه يعمهون .

واذا كانت الأحزاب السياسية ، بحكم جمودها ونعراتها الجهوية ، قد ظلت طيلة عشر سنوات عاجزة عن تحقيق الوحدة ، فإن جبهة التحرير الوطني استطاعت بصورة غير مباشرة أن تحققها خلال بضعة أشهر فقط ، باعطاء المثل الذي يحتذى ... بل هي قادرة على تعزيز هذه الوحدة ، بالعمل على صبعيد التكوين الايديولوجي ، تكوينا يتسم بالجدية والمرونة معا . وهكذا نلاحظ أن النضال القومي وقع في التناقض ، وأصبح عديم الجدوى ، وانقسم شيعا وأحزابا بسبب انفصاله عن العناصر النشيطة في القاعدة الشعبية ، وانقطاعه عن بعض الحقائق الهامة ، وبسبب محاربة الادارة الاستعمارية له ، وعدم استعماله لبعض الوسائل في الكفاح ، كالعمل النقابي مثلا ، وانغماسه ، عن حسن نية ، في المناورات السياسية ، على منوال البلدان الحرة المستقلة ، وكذلك لأنه فرّط في العمل المخلص المتبصر لتحقيق الوحدة مع المنظمات الاخرى المعادية للاستعمار . هذا ، فضلا عن تضافر عوامل أخرى لسدّ الطريق أمامه ، وعرقلة سيره نحو التطور . ومن بين تلك العوامل ، الانتخابات المزورة ، والمجلس الجزائري ، والظلم المستمر ، وأنانية المعمرين المتأصلة ، والشرطة ، والحكومة ، والتصرفات الناجمة عن سياسة «العظمة الفرنسية» .

## برنامج جبهة التحرير الوطني

ولكن البنيان الذي شيده الاستعمار ما لبث أن انهار بفعل قرار بسيط يتعلق بخوض الكفاح المسلح ، وتحطيم الأغلال ، وفتح المنافذ المغلقة . أما الآن ، فقد تغيّر كل شيء . ورغم اللجوء الى استعمال السلاح (بصورة مؤقتة ، لأن هذه الوسيلة ليست هي الأساس في العمل

الثوري) ، رغم ذلك ، فإن الوعي السياسي أخذ يسلك دروبا أخرى ، ويؤثّر على الجماهير لاخراجها من ركودها وعزلتها ، ويعمل على تدارك ما فات من الوقت ، ويعطي للقضية الجزائرية سمعة لم تحظ بمثلها من قبل . وهذا أمر يعرفه الرأي العام الجزائري الذي أخذ يستخلص العبرة مما يجري في افريقيا الشمالية وفي العالم أجمع . ولا شك أن الرعيل الأخير من المنتخبين الحكوميين(1) قد أخذ العبرة مما يراه في بلاد المغرب الشقيق ، بعدما وحّد الشعب كلمته ، وانضمّ المحافظون منه الى جبهة الدفاع عن القضية القومية ، أولئك المحافظون الذين كانوا لعبة طيّعة بيد ضباط شؤون الأهالي في عهد الحماية . ان قيادة جبهة التحرير الوطني ، بتوعيتها السياسية للأرياف ، وتنظيمها الاداري للبلاد ، عرفت كيف تتجنّب العثرات في مسيرتها ، فتغلغلت في أوساط الشعب ، ورفعت سمعة الثورة لدى الرأي العام ، وعملت في مختلف الميادين ، لا في ميدان حمل السلاح وحده .

ان بعض الأحداث التي وقعت منذ شهر أكتوبر 1955 تشكّل منعطفا خطيرا في تاريخ الجزائر ، وهي تستلزم منا أن نشرح الأمور على حقيقتها .

لقد فتح جيش التحرير الوطني جبهة جديدة في ولاية وهران ، بالتضامن مع الثوار في الريف ، بالمغرب الشقيق ، أولئك الثوار الذين هبوا للنضال بمجرد أن غادر العميل ابن عرفة البلاد نهائيا . أما في منطقة القبائل ، فإن رجال المقاومة هناك عادوا الى تقاليدهم المتوارثة منذ قرون ، فانطلقوا حتى بلغوا هضاب مدينة الجزائر ، وتمركزوا فيها بعض الوقت ، وأخذوا يشنون هجوماتهم من تلك المواقع خلال شهر ديسمبر . واذا

(1) الاشارة هنا الى عبد القادر السائح، الرئيس السابق للمجلس الجزائري . ولا شك أنه استخلص العبرة من «الجلاوي» ، فقدم استقالته التي أحدثت ضجة كبرى .

انتقلنا الى الحدود التونسية ، وعلى وجه التحديد ، الى النمامشة القريبة منها ، والى الأوراس والشمال القسنطيني ، فإننا نجد أن نشاط المحاربين الجزائريين متزايد على قدر ما تتزايد عمليات القمع والاضطهاد . وفي عشية 11 نوفمبر 1955 أفلت مصطفى بن بوالعيد وعشرة آخرون من المساجين ، وكلهم محكوم عليهم بالاعدام ، أفلتوا من سجن قسنطينة والتحقوا سالمين بالمنطقة المراقبة من طرف الجيش الجزائري . وهذا دليل على فعالية التنظيم السري الذي حققته المقاومة الجزائرية على مختلف الأصعدة ، كما أنه دليل على طابعه الجماعي الشعبي ، وعلى تفسّخ النظام البوليسي الفرنسي الذي لا أمل له في البقاء الا بالارهاب .

ان العمل السياسي أخذ ، بعد فترة طويلة من الركود ، يتطور شيئا فشيئا في اتجاه البرنامج المحدّد من طرف جبهة التحرير الوطني . وهذا البرنامج ما فتىء يتعدّل آخذا بعين الاعتبار الأحداث الطارئة على الصعيد الفرنسي أو على صعيد المغرب العربي ، وازدياد الوعي في أوساط الجماهير الجزائرية . وقد أدى موقفها وموقف مجموعة الواحد والستين التي سايرت التيار العام (ربّما على مضض) أدى موقفهما بالحكومة الفرنسية الى تأجيل الانتخابات التشريعية في الجزائر . كما أن الموقف المتصلب الذي اتخذته «فيدرالية الشيوخ الأوربيين للبلديات» في ولاية الجزائر ، الى انفصال العدد القليل من الرؤساء الجزائريين للمراكز البلدية من تلك الفيدرالية . وكانوا على أية حال شبه معزولين عن نشاط البلديات ، لأن اختصاصاتهم محدودة وخاضعة لمراقبة الموظفين الفرنسيين .

أما حركة الاستقالة بين المستشارين البلديين ، والمستشارين العامين ، التي ابتدأت في أواخر شهر نوفمبر ، فقد تواصلت في شهر ديسمبر . وبمبادرة من حزب (ت.د.ب.ج) امتدّت حركة الاستقالة الى مناصب أخرى يشغلها بعض الساسة من أصحاب فرحات عباس ، ما

بين أعضاء في مجلس الشيوخ ، ومستشارين في الاتحاد الفرنسي ، ومندوبين في المجلس الجزائري . أما المنتخبون «المستقلون» التابعون لمجموعة الواحد .والستين ، فقد رفضوا السير فورا على منوالهم ، ولكنهم تعهّدوا بتقديم الاستقالة في حالة ما اذا لم تعمل الحكومة الفرنسية المنبثقة عن انتخابات يناير ، على تحقيق «الفكرة القومية الجزائرية» . ويبدو أن هذه المجموعة التي كان يترأسها الدكتور ابن جلول ، وكانت في معظمها متألّفة من مندوبين في المجلس الجزائري ، ومنتخبين حكوميين ، قد تراجعت قليلا عن موقفها الحازم الذي وقفته في شهر سبتمبر المنصرم . ان فكرة القومية التي انضمّ اليها — بعد لأي — هؤلاء العملاء السابقون ، ما كان من الممكن أن تنسجم تمام الانسجام ، وبين عشية وضحاها ، مع عوائدهم السياسية ، وماضيهم وايمانهم الضعيف المعهود عنهم . ويقال بأن البعض منهم قبض مبالغ طائلة مقابل تعهده بعرقلة الحركة التي ينتمي اليها ، وتعويقها عند الاقتضاء . وتقول المصادر المطلعة أيضا ، بأن قرار الوالي العام سوستيل القاضي برفض استقالة المنتخبين الحكوميين ، هذا القرار أوحى به اليه اثنان من المندوبين ذوي النفوذ ، التابعين للهيئة الثانية في المجلس الجزائري . ومهما يكن من أمر ، فلئن كان البعض مفتقرا لوازع وطني يردعه ، فلقد توفّر للأغلبية العظمى من الجزائريين انضباط قومي حلّ محل التهور المعهود لديهم . وهذا الانضباط سوف يشتد ويقوى أمام افلاس السياسة الاستعمارية ، وما يتشبّث به الأوربيون الرجعيون من امتيازات لا يقبلها العقل .

ان الديمقراطيين الفرنسيين المقيمين في بلادنا (أندريه ماندوز André Mandouze وصحبه ، وأعضاء جمعية «الاخاء الجزائري» ، والاشتراكيون والشيوعيون) الذين جعلتهم سياسة (سوستيل) و (روبير لاكوست) الحمقاء يركنون الى الدعة والسكون ، ربما سوف تكون لديهم

الشجاعة ــ اذا كانوا حقا يشعرون بأنهم قبل كل شيء جزائريون ــ لكي يختاروا الحل المنطقي الوحيد لمشكلة مرتبطة بمصيرهم في وسط شعب حرّ كريم ، متفتح على أسباب التقدم ، يحترم حقوق كل انسان المشروعة ، ويعمل على تحقيق المساواة للجميع . ان جبهة التحرير الوطني قدّمت مزيدا من الايضاحات حول برنامجها ، بخصوص الفرنسيين المقيمين في الجزائر ومصيرهم في المستقبل . ويستفاد من ذلك البرنامج بأن هؤلاء اذا كانوا يرغبون في البقاء جزائريين ، فما عليهم الا أن يتصلوا بالقيادة السياسية للمقاومة . وفي هذه الحالة ، فلن يكون هناك أي فرق بينهم وبين المواطنين الآخرين من الأهالي . أما اذا كانوا على العكس يرغبون في الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية ، فسوف يعاملون كرعايا فرنسيين تمثلهم حكومة بلادهم . ومن جهة أخرى ، فإن جبهة التحرير الوطني التي هي اللسان المعبّر عن جيش التحرير الوطني ، والترجمان المباشر للأغلبية العظمى من الشعب ، لتؤكد بأن الحكومة الجزائرية التي سوف تنبثق عن المفاوضات هي وحدها صاحبة الحق في تنظيم الانتخابات الحرة للمجلس التأسيسي المتمتّع بكامل السيادة .

## الوالي العام سوستيل

ان النظريات الفرنسية الرسمية بعيدة كل البعد عن هذا البرنامج الذي حدّدته الحركة القومية المكافحة تحديدا واضحا . ففي منتصف شهر يناير ، عاد السيد جاك سوستيل في جوّ من التهريج ، الى مشروعه المتعلق بالادماج ، وهو مشروع بائد ألبسه الآن ثوبا جديدا بقصد الخداع والتضليل ، واستعار له عبارة اقتبسها من القانون الأساسي للجزائر ، وهي : «المساواة في الحقوق والواجبات» . أما الفكرة الجديدة التي أتى بها ــ بصرف النظر عن الفكرة القديمة المتعلقة بالمزج الاجباري والذوبان ، وهي فكرة ضيقة الأفق ومنافية للديمقراطية ــ فهي بدون شك

فكرة هيئة الناخبين الموحدة collège unique ، علما بأنها مصحوبة بأحكام تخدم مصلحة الأقلية الفرنسية .

وقد أعرب الوالي العام جاك سوستيل في هذا المشروع المصحوب بتقريره للرئيس ايدجار فور بتاريخ 7 يناير 1956 ، أعرب من جديد عن معارضته لاجراء المفاوضات مع القيادة السياسية العسكرية لجبهة التحرير الوطني ، وأكّد بأن «الأطراف الممثلة للسكان» سوف يتم اختيارها خارج نطاق حركة المقاومة ، على اثر الانتخابات . وهذه الانتخابات لا علاقة لها بالمجلس الجزائري ، باعتبار أن هذا المجلس تقرر الغاؤه بموجب المشروع السابق الذكر ، بل لها علاقة بالبرلمان الفرنسي الذي سوف يتضاعف فيه عدد الممثلين الجزائريين . وهذا يعني مرة أخرى محاولة فرض الحل من طرف واحد للمشكلة الجزائرية ، علما بأن هذا الحل لا يرضي الأقلية الفرنسية المناهضة لفكرة الادماج ، بدعوى أنها فكرة متطرفة الى أقصى الحدود ... كما أنه لا يرضي الأكثرية الجزائرية التي تقف اليوم صفا واحدا مع جبهة التحرير الوطني وتطالب باقامة الدولة الجزائرية كما كانت في سابق عهودها . ولئن كانت معارضة المستوطنين الفرنسيين لمشروع سوستيل خفيفة ، فلأن صاحب هذا المشروع وقع أسيرا بينهم ، وأصبح «مجمّدا» من طرف «أصدقائه الجدد» . وفضلا عن هذا فقد أدركوا بأن الادماج الكامل مشروع لا يمكن تحقيقه على أية حال . وهكذا فإن الوالي العام ، رغم فكرته الجديدة المتعلقة بهيئة الناخبين الموحدة ، يعتبر مع ذلك من العناصر السلبية . وقد أعطى البراهين الساطعة على سلبيته عندما أحجم عن تطبيق «الاصلاحات الطفيفة» التي تعرف هي أيضا باسمه . وهذا ما كان يريده المستعمرون الذين يفضلون أن يكون الملك المتولّي أمورهم من الحمقى ، خلافا لما قالت به الضفادع في قصص الحيوانات المعروفة ... وعلى أية حال ، فهذه الصورة ليس فيها مبالغة فيما

نعتقد ، لأن المهمة الوحيدة التي نجح فيها السيد جاك سوستيل من بين المهام الأخرى التي اعتزم انجازها في الجزائر منذ عام ، هي مهمة القمع والاضطهاد . ولكنه هنا أيضا مشى على سلبيته ، وترك غيره يعمل ، وهذا ما يريده المستعمرون على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم ، مما جعلهم يحمدون له فضله عند مغادرته للبلاد نهائيا : فلكم بذلوا من جهود حتى استطاعوا في الأخير أن يضموه الى صفهم ، وأن يضربوا من حوله حصارا لكي يبقى دائما في نطاق النظريات التجريدية . وها هم الآن مضطرون لاعادة الكرة مع سلفه الذي ينكرون عليه بأنه قام بعمل ايجابي ، وان كان في الحقيقة عملا تافها ، بل هو لصالح الاستعمار . وهذا العمل هو اصدار الأمر الحكومي بتاريخ 7 مارس 1944 .

## الوزير المقيم كاترو

واذا نظرنا الى المسألة عن كثب ، فإن تعيين الجنرال كاترو Catroux لم يحدث أي تغيير ملحوظ بالنسبة للوضعية السياسية الجزائرية . فالوزير ـ المقيم (كما يسمى) لم يأت بأي برنامج يسير على منواله ، وكان من حيث المبدأ معارضا لأي حوار مع «**المسلمين الذين تمردوا على الحكم الفرنسي**». ولذلك ما كان منه الا أن أخذ يطبّق الخطوط العامة للسياسة المعادية للقومية الجزائرية التي وضعها سلفه سوستيل . ففي مقابلة صحفية أجراها بتاريخ 3 فبراير مع جريدة لوموند ، صرّح في البداية بأن الحكومة الفرنسية سوف تحترم «**الشخصية الجزائرية**» ، ثم أكّد بعد ذلك بأنه « **لا يوجد أي أساس تاريخي للدولة القومية الجزائرية**» ، وأن الحكومة «**لا تنوي اطلاقا تحويل الجزائر الى دولة ذات سيادة**» . وهكذا أصبحت فكرة «**الشخصية الجزائرية**» كما أرادها كاترو ، ذات مضمون نسبي يهدف الى خدمة الاستعمار ، ويحمل طابع الغموض ، بحيث أن القضية أصبحت تعالج في اطار الاقليمية الفرنسية .

ويعتبر هذا تراجعا عن الفكرة الفيدرالية نفسها ، بدليل أن الجنرال كاترو ، بعدما تحدث عن ضرورة بقاء المجلس الجزائري «**الذي يمكن في المستقبل أن يحوّل نوعا من السلطة التنفيذية**» ، أضاف مستعملا صيغة الشرط : «... **على شرط أن يتم في المستقبل تشكيل بنية فيدرالية متمثلة في الاتحاد الفرنسي** **L'Union Française**» . وقد أكّد الوزير المقيم على نيته في ابعاد الثوار من المحادثات التي يعتزم اجراءها ، لأنها لو حصلت معهم ، فإنها بطبيعة الحال لن تكون من نوع المحادثات الوحيدة الطرف ، أو المحادثات الفرنسية ـــ الفرنسية ، كما قال أحدهم متهكّما ، بل سوف تكون حتما من نوع المفاوضات الثنائية من حيث شكلها ونتائجها ، وسوف تكون ذات طابع ديمقراطي ، لأنها تهم الأغلبية العظمى من الشعب الجزائري .

ومع ذلك ، فإن الجنرال كاترو وقع في تناقض كبير حينما أقر «**بالترحيب الذي لقيه المحاربون الوطنيون لدى الشعب حينما رفعوا شعار الجنسية الجزائرية**» . واذا كان هذا الترحيب الذي ليس مجرد نزوة عارضة ، موجودا ، واذا كانت الجنسية هي أيضا موجودة ، فهما معا يشكلان عنصرين ايجابيين ، ولابد ـــ منطقيا ـــ من أخذهما بعين الاعتبار ما دام الانسان قد أقرّ بهما ولو بصورة عرضية . ان هذا «الترحيب» ان هو في الواقع الا نوع من الاستجابة لنداء جبهة التحرير الوطني ، ولا يمكن تعليله الا بتوفّر ظروف ملائمة للفكرة القومية المتأصلة لدى السكان منذ القديم . فما كانت القومية الجزائرية لتنشأ ، وما كانت لتنمو وتترعرع خارج اطارها التاريخي والشعبي . واذا كانت مبادرة جبهة التحرير الوطني قد أفضت بها الى المرحلة الحالية من تطوّرها ، فلكي تستجيب لآمال الجميع ، ولكي تشخّص المثل الأعلى الذي رسم له البعض صورة غامضة ، ولكنها صورة حقيقية وقابلة للنماء ، كغيرها من شؤون الحياة .

لنعد الى الجنرال لنقول بأن مهمته التي كلّف بها ربما كانت متعلقة باستمالة المنتخبين الحكوميين الذين جعلتهم تصرفات جاك سوستيل الطائشة ، ومجاملاته للمعمرين يحاولون التخلص من سيطرة الحكومة الفرنسية عليهم . وقد صرّح بأنه يعتزم اجراء محادثات في مدينة الجزائر مع الأطراف التي يعتبرها صالحة . وبما أنه يقرّر بقاء المجلس الجزائري وبقاء **«الجهاز الاداري بأكمله في الولاية العامة»** ، فإن الجزائريين المشاركين في المحادثات سوف يتم اختيارهم من بين من لا يزال منهم على عهد الوفاء والولاء لهاتين المؤسستين الاستعماريتين .

## رئيس الوزراء جي مولي

ومهما يكن من أمر ، فإن برنامج الوزير — المقيم ، كما أشرنا ، كان متناقضا ، يحمل طابع العجلة ، ويفتح مجالا واسعا للمبادرة الفردية ، ويقوم على أساس وضع ثقة عمياء في رجل مارس طويلا مشاكل المغرب العربي واحتكّ بها . ولعل هذا هو السبب في فشل الرئيس جي مولي Guy Mollet أمام تمرّد الأوربيين في مدينة الجزائر . فالرئيس الفرنسي لم يكن لديه تصور واضح للمشكلة ، ولذلك اعتمد اعتمادا كليا على تجربة شخص معروف بكفاءته (بالمفهوم الاستعماري للكفاءة) ، ولم يقابل موقف العداء من طرف الأوربيين الا بموقف مذبذب ، على غرار مشروعه المذبذب هو أيضا . فالخطاب الذي ألقاه مساء يوم الخميس 9 فبراير 1956 ، وتوجّه به الى سكان الجزائر ، يعدّ من أغرب ما سمعه الناس من حيث التنافر ، والخروج تماما عن موضوع الجزائر . واذا كان السيد جي مولي قد أطال الحديث عن **«معجزة الصحراء»** (من غير أن يصيب الهدف) ، وعن **«استغلال ثروات الصحراء»** ، في خطاب كان من المفروض أن يكون سياسيا بالدرجة الأولى ، فلأنه تذكّر مشروعا أعدّه مجلس أوربا Conseil de l'Europe (وهو عضو بارز فيه) ، كما تذكّر المجموعة

الأوربية للدفاع C.E.D التي أعدت المشروع الأوربي ــ الافريقي ، والاستغلال المشترك للصحراء ... وعلى أية حال ، فقد حرص كل الحرص في خطابه على أن يطمئن جمهور الفرنسيين ، وأن يقول للجزائريين بكل برودة : «**ان الحكومة سوف تقاتل ، وفرنسا سوف تقاتل لكي تبقى في الجزائر ، وسوف تبقى بكل تأكيد**» . وكان يجدر به أن يخاطب الفرنسيين بهذا الكلام ، لأنهم تنكروا لفرنسا ، ولأن الحكومة الفرنسية لا تقاتل في الجزائر الا من أجل المحافظة على امتيازاتهم .

وقد كشف المستوطنون عن طبائعهم الطائشة الهوجاء في الاستقبال العاصف الذي خصّوا به الرئيس جي مولي . وسلوكهم هذا يشبه سلوك الأطفال المدلّلين . فإذا كان المستوطنون ناقمين على وطنهم الأصلي فرنسا ، فليس السبب في ذلك هو التقصير في حمايتهم ، لأن فرنسا ما فتئت تحميهم بكيفية لا تتناسب أبدا مع مخاوفهم الصبيانية . ان السبب الحقيقي هو التخوف من سحبها للدعم الذي تقدمه لهم من أجل المحافظة على امتيازاتهم القديمة . ان دورْ فرنسا في شمال افريقيا ، كما يتصوره المعمرون ، هو دور سلطة عليا تضمن لهم أرباحا طائلة ، وتمارس سياسة القمع بدون شفقة مع الأهالي . واذا قيل لهم بأن فرنسا لها وجه آخر ليبرالي نسبيا ، فإنهم ينكرون هذا الوجه أيما انكار ، ويقولون بأن فرنسا غدرت بهم . انهم أطفال مدللون لأكثر من سبب : فالشعب الجزائري كله مسخر لخدمتهم ، وكذلك الحكومة والمؤسسات الفرنسية والمحلية ويتلقون دائما المساعدة المالية والمؤازرة المعنوية من وطنهم الذي لا يتفقون معه في كثير من الميول والاتجاهات . وهؤلاء الأطفال المدللون يعرفون بأن السلطات لن تعاقبهم على نزواتهم ، وسوف تغضّ الطرف على ما يرتكبون من مناكر ، وفي ذلك تشجيع لهم على التمادي في طغيانهم . ففي 1848 ، روى كبير أطباء جيش افريقيا كيف أن الفرنسيين المقيمين

في مدينة الجزائر ، وكان عددهم آنذاك قليلا ، تجاسروا على الوالي العام الذي عينته فرنسا على الجزائر فطروده ، وهذا المطرود هو الجنرال شانغارنيي بالذات ، الذي أسهم أيما اسهام ، طيلة خمسة عشر عاما في احتلال البلاد . وقد عينه في هذا المنصب الحكم الجمهوري المنبثق عن ثورة فبراير ، ليكون خلفا لكافينياك ، وهو جنرال آخر ممن نقموا عليه . واليك ما رواه كبير الأطباء نيكولا بول ، بتاريخ 1 أبريل 1848 : «أعرب سكان مدينة الجزائر ، في اجتماعات عقدوها في النوادي ، عن معارضتهم الشديدة لتعيين الجنرال شانغارنيي ، فرفضوا أن يستقبلوه طوال عام ، وأجبروه على البقاء على متن السفينة والعودة في نفس اليوم من حيث أتى (1) .»

ان عام 1848 يعتبر العام الذي انتهت فيه حرب الجزائر رسميا ، وان كانت قد تواصلت من خلال الانتفاضات العديدة ... كما يعتبر على الأخص ، العام الذي انهارت فيه الدولة الجزائرية عندما استسلم الأمير عبد القادر قبيل ذلك ببضعة أشهر . وكانت نيّة المعمرين المبيّتة أن تؤول اليهم هذه السيادة المنهارة ، وأن يستأثروا بها وحدهم دون وطنهم الأصلي . ومن تصرفاتهم في 1870 ندرك نوعية «وطنيتهم» عندما عمدوا الى مفاوضة الحكومة الفرنسية اللائذة بمدينة تور Tours ، وتأسيس «لجنة الدفاع عن مدينة الجزائر» ، (وهي لجنة ذات سلطة مطلقة) ، وتهديدهم فرنسا بدعوة غاريبالدي للانضمام اليهم ، أو بمبايعة الملكة فيكتوريا ... وذهبوا الى أبعد من هذا عندما كرروا نفس الصنيع ــ من غير أن يعاقبهم أحد ــ مع الوالي العام . ففي كتاب حول المستوطنين للمؤرخ جان هيس (ولايزال محتوى كتابه منطبقا على الوضع الحالي) ، يحدثنا المؤلف كيف انهم لم يتورعوا عن «ضرب جنرال فرنسي طاعن في السن ،

(1) Campagnes d'Afrique : 1835-1848, cf., médecin Nicolas Paul.

وهو السيد ولسن ايسترهازي ، حتى صرعوه ، وكان هذا الشيخ الهرم قد عين عليهم واليا (1) .»

ان بعض الفرنسيين الجاهلين لواقع الأمور ، يشبّهون الوضع في الجزائر بالوضع في جنوب افريقيا ، استنادا الى ما يتميز به الأوربيون هناك من تهوّر وميل الى المشاغبة والتشويش ... لاشك أن المعمرين كانوا دائما يعملون لكي تصبح الجزائر بلادا خاضعة للحكم العنصري . ويمكن القول بأن فرنسا شجعتهم على هذا الاتجاه ، وتركت لهم الحبل على الغارب الى حدّما . ولئن أخطأهم التوفيق في مسعاهم — ولن يوفّقوا أبدا — فلأنهم يواجهون منذ قرن شعبا مكافحا واعيا بوجوده القومي ... شعبا لم تستطع نكبات الحرب والقمع والاضطهاد أن تكسّر شوكته .

وشاء البعض منهم أيضا أن يوهم الرأي العام بأن موقف المتمردين الأوربيين على الحكم الفرنسي لم يكن أبدا معاديا للجزائريين ، وذلك بحكم «الأثر الذي أحدثه التعايش الطويل في ترسيخ السلام بين السكان» . ولكن هذا غير صحيح بالمرة ، لأن الأوربيين ما كانوا يترددون في اظهار العداء للأهالي كلما وجدوا بأن ميزان القوى لصالحهم ، كما كان الشأن في حوادث مايو 1945 ، أو في حوادث الدار البيضاء بالمغرب . على أنهم رغم الهيجان الذي استولى عليهم ، قد أظهروا شيئا من التعقل . ومهما يكن من أمر ، فإن الحوادث المؤسفة التي وقعت في مدينة الجزائر كشفت لبعض الجزائريين المتردّدين بين الحق والباطل ، والمؤيّدين للسياسة الفرنسية الجديدة ، كشفت لهم الوجه الحقيقي للاستعمار الجديد ، ومن أبرز أقطابه السيد جاك شوفاليي الذي لا يقل تصلبا وحقارة عن غيره من المنتخبين الأوربيين الآخرين .

---

(1) Jean Hess : **La vérité sur l'Algérie**, Ed. 1905.

## الحل القومي للمشكلة الجزائرية

واذا شئنا أن نذكر الأسباب التي جعلت المشكلة الجزائرية تسير في اتجاه الحل القومي ، فإننا سنعدّ منها ثلاثة :

أولا : ان القومية ، اذا نظرنا الى المرحلة الحالية من تطورها ، قد بلغت ذروتها قوة وفعالية . وهذا لا يعني بأنها ستقف عند حدّ هذه المرحلة ، لأنها سوف تنتقل لا محالة الى مرحلة أخرى حاسمة . فمن عام 1937 الى عام 1945 ، كان حزب الشعب الجزائري وحده تقريبا فى الميدان ، وكان حزبا قوميا طلائعيا ومرّ بعهود مختلفة : فكان طورا مسموحا به ، وطورا آخر مضطهدا أو سرّيًا ، وكان عدد المناضلين التابعين له قليلا نسبيا وتنظيمهم سيئا . وقد لقي من الشعب تجاوبا كبيرا ، الا أن هذا التجاوب قلما أسفر عن عمل ايجابي . أما في الفترة ما بين 1946 و 1951 ، فإن سياسته الانتخابية أفضت الى دخول عناصر كثيرة في حزب (الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية أو (ح.ن.ح.د) وكانت هذه العناصر متنوعة ومتفاوتة في التكوين ، مما أدّى الى ضمور الثلة النشيطة الواعية من حزب الشعب الجزائري السري ، في وسط ذلك العدد الكبير من المناضلين الجهلة . ثم أعقبت هذه الفترة سنوات اضطربت فيها العقول ، وساد فيها الغموض ، لأنها تأثرت بالعمل المزدوج الذي قام به الوالي العام نايجلين ، والمجلس الجزائري ، باتجاه الأول الى الاضطهاد ، والثاني الى الرجعية . فهذا العمل المزدوج زحزح الحركة القومية وقلّص نفوذها بين الجماهير . ويجدر بنا أن نضيف عاملا آخر يتمثل في ما لوحظ لدى بعض أعضاء القيادة السياسية من رضوخ لارادة قائد الحزب مصالي الحاج ، وبذلك فسحوا له المجال لكي يترقّى في مدارج الزعامة ، فاتّخذ موقفا متصلبا ، وصار يطالب من منفاه في فرنسا بالسلطات المطلقة .

وعلى هامش هذه الأحداث التي أخذت منذ 1945 تترك أثرها في حزب ح.ن.ح.د ، بدأ نوع من الانتقاء البشري يحصل في صفوف الحزب ، بطريقة عفوية وفعالة ومعبرة عن روح نضالية جديدة . وقد تمثّلت في الرجال الذين برزوا ، وتمثّلت فيهم استمرارية المثل الأعلى القومي ، فضلا عن المقدرة على التنظيم السياسي العسكري . وعن هذا التنظيم نشأت على التوالي اللجنة الثورية للوحدة والعمل C.R.U.A ، وجبهة التحرير الوطني . وأخيرا ، ففي السنتين 1954 ـــ 1955 وضع هذا التنظيم في محكّ التجربة ، فخرج منها مدعّما ، وانتشر في سائر أنحاء البلاد ، وانتقل من مرحلة انتقاء الأشخاص الى مرحلة المشاركة الجماعية الواسعة النطاق .

ثانيا : ان هذا الاطار البشري الذي احتضن الثورة متنوع : ففيه العنصر الجزائري الأصيل ، والعنصر الفرنسي الأصل ، والعنصر الشمال ـــ افريقي . هذا ، فضلا عما لقيته الثورة من الدعم في باندونغ والشرق الأدنى والأوساط الديمقراطية في فرنسا .

واذا نظرنا الى الوضع في الجزائر ، فإن المجموعات المتقاعسة عن تلبية النداء ، أو المستعصية أو الكارهة للسياسة أخذت بدورها تنضمّ للثورة عمليا أو عاطفيا . ان الثورة التي أصبح لها كيان شرعت تعمل لكي تفرض في المدى القريب أو البعيد ، العناصر أو الحقائق **الداخلية** ، أي النابعة من المغرب العربي ، وعلى الأخص من الجزائر ، وترجيحها على العناصر والحقائق الخارجية ، مهما كان مصدرها . وانّ حربا كهذه ما قامت عبثا ، بل هي حرب من أجل انتصار القومية ، وقد ضمت الى صفوفها جماهير الفلاحين المتمسّكين بأرض بلادهم ، وضمت أيضا الوطنيين المدركين لما يكتسيه النضال القومي من طابع جزائري صرف ، والمقدّرين للمشاكل التي سوف تعترضهم على الصعيد الداخلي ، حتى

ولو كانوا يتطلعون الى العالم الخارجي ، طمعا في المساعدة والدعم المعنوي .

أما رجال جمعية العلماء الذين كانوا في أكتوبر 1955 ، يؤيدون صيغة «مائعة» بعض الشيء من الاستقلال الداخلي ، فقد أصدروا في 7 يناير 1956 بيانا عموميا أعلنوا فيه بأنه «لا يمكن حل المسألة الجزائرية حلا حاسما وسلميا الا بالاعتراف الرسمي بكيان الأمة الجزائرية الحرة ، وبشخصيتها الخاصة وحكومتها الوطنية ومجلسها التأسيسي المتمتع بكامل السيادة . هذا ، مع احترام مصالح الجميع» .

وفي الأخير ، أكّدت جمعية العلماء في هذا البيان بأنه «لا يمكن انهاء حالة الحرب أو اقامة نظام حر جديد الا عن طريق مفاوضات صريحة صادقة مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري ، الذين يخوضون غمار الكفاح المشروع» .

وأما مجموعة الواحد والستين ، فقد أتيحت لها الفرصة خلال المحادثات الأولى التي أجرتها في باريس مع السيد جي مولي ، أن تؤكد على أهمية الظاهرة القومية الجزائرية . كما أكّد أعضاء هذا الوفد بأنهم «لا يدّعون حق التكلم باسم الشعب» . أما فرنسيو الجزائر الليبراليون ، فقد عبروا بكل شجاعة — وفي حدود الممكن ، نظرا لما استهدفوا له من تهديد الفرنسيين الرجعيين لهم — عبّروا عن تأييدهم للحل التفاوضي للمشكلة الجزائرية . ففي اجتماع عقد بقاعة فاجرام بباريس في 27 يناير 1956 ، تكلم السيد أندري ماندوز باسم المقاومة الجزائرية فدافع عن مواقفها الثورية . وأما جمعية «الاخاء الجزائري» التي حصلت على مئات الامضاءات لبيانها المنشور في 17 ديسمبر 1955 بمدينة وهران ، ما بين موظفين وأساتذة وأطباء ومحامين ومعلمين وتجار ورجال الصناعة وأصحاب

الحرف ، من ذوي الأصل الأوربي ، أو اليهودي ، أو الجزائري المسلم ، فقد عملت من أجل وضع حدّ للحرب ، والدفاع عن حقوق الانسان والمواطن ، ومن أجل «حمل الحكومة الفرنسية على عقد اتصالات في أقرب وقت ، مع الممثلين الحقيقيين للجزائريين كافة ، أوربيين ومسلمين لايجاد حل سريع وعادل للمشكلة الجزائرية» .

ومن بين الوفود التي اتصلت بالسيد جي مولي في الجزائر ، فإن وفد «الاخاء الجزائري» هو الوفد الوحيد الذي طلب من رئيس مجلس الوزراء الفرنسي أن يجري مفاوضات مع جبهة التحرير الوطني .

## القومية بين الاعتدال والحل الجذري

ومن أبرز الأحداث المعبّرة عن اتحاد الكلمة هو اعلان السيد فرحات عباس عن انضمامه الى الجبهة . ومن المعروف أن زعيم حزب (ت.د.ب.ج) ، تطبيقا لسياسة المقاطعة التي نادت بها جبهة التحرير الوطني في ديسمبر 1955 ، كان قد أقنع جميع المنتخبين التابعين لحزبه ، من مستشارين في المجالس البلدية والولائية ، ومستشارين في الاتحاد الفرنسي ، وأعضاء في مجلس الشيوخ ، ومندوبين في المجلس الجزائري ، بضرورة تقديم استقالتهم . وقد أكد من جديد ، في تلك المناسبة ، على المبادىء الأساسية لحركته السياسية ، بعد أن ندّد «بممثلي الاستعمار الذين عبّروا مرة أخرى عن ولائهم للامبريالية القائمة على فكرة التفوق العنصري والسيطرة السياسية» ، الى أن قال : «ان الشعب الجزائري أعرب بكل وضوح عن عزمه على رفض أية وصاية استعمارية ، وعلى تحقيق حياة قومية أصيلة ، باقامة مؤسسات ديمقراطية» . وكان السيد فرحات عباس معروفا بميوله لجبهة التحرير الوطني ، ولهذا فلا نستغرب منه هذا الموقف . وقد وقع في شهر أغسطس من عام 1955 ،

اغتيال ابن أخيه علّاوة عباس ، كما وقعت محاولة لاغتيال أحد أصدقائه السياسيين السيد حاج سعيد . أما ادارة سوستيل الحاكمة ، فقد عزت هاتين الحادثتين الى جبهة التحرير الوطني . والحقيقة أنها مناورة مفضوحة للتفريق ، ولم تخف لا على فرحات عباس ، ولا على الرأي العام الجزائري .

ان ما صنعه مناضلو القاعدة التابعون لحزب (ح.ن.ح.د) عندما سمعوا باندلاع الثورة ، هو نفس ما صنعه مناضلو حزب (ت.د.ب.ج) فأخذوا على منوال اخوانهم الأوائل يلتحقون بالجبال ، وان كان عددهم أقل . واذا كان حزب (ت.د.ب.ج) لم يشمله قرار حل الأحزاب ، لأنه كان لايزال «شرعيا» فإن هذه «الشرعية» الشكلية ما كانت لتنطلي على أحد : فهذا الحزب السياسي المعتدل ، اذا كان لايزال يتمتع من حيث الظاهر بالشرعية ، فهذه الشرعية قد زالت نهائيا في هذا البلد المتعرض لنكبات الحرب . فالادارة الاستعمارية ، بسماحها لهذا الحزب القومي المعتدل بممارسة نشاطه ، كانت لها أغراض معينة . وذلك أن المواقف المعتدلة ، والاتجاهات السياسية المعتدلة على وجه العموم ، حظيت بنوع من التسامح لدى الادارة الحاكمة ، ولكن من حيث لا يدري المعتدلون أنفسهم . فالادارة الحاكمة تعتبر أن السياسة المعتدلة ، والأفكار المعتدلة ، والقومية الهادفة للمصالحة ، كل ذلك لا يخلو من فائدة بالنسبة اليها . ولكن الفائدة التي تسعى اليها ليست في الحوار ، أو في اصلاح الأوضاع الفاسدة ، أو في البحث عن حل يشرّفها ، بل فائدتها في اقناع الرأي العام الفرنسي والدولي بأنه توجد ، الى جانب «المتطرفين المناهضين لكل حل سلمي» توجد مجموعة أخرى راقية «قريبة جدا منا نحن الفرنسيين» وذات أفكار سياسية غربية «شبيهة بفكرنا السياسي» ، ومتجردة من «التعصب» ، وما الى ذلك من العبارات الأخرى . وهكذا ، فإن الادارة الفرنسية، بعدما أدركت بأنها لا تستطيع أن تسخّر

فرحات عباس بطريقة مباشرة ، ليقوم بنفس الدور الذي كان يقوم به الأعيان من أعضاء المجالس الجزائرية الزائفة ، أرادت الآن أن تستفيد معنويا ، بطريقة غير مباشرة ، وتحت ستار النزعة الليبرالية ، من هذه الظروف المضطربة التي يهمها بطبيعة الحال أن تدوم .

ومما لاشك فيه أن فرحات عباس «قريب جدا» من الفكر السياسي الفرنسي ، ولكن مثله في ذلك مثل بعض قادة جبهة التحرير الوطني . وأي فكر هو ذلك الفكر ؟ انه بكل تأكيد ذلك الفكر الذي كان الديمقراطيون التقدميون الباقون على عهد الوفاء للمقاومة ، يسترشدون به دائما ، بل هو ذلك الفكر الذي يسترشد به الملايين من الناس في افريقيا وآسيا . وربما كان فرحات عباس ، نظرا الى تكوينه الايديولوجي ، قد كان يعتقد أكثر من سواه ، بل أكثر من بعض اليساريين الفرنسيين ، بأن الخير سوف يأتي على يد الجبهة الجمهورية ، ان لم يكن على يد الجبهة الشعبية التي اضمحلت آنذاك . وهذا الموقف منه ، ان لم نعتبره من قبيل أضغاث الأحلام ، فهو بكل تأكيد التفاتة عاطفية الى عهد 1936 ـــ 1938 (عهد الجبهة الشعبية الفرنسية) . ولذلك فمما يبعث على الاستغراب أن نرى السلطات الفرنسية كلما تحدثت عنه ، أو عن أتباعه ، تقول عنهم بأنهم يساندون ـــ ولو بالسكوت الدال على الرضى ـــ نظام الحكم الذي تدّعي تلك السلطات بأنه ليبرالي . وعلى أية حال ، فلابد من الاقرار بأنهم مسؤولون الى حد ما عن هذا القيل والقال !

ان ردّ فعل السيد فرحات عباس على إثر الأحداث الأولى للثورة يعتبر دليلا على قلقه من أن يحصل ما حصل في 1945 ، يوم أن وقعت مجازر قتل فيها كثير من الأبرياء . وكان للعديد من الناس نفس المخاوف . وبالفعل ، فقد كان لهذه المخاوف ما يبرّرها ، بعد كل ما أصاب السكان

من قمع واضطهاد . واذا استثنينا اثنين أو ثلاثة من أعضاء القيادة المركزية لحزب (ح.ن.ح.د) ، فإن جميع الأعضاء الآخرين كانوا لا يتوقعون النجاح للمبادرة الثورية . أما المصاليون ، فقد لازموا جانب الحذر وظلوا في معزل عن هذه المبادرة وركنوا الى الشك في قدرتها على الاستمرار . وأما فرحات عباس ، .فقد أوعزت اليه جبهة التحرير الوطني التي لم تعتبره خصما لها ، أوعزت اليه «أن يظل ثابتا في مواقفه» وأن «لايتقدم ولايتأخر» . وفي هذه الأثناء ، أخذ المناضلون على اختلاف اتجاهاتهم (حزب ح.ن.ح.د ، وحزب ت.د.ب.ج ، وبعض أعضاء جمعية العلماء) ، أخذ هؤلاء يلتحقون بجبهات القتال . وهذا يدل ، كما قلنا ، على أن الاطارات الوسطى ، ومناضلي القاعدة النشيطة انتزعوا زمام المبادرة من القيادات الكلاسيكية الجامدة ، وهذه ظاهرة لاحظناها في المغرب أيضا ،عندما اضطر حزب الاستقلال ، البرجوازي الاتجاه ، الى تعديل موقفه خلال فترة معينة ، من أجل مسايرة طليعته الشعبية . واذا كانت سمعة بعض القادة التابعين لحزب ح.ن.ح.د (المصاليون والمركزيون )قد ساءت بسبب الانقسام ، فان سمعة فرحات عباس بقيت سالمة نسبيا . وهذا ناتج عن تغير النظرة بعد وقوع الانقسام وقيام الثورة .

وأغلب الظن أن مناضلي حزبه الذين انضموا الى جبهة التحرير الوطني ، حافظوا على تقديرهم له ، مع أنهم قطعوا كل صلة باتجاهه السياسي . أما الرأي العام ، فقد كان على وجه الاجمال ، باستثناء بعض الجماعات المناهضة له ، كان اما على الحياد ، أو غير مكترث بالموضوع ، أو كان يتريث قبل أن يصدر حكمه بشأن موقف فرحات عباس . أما الادارة الاستعمارية ، فقد كانت من جهتها تريد أن تستغل ما في موقفه من التباس ، لأن المهم بالنسبة اليها هو أن تبرهن للرأي العام بأن جبهة التحرير الوطني في عزلة . هذا ، رغم أن ميول فرحات

عباس كانت معروفة لدى الجميع . ولهذه الحالة ما يشبهها : فقد نشأت أثناء الثورة حركة مصالية تسمى الحركة القومية الجزائرية M.N.A ، فأتاحت فرصة ثمينة للسلطات الفرنسية التي أخذت تقوم بنفس العمل التفريقي ، وتستخدم لصالحها هذه الحالة التي تختلف في الحقيقة عن الأولى في أن ح.ق.ج M.N.A تقودها جماعة «متطرفة» سرّية . وهكذا ، فإن الاستعمار لا يتورع عن استخدام أية وسيلة لتحطيم خصمه ، وخاصة اذا كان هذا الخصم قويا .

لاشك أن الحكومة ، بمراعاتها واحترامها لفرحات عباس ، أرادت بذلك أن تنوّه بموقفه المعتدل ، وهو موقف غير منطقي في حد ذاته ، ومستغرب من صاحبه ، خاصة اذا عرفنا أن الاستعمار يقف دائما موقفا مناقضا للأول ، وهو الموقف المتطرف ، ويستخدم جميع الوسائل المتاحة له في الدعاية . وهكذا ، فقد عملت على الايقاع في الأذهان بأن النعيم المقيم سوف يكون من نصيب الخاضعين للقانون ، وأن العذاب الأليم سوف يكون من نصيب الخارجين عن القانون . ولهذا ، فحتى لو كانت هناك أدلة قوية على تواطؤ فرحات عباس مع الثوار ، ما كانت السلطات الفرنسية لتلقي عليه القبض ، علما بأنها ، من جهة أخرى ، لم تضايق المنتخبين الحكوميين الميالين لجبهة التحرير . ورغم كل ما تقوم به السلطات من أعمال استفزازية زجرية ، فإنه يهمها أن تعطف على هذه النزعة المعتدلة الثمينة ، لكي توهم الرأي العام بأنها ــ رغم اعلانها للأحكام العرفية ــ متسامحة ، ولا تمانع في وجود معارضة سياسية . وللوالي العام سوستيل بعد هذا أن يتخذ ما يشاء من أحكام تعسفية ، بوقف أعمال المجلس الجزائري على اثر صدور القرار التاريخي لمجموعة «الواحد والستين» ، وبمصادرة جريدة (الجمهورية الجزائرية) بين الحين والآخر . وهذا كله ، في نظر السلطات الفرنسية ، لا يتنافى مع قيام

المعارضة الحرة ، ما دامت معارضة شكلية يمكن أن تستخدم في أغراض الدعاية .

لابد اذن من الاقرار للسيد فرحات عباس بالفضل عندما وضع حدّا لهذه الشبهات التي استهدفته رغم ارادته . وقد اتخذ قراره في مرحلتين متكاملتين : أولا ، أراد أن يقطع عن فرنسا ما تتذرع به من حجج بتواجده في الجزائر ، وقيامه بدور سلبي عقيم ، في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب الشاملة في الجزائر ، وأخذت فيه الحكومة الفرنسية تبحث عن كل دعم ممكن ، سواء كان سرا أو جهارا ، وعن كل المبررات الممكنة لكي تعالج الوضع حسب طريقتها ، بعزل العاملين في جبهة القتال ... ثانيا ، أراد السيد فرحات عباس أن ينضمّ علانية الى صف الاجماع القومي ، وأن يتعاون ضمن جبهة التحرير الوطني ، مع العناصر التي ظهر له أن أهدافها قريبة من أهدافه . ومما لاشك فيه أيضا أنه برهن عن تواضعه عندما أقلع عن السياسة البائدة ، سياسة الزعامات ، ورضي بالقاعدة المطبّقة على الجميع ، للعمل جنبا الى جنب مع القادة الشبان في الجبهة وفي جيش التحرير الوطني . وقد استطاع أن يحبط دسائس الاستعمار الجديد الذي عمل على ابقائه سجينا في ماضيه وسياسته القائمة على المصالحة وإلهاء النفوس بالآمال الخائبة والوعود الكاذبة . وبذلك أعلن استنكاره للحرب ، وما ينجرّ عنها من قمع واضطهاد وغدر واستهتار بالمسؤولية . ولو لم يفعل ذلك لاعتبر الناس بقاءه في الجزائر نوعا من التأييد غير المباشر لما تقوم به فرنسا . والحقيقة أن القوميين أخذوا ، منذ 1936 ، ينتقدونه ، وأحيانا على صواب ، لكونه لم يتخذ مواقف واضحة ، ولأن مبادئه السياسية لا تساير الزمان . وها هو ذا قد اختار اختيارا يدل على أنه ينهج منهج الصرامة . والصرامة بعد اليوم ، هي الصفة المميزة للمشكلة الجزائرية .

ان الرأي العام الفرنسي والدولي لا يخفى عليه ما يتمتع به بعض قادة جبهة التحرير الوطني من روح وطنية وخصال حميدة وكفاءة نادرة ، وسوف يتساءل ماذا يمنع السلطات الفرنسية الآن ، بعد انضمام فرحات عباس الى الجبهة ، من اجراء المفاوضات ، علما بأن شروط اقامة الحوار متوفرة ، وأن جميع الساسة الجزائريين على اختلاف نزعاتهم ، متفقون على ذلك .

أما الرأي العام الفرنسي الليبرالي ، فسوف يفضي به الأمر الى نفس النتيجة ، وبالتالي ، فإن جبهة التحرير الوطني سوف يزداد نفوذها بعد هذا الانتصار المعنوي الذي نالته بفضل سياستها النشيطة وعزيمتها الصادقة ، وما يتمتع به فرحات عباس من وطنية وتواضع . ان التعاون الذي بدأ بالفعل منذ عدة أشهر على مستوى مناضلي جبهة التحرير الوطني ، ومناضلي حزب ت.د.ب.ج ، وعلى الأخص مع المنظمة الفتية للاتحاد العام للعمال الجزائريين (التي انضم اليها أكثر من 50.000 عضو خلال بضعة أيام) ، ان هذا التعاون سوف يتنامى ، كما أن هذه المنظمة النقابية سوف تلعب في القريب أو البعيد ، نفس الدور الذي لعبه الاتحاد العام للعمال التونسيين . ولكي نستكمل هذه الصورة لابد من أن نتعرض لمشكلة الحركة القومية الجزائرية M.N.A التابعة لمصالي .فهناك جهود تبذل من خلال المباحثات الجارية حاليا بين فرحات عباس وتوفيق المدني ، وأصحابهما من أعضاء جبهة التحرير الوطني ، لحل هذه المشكلة ، وذلك بدعوة ح.ق.ج للانضمام الى ما أجمعت عليه الأمة . ويبدو أن موقف هذه الفئة القليلة من الحركة القومية موقف حرج للغاية بسبب عنادها : فاما أن تنضم الى الأغلبية وأن تضحي في سبيل المصلحة العامة بحساسيات زعيمها مصالي ، واما أن تتخذ موقفا تظهر به أمام الجزائريين كمنظمة معزولة متصلبة في موقفها ، ساعية الى التفرقة في ظروف تستلزم جمع الكلمة . هذا ، في الوقت الذي

أخذ فيه حزب ت.د.ب.ج ، بل حتى جمعية العلماء ، يضمان امكانياتهما الى صف جبهة التحرير الوطني التي هي منظمة جديدة ، ولا تعتبر صورة معدّلة لحزب ح.ن.ح.د ، بل هي جبهة مفتوحة لجميع الوطنيين الجزائريين ، وسوف تستقبل غدا في صفوفها ـــ ان لم يحصل هذا بالفعل ـــ مناضلين فرنسيين من ذوي النزعة الديمقراطية ، ومن العاملين في سبيل استقلال الجزائر .

ثالثا : ان ازدياد وعي الجماهير المغربية والتونسية بأبعاد المشكلة الجزائرية سوف يجعل السيد الحبيب بورقيبة وجلالة الملك محمد الخامس وزعماء الثورة في منطقة الريف المغربي ، يهتمون بالقضية الجزائرية التي سوف يؤدي حلها الى استقرار الأوضاع في شمال افريقيا . ولهذا بادر كل من ملك المغرب ، وزعيم حزب الدستور الذي أصبح اليوم رئيس مجلس الوزراء في تونس ، الى التصريح بأنهما على استعداد للتوسط بين الحكومة الفرنسية والمسؤولين الجزائريين . وقد استنكرت بعض الصحف الفرنسية هذه المبادرة ، ولكن القادة المغاربة والتونسيين يعرفون جيدا بأن الرأي العام في كلا البلدين قد يحاسبهما على كل تقصير في هذا الموضوع . ولذلك أخذ الشعب هناك يعبر عن قلقه وسخطه ومعارضته للتفاوض مع فرنسا حول منح الاستقلال للمغرب وتونس ، ما دامت المشكلة الجزائرية بدون حل . ولا ينبغي أن ننسى في هذا المجال ، الضغط الذي يمكن أن يمارسه جيش التحرير الجزائري على حدود شمال افريقيا ، وعلى أوساط الحركة القومية في المغرب العربي . ولا ينبغي كذلك أن ننسى ما يوجد بين شعوب شمال افريقيا من علاقات أخوية متينة ، فضلا عما نشأ بينها من تضامن في محنتها وكفاحها المشترك .

وفضلا عن هذا ، فإن استقلال المغرب أو تونس سوف يكون معرّضا للخطر مادامت الجزائر خاضعة للاستعمار ، لأن هذا البلد

سوف يصبح مكانا يتجمع فيه الناقمون والفاشيون وأصحاب الشركات الفرنسية ذات الثروات الطائلة ، والنخبة من الجيش الفرنسي المرابط في افريقيا . وحتى في حالة ما اذا نال هذان البلدان استقلالهما ، وضمنت الدول رسميا هذا الاستقلال ، فان ماتقوم به السلطات الاستعمارية من أعمال الاضطهاد والتجويع ، بهدف تحطيم المقاومة الجزائرية واخضاع الفلاحين المتضامنين مع الثورة ، سوف يؤدي حتما الى تحريك الجماهير المغربية ان عاجلا او آجلا ، وسوف يجعلها تهب لنجدة الجزائريين ، وحينئذ تحصل القطيعة نهائيا بين شمال افريقيا وفرنسا . ان هذه السياسة الشنيعة القائمة على تجويع السكان ، وهذه المجازر التي يرتكبها الاستعمار في الجزائر ، لتشمئز منها النفوس ،وهي احدى الأسباب التي جعلت فرحات عباس يخرج من موقفه المتحفظ . وغدا سوف يأتي دور الجماهير في المدن . وعندئذ سوف تحصل القطيعة نهائيا ، وسوف يضمحل الى الأبد ما بقي من فرص لتحسين العلاقات بين فرنسا والمغرب العربي .

ولابد بعد هذا من التأكيد بأن ما آلت اليه القومية الجزائرية اليوم كان ثمرة كفاح طويل ، وكان نتيجة لتطور المجتمع بعد المحن القاسية التي مرّ بها ، والوعي الذي عرفته النخبة الصالحة وجماهير الشعب الغفيرة . وقد حصل هذا التطور أكثر ما حصل ، في المدن والحواضر . ولذلك فلابد ، لكي نعرف منشأ هذه الوطنية الحضرية ، لابد من ان نتحدث عن وضعية المدن الجزائرية ، وعن المراحل التي قطعها الفكر السياسي القومي خلال القرن التاسع عشر .

يونيو 1956

★ ★ ★

# الفصل السادس

# الاتجاه الثوري في المدن منذ 1830 وتنظيم المقاومة والكفاح

## الأوضاع الاجتماعية في مدينة الجزائر

بلغ عدد سكان مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر خمسة وسبعين الف نسمة(1) . أما في السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي فقد انخفض هذا العدد الى ستين ألفا ، منهم خمسة وعشرون ألفا مسلمون ، وخمسة آلاف يهود ، أي أن عدد الجزائريين لم يكن يتجاوز ثلاثين ألفا . والباقي يتألف من جيش الاحتلال ومن الوافدين الجدد من الأوربيين . وقد سلك العدد الأكبر من الأهالي طريق الهجرة(2) ، وهذا ما جعل أريستيد جيلبير يشرح الأسباب التي دعت الحكومة الى الاستيلاء على الأملاك الموجودة في مدينة الجزائر . فهذا الاستيلاء يرجع الى «الاجراءات

---

(1) Aristide Guilbert : **Colonisation du Nord de l'Afrique, Ed. Paulin, 1939.**
أما لوجي دوتاسي Laugier de Tassy في كتابه عن «الجزائر قبل 1830» ، فذهب الى أن عدد السكان بلغ مائة ألف .

(2) يقول لويس فييو Louis Veuillot في كتاب له منشور في 1841 عنوانه (الفرنسيون في الجزائر) : «لم يجد الأهالي وسيلة أخرى لمحاربتنا الا بمغادرة مدينة الجزائر ، حيث كان العديد منهم في حالة من البؤس بسببنا» .

الانتقامية الناتجة عن الحرب ، والى فرار قسم من السكان» . وقد أوضح بأن «عدد العمارات في 1931 يبلغ 5.000 عمارة ، وأن 3.000 منها أصبحت ملكا للدولة» .

ان هذا الاستيلاء على الأملاك الخاصة ألحق ضررا كبيرا بمن كانوا يعيشون من ايجار عماراتهم . ويقول المؤرخ ليسبيس Lespès بأن «الأهالي المجردين من أملاكهم بدون اي تعويض ، بلغ بهم الشقاء الى حدّ التسول ...» وتحدّث مؤرخ آخر اسمه روزي Rozet عن الأضرار الفادحة التي ألحقها الجنود بالديار ، وتهديم المنازل غير المسكونة ، وقلع الأبواب والشبابيك ، وقطع أشجار الفواكه ليستعملوا الحطب في التدفئة . أما أوغسطين بيرك ، فقد كتب يقول ، بعد أن تكلم عن انحطاط الصناعة التقليدية التي كانت مزدهرة في مدينة الجزائر قبيل 1830 : «هناك عامل جديد قضى على البرجوازية المحلية التي كانت تعيش من ريع أملاكها ، وهو ارتفاع الأسعار بعد 1830 ، نتيجة لتضخم العملة والأوراق النقدية . وذلك أننا أدخلنا الى الجزائر كمية كبرى من النقود التي ما لبثت أن حلت محل العملة المحلية ، خاصة بعدما أصبحت السلع والبضائع لا تخلّص بهذه العملة الأخيرة ... (1) »

ولكن الأمر لم يقف عند حد الاستيلاء على الأملاك ، والتهديم ، وقتل الصناعة التقليدية وسحب العملة الجزائرية وغلاء المعيشة . فهناك كارثة أخرى أصابت طبقة التجار التي كانت أكثر فئات الشعب عددا . فقد جاء في «جدول المؤسسات الفرنسية لعام 1838» نقلا عن أوغسطين بيرك ، ما يستفاد منه بأن الحالة العامة التي آل اليها سكان الحواضر تتلخص كما يلي : « إن مجيء الأوربيين وتزايد عددهم قد

(1) Augustin Berque : **La Bourgeoisie algérienne.** In revue **Hespéris**, t. XXXV, 1948.

ألحقا ضررا كبيرا بالتجارة ... وكان ابعاد ونفي معظم الأغنياء المسلمين قد أدى الى نقصان حركة البيع والشراء بشكل ملحوظ . كما أن هدم العمارات من أجل تصفيف الشوارع وتوسيعها ، ورفع ثمن الايجار والاستئجار قد كان له وقع أشدّ على التجار» . وهكذا أخذ عدد الجزائريين يتناقص في العاصمة ، على قدر ما كان الاستعمار يبسط نفوذه على سائر أنحاء البلاد ، وعلى قدر ما كان المعمرون والمغامرون يتوافدون ويقيمون في العاصمة مؤقتا الى أن يحصلوا على قطعة من الأرض .

ومما سبق يتبيّن أن تدهور الوضع الاقتصادي للأهالي الذين تضرروا كثيرا من مصادرة أملاكهم ومما أصابهم من نكبات الحرب ، هذا التدهور أدى الى التقلص السكاني . وقد لاحظ لا روشفوكو ليانكور في 1835 بأن «عدد السكان الأصليين انخفض الى نصف ما كان عليه قبيل الاحتلال .» ولكن أحد الموظفين الكبار من الادارة المدنية في الجزائر ، وهو البارون بيشون الذي كان أكثر اطلاعا وأدرى بالأمور في نظرنا ، أكّد قبيل التاريخ السابق بسنتين أن المدينة فقدت ثلثي سكانها الجزائريين . وعلّق بيرك على هاتين الشهادتين ، حسب أسلوبه الخاص ، فقال : «إن الموضوعية تقضي بأن نصرح بالحقيقة التي لا مجال لانكارها ، وهي أن الأغنياء من السكان هاجروا من المدينة ، وأن هذه الهجرة كانت واسعة النطاق في مدن أخرى (1) .»

ويمكن أن نتتبع هذا المنحني المنخفض في مجالات متعددة ، وذلك في كتاب ألّفه كبير أطباء جيش افريقيا ماريوس نيكولا بول في 1846 ، ذلك الطبيب الذي أعطانا صورة صادقة عما آلت اليه ، بعد ستة عشر عاما من الاحتلال ، تلك المدينة التي أنعمت عليها الأقدار «بالحضارة» . وقد كتب يقول : «كل ما تقع عليه العين هنا ، حين

(1) Augustin Berque: **La Bourgeoise algérienne.** In revue **Hespéris**, T. XXXV. 1948.

يصل الانسان ، يبعث على الحزن والأسى .فالأهالي أصبحوا في حالة يرثى لها من البؤس والشقاء ... وقد توافد الى هذه المدينة من جميع البلدان حشد كبير من الكادحين المتعطشين للمال . أما رجال الصناعة فهم يحاولون أن يستغلوا الوافدين الجدد . وكل واحد هنا ، من عسكريين وبرجوازيين ، يفعل ما يروق له من غير حسيب ولا رقيب . فما أبعدنا عن تقاليدنا المهذّبة في مدننا الفرنسية الهادئة !» ثم أضاف يقول : «ان ديار الأهالي المبنية بطريقة يتوفر معها الهواء النقي العليل أخذت تزول أمام حمّى التشييد التي استولت على المضاربين (1) .»

## نظرة الاحتقار الى المحتلين الأجانب

وفي هذه الفترة بالتقريب ، يقول بوجولا في كتابه : (رحلة الى الجزائر) : «ان عيون العرب وجباههم تعبّر عن أمور خفية ، وكيف لا ، وهم ينظرون الينا في صمت وحزن ، ونحن نستقر في بلادهم ونحتفل بانتصارنا عليهم ... انها جباه تعبر عن الاحتقار والألم والسخرية ، وكأني بهم ينوحون على سقوط الجزائر وعلى بلادهم المتعرضة للغزو الأجنبي» .

ولكن هؤلاء السكان الذين جرّدوا من أموالهم ، وآل بهم الأمر الى الشقاء ، وانتزعت من أياديهم مقاليد الأمور ، لم يركنوا للدعة والسكون ، بل تحركوا للنضال ، وصاروا يعقدون اتصالات سرية مع رجال المقاومة في البوادي ويستخبرون عمّا يجري من وراء أسوار المدن ، في مختلف جهات القطر ، ولا يخبئون فرحتهم بانتصارات الأمير عبد القادر ، بل كثيرا ما بعثوا اليه رسولا يخبره عن الحملات العسكرية الموجهة ضده . على أن السخرية المرتسمة على وجوههم لا تظل دائما مخبّأة من وراء جباههم كما قال بوجولا . وذلك أن الفن الشعبي في مختلف أساليبه التعبيرية ، لم يكن يهادن جيش الاحتلال : فالتمثيليات التي تدعى «القرقوز» أو

(1) Campagnes d'Afrique : 1835-1848, M N. Paul.

مسرح الظلال تعد من الفنون التي عبّر بها الشعب عن موقفه من الاحتلال الأجنبي .

وقد كتب ماكسيم رودانسون بهذا الصدد يقول : «ظهر هذا الفن المسرحي الشعبي في 1835 ، وكان يهدف الى انتقاد النظام الاستعماری . والمشهد الرئيسي فيه ظهور الجندى الفرنسي الذي يتلقّى سيلا من الضربات (1) .» وقد منعت السلطات العسكرية هذا النوع من التمثيل في 1843 ، الا أن هذا الاجراء لم يمنع الجزائريين من امتاع أنفسهم بهذا الفن سرا . ولكن أمثال هذه المشاهد لم تكن تحدث فقط في عالم الخيال أمام المتفرجين المسرورين ، بل كانت تحدث أيضا في الواقع ، لأن الضباط ، كما رواه كاميل روسي ، «كانوا يتعرضون للاعتداء في أنهج الجزائر ليلا . «وقد تحدث هذا المؤرخ أيضا عن موقف سكان العاصمة عندما ترغمهم الظروف على حضور حفلة من الحفلات التي كان يقيمها المحتلون بمناسبة انتصار لهم أو ذكرى من الذكريات ، فكان موقف الأهالي مليئا بالاحتقار للمحتلين . ومن جهة أخرى ، أشار هذا المؤرخ الى اضراب قام به تجار الجزائر في الخريف من عام 1830 ، فقال : «أقفرت أسواق الجزائر من الناس منذ أن خرجت فرقة الجيش لشن حملة على مدينتي البليدة والمدية . ودام الاضراب الى حين رجوع العساكر» إلى أن يقول : «إن الذين لم يحملوا السلاح من الأهالي ضد الفرنسيين ، شعروا بالخزى والعار من تعاملهم معه (3) .» أما بوجولا الذي لم تكن تخفى عليه خافية ، فقد كتب يقول بعد مضي خمسة عشر عاما : «إن جو الحزن يخيّم على هذه الأزقة الضيقة التي لا نصادف فيها

(1) M. Rodinson : **Le théatre d'ombres oriental.** In **Les lettres françaises** du 20 août 1953.
(2) Camille Rousset : **L'Algérie de 1830 à 1840,** t. I.
(3) C. Rousset : **Op.cit.**

وجها يبتسم لنا . «ثم أضاف بلهجة البطل المغوار :«وتلك هي حالة المغلوب مع الغالب» .

## بودربة وسي حمدان خوجة

ومما كان الناس يتحدثون عنه آنذاك ، لجنة من الأهالي ترأسها بودربة ، وكانت تناصر الأمير عبد القادر الذي أوفد الى العاصمة ممثله الرسمي لدى السلطات الفرنسية ومبعوثه السياسي ، اليهودى جودا بن دران . وكان بودربة متعاونا مع فرنسا لفترة معينة ، ولكن التطورات السياسية ، ونكبات الاحتلال ، ومختلف أنواع الظلم ، وبقية باقية من شعور وطني استيقظ في نفسه ، خاصة بعد ما بايع الشعب الأمير ، هذه العوامل كلها جعلت هذا البرجوازي يرفع صوته محتجا ، ويقف موقفا يقع بين بين : تعاون مع السلطات لمطالبتها بالاصلاحات ، وعمل وطني لتحرير البلاد .

وكذلك فقد برز آنذاك أحد أبناء الجزائر ، وهو سي حمدان بن عثمان خوجة ، الذي كان آخر من شغل منصب الكتابة في حكومة الجزائر قبيل الاحتلال . وكان رجل علم وثقافة واسعة وقام برحلات عديدة الى أوربا . وكان خصما لدودا للحكم العسكري الظالم . ورغم أن عائلته كانت تؤيد بعض الشيء استقرار الفرنسيين بمدينة الجزائر ، الا أنها مع ذلك لم تسلم من قرار الاستيلاء على أملاك الأهالي . وكان صديقا للبارون بيشون ، مستشار الدولة ، والمقتصد المدني ، والشخصية الثانية في الادارة الاستعمارية الجديدة قبل أن يعزله العسكريون من منصبه ، وقد ترك لنا سي حمدان خوجة كتابا حافلا بالحقائق عن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت في الجزائر في السنوات الاولى من الاحتلال . ولم يبق لنا من هذا الكتاب سوى ترجمته الفرنسية وعنوانها : «**لمحة تاريخية واحصائية عن ايالة الجزائر**» ، وتحته عنوان فرعي :

«المرآة» . وقد لا يخلو هذا الكتاب من الأخطاء ومن الأرقام المضخمة التي أعطاها الكاتب عن حسن نية على أية حال . فهذا الكتاب يحمل في ثناياه روحا وطنية صادقة . بل نستطيع أن نعتبر حمدان خوجة الأب الروحي ، اذا صح التعبير ، للحركة القومية الحضرية المعاصرة في صورتها المعتدلة . ومن جهة أخرى ، فان صاحب «المرآة» الذي حظي بتأييد البارون بيشون وصحبه ، قد حاز ، هو وبودربة ، عطف بعض الوزراء الفرنسيين من ذلك العصر ، مما جعل المؤرخين القائلين باستعمال القوة ، والمؤيدين للحل العسكرى ، يحذرون منه ويعتبرونه من المشوّشين ومن أصحاب الدسائس .

أما نحن ، فنميل الى الاعتقاد بأن موقف هذين الرجلين مالبث أن تصلّب أمام الظلم والتعسف ، بعد أن اتسم بروح التفاهم في بداية الأمر . ولم يقفا عند هذا الحد ، بل اعلناها ثورة على الطغيان . وكان بودربة وسي حمدان قد اقام كل منهما بفرنسا بعض الوقت أو سافر اليها قبيل 1830 ، ولاشك أنهما كانا يظنان بأن **الاحتلال ليس الا أمرا مؤقتا** ، وأنه أخف الضررين على كل حال . ولكن الأحداث التي اعقبت الاحتلال ، والاعتداءات التي قام بها الغزاة الآثمون ، والأساليب التي استعملوها لاخضاع البلاد ، والجشع الذي استبدّ بنفوس المعمرين ، ونزع الأراضي من اصحابها ، والعمل على تحطيم المجتمع الجزائري ، كل ذلك ما لبث أن أعاد هذين الوطنيين الى الصواب . وبما أن سي حمدان كان صديق البارون بيشون ، فلم ير غضاضة في تلبية طلب السلطة الحاكمة للقيام بمهمة لاتخلو من خطر ، لدى الباي أحمد في قسنطينة من أجل اقناعه — فيما يبدو — بتوقيع عهد الولاء لفرنسا . ومن المعتقد أن حمدان ما قبل بهذه المهمة الا ليجعل السلطات تغض الطرف عن نشاطه من أجل وطنه .

وفي 1832 عيّن الجنرال سافاري (الدوق دوروفيغو) واليا عاما على الجزائر ، وكان يشغل منصب وزير الشرطة في عهد نابليون الأول . وقد قال عنه ك . روسي بأنه جاء الى الجزائر «بمؤهلات تبعث الثقة في نفوس الدعاة لاستعمال سياسة الظلم والقوة (1) .» وأول عمل شنيع قام به الدوق دوروفيغو هو ابادة قبيلة برمّتها ، تتركب من عدة آلاف من الأنفس ، وهي قبيلة الأوفياء التي كان موطنها شرقي الحراش . والمسألة معروفة اليوم : وذلك أن أحد الاقطاعيين من الجنوب القسنطيني ، وهو فرحات بن السعيد بوعكاز ، جاء الى العاصمة لزيارة الوالي العام وعرض خدماته عليه ، بالرغم من أن موطنه لم تطأه أقدام الجيش الفرنسي بعد ، وبينما كان فرحات وصحبه في طريق العودة ، محمّلين بهدايا الدوق دوروفيغو ، اذا بهم يتعرضون للهجوم ، ويجرّدون من هداياهم في أراضي قبيلة الأوفياء التي كانت ، فضلا عن هذا ، متهمة بتحريض الناس على الهروب من اللفيف الأجنبي المتمركز في الحراش (1) . وبادر الوالي العام ، بصفته القائد الأعلى للقوات الفرنسية في الجزئر ، الى أخذ الثأر لعملائه ، فقام بمحاصرة دوار الأوفياء في ليلة ما بين 6 و 7 أبريل 1832 ، وأمر بتلك المجزرة الرهيبة . ان هذه الجريمة النكراء أثارت استنكار حمدان خوجة ، كما يتجلى ذلك في كتابه الصادر بعد الحادثة بسنة ، وأيقظت في نفسه الغيرة القومية الشديدة .

ونجد في مقدمة كتاب حمدان بن عثمان خوجة ــ الذي كان على اطّلاع بالحركات القومية في أوربا ــ نجد فيها عبارات تنمّ عن نفس صادقة ، وعن اتجاه «رومانسي» يذكّرنا بالأدب السياسي الفرنسي للنصف الأول من القرن التاسع عشر . ولابدّ من الاشارة الى أن الترجمة هي التي أعطت للنص التالي ما يتميز به من لهجة ، لأن الكتاب في حدّ

---

(1) Camille Rousset : Op. cit.

ذاته ألف في 1833 (1) . يقول حمدان خوجة : «ان كل ما وقع في الجزائر خلال السنوات الثلاث المنصرمة يفرض عليّ واجبا مقدّسا ، ألا وهو التعريف بالحالة السائدة في هذا البلد قبيل الغزو الفرنسي وبعده ، لكي ألفت نظر رؤساء الدول الى هذا الجزء من المعمورة ... وقصدي أيضا — بحديثي عن المصائب التي يعاني منها أبناء بلادي — هو أن أرفع معنويات بعض من خانهم الحظّ ... وأنا أتساءل لماذا تتعرض بلادي لهذه المحنة التي هزّت كيانها وألحقت ضررا كبيرا بمقوّمات نشاطها . واذا نظرنا اليوم الى الوضعية السائدة في الدول الأخرى المجاورة ، فلا أرى أحدا منها متعرضا لما نتعرّض له نحن . فأنا أشاهد بلاد اليونان قد أغيثت ، وقامت على أسس متينة بعد أن انتزعت من الامبراطورية العثمانية ... وأشاهد أن الشعب البلجيكي انفصل عن هولاندا ، وأن جميع الشعوب الحرة تهتم بالبولونيين وتساعدهم لاسترجاع جنسيتهم . وحينما أنقل بصري الى بلاد الجزائر أرى سكانه التعساء يرزحون تحت نير الظلم ، ويتعرضون للابادة ولجميع نكبات الحرب ولكل هذه الأعمال الشنيعة التي ترتكب باسم فرنسا الحرة ... ولا يسعني الا أن أقول بأنني لست مرتاحا لهذه الحالة ، لأن مصائب بلادي تسبّب لي قلقا دائما ...(2).»

وفي نصّ آخر من الكتاب نجد المؤلف الذي لايزال تحت وقع مجزرة قبيلة الأوفياء ، فضلا عن الجرائم الجماعية التي ارتكبها الفرنسيون في السنوات الماضية ، نجد المؤلف يغتاظ أشد الغيظ من الاتجاه الى ابادة الشعب الجزائري ، ويعبر عن رأي يمكن أن يعتبر جديدا بالنسبة لمصير

---

(1) وهناك رأي آخر يقول بأن المؤلف وضع كتابه بالفرنسية أصلا ، مع العلم بأنه لم يكن يتقن هذه اللغة . والأرجح أن الأصل العربي موجود ، ومما يجعلنا نؤيد هذا الرأي أن مترجم «المرآة» أصبح معروفا ، وأنه أتيح لنا أن نقرأ نصوصا كتبها حمدان خوجة بخط يده ، بلغة جيدة واضحة العبارة ، بل متأنقة أحيانا ، وان كانت تكثر فيها المصطلحات القانونية . ولغته فيها نفس عصري جديد .

(2) **Hamdane ben Othmane Khodja : Aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger. Ed. 1833.**

الجزائر . فالأسلوب الذي استعمله قريب من الأسلوب الذي استعمله زعماء الاصلاح قبيل ثورة نوفمبر 1954 . وهذا ما نتلمّسه في العبارات الآتية : «انني أتحدى أي شخص يستطيع أن يعالج الوضع في الجزائر من غير أن يستعمل احدى الوسيلتين المشروحتين أعلاه (اما ابادة الجزائريين أو نقلهم جميعا الى أقطار شمال افريقيا : المغرب ، تونس ، ليبيا ... واما الجلاء عن البلاد والتخلي عن فكرة الاحتلال ، بتأليف حكومة أهلية حرة مستقلة ، وتوقيع معاهدات معها تخدم مصلحة الشعبين) . وما من شكّ أن الحل الثاني يتماشى مع مصالح فرنسا أكثر مما لو ظلّت الجزائر مستعمرة . وسوف يرحّب العالم أجمع بهذا العمل الكريم ... هذا هو رأيي ، اذا كانت فرنسا حقّا تريد أن تدخل الحضارة الى بلاد الجزائر ، وأن تقضي على الاستبداد ، وأن تستأصل بذور الأحقاد والضغائن(1) .»

## المقاومة في البليدة والمدية

ان مدينة البليدة الواقعة على بعد 50 كلم في الجنوب الغربي من العاصمة ، بقيت مدة طويلة تقاوم مقاومة سلمية الغزو الاستعماري ، واستطاعت بفضل بعض الظروف ، وبعد مفاوضات طويلة ، أن تحصل على وعد بعدم احلال حامية من الجند فيها . ولكن هذه المقاومة ، وان دلّت على الحنكة والدهاء ، الا أنها ما زادت عن كونها أخّرت موعد احتلال المدينة .

ولكن البليدة بما فيها من السكان ، كانت قد عرفت قبل احتلالها ، ما عرفته المدن الجزائرية الأخرى من تخريب وتقتيل وتشريد ..ففي نوفمبر 1830 أرادت حملة عسكرية وجهها الجنرال كلوزيل ضد باي المدية أن تقتحم في طريقها أبواب البليدة ، ولكن سكانها لم يسمحوا باحتلال

(1) Hamdane ben Othmane Khodja : Op.cit.

المدينة . وبما أن الجنرال كلوزيل كان مصمّما على استعمال القوة ، لذلك لم يجد السكان بدّا من تنظيم المقاومة . وما لبثت المدينة أن تعرضت للنهب من طرف الغزاة ، كما أخبر بذلك كاميل روسي . ويضيف هذا المؤلف في حديثه عن احتلال البليدة بأن «جميع الرجال القادرين على حمل السلاح ، سواء في المدينة أو في ضواحيها ، حشروا في السوق وأعدموا رميا بالرصاص بلا شفقة . وعندما حلّ المساء ، أخذت النيران في رقعة تمتد ثلاث كيلومترات ، تسقط ضوءها الأحمر على الغابات والحدائق وأشجار البلوط الخضراء وأشجار الزيتون والبرتقال والريحان ، وارتفع صوت الطبول والأبواق يدعو الطوابير التي أشعلت النيران للرجوع الى المعسكر . وفي تلك اللحظة شوهدت جماعات من الفارّين الحاملين للعلم الأبيض يخرجون من الشعاب والفجاج ، وفي مقدمتهم الأطفال الصغار ، ويطلبون الأمان ... وقد سمح لهم بالرجوع الى ديارهم المخرّبة(1) .»

ولكن المصائب بالنسبة الى البليدة أخذت تتوالى : فلم تمض الا بضعة أيام حتى واجهت الحامية الفرنسية التي تركها كلوزيل تمرّدا قويا من الشعب . ان هذه الانتفاضة (26 نوفمبر 1830) ترجع الى وطنية الفلاحين الذين برهنوا هنا ، وفي جميع أنحاء الجزائر ، على تفوّقهم في الوطنية بالنسبة لسكان المدن . ويستفاد من رواية ك . روسي أنه ، على إثر مغادرة طابور كلوزيل للمدينة في 26 نوفمبر ، وقع هجوم من الخارج على أحد أبواب البليدة من طرف سكان الجبال . «ولكن في نفس اللحظة تقريبا ، وقع هجوم آخر من الخلف على المفرزة الفرنسية المكلفة بالدفاع عنه ، وقام به السكان ومن هب لنصرتهم ، فخرجوا من ديارهم الى الشوارع ، وقد حملوا السلاح» . ولكن رجوع طابور كلوزيل على

---

(1) C. Rousset : L'Algérie de 1830 à 1840.

حين غرّة غيّر الموقف الى كارثة بالنسبة لسكان البليدة . ويقول ك . روسي : «لقد انقلب وجه المعركة ، ولكن الموقف استلزم اقتحام كل دار ، الواحدة بعد الأخرى ، ومطاردة العدوّ في الساحات وفي الأزقة وفي سطوح المنازل . ومما يؤسف له أن العديد من الشيوخ والنساء والأطفال لاقوا حتفهم في هذه الحالة من الاضطراب» .

ان هذه المقاومة المستميتة جعلت القائد العام الفرنسي يقرّر سحب الحامية العسكرية من البليدة . ولكن ، هل يعني هذا أن السكان الباقين على قيد الحياة بعد مجازر الخريف من عام 1830 قد أصبحوا خاضعين خضوعا تاما للغازي المنتصر ؟ كلّا ! بدليل أن السكان ، حسب رواية ك . روسي ، قاموا في أواخر حكومة كلوزيل ، بطرد الخليفة الذي عيّنه عليهم .

وبعد مضي سنتين ، أي في الخريف من عام 1832 ، عرفت المدينة مرة أخرى ، في عهد حكومة الدوق دي روفيغو ، عرفت الشدائد وأعمال النهب المبيّت : «فقد فرض الوالي العام اتاوة قدرها 200.000 فلس ذهبا على مدينتي البليدة والقليعة» . وبما أن سكان البليدة رفضوا دفع هذه الأتاوة ، فقد أمر الدوق دي روفيغو باحتلال المدينة ، وسلّمها لجنوده لكي يعملوا فيها يد السلب والنهب . وقد لاحظ ك . روسي بأن «المدينة كانت خالية ، ولم يحصّل الجنود من النهب على غنائم كثيرة(1) .» .

ان البليدة ، بحكم موقعها في السهل ، لم يكن لها ما لجارتها المديّة من أهمية استراتيجية . فالمدية كثيرا ما حوصرت من طرف أنصار الأمير عبد القادر وجنوده الذين كانوا يصدّون عنها غارات الجيش الفرنسي ، مما

(1) C. Rousset : Op. cit., t. I.

أدّى الى خروج السكان منها وركود الحياة الاقتصادية فيها . وقد رحل السكان ، باشارة من عبد القادر ، الى مكان يقع على بعد 100 كلم جنوبا . ومع ذلك فلم يسلموا من ويلات الحرب التي لاحقتهم هناك بعدما أخرجتهم من ديارهم . وقد احتلت المدية نهائيا في 17 مايو 1840 من طرف المارشال فالي . وكان الفرنسيون قد احتلوها من قبل ثم خرجوا منها ، في 1830 و 1831 ، و 1836 ، وأدى احتلالها النهائي الى خرابها . وقد وصف أحد الضباط (القبطان دوكرو) الذي كان من شهود احتلالها الأخير ، وصف في مراسلاته مأساة النزوح الشامل الذي كان في ذلك العهد من نصيب جميع سكان الجزائر ، ما عدا مدينتين أو ثلاث مدن : «لقد رحل السكان عن المدينة ونقلوا معهم كل شيء ... وانه لأمر يبعث على التفكير ، فلابد أن هناك أسبابا قوية جعلت السكان يرحلون على هذا النطاق الواسع ، لأنهم ليسوا من البدو الرّحل ... بل هم من الحضر الذين اعتادوا الحياة الهادئة الميسّرة . انهم قوم تركوا مأواهم وديارهم ، وسلّموا في ممتلكاتهم وصناعاتهم ليهيموا على وجه الأرض ، أو ربما ليهلكوا فيها من الجوع ...(1) .»

وهكذا أصبحت المدية بعد عام من فرار سكانها مدينة خالية على عروشها وليس فيها الا المحتلون من الجنود الذين كانوا يعيثون فيها فسادا . ونجد في مراسلات القبطان دي سميد بتاريخ 20 مايو 1841 ، صوتا أراد به صاحبه أن يلفت النظر الى ما آلت اليه تلك المدينة ، فكتب يقول : «من حسن الحظ أن الناس في فرنسا لا يعرفون كيف عوملت هذه المدينة المسكينة ، اذ هي اليوم أكوام من الخرائب ، وأكداس من الأنقاض . وبعض المنازل هدمت من أجل الاستيلاء على ما فيها من خشب» . وفي رسالة أخرى تحدث دي سميد عن حالة تلك المدينة التي

(1) La vie militaire du général Ducrot, t. I.

وما لبثت مدينة معسكر أن عادت شيئا فشيئا الى حالة العمران فرمّمت مبانيها المتهدّمة بعد توقيع معاهدة التافنة في 1837 . ولكن خرق تلك المعاهدة أعاد الحرب على أشد ما تكون ، فنزح عنها السكان من جديد وتهدّمت .

وفي شهر فبراير من السنة الموالية (1836) جاء دور أهالي تلمسان لينالوا حظهم من النفي والضرائب الجائرة ، رغم أن نصفهم انحازوا للفرنسيين . وكان الأمير قد قام بترحيل قسم من سكان تلمسان . ويقول المؤرخ ك . روسي بأن جيش الاحتلال عثر على كمية كبيرة من الحبوب في المنازل التي هجرها السكان ، وأضاف بأن المارشال كلوزيل كان مسرورا من المؤن الوافرة التي كان الجيش يعثر عليها كل يوم في الديار وفي المطمورات المجاورة ، فقرّر أن يمدّد اقامته فيها» الا أن المارشال كلوزيل ما لبث أن فرض اتاوة حربية باهظة على حلفائه الجزائريين من ذوي الأصل التركي ، الذين سلموا تلمسان للفرنسيين . وهذه الأتاوة التي فرضها على هؤلاء الأعوان البرجوازيين الذين شكلوا فرقا من الميليشيا في الجيش الفرنسي ، أثارت استياء كبيرا في فرنسا ذاتها . ولئن كانت المواد الغذائية التي خلفها أهالي تلمسان وأعمل فيها الجيش الفرنسي يد السلب والنهب ، لئن كانت متوفّرة ، فإن هذا الجيش كان في حاجة أمسّ الى المال . وقد أكّد البعض للمارشال كلوزيل بأنه «لن يكون من الصعب عليه أن يجد من هذا المال ما يشاء في جيوب الكولوغلي ... وفي جيوب اليهود الذين أثروا ثراء فاحشا على حساب الحضر من العرب والأمازيغ (وهي الفئة المنهوبة) ، وعلى حساب الكولوغلي (وهي الفئة الناهبة) ... (1) » وهكذا فرض عليهم القائد العام اتاوة باهظة ، «على أن يدفع من ليس له نقود سلاحه وحليّ النساء . ولم يقف الأمر عند هذا

(1) C. Rousset : **L'Algérie de 1830 à 1840**, t. II.

الحد ، بل طبقت عقوبات كالسجن والضرب بالعصا للتعجيل بالدفع (1) .»

## المقاومة في مدن الشرق الجزائري

ولم يختلف الأمر في مدينة عنابة التي هجرها الحضر بعد احتلالها وبقيت محاصرة من طرف رجال البادية .

وفي نفس هذه المقاطعة الشرقية من البلاد كانت مدينة بجاية مسرحا لقتال شديد قبل أن ينسحب عنها السكان . وقد وصفها ك . روسي بالعبارات التالية : «كنا نرى هنا وهناك ، بين الحدائق والحقول ، بضع مئات من الديار الصغيرة النظيفة البيضاء ، وكأنها مخبّأة بين الأشجار الخضراء» .

أما الدوق دورليان ، فقد روى حسب طريقته المعهودة المعارك الطاحنة التي وقعت في هذه المدينة فكتب يقول : «كان القتال متواصلا بضراوة في الأزقة التي لاتزال تعجّ بالأعداء ، وفي الديار والحدائق . بل لم يتوقف القتال حتى في الليل ، حيث أشرق نور القمر ساطعا فأضاء ميدان المعركة(2) .»

لنستمع بعد هذا الوصف الغنائي الى الجنرال دوماس الذي كشف في كتابه «تاريخ القبائل الكبرى (3) » عن حقائق رهيبة ، اذ يقول : «ان حرب الشوارع المتواصلة طيلة ثلاثة أيام ، دفعت الجنود كالمعتاد لارتكاب أعمال وحشية : فاما أن يهلك السكان عن بكرة أبيهم ، واما أن يتركوا ديارهم الى الأبد ...» ثم أضاف : «حاولنا عبثا أن نعيد هؤلاء السكان الى المدينة فأكدنا لهم عزمنا على تأمين حياتهم واحترام أرزاقهم

(1) C. Rousset : **Op.cit.**

(2) Duc d'Orléans, **Op.cit.**

(3) Général Daumas : **Histoire de la Grande Kabylie**, 1847, Ed. Hachette.

ودينهم ، فما عاد منهم أحد لهول ما رأوه من المشاهد الرهيبة ، أو لأن سكان الجبال في القبائل استبقوهم عندهم . وماذا تراهم سيجدون لو عادوا ؟ ديارهم منهارة ، ولايزال الجنود يواصلون هدمها كل يوم ليحرقوا ما فيها من حطب . وبساتينهم قد أعملوا في أشجارها الفؤوس لفتح الطرق ...» وأخيرا ، ففي 1846 ، أي بعد مضي 13 سنة على هذه الوقائع ، سجّل بوجولا الذي زارها ، ما يلي في مذكرات رحلته : «كان يوجد بها عدة آلاف من السكان قبل احتلالنا لها ، ولكنني لم أجد فيها سوى ثلاث عائلات عربية ، وحوالي المئة من الأوربيين المدنيين ، وحامية من الجنود (1) .»

ولننتقل في الأخير الى قسنطينة التي فشلت أمامها في 1836 ، أول محاولة لحصارها ، ذلك الحصار الذي تحوّل الى كارثة بالنسبة للجيش الفرنسي . ولكن في السنة الموالية ، تمّ الاستيلاء عليها اقتحاما . ان الوقائع المتعلقة بالاستيلاء على هذه المدينة معروفة ، ولكن هدفنا هو التركيز على مصير سكانها ، فقد كتب بوجولا ، واصفا بعض مشاهد هذه المأساة التي وقعت في 1837 : «وقفت بازاء هذه الفجاج العميقة الرهيبة وركّزت بصري على الكيفان (المنحدرات) الصعبة التي حاول الألوف من الرجال والنساء أن يفروا عن طريقها ، لأن الهوة السحيقة أرحم عندهم من الفرنسيين الغالبين . وقد استعانوا للنجاة بأنفسهم ، بحبال ربطوها بالنتوءات العليا من الصخور ، الا أن تلك الحبال تقطعت . وعندئذ رأينا كتلا بشرية تتدحرج على طول ذلك الجدار الصخري المترامي الأطراف ، وتشكّل في أسفل الوادي أكواما من الجثث» .

---

(1) Poujoulat: Voyage en Algérie.

ان عدد السكان الذي بلغ ، قبيل الاستيلاء على المدينة حوالي 40.000 (1) ، لم يكن يتجاوز في 1846 ثلاثين ألفا حسب رواية بوجولا ، «بما فيهم الأوربيّون» الذين كانوا ، مع جنود الحامية ، أكثر عددا من الجزائريين .

وفي هذه الأثناء عمّ الفقر في قسنطينة ونقص بالتالي عدد سكانها . وهذا ما يخبرنا به دانيان ، المعتمد العسكري ، ودوسارت ، نائب المدير المدني للمقاطعة في مراسلاتهما بتاريخ أبريل — مايو 1845 . يقول الأول : «ان المشهد في قسنطينة رهيب : فجميع المباني في خراب ، ونصف الديار التي كانت قائمة منذ خمس سنوات قد انهارت ، والأهالي في حالة يرثى لها من البؤس والحرمان ...» أما الثاني الذي لم يتهيب من تحديد المسؤوليات واتهم نظام بيجو بأنه خرّب البلاد ، فقد عبّر عن رأيه هذا بلهجة لا تخلو من الصرامة : «ليس من الحكمة استعمال القوة خبط عشواء ، بل يجب استعمالها بذكاء . ولا يسعني الا أن ألاحظ بأن السلطات ، بطردها للتجار ... واتخاذها للعديد من الاجراءات الشديدة ، قد نشرت البؤس والشقاء في كل مكان ، وعطّلت البلاد خمس سنوات(2) .»

### موقف الحضر من الخونة

وكما سبق القول ، فإن سكان المدن قاموا بدور يتناسب مع الامكانيات المتاحة لهم من أجل دعم المقاومة وخدمة الدولة الجزائرية . ومن ذلك أن اثنين من سكان العاصمة الوطنيين ، وهما بودربة ، وحمدان خوجة ، حاولا على قدر الامكان التخفيف من شدائد حرب الاحتلال ،

---

(1) الرقم الذي أعطاه الدوق دورليان هو 35.000 نسمة .

(2) انظر : Campane d'Afriques Dussert ويرى أرنست مرسيي أن قسنطينة لم يكن عدد الجزائريين المسلمين فيها يتجاوز 15.552 في أواخر 1843 .

بما كان لهما من صلات ومعارف ، وعلاقات ــ وخاصة الأول منهما ــ مع الأمير عبد القادر . وفي السنتين الأوليين من الغزو الاستعماري ، أي قبيل عهد الأمير ، قام أحد أعيان الحضر ، وهو سي سعدي ، برحلة الى ليفورن في ايطاليا ، لكي يلتقي هناك بالداي السابق حسن . ومن المرجح أنه حدّثه عن مشروع ثورة في المتيجة وحصل على موافقته بخصوص هذا الموضوع . ومما يؤيد هذا الرأي ، العمل الذي قام به سي سعدي لدى رجوعه من ايطاليا ، والمساندة الفعالة التي لقيها من ابن زعمون . وكذلك فإن الطبقة البرجوازية في البليدة ، رغم المصائب التي عانت منها ، ورغم المعارك المتكررة في شوارع المدينة ، ورغم حملات العقاب التي كانت تتعرض لها ، مع ذلك كله رفضت باستمرار الحكام الأهليين الذين أرادت السلطة الاستعمارية أن تفرضهم على السكان .

ان المحن التي مرّ بها أحد الخونة ، واسمه ابن عمر ، تشير الى الجهود المبذولة من طرف الحضر في مقاطعة الجزائر ، كما تشير الى ما كان لديهم من وطنية وشجاعة . وكان الجنرال كلوزيل قد عين ابن عمر هذا بايا على المديّة في 1831 ، ولكن نفوذ ابن عمر ، كما جاء في رواية ك . روسي : «كان في تناقص ، بينما أخذ نفوذ أحد المنافسين له من خصومه يتزايد كل يوم ... واستولى الذعر على ابن عمر فكتب الى الجنرال برتيزين وأخبره بأنه «لا محالة هالك اذا لم ينجده أحد» ، فما كان من الجنرال الا أن أنجده . ولكن «الحملة العسكرية لم تحقق هدفها» كما لاحظ ذلك ك . روسي : «فعوضا من اخضاع السكان ، أدت على العكس الى التمرد . وهكذا تبيّن أن ابن عمر فقد كل نفوذ ، فما كان منه الا أن طلب من القائد العام اعفاءه من منصبه ، فأعفي منه (1) .»

(1) C. Rousset : L'Algerie, t.I.

ونفس هذا الشخص استخدم مرة أخرى ، بعد مضي أربع سنوات ، وذلك في نطاق مشروع لاقامة ادارة أهلية موالية للحكم الاستعماري ، بهدف افشال الحركة القومية والحكومة التي أنشأها الأمير عبد القادر . فقد أراد الجنرال ديرلون أن يعيّن ابن عمر بايا على البليدة . ولكن «أهالي البليدة رفضوا استقبال هذا الحاكم البغيض الذي أرسله الوالي العام اليهم ، فما كان من القائد (ماري) الذي جاء لتنصيبه على رأس 1600 جندي الا أن رجع بدون جدوى (1) .»

وأخيرا ، فإن المارشال كلوزيل الذي خلف الكونت ديرلون ، قرّر هو أيضا أن يواصل السياسة السلبية المتمثلة في تنصيب بعض الخونة الموالين للسلطة الفرنسية لكي يعارضوا خلفاء الأمير عبد القادر : «وبما أنه لم يجد مجالا للخيار ، وبما أن ابن عمر موجود رهن اشارته ، فقد اتخذ بتاريخ 9 سبتمبر قرارا بتعيينه بايا على شرشال» . ان محاولات تنصيب ابن عمر تبعث حقا على الضحك . ويحكى أن السلطات استعانت بشرذمة من المتسولين ، ودفعت لهم مكافأة لتأليف الموكب المرافق له منهم ، ويقول ك . روسي : «بغدما تقرر نقله عن طريق البحر الى شرشال لم يقبل الركوب في السفينة الا بالقوة ... ولدى وصوله الى العاصمة البحرية للبايلك علم بأنه سيقتل حتما اذا حطّ رجله على الأرض . وأخذ يتوسل للضابط المرافق له ، فما كان من هذا الأخير الا أن استجاب لطلبه بانقاذه من الهلاك . وكم كان فرح هذا (الباي) الموعود عظيما عندما عاد الى داره في الجزائر ليتنعّم فيها بمعاش 6.000 فرنك الذي خصصته له فرنسا . وبعد بضعة أيام خطر ببال المارشال كلوزيل الذي لم يفقد الأمل ، أن يعين بابا جديدا ، ولكن لا في شرشال هذه المرة ، بل في المدية ، باعتبارها عاصمة لمنطقة حساسة ، اذ يوجد بها

(1) C. Rousset : Op. cit.

عدد وافر من أنصار الأمير ، ولهم فيها نشاط كبير . والشخص الذي عينه بايا عليها اسمه محمد بن حسين . ولكن الطابور الفرنسي المتكون من 2.000 جندي ، والمكلّف بمرافقته ، اضطر للعودة على أعقابه قبيل وصوله الى تلّ موزاية حيث تصدّى لهم رجال الجبل .

ولم يكن الباي الجديد أحسن حظا من ابن عمر ، اذ وقعت له حادثة مضحكة كانت عاقبتها وخيمة عليه . ويقول ك . روسي في هذا الموضوع : «بعد أن تخبّأ محمد بن حسين في بوفاريك ، وبعد لفّ طويل عن طريق الجبل ، استطاع أن يصل الى ضواحي عاصمته الموعودة ولكن رعاياه رفضوا استقباله ، فذهب يبحث عن مكان يحتمي به في الضواحي ... وهدّده سكان المديّة فلم يحسّ بالأمن في خيمة صهره ، ولذلك أخذ يبحث عن موقع لا يهتدي اليه الناس بسهولة ، فوجد ضالته المنشودة في أحد المطمورات التي تحفظ فيها الغلة . وفي احدى تلك الحفر العميقة خبّأ محمد بن حسين نفسه ، ولم يكن يجرؤ على الخروج منها في النهار ، وظلّ فيها مدة خمسة أشهر . وعندما علم المارشال كلوزيل بالوضعية المزرية المضحكة لهذا الشخص الذي تحميه فرنسا ، صمّم أن يرفع منزلته بعمل يترك بعده أثرا (1) .» على أن هذا العمل المتمثل في شنّ الغارات لم يكن بالمرة في صالح محمد بن حسين . فبعد مضي خمسة أسابيع : «وقع في المدية حادث خطير يعتبر كارثة بالنسبة لسمعة فرنسا ونفوذها» . وذلك أن الباي وقع أسيرا بين أيدي الفلاحين ، فأرسل الى مقاطعة وهران ، وفيما بعد الى المغرب . ومن خلال رسالة ناقمة كتبها القائد لاموريسيير نعلم مصير هذا الخائن الذي لم تنفعه مساندة المارشال كلوزيل المتكررة له : «هل يمكن أن نتصوّر اهانة أكبر من التي لحقت بفرنسا من جرّاء أسر الباي الذي عيّناه في

(1) C. Rousset : Op. cit., t. II.

المدية ؟ تصوروا هذا المسكين الذي يدعى في كل مكان» بوطمور «لأنه تخبأ مدة أربعة أشهر في مطمور ، والذي لم يمض على تنصيبه أكثر من خمسة أسابيع حتى اقتيد مكتوف اليدين والرجلين من المدية الى مليانة ، ومنها الى معسكر عبد القادر ، وأخيرا الى فاس ومكناس ومراكش . وبعد أن حفّوا لحيته وشواربه ، أركبوه ، بشعره الطويل ، على حمار ، ورأسه موجّه الى الذّنب ، وتجوّلوا به في جميع أنحاء البلاد ليكون شاهدا حيا على اهانة بلادنا ... (1) .»

## باي «مستورد» من تونس

ان أخبار البايات الفاشلين الذي اختارتهم السلطات الاستعمارية من بين الجزائريين أو من بين الأجانب ، وأرادت أن تفرضهم على المدن الجزائرية السابقة الذكر ، ان أخبارهم مستفيضة في كتب التاريخ . ومما لاشك فيه أن أهم هؤلاء ، هو باي تونسي من السلالة الحسينية ، وقد مني هو أيضا بفشل ذريع . ان هذا الحدث غير المتوقع ، على ما فيه من الطرافة ، أو من أجل هذه الطرافة ، يساعدنا للرد على الذين اتهموا الجزائريين بالحقد على الأجانب ، والتسامح مع أبناء البلاد الخونة . وذلك أنهم اذ قاطعوا هذا الباي «المستورد» بل حاربوه ، لم يقوموا بهذا العمل الا عن وطنية صادقة . ان هذا الباي الذي جاء من بلد شقيق ، أي من تونس التي كانت دائما عزيزة في قلوب الجزائريين ، قام بخيانة عظمى لا بالنسبة للجزائريين فحسب ، بل بالنسبة للتونسيين أيضا . ومن المعروف أن كثيرا من التونسيين تطوعوا للقتال في صفوف المقاومة في ولاية قسنطينة ، وقد تحدّث الكولونيل كلير (2) عن خمسمائة من الفرسان التونسيين المنخرطين في الجيش الجزائري في ناحية عنابة تحت قيادة أحد المقاومين الجزائريين واسمه ابن أحمد .

---

(1) C. Rousset : l'Algérie de 1830 à 1840, 3, p. 107.
(2) Campagnes d'Afrique, 1835-1848, cf: Clère.

وتتلخص قصة الباي السابق الذكر في أن المارشال كلوزيل أراد أن يسند ادارة الأراضي الجزائرية التي لم تحتلها القوات الفرنسية بعد، الى أمير من أمراء تونس، شريطة أن يدين بالولاء والتبعية لا للباب العالي (تركيا)، بل لفرنسا. وقد أسفرت المساومات التي جرت في هذا الشأن عن اتفاق أمكن التوصل اليه في 6 فبراير 1831. وبناء عليه جاء خير الدين آغا، خليفة الأمير التونسي أحمد الذي كان قد تعين بناء على اتفاق سابق بايا على وهران، جاء ليتقلّد أمور البايليك الجديد، لقاء دفع اتاوة سنوية قدرها مليون فرنك (1).» الا أن ممثل باي وهران وجد المدينة خالية مقفرة، فما كان منه الا أن فكّر في العودة الى تونس مع حاشيته. على أنه بقي في المدينة بعض الوقت ليتنعم وليفرض سلطته. ونتيجة لذلك ساءت العلاقات بين الجزائريين وبين خليفة الباي التونسي الذي حظي بمساندة الجنود المرتزقة الأتراك، وبرعاية الفرنسيين. «وكان بعض سكان البادية يدخلون الى المدينة مدجّجين بالسلاح في أيام انعقاد السوق» وكانوا يسبّبون كثيرا من المتاعب للحامية التركية ـ التونسية، الى أن قررت الجلاء عن وهران والعودة الى تونس بعد أن ذاقت الأمرين.

## الحاجة في المدن الى القيادة

ان الشعور الوطني الذي كان يختلج في نفوس الحضر شعور صادق، ما في ذلك شك. وقد ضربنا الأمثلة على ذلك بما فيه الكفاية. ولم يكن الشعور المدني عندهم أقل نماء من الشعور القومي... وتاريخ الجزائر يقدم في هذا الموضوع شواهد رائعة تشرّف تاريخ البشرية جمعاء. ان الأحداث التي تعنينا هنا وقعت في شهر أبريل 1835، في وقت عمّت فيه البلبلة وساد فيه الاضطراب. وكانت مدن مقاطعة الجزائر تطالب الأمير عبد القادر بتعيين خلفاء له يتسلمون زمام الأمور،

(1) C. Rousset : Op. cit., t. I.

لأنها بقيت مدة طويلة بدون قيادة ، ولأنها كانت مهددة بالاحتلال من طرف الطوابير الفرنسية . وفي هذه الأثناء استطاع أحد المغامرين المتعصبين أن يظهر على مسرح الأحداث في هذا الجو من الفوضى ، وأن يلبس لباس النضال والاصلاح الديني . وهذا المغامر الذي «أعلنها حربا شعواء على الأمير وعلى المسيحيين على حد سواء» هو أحد شيوخ الطرقية واسمه موسى الدرقاوي . ويقول ك . روسي بأن هذا الشخص «عندما بلغ أسوار المدية طلب من الحضر أن يسلّموا له جميع اليهود والميزابيين (أي المسلمون الإباضيون) من أجل قتلهم عن بكرة أبيهم . ولكن الحضر رفضوا تسليمه اياهم (1) .» ان هذا الموقف الذي اتخذه أهالي المدية في وقت تعرضت فيه مدينتهم للحصار والتهديد ، مثال حي عن الوعي القومي والعواطف الانسانية النبيلة التي كانت تجيش في نفوسهم . وما لبث الأمير عبد القادر بعد أن سمع بهذا الأمر أن عجّل بجيشه وألحق هزيمة نكراء بالشيخ الدرقاوي وجماعته .

وقد تحدثنا في الصفحات السالفة عن الحاجة الماسة التي أحسّ بها الجزائريون على اثر الاحتلال ، في أن تكون لهم قيادة وأن يضعوا حدّا للفوضى التي سادت بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر . وهذا ما أدهش الدوق دورليان . فقد لاحظ ما للحضر من تقاليد عريقة وحسّ مدني ، وما لديهم من انضباط . وكان التعليم منتشرا الى حد بعيد في المدن ، كما أن الصنائع بشكل خاص كانت مزدهرة . وكان الأمير عبد القادر كلما أحدث منشآت جديدة ومعامل ومخازن ومصانع للأسلحة ، كان يستعين بهؤلاء الحضر المشرّدين الذين أخرجوا من ديارهم . وقد روى لويس فيو أن قنصل الأمير في وهران «كان يبذل جميع المساعي لترحيل البقية الباقية من العمال في المدينة ، لأن الأمير عبد القادر وضع مشاريع هامة وكان في

(1) C. Rousset : **l'Algérie de 1830 à 1840,** t.I.

حاجة اليهم لتحقيقها (1) .» وكان يسند للبعض منهم مهمات اقتصادية في الخارج ، ومن ذلك ما رواه المؤرخ اريستيد جيلبر من أن عبد القادر كلّف أحد التجار من الجزائر بأن يذهب الى مصر وأن يجلب منها بذور القطن ويستقدم منها الفلاحين لزراعة هذه النبتة والعمل على توطينها في الجزائر (2) . وما كاد الفرنسيون يحتلون العاصمة حتى أدرك أهالي المدن الخطر الداهم ، فاتجهوا الى بلدان شمال افريقيا المستقلة وطلبوا من ملك المغرب أن يعاونهم . ولعل القارىء يدرك لماذا لم يلتمسوا العون من تونس ، فلاشك أن بعد المسافة حال دون القيام بهذه المساعي . أما فيما يخص الشعب التونسي ، فنحن نعرف أنه أجبر الباي منذ الأشهر الأولى من الاحتلال أن يقدّم الأسلحة للمقاومة الجزائرية في مقاطعة قسنطينة .

على أن الوالي العام الدوق دى روفيغو ، ما لبث أن اطلع في أوائل عام 1832 على النداءات التي كان يوجهها أهالي البليدة والمدية ومليانة الى سلطان المغرب ، بعد وقوع المراسلات في يد الجيش الفرنسي . ولكن سكان المدن والأرياف التفّوا حول عبد القادر بعد مبايعته أميرا في نوفمبر 1832 . ورغم تخريب مدنهم ، ورغم التشريد والبؤس والشقاء ، فلم يمنعهم ذلك من المحافظة على عهد الوفاء . وقد نصت معاهدة ديميشيل الموقّعة بين فرنسا والأمير ، على الاعتراف لعبد القادر بالسلطة في كل أرجاء مقاطعة وهران الى حد نهر شلف شرقا ، باستثناء بعض الموانيء . على أن سكان المدن الواقعة فيما وراء هذا الحد ، أي في مقاطعة الجزائر ، رغم وقوعهم تحت نير الاحتلال ، لم يكونوا يقبلون ، كما سبق أن رأينا ، بالحكام الذين حاول قادة الاستعمار فرضهم عليهم ، بل كان

---

(1) **Les Français en Algérie**, Ed. 1841.

(2) A. Guilbert : **Colonisation du Nord de l'Afrique**, Ed. Paulin, 1839.

الأهالي يطالبون الأمير بتعيين من يخلفه ويمثله في المدن ، لأنهم يعتبرونه الحاكم الوحيد على البلاد والسلطة الوحيدة التي يمكن أن تضع حدا للفوضى . وقد كتب الدكتور ف . كسنو بهذا الصدد : «بعد أن فشلنا في تعيين حكام موالين لنا في المدية والتيطري ، لأن الاضطراب كان يسود فيهما ، وبعد أن هدّد الوالي العام (الكونت ديرلون) سكان المدية لأنهم رحّبوا بقدوم عبد القادر ، أجابه هؤلاء بأنهم «لم يرغبوا في قدوم ابن محيي الدين (يقصدون به الأمير) الا على أمل أن يخلّصهم من الفوضى التي يتخبّطون فيها (1) .»

## المقاومة في المدن البحرية

لم نتحدث الى حد الآن الا عن المدن الهامة ، أي عن عواصم المقاطعات ذات التقاليد العريقة ، وعن المراكز التجارية والثقافية المعتبرة . وينبغي أن نضيف اليها مدن أرزيو في مقاطعة وهران ، وجيجل والقالة في مقاطعة قسنطينة ، وتنس ودلّس على الساحل . فهذه المدن البحرية الصغيرة كانت تعد من المراكز التجارية ، ولم تقم في عهد الاحتلال بدور سياسي أو عسكري ملحوظ . ومع ذلك فإن سكانها خرجوا منها اباء للضيم . وتقع جميع هذه المدن والحواضر في الشمال ، أي في التلّ ، وهي منطقة غنية نسبيا ، ازدهر فيها العمران منذ أقدم العصور وقامت فيها مؤسسات ، واستقر فيها الحضر أكثر من البدو ، ما بين مسلمين ويهود (ممن فر من الاضطهاد الديني في اسبانيا) ، وأتراك وتركان ، وهؤلاء جميعا قد انضموا للسكان الأصليين من عرب وأمازيغ ، وهم الأغلبية .

وهكذا يتبين لنا أن المدن الجزائرية كان لها ماض حافل ، وكانت لها تقاليد عريقة ظهرت في طبقتها البرجوازية ونخبتها من المثقفين وأصحاب الصنائع . ومن الجدير بالملاحظة أن «الطاقات الحية للبلاد كانت

(1) Dr. F. Quesnoy : **L'Armée d'Afrique depuis la conquête de l'Algérie**, Ed. 1888.

متمركزة في البوادي والأرياف (1) .» الا أن هذه الظاهرة التي لا تنفرد بها الجزائر لا يجوز أن تنتقص — حتى على سبيل المقارنة — من فضل أو من قيمة الحواضر ، ومن أهميتها الاقتصادية والاجتماعية قبيل الاحتلال أو خلال حرب الاستعمار من 1830 الى حوالي 1850 . على أن هذه البرجوازية ، وهذه النخبة الحضرية التي كان من الممكن — لولا الاستعمار — أن تمضي على طريقها التقليدي ، أو أن تنهج منهجا جديدا بالاعتماد على الامكانيات المتاحة لها ، قد توقّف تطورها فجأة ، فلم تجد أمامها أي مجال للنماء والازدهار . فالأمور كلها ، بالنسبة اليهم وبالنسبة لأولادهم ، قد انقلبت رأسا على عقب في تلك المدن التي هدّمتها الحرب ، وأعيد بناؤها حسب معايير أخرى غير مألوفة لديهم ، وجيء بالأوربيين ليعمّروها وليتنعّموا فيها وحدهم ، وليفرضوا فيها قوانينهم.وهكذا فإن سكان المدن ، ما كان لهم — بعد ترحيلهم الى بعض المراكز — الا أن يعيشوا على هامش الحياة التي نقلوا اليها ، ولم يبق للعائلات الجزائرية الأصيلة من أمل ، بعد أن فقدوا أرزاقهم وجرّدوا من حقوقهم السياسية ، الا أن يعودوا الى ديارهم فقراء ، ليتفرجوا من بعيد على حركة التطور الشاملة ، ذلك التطور الذي ليس لهم اليه من سبيل ، لأنهم حرموا من جميع وسائله .

ومن المغالطات التاريخية أن يدّعي بعض الكتّاب ، ومنهم غوتيي ، بعد أن مضى قرن ، بأنه «لا توجد في الجزائر ولا مدينة واحدة أسسها الأهالي . والجزائر بلد يعيش فيه خمسة ملايين من الأهالي الريفيين ، يحكمهم ثمانيمئة ألف من البرجوازيين الأوربيين (2) .»

---

(1) Colonel Trumelet : **Le général Yusuf,** 1890.

(2) E.F. Gautier : **In** Conférence : **l'Algérie d'aujourd'hui et de demain,** 1929.

## مساهمة البرجوازية الأهلية في المقاومة

ومن هنا ندرك لماذا فقدت الجزائر طبقتها البرجوازية الأصيلة ، تلك الطبقة التي لم تعد الظروف تسمح باعادة تكوينها ، وتوفير جو من الحرية والرخاء لها . ولعل مثالا أو مثالين سيمكننا ، بواسطة الأرقام والتواريخ ، من تتبّع ما طرأ من الناحية الديمغرافية على سكان المدن منذ 1830 . فمدينة وهران التي رحل عنها في 1831 جميع السكان الجزائريين ــ وعددهم حوالي أربعين ألفا ــ لم يكن عدد سكانها يتجاوز ألف نسمة في 1838 ، و 2120 في 1845 و 2895 في 1861 ، و 8421 في 1861 . وهكذا فلم يزد عدد سكانها الأصليين الا بـ 775 . وهذه الفترة (1830 ــ 1838) توافق فترة اشتداد الحرب في مقاطعة وهران . وقد استخلص أوغسطين بيرك من هذه الأرقام التي استقاها من مصدر وثيق ، فقال : «هذه هي وهران : مدينة كل سكانها المسلمين جدد ، وليس بينهم من كان يعيش فيها من قبل» .

واذا استثنينا مدينة أو اثنتين ، فإن هذا الحكم يصدق على سائر المدن الجزائرية التي كان يتألف سكانها ممّن نزحوا من الأرياف ، بعد أن فقدوا أراضيهم . وما لبثت المأساة التي عاشتها هذه المدن في عهد الغزو العسكري ، أي الى حوالي 1850 ، ما لبثت أن تحولت الى استياء عام ، بعد اقرار السلام ، وليس له في الحقيقة من السلام الا الاسم ، لأن الانتفاضات الريفية لم تتوقف الا في 1872 . وقد كان الرحيل والهجرة على نطاق واسع من مظاهر ذلك الاستياء الذي لم ينته بانتهاء الغزو العسكري . فالهجرة كانت كالنزيف الذي أفقد الجزائر أحسن عناصرها وأكثرهم تقدّما . وفي هذا الموضوع يقول أوغسطين بيرك : «كثيرا ما يهاجر الناس في الجزائر الى المشرق . وقد هاجروا في 1830 و 1832 و 1854 و 1860 و 1870 و 1875 و 1888 و 1898

و 1910 و 1911 (1) .» وقد تضررت مدينة تلمسان على الخصوص من هجرة 1911 ، ومن أهم أسبابها الخوف من التجنيد الذي اعتزمت السلطات آنذاك اقراره في الجزائر ، وكذلك الظروف الاقتصادية السيئة التي نتج عنها القضاء على الصنائع التقليدية المحلية . ولشرح هذه النقطة الأخيرة نقول بأن السلطات الفرنسية قامت في 1868 بحلّ نقابات أصحاب الحرف ، وأن الصناعات الجزائرية الصغيرة أخذت تزول ، ولم تحافظ على البقاء الا في بعض المدن ، وخاصة في تلمسان ، بحكم جوارها للمغرب الذي لم يقع آنذاك تحت ظل الحماية ، والذي ازدهرت فيه الصناعات التقليدية .

ويضيف أوغسطين بيرك لهذه الوقائع التي نقلناها عنه ، أسبابا كنا قد أشرنا اليها ، ثم يستخلص ما يلي : «واذا تذكرنا التدهور الاقتصادي الذي وقع في 1846 و 1854 و 1863 و 1868 ... فإننا نكون قد أحطنا بجميع المصائب التي حلت بالبرجوازية الحضرية في أقل من عشرين سنة ، ابتداء من عام 1830(38) .» ونلاحظ بهذه المناسبة أن عام 1854 تميز بأول هجرة نحو المشرق وقعت بعد الحرب الاستعمارية ، وأن عام 1868 هو العام الذي تقرر فيه حلّ نقابات أصحاب الحرف في المدن الجزائرية . ونحن لا نرى من حاجة للتعليق على ما في العبارتين «تدهور اقتصادي» من غموض . ولكن لابد من القول بأن عام 1867 الذي أغفل بيرك ذكره ، هو العام الذي وقعت فيه مجاعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزائر وأدت الى هلاك خمسمائة ألف من السكان . وبذلك يتبين لنا أن انهيار الطبقة البرجوازية الأهلية (الكبيرة والصغيرة) كان أمرا محتوما منذ زمن بعيد ، فما من أزمة اقتصادية الا وألحقت بها ضربة قاضية لا أمل بعدها في الانتعاش . ولا

---

(1) Augustin Berque : **La Bourgeoisie algérienne.** In revue **Hespéris**, T .XXXV,1948.

ننس أن أوغسطين بيرك الذي كان أحد الموظفين الكبار في الادارة الاستعمارية هو الذي كتب في 1946 بصدد الحديث عن البرجوازية في مدينة الجزائر : «أتيح لي خلال المدة التي قضيتها في الولاية العامة (ربع قرن) أن أطلع على عريضة تقدّم بها بعض الأعيان من العائلات المشهورة في القرن الثامن عشر ، يطالبون فيها بالمعونة العاجلة . وقد كتبت بأسلوب يدل على الأنفة والاباء . فالفقر الذي أجبرهم على ذلّ السؤال ، ما أنساهم أبدا بأنهم أصحاب حق مشروع لا طلّاب صدقة . وأنا أستطيع أن أؤكد ، بعدما قمت بالتعداد ، أنه لم يبق في مدينة الجزائر من أحفاد العائلات المشهورة في 1830 ، لم يبق منهم سوى حوالي الأربعين (1).»

ولعله من العبث أن نضيف بأن ملاحظة أوغسطين بيرك صحيحة أيضا بالنسبة لبقية المدن الجزائرية العريقة ، خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار العوامل الديمغرافية والمصائب التي حلت بهذه المدن .

ومع هذا كله فمدينة قسنطينة ، رغم المصير المحزن الذي آلت اليه ، ورغم تشتت عدد كبير من سكانها ، استطاعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن تشكل من جديد طبقة وسطى شبيهة بالبرجوازية ... طبقة كانت في بداية الأمر بسيطة ومتعاونة رغما عنها مع النظّام الاستعماري ، ثم أخذت تشعر بما لديها من شأن ومن مسؤولية في هذه البلاد التي يحكمها الظلم ويتعرض فيها المجتمع للخراب ويحرم من مؤسساته التقليدية ومن تعلم لغته . فهذه البرجوازية هي التي تولّدت منها حركة ذات مبادىء سياسية دينية (ويمثلها الشيخ ابن باديس) ، وحركة أخرى تطالب ببعض الحقوق (وتمثلها جماعة من أعضاء المجالس البلدية) . وكان لهاتين الحركتين ، وخاصة للأولى منهما ، دور كبير في

(1) A. Berque انظر : المقال المذكور في الحاشية السابقة .

نشر الثقافة وتوعية الشعب على أوسع نطاق . ولعل المواقف المعتدلة التي اتخذها زعماء هذا الاتجاه الثقافي هي السبب في استمرارية الدور الذي قامت به البرجوازية القسنطينية ، ونجاحها في اعادة تشكيل نفسها . وقد يكون من المفيد هنا أن نقارنها بمدينة فاس التي استطاعت بفضل نخبتها البرجوازية المثقفة ، أن تصمد أمام عوامل التخريب وأن تحافظ على القيم المغروسة في الشعب المغربي الذي أخذ الاحتلال الأجنبي يجرّده من أرزاقه ، ويعتدي على كيانه السياسي . ومما ساعد قسنطينة على النهوض من كبوتها قبل غيرها من المدن الجزائرية الأخرى ، السياسة المتبعة منذ 1838 مع العائلات الاقطاعية . ففي شهر سبتمبر من نفس تلك السنة ، استصدر المارشال فالي قرارات كانت ، حسب تعبير أوغسطين برنار «نقطة الانطلاق لقيام علاقات تعاون بين فرنسا والعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة» . وبالفعل ، فقد كان هناك ، مثلما قال هذا المؤرخ : «خمسة زعماء كبار ، وهم : ابن عيسى ، وحملاوي ، وعلي بن باحمد ، ومقراني ، وفرحات بن سعيد الذي حلّ محله بوعزيز بن قانة في 1840 ... ولم يكونوا موظفين بل كانوا من الأعوان التابعين لفرنسا ، يقبضون الضرائب ويعينون الشيوخ(1) .»

## القضاء على الاقطاعية في مقاطعة قسنطينة

وصف أوغسطين برنار النظام الذي أقامه المارشال فالي من أجل عرقلة سياسة عبد القادر الرامية للقضاء على الاقطاعية ، بأنه «عمل أساسي» وكان الأمير قد تمكن ، بعد جهود طويلة ، من أن يشلّ نشاط العائلات المرتزقة الكبرى العاملة في المخزن السابق ، وأن يقطع دابر الخيانة فيها ، بعدما كانت الامبريالية الفرنسية تعمل على تنصيب أفرادها ضد

(1) أنظر : Augustin Bernard : L'Algérie.
ان فرحات بن سعيد بوعكاز هو ذلك الاقطاعي الذي من أجله استأصل الدوق دي روفيغو دوار الأوفياء . وقد اختطفه الأمير عبد القادر فيما بعد وزج به في السجن .

الأمير ، في مقاطعتي وهران والجزائر . ولكن الأمور لم تكن تجري على وتيرة واحدة في هاتين المقاطعنين ، وكذلك في مقاطعة قسنطينة التي كانت ، الى غاية 1837 ، تحت حكم الباي أحمد ، وهو القائد الجزائري ــ التركي الوحيد الذي احتفظ بقيادة بعد دخول الفرنسيين ، ونظّم المقاومة ضد المحتلين . والحكم السائد في مقاطعة قسنطينة هو الحكم الاقطاعي المناصر للباي . ولم يكن الباي أحمد يتمتع بسمعة حسنة لدى عامة الشعب . ورغم أنه عقد عزمه منذ 1830 على أن يقاوم الفرنسيين وأن يدافع عن قسنطينة ، الا أنه لم يغّير شيئا من أساليب حكمه ، بينما كان عبد القادر في غرب البلاد يضع أسس دولة جزائرية حقة ، ويهدّم صرح الاقطاعية وينشىء جيشا وطنيا ويقيم صناعة حربية ، وينمّي التجارة الخارجية ، ويعمل بدون كلل من أجل توحيد أراضي البلاد .

ومما لاشك فيه أنه حدث بالفعل استياء عام من الباي أحمد وأعوانه الاقطاعيين . وهذا ما يفسّر لنا السهولة النسبية التي تمكّن بها الامبرياليون الفرنسيون من احتلال المقاطعة الشرقية برمّتها ، والسيطرة عليها ، ماعدا منطقة القبائل الصغرى والمناطق الجبلية الساحلية . وهذا ما جعل نائب مدير الشؤون المدنية (دوسر) يسجّل عام 1839 في مراسلاته بأن «مقاطعة قسنطينة يسود فيها السلام ، والأمور فيها ميسّرة لنا كلها بدون عراقيل ، ولكن الامر ليس كذلك في غرب البلاد .» هذا ، مع العلم بأن الحرب لم تنقطع في عمالتي الجزائر ووهران منذ أن ابتدأت فيهما عام 1830 . أما المعتمد العسكري بوسيي فقد كتب بعد مضي بضع سنوات : «توجد امكانيات كبرى في مقاطعة قسنطينة . وفي أهاليها استعداد للخضوع لا نجده في بقية أنحاء الجزائر . وهكذا فقد توفّرت لنا ظروف مواتية ، ولكن هذا الأمر لا يعفينا من وجوب انتهاج سياسة القوة(1) .»

(1) Cf. Dussert et Bouaissier : **Campagnes d'Afrique.**

وبطبيعة الحال ليس هذا القول صحيحا الا نسبيا ، وذلك أن هذا «الاستعداد للخضوع» ما لبث أن انقلب الى شيء آخر بعد 1845 عندما حذت مقاطعة قسنطينة حذو مقاطعتي الغرب الجزائري ، وان كانت قد تأخرت عنهما بعض الشيء . ويرجع الفضل في هذه الانتفاضة الى نشاط أعوان الأمير عبد القادر في هذه المنطقة ، والى انسحاب الباي أحمد الذي التجأ الى الأوراس ، والى سياسة المارشال بيجو الوخيمة ، والى اتساع نطاق المقاومة التي نظمها الفلاحون . والشيء الثابت على أية حال هو أن النظام الاقطاعي المستمد من قرارات 1838 المشؤومة كان قد تركّز في البلاد وسيطر على الأمور فيها . ولأول مرة في تاريخ الاحتلال أخذت الامبريالية الفرنسية تسند لعملائها الاقطاعيين أمثال ابن قانة ، مهمة القيام بحملة ضد أعوان الأمير . ومن المحتمل أن بعض البرجوازيين القسنطينيين الذين كانوا من السبّاقين لخدمة الامبريالية الفرنسية ، قد استفادوا من هذه الثقة التى منحتهم اياها فرنسا .

ومن مظاهر هذه الثقة تعيين «حاكم» في قسنطينة من بين الأهالي ليكون فيها نائبا عن الوالي العام . هذا ، في حين أن المدن الجزائرية الأخرى ، كالمدية والبليدة وشرشال أغلقت أبوابها أمام الحكام الذين عيّنهم العدو المحتل ، بل عاقبت البعض منهم عقابا أليما .

ان هذا الموقف لدى سكان قسنطينة لا يرجع فقط الى نوع من الجمود أو الى العقلية الانتهازية . فالمؤرخ أوغسطين بيرك أشار في الأسطر الثلاثة أو الأربعة التي خصصها للبرجوازية القسنطينية ضمن مقال قصير له ، أشار الى : «تاريخ قسنطينة (سيرتا قديما) في العهد التركي ، وهو تاريخ يكشف لدى سكانها عن صفات التعقل والرزانة ، ونستشف من خلاله حكمة بيروتو» .

وسواء كانت هذه الحكمة لبيروتو Birotteau أو لغيره ، فإن سياسة الحكمة التي اتبعها بعض أفراد البرجوازية القسنطينية كان لها في عهد الاحتلال الفرنسي جوانب ايجابية وأخرى سلبية . فمن جهة ، تنازلت عن كثير من المبادىء الأساسية ، ومن جهة أخرى اعتنقت — مع شيء من التبديل والتحوير — مبادىء الحركة الوطنية الهادفة الى الدفاع عن الكيان ، تلك الحركة التي اعتمدت بالدرجة الأولى على العناصر الريفية . ويمكن القول من هذه الناحية ، بأن بقاء البرجوازية بعد الاحتلال ، والدور الذي لعبته ، كان لهما أثر بعيد في مستقبل البلاد . فقد مكّنت السياسة التي عمل بها المارشال فالي منذ 1838 تجاه العائلات الاقطاعية الكبرى ، مكّنت البرجوازية القسنطينية من البقاء والمحافظة على كثير من قيمها وتقاليدها . وبينما نجد في مقاطعتي وهران والجزائر أن النخبة من أبناء البوادي والحواضر الذين ضحّوا بالغالي والنفيس من أجل الدولة الجزائرية تحت قيادة الأمير ، قد أهلكتهم الحرب أو سلكوا طريق الهجرة ، اذا بنا نجد من ناحية أخرى أن النخبة القسنطينية تشكلت من جديد واحتفظت ، ان لم يكن بجميع أملاكها ، فعلى الأقل بجزء من تراثها الثقافي ، لأنها حظيت بمعاملة خاصة نتيجة لتعاون الاقطاعيين مع الامبريالية الفرنسية . ويمكن تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية بوجود وشائح طبقية ، وبالاتفاق في المصالح بين الاقطاعية والبرجوازية .

وهناك عوامل أخرى ساهمت فيما نعتقد ، في بقاء هذه البرجوازية : منها أصلها العريق وتقاليدها الثقافية واتصالها بدواخل البلاد وكونها استطاعت هي والبرجوازية التونسية أن تتغلب وأن تسيطر أحيانا على الطبقة الحاكمة الجزائرية — التركية (1).

(1) ان المدافع الحقيقي عن قسنطينة أثناء الحصار (1836 و 1837) هو أحد الجزائريين واسمه ابن عيسى الذي استطاع بشخصيته القوية ومناقبه الحسنة أن يفرض نفسه على الطبقة الحاكمة الجزائرية — التركية المختلطة . ومما يؤسف له أنه ما لبث أن انضمّ هو الآخر الى الاقطاعيين الموالين للاستعمار.

ان بعض العائلات القسنطينية التي كانت مشهورة قبيل 1837 وبعده ، كعائلتي ابن باديس وابن لفقون ، كانت تتمتع بنفوذ كبير منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر (م) ، كما أن قسنطينة كانت دائما مركزا ثقافيا يقصده الطلبة والعلماء من جميع أنحاء الجزائر . ففي مكتبات أغنيائها العامرة عثر المستشرقون الفرنسيون على مخطوطات قيّمة تهمّ تاريخ الأدب الأندلسي والمغربي والافريقي . ومن الانصاف للحقيقة أن نضيف بأن التراث الثقافي قد تعرض في مقاطعتي الجزائر ووهران لما تعرّض له الناس وجميع الأمور الأخرى من هدم وتخريب . والتاريخ يحدثنا أن الأمير عبد القادر سار على أعقاب طابور الدوق دومال بعد استيلاء هذا الأخير على «الزمالة» مسترشدا بالأوراق الكثيرة التي امتلأ بها الطريق والتي كان الجنود الفرنسيون يمزقونها ويرمون بها في سيرهم . وكان الأمير قد قضى عدة سنوات وهو يؤسس شبه مكتبة وطنية ويجمع لها المخطوطات من مختلف الجهات ، الى أن انتهى بها الأمر الى التخريب على يد الفرنسيين .

لنعد الآن للحديث عن بعض الأفراد من البرجوازية القسنطينية ، ولنقل بأن الفترة التي كانوا فيها يتعاونون مع فرنسا — عن طواعية أو اكراه — قد امتدت الى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تقريبا . ولكن هذا كله أخف ضررا من الموقف المؤسف الذي اتخذه بعض الأعيان القسنطينيين تجاه الثورة الوطنية الكبرى التي اندلعت في 1871 ، وأيدوا به موقف الاقطاعيين . ففي رسالة جماعية لهم موجهة لأمير البحر قايدون Gueydon ، حاكم البلاد ، طلبوا منه أن «يميز بين قوم — أي بين جماعة مثقفة ومتنورة ، تقدر مع الشكر والامتنان حماية فرنسا وعدالتها — وبين جماعة أخرى من البدو الرحل والعشائر (1) » . وقد وصفوا أنفسهم بأنهم من سكان المدن المستقرين «الميالين للهدوء والسلم

(1) Louis Rinn : **Histoire de l'Insurrection de 1871.**

والطمأنينة والهناء» ، وانهم يتعاطون «التجارة وجميع أنواع الصنائع» ويحترمون «السلطة ، ويحبون النظام ويريدون أن يعيشوا في هناء ...» ولم يكتف هؤلاء الأعيان باستنكار عمل الفلاحين وتمردهم على السلطة ، بل طالبوا بقمع حركتهم قمعا شديدا «يلقي الرعب والفزع في قلوبهم» .

ان هذا الأسلوب جعل الكولونيل لويس رين يصف هؤلاء البرجوازيين القسنطينيين بأنهم «قوم جبناء وأنانيون» ، ويقول عن رسالتهم للوالي العام بأنها عبارة عن «كلمات قاسية (1) .» ومما قد يشفع لهم أن هذه الرسالة الجماعية قد لا تدل على الولاء للحكم ، لأن السلطات الاستعمارية في قسنطينة هي التي أوعزت اليهم بكتابتها ، كما جرت العادة في مثل هذه الظروف . ولذلك فلابد من شيء من التحفظ في الحكم ، ولا يجوز التعميم . فموقف هؤلاء الأعيان ، وان كان شبيها بموقف الباشاغاوات المتعودين على الطاقة والخضوع ، الا أنه يندرج في المواقف العامة لفئة قليلة من الجزائريين الذين أغدقت عليهم السلطات نعمها ، وحفظتهم من نكبات الحرب لكي تتخذهم حجة أمام الناس ، وركيزة في الشدة .

ان عام 1871 يعتبر في حد ذاته عاما خطيرا ، لأنه سجل في تاريخنا القومي الحديث آخر انتفاضة وطنية في الأرياف . فالأرياف هي التي قادت الكفاح منذ 1830 ، ثم جرّت من ورائها المدن وأثرت على الطبقة المثقفة فيها . ومنذ ذلك التاريخ (1871) ركنت الأرياف للهدوء ، وتولّى سكان المدن أمر النضال ، ولكن بالوسائل السلمية ، وعن طريق المطالبة بالحقوق . ان هذا الأسلوب في النضال لا يخلو من مآخذ ، الا أنه عرف تطورا سريعا أفضى به في النهاية الى ابراز القومية في صورتها المعتدلة التي نشهدها في المدن . وهناك مؤشرات كثيرة تدل على السرعة

(1) Louis Rinn : **Histoire de l'Insurrection de 1871.**

في التطور . ولكي نتأكد من هذا ، ما علينا الا أن ننظر الى ما كان لها من أثر عميق ، وعلى الأخص في الأوساط البرجوازية القسنطينية في نهاية القرن التاسع عشر .

ومضت خمسة عشر سنة على الرسالة الجماعية المؤرخة في 1871 ، واذا بعريضة أخرى تحمل امضاءات كثيرة ، تصدر عن ممثلي سكان قسنطينة الذين افتتحوا بها طريقة جديدة في النضال السياسي فهذه الرسالة التي جمعت 1700 امضاء ، قد تضمنت ما هو أحسن من النظام الايديولوجي ، لأنها عبّرت عن وعي قومي عميق للردّ على محاولات الاستعمار الادماجية . ومن خلال هذه العريضة نطّلع على الجوّ الفكريّ الذيّ كان سائدا أيام كتبت ، أي في 1887 : لقد تحدّث البرجوازيون القسنطينيون باسم الجزائر كلها ، وذكروا بشروط اتفاقية الجزائر لعام 1830 : «وهي الفترة التي وقعت فيها بلادنا تحت السيطرة الفرنسية» وألحوا على ضرورة احترام القانون والمؤسسات الجزائرية .

## مشروع قانون للتجنيس الشامل

انه بالدرجة الأولى موقف دفاعي أملاه عليهم مشروع قانون يتعلق بالتجنيس العام للجزائريين . وقد استهلّ موقعو العريضة الموجهة الى أعضاء البرلمان الفرنسي ، استهلوا كلمتهم بهذه الديباجة : «ان هذا المشروع (مشروع القانون) لا يلائمنا ولا يستجيب لمطامحنا» . ثم أخذوا يشرحون أسباب رفضهم بالعبارات التالية : «ان أخذ الجنسية الفرنسية سوف يكون من نتائجه بالنسبة الينا ، الالغاء التام لقوانيننا ونظامنا من حيث المسائل المادية (كالأموال والممتلكات) ، ومن حيث قوانين الأحوال الخاصة ...» ثم أضافوا : «ان أعزّ المنى لدينا ، وأشد ما نحرص عليه ، هو الحفاظ على قوانيننا ... وفضلا عن هذا ، فإن تجنيسنا الاجباري العام وبدون قيد ولا شرط ، سوف يفضي الى التخلي عن عوائدنا ، وسوف

يفسد أخلاقنا (1) .» ثم عمدوا بعد هذا ، بأسلوب فيه تبصّر ومهارة الى انتقاد الحقوق الانتخابية الموعودة ، فركّزوا على التضارب بين وضعية الجزائري المغلوب على أمره ، وحرية المواطن الممنوح حق الانتخاب ، وأكدوا بأن ممارسة الحقوق الانتخابية من طرف الجزائريين لن تتم «**بطريقة سوية** ...» ، ولن تكون مجدية ، ولن تدفع عنهم المضرّة «الا اذا توفرت فيهم شروط من بينها الحرية والاستقلال» .

اننا نلفت النظر على الأخص الى قولهم «بطريقة سوية» . فهذه الكلمات ، بل جميع الكلمات الأخرى ، تنطبق على الوضع الحالي ، وتطرح بكل وضوح مشكلة الانتخابات في البلدان المنكوبة بالاستعمار ، وخاصة الجزائر ، حيث لا يمكن أن تكون الانتخابات حرة باعتبار أن «المواطنين» أنفسهم ليسوا أحرارا . ونحن اليوم اذ نقرأ هذا الكلام الصادر عن أصحاب العريضة ، نرى فيه ما يشبه العلم بالغيب ، في حين أنه مجرد كلام يكشف عن نظرة واقعية للأمور ، وعن وعي سياسي عميق .

ومما يؤكد هذا الجانب الأخير ، الحلول الوجيهة التي اقترحها أصحاب العريضة على البرلمان الفرنسي في الجزء الثاني من عريضتهم التي تعتبر كأنها ميثاق في المطالبة بالحقوق المشروعة . ولا نرى أفضل من أن نعرض على القارىء هذه المقترحات كما سجلها البرجوازيون القسنطينيون ، في صيغتها المترجمة :

أولا : تنظيم المدارس العربية ودراسة الطرق والوسائل الكفيلة بتمكين جميع الأهالي المسلمين من الاستفادة منها .

ثانيا : منح الأهالي الأعضاء في المجالس البلدية والمجالس العامة نفس الحقوق الممنوحة للأعضاء الفرنسيين ، بدون استثناء ، ومعنى هذا الغاء التحفظ الاستثنائي الخاص بانتخاب شيوخ

(1) عريضة موجهة الى السادة أعضاء البرلمان من طرف أهالي الجزائر المسلمين ضد التجنيس الشامل لهم . (مشروع قانون ميشلان ، وغولي ، 1887) .

**البلديات ونوابهم ... وباختصار ، اقرار المساواة المطلقة بين أعضاء الهيئات المنتخبة ، مهما كان نوعها .**

**ثالثا : اتخاذ الاجراءات الكفيلة بوضع حدّ لما نعانيه من ضرر ، بسبب تطبيق القوانين الجديدة الخاصة بالقضاء الاسلامي ، عملا بالمرسوم المؤرخ في 10 سبتمبر 1886 (1)**

ولفهم النقطة الأولى من هذا النص ، لابد من أن نضيف بأن الأرقام الرسمية المنشورة يوم تقديم العريضة لم تكن تعطي سوى 79 مدرسة عمومية فرنسية مخصصة للأهالي ، ويتردد عليها 8963 تلميذا من أصل 500.000 من الأطفال البالغين السن المدرسي (2) . ولهذا يحق لنا أن نفترض بأن أصحاب العريضة الذين كانوا فيما يبدو مثقفين على العموم ثقافة عربية بحكم انتمائهم للجيل الأول الطالع بعد الحرب ، قد أرادوا أن يستخلصوا العبرة من قلة المدارس الفرنسية ، فاقترحوا نشر التعليم الأنسب بلغة البلاد . ومما يؤكد هذه النظرية ، ما كتبه في نفس تلك الفترة تقريبا موريس وحل ، وهو من الدعاة المتحمسين لنشر الثقافة الفرنسية في الجزائر . ومع ذلك فإن هذا المؤرخ لم يمنع نفسه من التحامل على بني قومه لكونهم ألغوا التعليم العربي من غير أن يكونوا قادرين على تعويضه بالتعليم الفرنسي العقلاني المعمّم . ولهذا يقول : «أول ما بدأنا به هو القضاء على المسيدات(*) والزوايا الريفية والمدارس العليا وغير ذلك من المعاهد الاسلامية المتواجدة قبيل عام 1830 ... وقد بذلت بعض المحاولات فيما بعد ، ولكنها أعطت نتائج ضعيفة وسلبية أحيانا ...(3) .»

(1) انظر : العريضة السابقة الذكر .

(2) انظر : Les Cahiers du Centenaire : La France et les œuvres indigènes en Algérie.
ويستفاد من هذا المصدر أن عدد التلامذة المسلمين بلغ 3172 عام 1882 ، و 5695 عام 1885 ، و 10.688 عام 1888 .

(*) المسيد : المدرسة الابتدائية . ولعل أصل التسمية «المسجد» ثم استعيض عن الجيم بالياء لخفتها . ومن المعروف أن المسجد كان ـــ ولايزال ـــ مخصصا للعبادة والارشاد والتعليم (المترجم) .

(3) Maurice Wahl: L'Algérie, Ed.Félix Alcan.

ولسنا في حاجة الى التركيز على ما لاحظناه — بعد مضي حوالي ستين سنة على احتلال الجزائر — من بعد شاسع بين الألوف من المدارس العربية التي قضى عليها الاستعمار ، وبين التسعة والسبعين من المدارس المخصصة للجزائريين . فما أبعدنا ، في 1887 ، عن ذلك العهد الذي صرح فيه الجنرال فالازي ، مقرر لجنة افريقيا ، أمام مجلس النواب ، في الجلسة المنعقدة بتاريخ 20 يناير 1834 : «ان جميع العرب تقريبا يعرفون القراءة والكتابة ، ويوجد في كل بلدة مدرستان(49) .» وهكذا فإن أصحاب العريضة القسنطينية لم يكونوا يطالبون — من أجل معالجة هذه الحالة المتدهورة — الا باعادة الأمور الى ما كانت عليه قبيل الاحتلال .

## دور النخبة القسنطينية في النضال

اننا لا نغالي اذا قلنا بأن الحالة كانت متدهورة . ولكن الأمر لم يكن منحصرا في التعليم . فالتدهور موجود في سائر المجالات ، سواء في الملكية الفردية والجماعية أو النقابات المهنية (التي ألغيت في 1868) أو في المؤسسات، أو في العقليات . ولم يكن هذا الأمر يخفى على ذوي الفكر النير من الجزائريين . وبالفعل فإن الرعيل الأخير من رجال الفكر القسنطينيين هبّ للنضال كي يطالب بتغيير هذا الوضع . والحقيقة أن أصحاب العريضة ينتمون الى مختلف الأوساط الاجتماعية ، ما بين مستشارين بلديين ، ورجال إفتاء ، وأعضاء في مجلس التحكيم (البرودوم) ، ومستخدمين ، ورجال صناعة . كما يوجد بينهم أساتذة ، ونخص بالذكر منهم شخصين هما من رجال الفكر ، وشهرتهما غير محصورة في منطقة قسنطينة ، ونعني بهما الشيخ عبد القادر المجاوي الذي عمل على التوالي أستاذا في مدرسة قسنطينة ومدرسة الجزائر . والشيخ

(1) A. guilbert: Colonisation du nord de l'Afriaue (notes annexes)

حمدان الونيسي الذي تتلمذ عليه الشيخ ابن باديس ، مؤسس جمعية العلماء .

واذا نظرنا الى الوضع الثقافي المتدهور في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر ، فإن هذين الرجلين يمكن أن يعتبرا من الرواد العاملين للنهوض بالثقافة العربية . ولذا ، فإن وجود اسميهما أسفل العريضة القسنطينية لا يدع مجالا للشك فيما يخص أصحاب المبادرة . فنحن على يقين بأنهما توليا صياغتها . ومن المعروف أن الدفاع عن اللغة العربية والشريعة الاسلامية من النقاط البارزة التي سجلها رجال جمعية العلماء فيما بعد في برنامج نضالهم . ومما تجدر الاشارة اليه أن الشيخ ابن باديس لم يكن فيما يخص أصول الفقه يشاطر في جميع الأفكار أستاذه الذي كان متمسكا بالقديم ومتحفظا بالنسبة للحركة «السلفية» . وعلى النقيض من هذا ، فإن دروس الشيخ حمدان الونيسي مكّنت ابن باديس من التحصيل الأساسي في الثقافة والعلوم ، وأهّلته لاستكمال تكوينه في الزيتونة ، ثم في الأزهر .

## دور جمعية العلماء في النضال

ومما لاشك فيه أن المثل الأعلى الذي سعت اليه جمعية العلماء ، مثل نادى به الرواد من قبل ، وهو متأثر بالسياسة ومستمد من المبادىء التي نادت بها النخبة المثقفة القسنطينية في 1887 . ففي ذلك الوقت برز تراث قومي ذو طابع ثقافي وسياسي معا ، فترعرع في وسط متمسك بلغته ، حريص على مقوّمات المجتمع الأساسية ، ومصر كل الاصرار على مطالبة فرنسا باحترام ما تعهدت به عندما استولت على مدينة الجزائر . ولئن كان العمل الذي قامت به جمعية العلماء بعد ذلك التاريخ بأربعين عاما ، أقل انسجاما ، بسبب الأحداث الطارئة التي جعلت المجتمع الأهلي يتقهقر ويفقد خصائصه القومية ، فإن هذا العمل

يعد رغم ذلك استمرارا أمينا للجهود التي بذلها رواد النهضة في حوالي 1887 . فعملهم اذن كان منصبّا على تحقيق ما كان قائما من قبل الى أن جاء الاحتلال ، فحطمه وقضى عليه .

على أن جمعية العلماء لم يكن برنامجها يشمل جميع القيم التي كان من المفروض أن تعمل على احيائها وتجديدها . فقد اقتصر عملها على الصعيدين الثقافي والديني ، ونظرت الى الأوضاع الاجتماعية نظرة سطحية ، وطرحت المشكلة السياسية بكيفية غير سديدة . ولعل السبب في ذلك أن التراث السياسي الثقافي الذي تولّى الرعيل الأخير من النخبة المثقفة القسنطينية في 1887 ، نقله الى الخلف في خطوطه العامة ، قد انشق أو يكاد عندما انتقل الى جمعية العلماء التي خففت أو أهملت جوانبه السياسية الصرفة ، وركّزت على جوانبه التربوية (نشر اللغة العربية) والروحية (محاربة العقلية الخرافية التي يروّجها المرابطون ، والمطالبة بفصل الدين عن الدولة) ، والتشريعية (العمل من أجل استقلال القضاء الاسلامي الأصيل) . ولكن هذا كله ان هو في الواقع الا نوع من المحاولات لاصلاح ما أفسده الدهر ، وشكل من أشكال النزعة المحافظة المتنكرة في ثوب جديد ، لأن هذا البرنامج في الحقيقة لايزال مفتقرا للثقافة الصحيحة المنشودة .

وبينما كانت جمعية العلماء بين 1930 و 1938 تقوم ، بقيادة الشيخ ابن باديس بنهضة ثقافية متعددة الجوانب ، وبثورة لرفع مستوى الأخلاق والسلوك ، فإن المستشارين العامين والبلديين ، المنضمّين الى فيدرالية منتخبي قسنطينة ، كانوا من جهتهم مهتمين بالمشكلة السياسية التي طرحوها على صعيد المطالبة بحقوق لا تهمّ الشعب من قريب ولا بعيد . وما لبث الموقف أن اتضح بقطع أحد الفريقين الصلة بالماضي ، مما جعل سعيه عديم الجدوى . فرجال جمعية العلماء والمستشارون العامون

القسنطينيون ساروا في الفترة ما بين 1936 و 1938 على منوال الرعيل الأخير من المثقفين والبرجوازيين ، أصحاب عريضة 1887 . ولكن موقف الفريق الأول أخذ خلال الخمسين سنة الفاصلة بين 1887 و 1938 ، أخذ يتطور في الاتجاه القومي الى حد ما ، وفي منحى الثقافة العربية الاسلامية ، وكان حريصا على صيانة القيم الثقافية والدينية الخاصة بالمجتمع الجزائري مع السير بهذا المجتمع في الاتجاه العصري (1) المتمثل في الحركة السلفية التي تزعمها الشيخ عبده . أما الفريق الآخر الذي كان متأثرا بالثقافة الفرنسية ، وتنصّل من الثقافة الوطنية ، وقطع الصلة بالتراث ، واعتنق بعض الأفكار الخيالية ، فقد أراد أن يحقق ما يشبه المستحيل لينهج بالشعب نحو التقدم سبلا أخرى غير معتادة ، من غير أن يعتمد على المقومات الأساسية لكل مجتمع بشرى ، كاللغة والعامل الاقتصادي ، وغير ذلك من العوامل الأخرى .

ان «المنتخبين الموالين لفرنسا» ـــ مع العلم بأن هذا الولاء صورى ومتجرد من كل عاطفة ، لأن القضية بالنسبة اليهم لا تتعلق بحب الفرنسيين أو الحقد عليهم ، خاصة وأن المستوطنين منهم في الجزائر لا يمثلون تمثيلا صحيحا القيم الفرنسية ـــ ان هؤلاء المنتخبين كانوا من دعاة الاندماج ، وكانوا يطالبون باعطاء الجنسية الفرنسية للجزائريين كدواء ناجع لجميع الأمراض التي يعانيها الشعب . وكان معظمهم يؤيدون بكل اخلاص سياسة الجبهة الشعبية le Front populaire وما وعدت به الجزائريين ، ولكن غفلتهم ، وافتقارهم لفهم الحالة السائدة في البلاد ، وطريقتهم العقيمة في تذكير فرنسا على الدوام بتقاليدها الثورية والجمهورية

---

(1) إنّ هذا الاتجاه العصري ، وإن كان هدفه من حيث المبدأ هو تجديد التراث الثقافي ، الا انه مع ذلك لم يستطع أن يجدد في مجال الفكر والعلوم ، رغم ادعائه بأنه يعمل من أجل احيائهما واثرائهما بالفكر والعلوم العصرية . والحقيقة أن أصحاب هذا الاتجاه عجزوا عن استيعاب الفكر المعاصر ، وظلوا مبهورين بالصفاء المتمثل في السلف الصالح وبجانبه الاخلاقي دون الجوانب الاخرى .

العظيمة(ثورة 1789 و 1848) ، كل ذلك أفقدهم ثقة الشعب . أضف الى ذلك أننا ، اذا استثنينا الجبهة الشعبية ، فان رجال الحكم والمعمرين كانوا منزعجين من نشاط جمعية العلماء بدعوى أنه موجه ضد الثقافة والمؤسسات الفرنسية ، وكانوا يعملون كل ما في وسعهم لتثبيط عزيمة المنتخبين والمؤيدين لهم من المثقفين والبرجوازيين الصغار ، وغير هؤلاء من دعاة الاندماج . وبعبارة أخرى فان الحكام الفرنسيين ، مثلما قاوموا الاتجاه القومي الجزائري ، كذلك نظروا بعين الاحتقار الى الاتجاهات الموالية لهم .

وبالمقارنة مع جمود المرابطين والطرقيين الذين حاولت الادارة الفرنسية عبثا أن تعتمد عليهم لتنويم العقول ، فإن هذه المثل العليا المستمدة من المشرق العربي ، حيث نشأ اتجاه سلفي ، علمي وعقلاني ، كان لها أثر كبير بحكم جدتها وصدق رجالها .ومن الجدير بالذكر أيضا أن المنتخبين الحكومين لم يكن لهم أي اتجاه ولا أي اختيار ، وبالتالي ، فلم يكن لهم شأن لدى عامة الناس . ولئن انضموا الى ما أسميناه «السياسة الموالية لفرنسا» (وهو ولاء صوري متجرد من العاطفة) ، فإن ذلك ليس ناتجا عن موقف المجابهة لثقافة ما ، أو للمقتضيات القومية التي لا يعرفون منها الا الشيء القليل . وهكذا فإن كل فريق اتجه الى ما هو مألوف لديه .

وهذا الأمر يصدق الى حد ما على رجال جمعية العلماء أيضا . ولكن هؤلاء حاولوا أن يختاروا الاختيار الأنسب . ولنا في الموقف العصري الذي وقفه الشيخ عبد الحميد بن باديس أكبر دليل على ذلك . على أن جمعية العلماء ، رغم أنها عززت مواقفها الثقافية ، الا أنها أخذت بعد وفاة رئيسها تفقد قدرا كبيرا من نفوذها السياسي . ويرجع ذلك الى رجالها المتفاوتين في الكفاءة ، والى بعض الأخطاء التي ارتكبوها ، وأحيانا الى فقدان روح المصالحة لديهم وافتقارهم الى الواقعية ، مما أبعد الشقة

ان هذا المجتمع المقهور ، والمتعرض للسلب والنهب ، كان أمره في 1920 قد آل الى الانحطاط نهائيا ، وما كان في مقدور الأمير خالد أن يطالب من أجله الا بقليل من العدل وبعض الاصلاحات التي قد تنقذه من الهلاك . وبعبارة أخرى ، فإن الظروف البائسة التي كان يعيش فيها الشعب الجزائري ، وغياب حركة قومية منظمة ، هي التي أملت على الأمير خالد ، الطالع هو بالذات من هذا الشعب البائس المقهور ، أملت عليه هذه السياسة «الفاترة» نسبيا .

وهكذا فإن جذوة المقاومة انطفأت في الأرياف ، من حيث الظاهر على الأقل . وأما في المدن ، فلم يبق مجال للعمل السياسي الا للأعيان والمثقفين البرجوازيين ، وعدد هؤلاء قليل . وهم أنانيون ، ومرتبطون مع الادارة الاستعمارية بمصالح مشتركة وببعض الامتيازات ، وجبناء ، وقليلا ما يتذكرون الصفحات المجيدة من الكفاح القومي . ولهذا فليس من المستغرب أن يخونوا العهد الذي قطعوه للأمير خالد ، مما جعله يتحامل بشدة عليهم ويقول عنهم في رسالة بعث بها الى صديقه الحميم فيكتور سبيلمان : «ان النخاسين (تجار العبيد) يتحكمون تحكما مطلقا في الجزائر منذ 95 سنة . ولا ننس أن جيل المثقفين الحالي ولد في ظل الحكم الاستعماري وتربّى على يد أسياده الذين لقّنوه مبادىء الطاعة العمياء . أما الثلة القليلة من الجزائريين الأحرار ، فقد تكونوا وتربوا على طريقة أخرى غير الطريقة المتبعة في هذا البلد المستعبد . ولكن ، للأسف الشديد ، ليس لهؤلاء ــ وأنا وأنت منهم ــ وسائل الكفاح ضد جيش الرأسماليين والمعمرين الكبار الذين بيدهم المال والقوة والسلطة» . وبما أن فيكتور سبيلمان ، الذي كان من أبرز الكتّاب الفرنسيين ، قد شارك معه في الكفاح ضد النظام الاستعماري ، فقد نوّه به الأمير خالد بالعبارات التالية : «انه ، لوحده ، يساوي البرجوازيين الأهليين كلهم ،

على ما فيهم من جبن وعدم اكتراث بحالة البلاد» . وهكذا نرى بأن الأمير كان يخاطب فرنسا بأسلوب جديد نسبيا . وبما أنه بقي وحيدا في الميدان ، فإن صيحته المدوية بقيت صيحة في واد .

وقد ظل الأمير خالد ، قبل أن تنفيه الحكومة الفرنسية عام 1926 ، وحتى أثناء نفيه ، يواصل الكفاح السياسي على كل الجبهات : ضد الحكم البوليسي ، وضد الاقطاعيين والمعمرين ، وضد المغتصبين لأراضي الفلاحين . والشيء المؤكد على أية حال ، أن عمله السياسي المنحصر في المطالبة بالحقوق ، بعيد كل البعد عن الفكرة القومية التي كانت لاتزال مبهمة ، بل يعتبر عمله ارهاصا بحركة المنتخبين القسنطينيين والمؤتمر الاسلامي المؤيد لفكرة الاندماج . ولم يلق الأمير خالد آذانا صاغية لدى الجماهير لأن ساعة الكفاح لم تدق بالنسبة اليها ، ولأنها غير منظمة ، ولأنها واقعة تحت تأثير مراقبة بوليسية شديدة . وربما كانت أيضا متحفّظة تجاه مبادىء سياسية لا تهمها من قريب أو بعيد . على أن الأمير خالدا كان يعقد عليها آمالا كبرى ، مما جعله يتحدث عن «الضغط الارهابي» الذي تمارسه الادارة الاستعمارية عليها ، ويقول : «ان الارهاب هو العذر المقبول للجمود الذي آلت اليه الجماهير الواقعة تحت نير الاضطهاد . ولكن هذه الجماهير المنكوبة بالجهل ، والقائمة اليوم بدور سلبي ، هي التي ستعمل في المستقبل القريب من أجل تحرير نفسها ...»

### نشاط الحركة القومية في باريس

وصدقت نبوءة الأمير خالد . وذلك أنه ما كاد يخرج من الميدان السياسي الى المنفى حتى ظهر «نجم الشمال الافريقي» ، وكان ميلاده في باريس بين أوساط العمال . ويهمنا أن نستعرض تاريخه لكي نفهم نشوء الحركة القومية الحالية وبروز الطبقات الشعبية من جديد

على صعيد العمل القومي : فلأول مرة في القرن العشرين أخذت الجماهير الجزائرية تتحرك . وذلك أن البرجوازيين المثقفين والأعيان الليبراليين (أصحاب العريضة القسنطينية لعام 1887 ، وحركة الأمير خالد ، وابن رحال) هم الذين تولّوا قيادة النضال السياسي ، وشاركوا فيه على الصعيد النظري . ولأول مرة أيضا وثبت جماهير المغتربين الجزائريين في فرنسا وثبة كبرى في مسيرة الحركة القومية ، وان كانت غير موفقة ، وأعربت عن تمسكها بمبادىء تلك الحركة .

أما اللسان المعبر عن «نجم الشمال الافريقي» فهو جريدة «الأمة» . وقد كان لاختيار مقرّ المنظمة في باريس — حيث تتوفر الحرية أكثر من الجزائر ، وحيث يتيسّر التقاط الأخبار من مختلف أرجاء العالم — كان لهذا الاختيار أثر بالغ ، لأنه جعل من «نجم الشمال الافريقي» حركة ضمت عدة اتجاهات وايديولوجيات ، أو بالأحرى مزيجا من اثنين أو ثلاثة من الايديولوجيات : قشور الماركسية ، والوطنية الجزائرية القائمة على العاطفة والمتميزة بالحنين الى البلاد ، والاتجاه الاسلامي السطحي . على أن هذه الحركة الجماهيرية سرعان ما اتسع نطاقها ، ولو أتيحت لها قيادة رشيدة ، وبقيت على عهد الوفاء لجذورها العمالية ، وتمسّكت بمبدأ واحد هو مبدأ الكفاح ، لأصبحت منذ بداية أمرها وسيلة ناجعة من وسائل العمل السياسي . والذي لاشك فيه أنها برهنت بكل وضوح وبمنتهى القوة عن تضامنها مع جميع الشعوب المضطهدة ، وخاصة منها الشعوب الاسلامية ، وأنها كانت دائما في طليعة الكفاح ضد الاستعمار . وهكذا فإن نجم الشمال الافريقي أخذ رغم الاضطهاد ، يتعزز يوما بعد يوم بين 1925 و 1933 ، ويعالج نقائصه ويحدّد أهدافه . ومن ذلك أن الجمعية العامة للحركة وضعت في 1933 ، برنامجا سياسيا أدرجت فيه بعض المبادىء القومية ، مثل الاستقلال التام

للجزائر ، وانتخاب جمعية تأسيسية ذات سيادة عن طريق الانتخاب العام . ومن الغريب أن هذه المبادىء المتطرفة اقترنت بمبادىء أخرى فاترة ، كالمطالبة بالاصلاحات الفورية .

وهكذا ، فالأمير خالد ، باعتبار أنه من أصل برجوازي ، ومن ذوي الثقافة الفرنسية ، لم يستطع أن يضم الى صفه الجماهير الشعبية الساكنة في المدن ، والتي تسلط عليها الاستعمار بالقوانين الجائرة (الانديجينا) وبالاضطهاد الغاشم ، فأخفق في مسعاه ، رغم مضي خمس وثلاثين سنة على تقديم عريضة المثقفين في 1887 ، يوم أن كان عدد سكان المدن قليلا بالمقارنة مع عددهم في العشرينات . ولئن فشل الأمير خالد ، فإن قادة آخرين من أبناء الشعب ، ومن الطبقة الكادحة ، استطاعوا أن يضموا الى صفهم تلك الجماهير ، ولكن لا في الجزائر ، بل في باريس ، حيث يتوفر جو من الحرية ومن الغليان السياسي . وقد أخذت الحركة القومية في بدايتها تبحث بطريقة مستعجلة محمومة عن طريقها ، فلا تدري ماذا تختار من المذاهب المنتشرة آنذاك . والحقيقة أن هؤلاء القادة ناقصون من حيث التكوين السياسي ، وليس لهم من دور سوى تحريك المناضلين التابعين لهم ودفعهم للعمل باثارة الوطنية التي ، وان كانت عاطفية ساذجة ، الا انها على اية حال وطنية صادقة ، ميالة الى اصلاح الأوضاع ، ومتجهة في اكثر الأحيان ، وبكل تصميم وحماس ، نحو العالم الإسلامي المضطهد ، ونحو البلاد العربية المتعرضة للغزو الامبريالي الانجليزي الفرنسي .

وهنا لابد من التصحيح واعادة الأمور الى نصابها فيما يتعلق بما كان للمشرق من تأثير مزعوم على الحركة القومية في شمال افريقيا . ان رجال السياسة المشارقة ، وعلى الأخص السوريين الذين كانت قيادة «نجم الشمال الافريقي» على صلة بهم ، كانوا في حد ذاتهم يواجهون تقريبا نفس الوضعية التي يواجهها رجال السياسة في شمال افريقيا . فسوريا

التي رزحت قرونا عديدة تحت النير العثماني ، والتي كادت نخبتها المثقفة تنقرض في السجون والمشانق التركية ، وظلت تعاني من هذه الوضعية الى غاية 1910 ... سوريا التي كافأها الحلفاء أسوء مكافأة على دورها في الثورة العربية على الأتراك ، أصبحت منذ 1920 خاضعة لحكم لا يقل استبدادا عن حكم الأتراك . وكما قال لوثروب ستودار في كتابه (العالم الاسلامي الجديد le Nouveau monde de l'Islam) : «أراد الفرنسيون فرض انتدابهم فلجأوا الى القوة الغاشمة . وكان لهم آنذاك ، أي في 1920 ، ما يقرب من 100.000 من الجنود ، تحت أوامر الجنرال غورو ، وهو من أساطين الحروب الاستعمارية ، ومن أنصار الأساليب الخشنة ... وقد حاولت فرنسا أن تقضي بمنتهى الشدة على كل معارضة ، وفرضت على دمشق مساهمة مالية في تكاليف الحرب قدرها 10 ملايين فرنك ، وزجّت بالعديد من الزعماء القوميين في السجون ، واعدمت البعض رميا بالرصاص ، وأعلن الجنرال غورو بأن اغتيال فرنسي واحد سوف تعقبه أعمال انتقامية رهيبة ، أي القنبلة بالطائرات» .

وهكذا فإن الزعماء السوريين المتواجدين في المنفى بباريس أو جنيف ، كالجابري ، وشكيب أرسلان وغيرهما ، والذين كان الكثير منهم محكوما عليهم بالاعدام من طرف الأتراك ، كانوا هم أيضا يتعرضون في ديار المنفى للمطاردة والمضايقة ، ولهذا فإن علاقاتهم مع زعماء شمال افريقيا لا يمكن أن تكون الا من نوع علاقات التعاطف والتجاوب في الشعور القومي ، وهذا بحكم الظروف المتشابهة في معاناة الظلم والنفي والاغتراب .

## انتقال الحركة القومية الى أرض الوطن

إن الحركة القومية المتمثلة في حزب الشعب الجزائري (ح.ش.ج) ، منذ أن خرجت من باريس لتستقر في الجزائر ، أخذت ابتداء من صيف

عام 1937 تصحح مسيرتها في مختلف أطوار نموها . وهكذا فإن ح.ش.ج عمل على تركيز دعائم الحركة القومية في المدن . ومن مآثر هذه الحركة : روح النضال ، والرجولة ، والشجاعة في القول والعمل (وهي صفة مفقودة من قبل) ، والصلابة في المبادىء الثورية ... و من نقائصها : افتقارها للثقافة ، والارتجال في التصرف ، وفقدان مذهب متين . ثم تفاقمت نقائصها بظهور الغوغائية والميول البرجوازية ، والتدين كخطة في العمل السياسي .

وبينما ظل حزب الشعب الجزائري قانعا بكونه رائد الفكرة القومية وصاحبها (وقوام هذه الفكرة : الاعتراف بالأمة الجزائرية ، والحصول على الاستقلال) ، فإن الحزب الآخر الداعي الى اصلاح الأوضاع توصّل من جهته تدريجيا الى نفس المبدأ القومي ، بعد أن مرّ بأطوار من العمل السياسي الدائب والمتناقض أحيانا . فالسيد فرحات عباس ، رغم ثقافته السياسية النزيهة ، وما يتحلّى به من حب للنضال (وهي صفة يخفف من حدّتها لديه ميله للتوفيق بين الآراء المتعارضة) ، قد بقي سنوات عديدة يعمل في عكس الاتجاه العام . انه ظل يبحث ــ بكل اخلاص حسبما قال ، ولكن عبثا ــ ظل يبحث عن الأمة الجزائرية أين يجدها . وقد كتب يقول في شرح الأسباب الداعية لنشوء حزبه (حزب البيان) الذي يعتبر منعطفا في تطور الوعي القومي لدى الطبقة البرجوازية الصغرى والكبرى ، ولدى فئة من النخبة المثقفة ... كتب يقول معترفا لحزب الشعب الجزائري بالريادة في الحركة القومية ، ومؤكدا بأن ح.ش.ج. قد شخّص «المثل الأعلى الكامن في النفوس مند القديم ، وهو نفس المثل الأعلى الذي أخذ حزبنا اليوم يقترب منه» . وبنفس هذه الصراحة تحدّث عن الاندماج الذي كان من قبل يطالب به : «لقد تبيّن اليوم للجميع بأن سياسة الاندماج أمر مستحيل وعمل خطير مدبّر لخدمة

الاستعمار» . ويقول فرحات عباس في نهاية «البيان» : «الجنسية الجزائرية والمواطنة الجزائرية هما وحدهما الكفيلان بضمان الأمن للجزائري ، وايجاد حل منطقي واضح لمشكلة تقدّمه » .

ان حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (ت.د.ب.ج) ، قبل انضمامه الى جبهة التحرير الوطني ، كان له أثر عميق على الطبقة البرجوازية والصغرى المتمثلة في الاطارات المثقفة من ذوي المهن الحرة ، وفي الأعيان وأشباه الأعيان وفي التجار والمأمورين والموظفين . وكذلك فإن حزب البيان جمع بين صفوفه كثيرا من أبناء الشعب . ولكن هؤلاء لم يكونوا ، لا من حيث المسؤولية ولا من حيث العدد ، يمثلون القسم الأكبر والأنشط من الحزب . ولقد كشفت السياسة التي سار عليها فرحات عباس في وقت من الأوقات عن رغبة الزعماء الجزائريين المعتدلين في اعطاء الصبغة الشعبية لحركتهم ، وجعلها متغلغلة في أوساط الجماهير . ومما قيل في هذا المجال أن فرحات عباس ، لدى التوقيع على البيان في بداية عام 1943 ، أراد أن يبعث الحياة في «فيدرالية المنتخبين» وأن يتعاون مع المندوبين الماليين (الحكوميين) ، وأن يضم الى صفه بعض الشخصيات ، وأن يحصر عمله في الأوساط البرجوازية وحدها من غير أن يستعين بالمنظمات الشعبية . على أن فرحات عباس ، بعدما خذله المنتخبون الحكوميون (رغم أنهم وقعوا على البيان) ، وبعدما أصدر الجنرال كاترو في 23 سبتمبر 1943 قرار الغاء الفرع المختص بالأهالي في المندوبيات المالية ، بايعاز من المعمرين الكبار ، وبعدما فرضت عليه هو بالذات (أي فرحات عباس) الاقامة الجبرية ، أحسّ بالعزلة السياسية وأخذ يبحث عن أنصار أكثر اخلاصا ونشاطا وأوفر عددا ، فاتجه الى الجماهير الشعبية . ولئن كانت العلاقات موجودة الى حد ما بين هذا الزعيم المعتدل وبين زعيم حزب الشعب الجزائري ،

فإن القطيعة كانت تامة بينه وبين مناضلي هذا الحزب وأنصاره . واستمر هذا الوضع الى شهر يناير 1945 عندما نشأت حركة «أحباب البيان والحرية» التي كانت — لفترة قصيرة ويا للأسف — رمزا للتجاوب مع الشعب والاتحاد بين الحزبين .

أما جمعية العلماء ، فإن مذهبها الذي اختمر في الأوساط البرجوازية المثقفة لقسنطينة وضواحيها ، قد انتقل بعد ذلك الى الجماهير الحضرية القليلة العدد ، وعلى الأخص منها تلك التي لم تتأثر تأثرا مباشرا بالنشاط الحزبي القومي . وكذلك فقد انتقل الى بعض الأوساط الريفية التي تخلصت من سيطرة المرابطين في المناطق القليلة ذات البنية الاجتماعية والاقتصادية السليمة . وفي مقابل هذا الرجوع الى القاعدة الشعبية ، فقد لوحظ رجوع آخر أوضح وأكثر بروزا لدى حزب الشعب الجزائري الذي تحوّل فأصبح يسمى حزب «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» ، وآل به الأمر في الأخير الى «جبهة التحرير الوطني» .

وكما سبق القول ، فإن التيار القومي المنبثق من «نجم الشمال الافريقي» ، كان منذ 1925 يتألف أساسا من الطبقة الكادحة ، وكانت نشأته الأولى غير منسجمة أحيانا . وبقي حزب الشعب الجزائري الذي حلّ محله في 1937 يسير على نفس المنوال ، ثم أخذ خطه يتصاعد ، وان كان هذا التحول لا يدل على التخلّي عن خصائصه الأولى . ان حزب الشعب الجزائري ، عندما انتقل من فرنسا الى الجزائر ، استطاع أن يضم الى صفه بعض الأفراد من البرجوازية الصغرى ومن المثقفين ، ثم استفاد من فشل مؤتمر العلماء المسلمين ورجال السياسة بين 1936 و 1938 ، ومن فشل المشروع الاندماجي ، أي مشروع بلوم — فيوليت (وهو الحزب الوحيد الذي تصدّى لمقاومته) ، وبذلك

كسب قبيل الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة ، مزيدا من الثقة لدى بعض الأوساط من المجتمع .

ان حلّ الحزب من طرف الادارة الاستعمارية ، واضطراره بعد حلّه للقيام بالنشاط السري ، والغليان السياسي الذي عرفته الجزائر بين 1943 و 1947 ، كل ذلك كان من نتائجه أن انضم الى ح.ش.ج. ثم الى حزب ح.ن.ح.د. عدد لا يستهان به من البرجوازيين ، وعلى الأخص البرجوازيين الصغار الآخذين بأسباب التقدم . هذا ، فضلا عن الاقبال الكبير من طرف الجماهير الشعبية والشبيبة المثقفة العاملة . ففي ذلك الحين ، أي في 1943 ، والى حدما في 1946 ، بل وفي أيامنا هذه أيضا ، فإن المعتدلين والمنتخبين الحكوميين ، ساروا خطوات الى الأمام ، بل أصبحوا يتخذون مواقف قريبة من مواقف القوميين الطلائعيين . ولكن السياسة الانتخابية (أي قرار الأحزاب القومية الممزقة الشمل ، بالمشاركة في الانتخابات الحكومية ، مع العلم بأن هذه الانتخابات كانت تجري في جو من الاضطهاد والتزوير والقهر وترجيح كفّة الأعيان الحكوميين) هذه السياسة جعلت هؤلاء الجبناء يولّون الأدبار الى «مواقف جاهزة» أي الى الكراسي التي أعدتها لهم الادارة الاستعمارية في المجلس الجزائري ، وينغمسون في عقلية رجعية قائمة على بيع الضمائر وشرائها .

ومهما يكن من أمر ، فالشعب مدرك تمام الادراك لمصلحته ولواقعه الحقيقي، وما هو الاتجاه السياسي الصحيح . ولاشك أن الحركة القومية تأثرت بهذه العوامل ، فمن العبث اذن أن يتجاهل المرء هذه الحقيقة . وأكبر دليل على ذلك ، النجاح الذي أحرزته جبهة التحرير بالتفاف الشعب حولها .

ان كل حزب من الأحزاب الجزائرية كانت له عيوبه ونقائصه ... فقد مرت جمعية العلماء بفترات كان فيها عملها عقيما . وحزب

(ح.ن.ح.د) عندما ركّز عمله في وقت من الأوقات على المطالبة بما يسمى «الشرعية» ، وهو مبدأ كان معظم المستوطنين الفرنسيين لا يقرون به لأنهم يرفضون تطبيقه على الجزائريين ، هذا الحزب أفضى به موقفه الى بعض التناقضات ، وخاصة على صعيد تمثيله للشعب الجزائري في البرلمان الفرنسي . وقد تميزت أساليبه بعدم المهارة ، وكشف رجاله عن افتقارهم للدهاء السياسي ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يخلق نوعا من الرأي العام ، وهذا أمر قلما نجده في تاريخ الجزائر المعاصر . ان فقدان مذهب عقائدي قادر على تحديد جوانب الحياة السياسية وآفاق المستقبل ، قد ظل مدة طويلة يعطل نشاط حزب (ح.ن.ح.د) ويحول دون تجديد القيادة . ولم تستطع بعض الأفكار الهامة الدينامية الليبرالية التي ظهرت أن تسدّ النقص من هذه الناحية الا قبيل اندلاع الثورة بقليل . وأود أن أشير على الخصوص الى دراسة موضوعة على شكل برنامج عمل ، ومنشورة في أحد الأعداد الأخيرة من جريدة «الأمة الجزائرية la Nation algerienne بتاريخ 8 أكتوبر 1954 ، وتحت عنوان «المبادىء التوجيهية لكفاح الحركة القومية الجزائرية» .

ان هذه الدراسة النظرية التي ظهرت بعدما فات الأوان ــ لأن الحركة قررت أن تستعيض عن الأقوال بالأعمال ــ قد أوردت الخطوط البارزة لهذا المذهب ، من غير أن تقع في ما كان يقع فيه بعض رجال القيادة من استعمال للأسلوب العاطفي المتنطع . ففي هذه الدراسة تمييز واضح بين «القومية الغربية الهادفة أساسا الى اضطهاد الشعوب» وبين «القومية المحررة للشعوب المضطهدة» . وفيها أيضا شرح لموقف القومية الجزائرية من مشكلة العنصرية ، وهو موقف الادانة ، لما فيها من رجعية ونزعة عدوانية واحتقار للانسان . وفيها أيضا شرح لموقف الحركة من الدين «الذي يقوم بدور ثانوي» ، لأن «المواجهة لم تعد كما كانت في

الماضي بين المسلم والمسيحي ، بل أصبحت بين المستعمر والمستعمر» ، ولأن «الجزائري يميز تمييزا واضحا بين الشعور القومي والشعور الديني ، بمعنى أنه قبل كل شيء جزائري ، أي ابن الأمة الجزائرية وحامي ذمارها ، وأن جزائريته هذه ليست مشتقة من الدين ولا مشتقة من العنصرية» .

ومما تعرضت له هذه الدراسة أيضا ، موقف القومية الجزائرية من الأقلية الأوربية التي «لا يفكر أحد في انكار حقّها لكي تعيش وتعمل في جو من الأمن والطمأنينة» في الجزائر «من غير أن يؤدي هذا الأمر الى الاعتراف لها بالتفوق أو ببعض الامتيازات الموروثة من عهد الاستعمار» . ومما جاء في هذا الصدد : «اننا نقول ، بناء على المبادىء المعمول بها في معظم البلدان ، وطبقا لما حكم به التاريخ ، نقول أن هؤلاء الأجانب من ذوي الأصل الأوربي ومن الجنسية الفرنسية ، سوف يتمتعون بالجنسية الجزائرية اذا ما اندمجوا في المجتمع القومي وانصاعوا لقوانين الدولة الجزائرية وساهموا في إعدادها وعملوا من أجل تشييد صرح الأمة الجزائرية وازدهارها وبذلوا كل ما في وسعهم لبلوغ هذه الغاية» . وأخيرا ، فإن هذه الدراسة تنتهي بعرض «المبدأ الثاني من مبادىء العمل» الذي يسعى اليه حزب ح.ن.ح.د ، وهو مبدأ الديمقراطية : »ان الديمقراطية المستهدفة هي قبل كل شيء الديمقراطية على الصعيد السياسي ومساهمة الشعب بأكمله في حكم البلاد وفي تسيير شؤونها مركزيا ومحليا ، ومراقبته الدائمة من أجل احترام الحريات الأساسية ... وبما أن القهر والاضطهاد من خصائص الشعوب التي تكثر فيها الآفات الاجتماعية ، لذلك فإن الديمقراطية من الأهداف التي نسعى الى تحقيقها على الصعيد الاجتماعي ، من أجل اقامة حكم عادل » . ان هذه المقتطفات التي استشهدنا بها تعبر في الحقيقة عما آل اليه هذا الحزب من عجز في النهوض بالمسؤولية القومية ، فما كان منه الا أن أخذ ينادي بالمثل العليا ، بعدما انقطعت صلته بالجماهير .

ولقد حاول أحد الاتجاهين اللذين ظهرا بعد انشقاق حزب ح.ن.ح.د في الصيف من عام 1954 ، حاول أن يسير بقسم من الحزب في طريق الواقع القومي ، وأن ينتهج أسلوب الفعالية . ولكن هذه المحاولة جاءت بعد فوات الأوان ، لأن الرأي العام الجزائري كان ينتظر شيئا آخر ينسجم مع الكفاح المغربي بأكمله . أما الاستعمار الذي اعتاد أن يبتهج بكل خبر يتعلق بالانشقاق ، فقد صفّق لهذا الانقسام ، ولكن غاب عنه أن تطوّر الحركة القومية الجزائرية ونشاطها المتزايد سيكون لهما أبلغ الأثر في تقوية ارادة الكفاح لدى المناضلين ، وخلق الدعم المادي والمعنوي لهذا الكفاح لدى الشعب . وقد أفضت الأمور الى حرمان الأحزاب من «الشرعية» من طرف الاستعمار ، فأصبحت حبيسة الحكم التعسفي . كما أن الجماهير الحضرية التي تقع عليها تقريبا كل المسؤولية في تنظيم وتسيير الأحزاب القومية ، أصبح عملها عديم الفائدة . وفضلا عن هذا ، فإن الوضعية العامة السائدة في البلاد جعلت الصراع يدور لا بين حزب أو حزبين والحكم الاستعماري ، بل يدور بين الشعب بأكمله وعهد بغيض لا يطاق .

وفي الصيف من عام 1954 ، وكنتيجة لانشقاق في صفوف الحركة القومية ــ وهو انشقاق اطمأنت له نفوس المستعمرين ــ حصل وعي جديد لدى المناضلين الشبان ، فوقعوا أمام ضرورة الاختيار ... ذلك الاختيار الذي أفضى بالبعض منهم الى البحث عن طريق جديد ، طريق الحرية . وكما أن تدخّل الجماهير الحضرية في الحياة السياسية هو الذي مكّن الحركة القومية في الثلاثينات من أن تفيق وتستيقظ ، فكذلك الأمر اليوم مع الجماهير الريفية التي ــ بمساندتها للثورة وتوفير الاطارات الشعبية لها ــ قد مكّنت هذه الحركة من أن يتسع نطاقها ، وأن تتخلص من هيمنة هذا الحزب أو ذاك ، لكي تحقق نوعا من الاجماع

القومي تحت راية جبهة التحرير الوطني . وتحت هذه الراية تلتقي كل الجهود واليها تنصب كل التيارات القومية ، ونحوها تتوارد كل الانطلاقات التي ما انفكت تبرز منذ 125 سنة . أما الأحداث والوقائع التي ترتبت على هذا الاختيار التاريخي ، فمعروفة ، وفيها تكمن عظمة الثورة الجزائرية .

**سبتمبر ــ أكتوبر 1956**

# الفصل السابع

# الخط الثابت في سلوك الاستعمار سياسيا وعسكريا، من 1830 إلى 1960

**«ان المسألة الجزائرية لا تزال معلقة منذ مئة وثلاثين عاماً» (من خطاب للرئيس ديجول بتاريخ 4 نوفمبر 1960)**

## محاولات لتبرير الغزو الفرنسي

جرت العادة أن يلتفت المؤرخون الى الماضي لاقامة الدليل على أن المشكلة الجزائرية مشكلة قديمة. ومع أن الوطنيين الجزائريين يتذرعون دائما بهذه الحجة القوية الدالة على استمرارية كفاحهم، ويستندون اليها للرد على خصومهم، الا أن هذه الحجة لم يقتنع بها الا عدد قليل من الساسة الفرنسيين. فهذه الفكرة لاتخطر ببالهم في أكثر الأحيان الا كصورة غامضة مستمدة من العمل «الروتيني»، والتعصب الأعمى، والحنين الى العهود السالفة. انها صورة تمثل أحيانا بعض النوايا الصادقة، كما تمثل أحيانا أخرى، بعض الخرافات الباطلة حول «مهمة فرنسا التمدينية»، وبعض المحاولات الزائفة لتبرير الغزو الفرنسي. وعلى أية حال، فهذه الفكرة عندما تخطر ببالهم، لا تزيد على كونها ملاحظة

شكلية عابرة . ونحن يهمنا ، بمناسبة الذكرى السادسة لقيام الثورة ، أن نبرز العوامل الثابتة في السياسة الفرنسية الهادفة الى الهدم والتخريب ، وكذلك أسس المذهب العقائدي الرامي الى قتل الانسانية في الانسان الجزائري . فهذه العوامل ملحوظة في الأفعال والأقوال ، وكان لها خلال 130 سنة ، أثر يكاد يكون واحدا في حربين شنّهما الاستعمار ضد الشعب الجزائري . ان التشابه بينهما في بعض النواحي يبعث على الحيرة ، ويدل على وجود نظام يقوم دوما على الاضطهاد والاحتقار والتزوير . وعلى العموم يمكن شرح الأمور كما يلي : فاما أن نفترض بأن النظام الاستعماري لم يتغير من حيث الجوهر ، باستثناء بعض المظاهر الشكلية ، وأن الأساليب التي استعملها ظلت ثابتة كما كانت منذ أكثر من قرن . واما أن نفترض بأن ذلك النظام البائد همّه الوحيد هو النجاح في مسعاه ، ولو بالعودة الى عهود الهمجية ووضع «قواعد سلوك» مزيفة تزييفا مقصودا ، شأن كل الأنظمة الفاشية التي ليس لها من مبدأ سوى القول بأن الغاية تبرر الوسيلة . وسوف نرى فيما يلي كيف أن الاستشهاد بوقائع التاريخ الغابر (الحروب الدينية ، الامبراطورية الرومانية ، الغزوات النورماندية ، حروب نابليون) يعتبر محاولة لتبرير السلوك الاستعماري . ولكنه في الحقيقة أكثر من ذلك : فهو عمل متجرد من القيم التاريخية ، ومتنكر للضمير الانساني ، وقائم كنظام مستبد . ومن جهة أخرى ، فان الالتفات الى الماضي لا يخلو من عزاء للنفس ، ومن تعلّة مما قد نعانيه من أمراض ، ومن أسف أو ندم على ما فات . وعلى أية حال ، فسوف نقوم بدراسة مقارنة بين الوضع السائد في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وبين الوضع السائد حاليا .

وأول ملاحظة تبدو لنا في هذا المجال ، هي أن الجندي الفرنسي ، أو المهاجر الأوربي ، عندما قطع البحر الأبيض المتوسط في 1830 ، قد

أحس ولاشك بنوع من الغربة في أرض الجزائر ، ولكن هذا الاحساس لم يبلغ حدّ الانقطاع التام على مستوى التجربة الحسية المباشرة ، بين تصوره لأنماط الحياة الأهلية ، وبين الحقيقة كما شاهدها . ومما لاشك فيه أن الاختلاف كبير آنذاك بين أوربا ذات التجارة المزدهرة والصناعة الناشئة والبنيات المتطورة باستمرار ، وبين هذه المنطقة الافريقية . ولكن الجزائر لم تكن بلادا همجية متخلّفة بشريا ، ولم تكن ذات مؤسسات ضعيفة تسودها الفوضى ، بل على العكس ... لأن القيم الانسانية والاقتصادية كانت فيها على غاية من النبل والارتفاع . ولئن كانت الحضارة ومعاييرها مختلفة فيها بعض الشيء عما هي عليه في الأقطار الأخرى ، فلا تخلو على أية حال من جوانب تربطها بالشمولية العالمية .

ان الجزائر آنذاك ، سادت فيها أنماط من الحياة العائلية تعتمد على سلطة الأب ، والبداوة والحضارة فيها متواجدتان معا ومتداخلتان في وسط اجتماعي متفتح على أوسع نطاق ، متطور أحيانا ومتخلّف أحيانا أخرى ، يتميز بالجدّ في العمل ، وبأنواع من الصنائع البحرية والحرفية ، وبنشاط يشبه النشاط الصناعي ، وبالخبرة في تخطيط المدن . وكان لهذه البلاد تجارة رائجة مع افريقيا وبلدان البحر الأبيض المتوسط ، وكان لها نظام ، وازدهرت فيها علوم كثيرة كالفقه ، والمنطق الصورى ، والتوحيد القائم على الأدلة العقلية ، والفنون والآداب العربية والمغربية ، ما بين النوع الفصيح والشعبي الدارج ... وكل هذا التراث ، وما يزخر به من عناصر متنوعة ثرية ، قد بلغ مستوى ثقافة أصيلة ومعمّمة في كل أنحاء البلاد عن طريق الكتابة والرواية . واذا أخذنا بعين الاعتبار ما كانت تحفل به الجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر من موارد وامكانيات ، وما يعتمل فيها من حركة قومية وثقافية ، فانه يصح لنا القول بأنه توفّرت فيها عوامل تجعلها أقلّ تخلفا وأكثر استعدادا للرقي ـــ بالمقارنة مع الشعوب

الأخرى المستقلة ـــ ممّا آلت اليه في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما جرّدها الاستعمار من ملايين الهكتارات من أراضيها وغاباتها ومناجمها ، وقضى على حريتها ومؤسساتها ، وبذلك فقدت الدعامة الأساسية لتطور الأمم والشعوب .

ان بعض الاقتصاديين الليبراليين ، مثل لوروا بوليو ، أدّركوا في نهاية القرن التاسع عشر بأن الجزائر ـــ نظرا الى درجة تقدمها ، والى مؤسساتها وتراثها وامكانياتها البشرية ـــ لايمكن أن تعد من البلدان القابلة للاستعمار ، ولا يجوز أن تعتبر لقمة سائغة لنهب أراضيها الزراعية .

## الحرب كوسيلة للتكفير عن الذنوب

أما المعاصرون للغزو الفرنسي ـــ العسكريون منهم والمدنيون ، ممن يعتقد بأن الأقدار أناطت به مهمة تمدينية ، وهي في الحقيقة مهمة ضيقة الأفق وقائمة على أفكار «علمية» زائفة وعلى أغراض تنصيرية ـــ فانهم اتخذوا من الحرب ـــ لما فيهم من هوس واستهتار وسذاجة ـــ اتخذوا منها وسيلة للتكفير عن ذنوبهم ... وهكذا أصبح التخلص من الذنوب عن طريق المشاركة في الحرب ، وسيلة إيديولوجية . على أن هذا الشعور لا يتخذ أحيانا الا كذريعة ، لأن الميل الى العنف سرعان ما يتغلب على هذا الشعور .

وينبغي أن ندرك أيضا بأن هذا التبشير ، وهذه الدعوة التمدينية لم يكن أى منهما يهدف الى خدمة المثل العليا الفرنسية أو العالمية ، بل كان في الغالب يهدف الى خدمة مصالح الأحزاب التي كانت تستمد أفكارها ومبادئها من الأنظمة الجديدة المسماة «برجوازية ذوي الأمخاخ والأفكار» . وباختصار فكل هذا كان مرتبطا بالدعاية التقنولوجية التي بثّها أتباع سان سيمون ، وفوريي ، وآخرون من بقايا

عصر الاشعاع الذين وضعوا برنامجا للتجديد الاقتصادي ، ولانجاز المشاريع الكبرى ، على غرار ما كان يناضل من أجله غيرهم من ذوي الاتجاهات السياسية والاجتماعية الأخرى . ولكن هذه المهمة الخاصة التي اضطلع بها بعض الخبراء ، عندما تنتقل الى بلد متعرض للغزو الاستعماري ، فان الخرافات سرعان ما تتسرب اليها ، فتصبح ذات صبغة قطرية ، بل ذات صبغة قومية ، ولذلك تكون ثمارها في البلد المستعمر أقل من ثمارها في بلد حرّ مستقل . وهذا يعني أن الحرب الاستعمارية عمل سلبي الى أقصى الحدود ، وأن المشاريع التمدينية التي ترافقها لا تخرج أبدا من المجال النظري الى حيّز التطبيق .

ولعله يجدر بنا أن نطّلع على ما كان يكتبه طوال عهد الاحتلال بعض العسكريين والمدنيين ممّن عملوا في حقل التبشير و «الرحمة بالانسان» ، وكيف كانوا يفهمون المقصود بالحرب . فالحرب عندهم هي الوسيلة المثلى لتبليغ الرسالة ولقلب الأوضاع بقصد الخلاص في الدنيا وفي الآخرة ، رغم كل ما يرافقها من مصائب ، بل ربما من أجل تلك المصائب . وفي كل ما كتبوه نوع من الرومانسية ، ومن الأسلوب الحماسي الخطابي ، مع محاولة فاشلة لتبرير السلوك العدواني بمقاصد انسانية ، علما بأن كل الدلائل تكذّبه . وقد يكون هذا التبرير متناقضا أحيانا مع ذاته ، أو مجرّد تبرير شكلي . ومن بين هؤلاء ، الكولونيل لا موريسيير ، وهو من أتباع سان سيمون المتحمسين ، وممّن يمثل النزعة المتشددة في الغزو الفرنسي . وقد كتب يقول في 1834 : «ان الحرب عمل تبشيري ضد قوم لا ينفع معهم الكلام المعقول الا اذا كان معزّزا بالحراب (1) .» ولم يكن وحده من يرى هذا الرأي في صفوف الجيش الفرنسي ، وعلى الأخص في صفوف رفاقه الأقربين في السلاح ، ومن

(1) Marcel Emerit : **les Saint-Simoniens en Algérie,** Ed. 1941, p. 59.

المتخرجين ـــ مثله ـــ من الكلية العسكرية . ويقول مارسيل ايمريت (1) في هذا الصدد : «ان الجماعة التابعة لسان سيمون في الجزائر كانت في 1834 عبارة عن حلقة محصورة العدد من ضبّاط شبان يحبّون الفلسفة والعلوم الانسانية ، ومن عادتهم أثناء أحاديثهم الطويلة في المخيمات العسكرية أن يتبادلوا بعض الأفكار النبيلة ، وأن يعززوا في أنفسهم الشعور بالواجب ، وأن يهدّئوا ما يعتمل في نفس كل محارب من استياء نتيجة للحياة الرتيبة في المخيم ، وللمعارك الضارية » . ولكن هؤلاء الضباط ، وان كانوا يدّعون بأن «الغزو من أقوى الوسائل لادخال أفكار جديدة . الا أنهم لا يريدون اطلاقا أن ينشروا مذهبهم (السان سيموني) في الأوساط العربية» . بل يعتقدون بأن «مجرد التفكير في برنامج كهذا يبعث على الضحك والسخرية» ، وذلك أن «الأمل في نجاح مهمة كهذه لا يراود الا من يعتقد بأنه من الأنبياء المرسلين الى افريقيا . »(2)

والحقيقة أن «الاتجاهات الانسانية» والأفكار «الاشتراكية» الفرنسية على اختلاف أبعادها ومراحل ظهورها بقيت دائما في الجزائر مذهبا نظريا محصورا في «نخبة معينة» ، وعلى الأخص أصحاب السلطة الذين يعتقدون بأنه لا سبيل الى فرض السيطرة أو الرسالة إلّا عن طريق الحرب والاكراه . ان رفاق لاموريسيير في السلاح كانوا في 1834 قد دخلوا في السنة الرابعة من الحرب ، تلك الحرب التي تواصلت فيما بعد طيلة ربع قرن ضد شعب كانت له أهداف واضحة أسمى من أهداف الغزاة ، بل هي أهداف انسانية تتلخص في : الحرية ، والدفاع عن أملاك الشمل ، والقضاء على الاقطاعيات المرتزقة التي أنشأها الغزاة .

---

(1) M. Emerit : **les Saint-Simoniens.**

(2) M. Emerit : **Ibid.**, p. 63.

## المذهب السان سيموني بالجزائر

ومما يدل على علاقة المذهب السان سيموني بالغزو الاستعمارى أن آنفانتان بالذات ، وهو المعلّم الأكبر لهذا المذهب ، جاء الى الجزائر في 1840 ، وحصل على امتياز خاص لكي يتابع عن قرب العمليات العسكرية . «وقد عرض عليه الجنرال غالبوا أن يرافق طابورا ، فما كان منه الا أن استجاب ، وقطع 90 فرسخا في اثني عشر يوما ، وحضر من على هضبة احدى المعارك ، وشاهد بعد احراز النصر أعمال السلب والنهب (1) .» ومن الجدير بالاشارة أن آنفانتان الذى كان يقول عن نفسه بأنه «يحب السلطة أكثر مما يحب الحرية» قد وضع كل آماله في اقامة النظام الاجتماعي كما يتصوره ، على الدوق دورليان ، ثم على بيجو ، ثم على الدوق دومال ، ثم على لاموريسيير الذى تعين واليا عاما بالنيابة . ومن الجدير بالاشارة أيضا أن آنفانتان ، نظرا الى ما في أفكاره الاجتماعية التصوفية من غموض وتناقض ونزوع الى العاطفة ، كانت له أحيانا مواقف عبّر فيها عن كراهيته للحرب . ولكن ذلك لم يكن يحصل الا عرضا وبعد فوات الأوان ، بدليل أن الحرب كانت متواصلة منذ 14 سنة وتكلّف سنويا مئة مليون فرنك ذهبا ، وقلّما كان يندّد بتلك «المجازر» (كلمة المجازر واردة على لسانه) . بل كانت جريدته تفسح مجالا واسعا للبلاغات المتعلقة بانتصار لاموريسيير في المعارك ، وهدفه هو ربط هذا الضابط بالمذهب السان سيموني . ومهما يكن من أمر ، فان آنفانتان الذى تصدّى لوضع نظرية حول التقدم البشري ، ودعا بكل حماس لترقية الشعوب اقتصاديا وأخلاقيا ، كان رغم هذا يتوهم عن طيبة خاطر فيما يخص الاستعمار ، بأن الدولة لها الحق المشروع في أن تنتزع من

(1) M. Emerit : **Ouvrage cité**, p. 99.

الجزائريين أراضيهم . وهذا ما كان يقول به كثير من العسكريين ، وبعض المدنيين التابعين لمذهبه ، والمقيمين بالجزائر .

## موقف الاشتراكيين الفرنسيين

لا نريد هنا أن نوجد أي نوع من التقارب بين هذه «الاشتراكية» الزائفة ــ وهي بالفعل زائفة لأنها خليط من الرأسمالية والسلطة ــ وبين الشيوعية السابقة للماركسية ، تلك الشيوعية التي دعا اليها أغسطس بلانكي . ومع ذلك يبدو غريبا اذ نلاحظ كيف أن الثوريين الكادحين من أتباع بلانكي لم يكترثوا أبدا لحرب الجزائر ، بل لم يخطر ببالهم أن يقيموا علاقة ارتباط ــ وهي علاقة لا تخفى على أحد ــ بين نهج المغامرة الذي سلكه الجيش الفرنسي في افريقيا ، وبين عمليات القمع والاضطهاد التي برز فيها نفس هذا الجيش ضد العمال الفرنسيين من 1832 الى 1871 . فلا يوجد أي تلميح في كتابات بلانكي ــ باستثناء موقف غامض ومائع ضد النزعة العسكرية ــ الى الحرب الدائرة في الجزائر ، تلك الحرب التي كانت لها نتائج سياسية خطيرة .

ان بلانكي وصحبه انصبّ اهتمامهم على الاضطرابات الاجتماعية وعلى الكفاح المتعثّر الذى يخوضه الكادحون الناقصو التنظيم آنذاك ، وكان اهتمامهم قليلا بحروب الاستقلال في أوربا بالذات ، خاصة اذا لم يكن هدفها اجتماعيا . واذا استثنينا بولندا التي تدخّل من أجلها ــ ولكن لغرض معين ــ في المجلس التأسيسي الفرنسي ، في 15 مايو 1848 ، فمن المعروف عنه أنه تحامل على (مازيني) وعلى (كوسوث) باسم الاشتراكية الثورية ، وبلغ به الأمر الى حد الشتم للأول ، والى ما يشبه الاستخفاف بحركة تحرير القوميات المضطهدة (ومن بينها المجر) ، لأن هذا التحرير حصل في اطار شبه اقطاعي أو برجوازى . فهو القائل ، في يونيو 1852 : «ان كلمات (ثورة ، وثورى) ليس لها نفس المعنى اذا

وردت على لساننا أو على لسان معظم الأجانب . فالحرب عند أكثرهم لا تزال هي حرب البرجوازية ضد الملوك والنبلاء ورجال الكنيسة . وبعض الثوريين المجريين والبولنديين ، ان هم في الواقع الا طبقة من النبلاء الذين يكافحون من أجل قوميتهم ضد الغزاة الأجانب (1) » . ان هذا التصلب الموسوم بطابع التحيّز ـــ وان كان لا يخلو أحيانا من محاولة لتفهم المواقف ـــ سوف يساعدنا الى حدّما في معرفة الأسباب التي جعلت بلانكي يتخذ موقف اللامبالاة من حرب الجزائر رغم أنها قطعا حرب تحريرية ، كما أنها حرب ضد الاقطاعية ، وان كانت لم تحمل هذا الشعار .

ويبدو أنه كان يوجد بفرنسا ، بين 1830 و 1848 ، وحتى فيما بعد ، تيار رجعي قوي يحثّ على الحرب . وما لبث هذا التيار أن عمّ البلاد كلها وأخذ يستنزف امكانياتها البشرية ومواردها الاقتصادية ويواصل السير على النهج الامبراطوري لتصعيد الحرب في الجزائر . ومن الغريب أن الطبقة الشغيلة وقيادتها اتخذتا موقف اللامبالاة ، بل موقف الرضى الى حد ما . وهناك تيار متولد عن الأول وأقلّ منه ضررا ، ولكنه ملحوظ أكثر ، لأنه أثار ضده نوعا من التشويش والاضطراب في «النوادي» و «المآدب » ، بين أوساط تلك الطبقة الشغيلة وقيادتها ، ما بين جمهوريين يساريين ، واشتراكيين ثوريين . أما الاهتمام بالقضايا الكبرى ، أي قضايا الساعة ، فان بلجيكا وايطاليا وبولندا أقرب بطبيعة الحال الى فرنسا من الجزائر ، وأحق باهتمام أبنائها ، لأن قضاياها معروفة ، وهي خاضعة لحكم ملكي بغيض ، أو متعرضة للتهديد . ونحن اذ نقول بأن تلك البلدان أقرب الى فرنسا ، فاننا نعني أن الموقع الجغرافي لا يهم كثيرا بقدر ما تهم التقاليد المشتركة والعلاقات المتبادلة . وبالفعل ، فان هذه

---

(1) Auguste Blanqui : Textes choisis, Ed. Sociales.

البلدان المتعرضة «للنزاع» تقع كلها في أوربا . وبالنسبة للمواطن الفرنسي ، حتى ولو كان ثوريا ، فان أوربا وحدها هي التي تؤلف آنذاك العالم الخارجي ، وهذا العالم ، وان كان خارجيا ، الا أنه معروف بطريقة محسوسة . وفيما عدا أوربا ، فلاشيء ، أو لا يكاد يوجد شيء آخر سوى العالم الهمجي .

وعندما نلتفت الى عام 1832 ، أو الى عام 1870 ، فان بلانكي مثلا ، رغم وعيه الثوري ، وتشدده ، ومناهضته آنذاك للأوضاع القائمة على الصعيدين الاجتماعي والوطني ، لم يكن رغم ذلك يرى من غضاضة — بخصوص الثورة الفرنسية وعهد الامبراطورية الفرنسية — في التحدث عن ضرورة «رفع شأن فرنسا في الخارج ، لأن هذا من خصائص الدول الكبرى ، وقد عمل كل من العهدين على تحقيقه (1) .» ولم ينس بلانكي أن يوجه نداء الى المواطنين للدفاع عن بلادهم التي غزتها بروسيا ، فخاطبهم بما يلي : «لا تنسوا أننا سنقاتل غدا لا من أجل حكومة ، أو مصالح فئة معينة ، أو حزب معين ، أو من أجل الشرف والمبادىء والأفكار ، بل سنقاتل من أجل الحياة ، ومن أجل مقوّمات الانسان في أرقى صوره ، ومن أجل الوطن (1) .»

والحقيقة أن الوقت لم يحن بعد آنذاك للاهتمام بالمشاكل الخارجة عن نطاق أوربا ، وعلى الأخص منها مشكلة الاستعمار العويصة ، رغم أن أوربا هي التي خلقتها . وكان الشطر الثاني من القرن التاسع عشر حافلا بالمغامرات الاستعمارية وبالأعمال الفظيعة التي ارتكبتها حكومات تابعة للنظام الجمهوري القائم بعد القضاء على الثورة البلدية (ثورة الكومون la commune) . ولم ترتفع في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الا بعض

(1) Auguste Blanqui : Textes choisis, Ed. Sociales.

الأصوات ـــ ما بين سياسيين وكتّاب ومفكّرين ثوريين ـــ للتنديد بهذا النظام الفظيع القائم على الاضطهاد والاحتقار والقتل الجماعي ، أو لتوجيه الانتقاد للمسؤولين عسكريا عن هذه المناكر ، من غير أن يبلغوا في انتقادهم ذاك ، حدّ المطالبة باستقلال الشعوب المستعمرة . فهذا جول فاليس يعاتب ضباط جيش افريقيا ويتحدث عن «الجرائم التي تختفي تحت برنوس لاموريسيير» ، وعن «السيوف الافريقية» التي استعملها جنوده للتمثيل بالمتمردين في باريس في شهر يونيو 1848 . وهذا بول فينيي دوكتون ، وهذا جان جوريس ينددان بمناكر النظام الاستعماري ، وقد سبقهما الى هذا العمل لويس بلان «الاشتراكي الرسمي» الذى انقاد لمشاعره الوطنية ، وجرى على أسلوب ميشلي وباراس ، فأخذ ينوه تنويها حماسيا ببلاده التي «تمارس من جديد نفوذها في تسيير شؤون العالم ، خدمة للحضارة وللشعوب المضطهدة (1) » ثم راح مع ذلك يندّد ببعض الأعمال المنكرة التي ارتكبها جيش افريقيا . وهذا صوت الثوريين الفرنسيين المسجونين في بال إيل عام 1851 ، يصلنا وهم يرددون في عزلتهم القاتلة ، نشيد الأمل :

**تحت سماء افريقيا المحرقة**
**يا أصدقاء ، اذا شاء الاله**
**سنكون الدعاة للجمهورية**
**بين أتباع محمد**
**فلنقم المتاريس**
**حتى في قلب الصحراء**
**وليسمع لرصاصنا دوي**
**حتى من وراء البحار (2) !**

(1) Louis Blanc : **Histoire de Dix ans**, Ed. 1848, t. v.

(2) Demanget : **Blanqui à Belle-Isle.**

على أن هذا الكلام من قبيل اللغو الذى لا يفيد ، فالجناح اليسارى الفرنسي لم يسلك بعد الطريق الصحيح في الكفاح ضد الاستعمار .

## موقف المناضلين الكاثوليك

ان دوي الرصاص يتعالى بالفعل منذ عشرين سنة من وراء البحر الأبيض المتوسط ، ولكن هذا الدوي انما هو من أجل «انتصار» أفكار أخرى غير جمهورية ، حتى ولو كانت تحمل أحيانا شعار الجمهورية . ومن يا ترى يطلق هذا الرصاص ؟ انهم قبل كل شيء المناضلون الكاثوليك ، المتحمسون لمذهبهم ، والمنخرطون جنبا الى جنب مع جنود الجيش الفرنسي ، في حرب مقدسة «لاعلاء كلمة الله ونشر الحضارة .» فلنتأمل قليلا في تخرّصات لويس فييو ، الذى ما كاد يطأ أرض افريقيا كمسافر عادي ، حتى أحسّ بنفسه بطلا مغوارا ، فصاح : «كم كنت أتمنى في هذه اللحظة أن ألبس بدلة جنودنا ، وأن أحس بالسيف يقارع ركبتي . انه سيف الله نضرب به عدوّه (1) .» وفي صفحة أخرى نجده يطلب من البابا كليمانت الثامن ، ومن رجال الكنيسة الافريقية وكبار الصليبيين ، من غودفروا دى بويون ، الى سان لويس ، يطلب منهم أن يباركوا الجندي الفرنسي ، وأن يشدوا أزره في غزو الجزائر . ومن الجدير بالذكر أن هذا «المفكر» الكاثوليكي المشهور كان يدعو الى استعمال أحدث المخترعات «في سبيل اعلاء كلمة الله ، اله الجيوش» . فهو يرى بأن السفينة البخارية التي اخترعها الانجليزى فولتون في مطلع القرن التاسع عشر قد «خدمت الانجيل أكثر مما خدمه مواطنه ريشارد قلب الأسد» . وذلك أن «هذه السفن البخارية عبارة عن جسر ممدود بين ميناء تولون بفرنسا ، وميناء الجزائر» . وأنه «لابد من أن نستخلص من هذا بأن الاسلام أخذ يلفظ أنفاسه الأخيرة في كل مكان ، أو على الأقل في

(1) Louis Veuillot : Les Français en Algérie, Ed. 1841.

ساحل البحر الأبيض المتوسط الذى يحق لنا نحن المسيحيين أن نسميه بعد اليوم : بحرنا (1) .»

وهناك مسافر آخر ، جاء الى الجزائر بعد فييو بعدة سنوات ، ونعني به بوجولا الذى أخذ هو الآخر يعزف على نفس النغمة ويجري على نفس الأسلوب الملحمي المتشبع بروح التعصب . فهو صاحب الكلام الغريب الآتي ذكره : «ان الله ، من أسمائه الحسنى ، اله الجيوش واله المعارك ... والمجتمعات لا تقوم الا على الدماء والدموع ... ان الهدف من حربنا في افريقيا هو أقدس وأسمى من حروبنا في أوربا» لأن «موضوع الصراع هنا هو القضية المقدسة ، قضية الحضارة ، قضية الأفكار المسيحية الخالدة التي كتب الله لها أن تؤسس امبراطورية عالمية وسخّر لها العبقرية الفرنسية لتكون لها سندا قويا (2) » ان هذا الكلام ، على ما فيه من الغرابة أصبح مألوفا عندنا منذ أن أخذت تتسرب الى حرب الجزائر ابتداء من 1958 ، الدعوة المسيحية ، والقومية الكاثوليكية . وقد تولت مادلين غاريغو لاغرانج (3) شرح مضمونهما شرحا وافيا . وخلال نفس تلك السنة تحدث لوك ج لوفيير عن «معركة الصليب ضد الهلال» في الجزائر . أما بول سكورتيسكو ، فقد زعم أن الثالث عشر من شهر مايو أحدث «ثغرة في الاسلام .» وأما أعضاء هيئة التحرير في مجلة (الكلمة le verbe) فقد ذهبوا مذهب بوجولا الذى كان في القرن المنصرم قد أعطى لحرب الجزائر أهمية خاصة في المشاريع الفرنسية المسيحية الكبرى ، فقالوا بأن الحرب الدائرة حاليا في الجزائر تحمل نفس المضمون الايديولوجي (المصطبغ بصبغة محاربة الشيوعية) . ومما كتبوه في هذا المجال : «ينبغي أن ندرك بأن المشكلة الناجمة عن هذه الحرب أبسط

(1) L. Veuillot : Ouvrage cité, pp. 20-21.

(2) Poujoulat : Voyage en Algérie, Ed. 1845, p. 301.

(3) Cf. La Revue Esprit de nov. 1959, n° 278.

بكثير من المشكلة الناجمة عن الحروب الأخرى . فالمشكلة هنا لا تتعلق بالوطن وأرض الأجداد ، وأملاك مادية وروحية مشروعة ... بل تتعلق اليوم بحرب تمسّنا في صميم كياننا ... فمن الضرورى أن يعرفوا (أى الجنود الفرنسيون) بأن الحرب التي يخوضونها اليوم حرب عادلة ، وأنهم طليعة الدفاع عن أعزّ ممتلكات الانسان (وليس ممتلكات فرنسا وحدها) ... ونحن اذ نحارب الثورة القائمة في الجزائر نشعر بأننا في طليعة الكفاح ضد الحركة الثورية العالمية ، وأننا نؤدي واجبنا كفرنسيين وكمسيحيين ، ونخدم البشرية جمعاء (1) » . وعلى منوال بوجولا أيضا ، نجد هانري شارليي ــ مع فارق زمني بين الرجلين يزيد على قرن ــ نجده يتحدث عن «المهمة التي أسندها الله الى فرنسا» . وقد أشارت مادلين غاريغو لاغرانج الى ان الجيش الفرنسي «حافظ بكل أمانة على تقاليده المسيحية أكثر مما حافظت عليها الهيئات الأخرى من الأمة» ، ثم أضافت بأن العقيد غوسو ، وكذلك المقدم فوغاس ، والقائد كونيي ، وهم المشرفون على مكتب العمل النفسي ، وعلى المكتب الخامس ، «ينتمون لجمعية تدعى جمعية (المدينة الكاثوليكية» ويقومون بالعمل الاداري في مجلة الكلمة le verbe (2) .

## سياسة التنصير

ان المسألة ليست جديدة على أية حال . ولئن كان فييو ، الذى جرى في كتابه (الفرنسيون في الجزائر) على منوال شارليي ، واستعمل مثله نفس العبارات تقريبا ، لئن كان قد انتقد سياسة الحكومات القائمة في عهد لويس فيليب ، لكونها سياسة متحررة من الدين ، ومناوئة أحيانا للتنصير الفوري للبلاد المغلوبة ، فلا ينبغي مع ذلك أن ننسى بأن هذا

---

(1) Verbe : Janvier 1959, cité dans Esprit, n° 278, nov. 1959 : L'intégrisme et le national-catholicisme.

(2) In Esprit, n° 278, nov. 1959, étude citée.

الكاتب المسيحي الاتجاه ، كان يشعر بالغبطة والسرور لما وجده من شعور ديني ومن رهبانية لدى بعض الضباط الذين يعتبرون أنفسهم جنود المسيح في افريقيا . وقد يبدو أن بيجو لم يكن من هؤلاء لأنه يعتبر نفسه «لا من اليسوعيين ولا من المتزمتين في الدين» . ولكن فييو ، والمؤرخ بوجولا ، اللذين نزلا عنده ضيفين مكرّمين قد أثنيا عليه ثناء لا حدّ له ، وعبّرا له عن مشاعر الامتنان على ما قدّمه من مساعدة للجمعيات المسيحية لتمكينها من الإستقرار بالجزائر يوم أن تولى الحكم فيها . وبالفعل ، فان هذا التواطؤ بين السلطة العسكرية والكنيسة قد ظهر على أوضح صورة بمناسبة تنصيب الاخوة لاتراب la Trappe في أسطى والي عام 1843 ... ظهر ذلك في الأقوال والأفعال الرسمية وفي النتائج الوخيمة المترتبة عليها . ففي رسالة وجهها بيجو للراهب ريجيس ، رئيس هذه الطائفة الدينية ، نوّه المارشال «بالعلاقات المتينة» الموجودة بين الراهب والجندي ، وعبّر عن يقينه بأن «الخصال الحميدة والأعمال الصالحة التي اشتهرت بها طائفة الاخوة لاتراب» سوف تساعد في «استمالة قلوب العرب الينا بعد ما أخضعناهم بقوة السلاح (1) .» ولم تمض الا فترة قصيرة حتى وضع الحجر الأساسي في 14 سبتمبر 1843 لدير الاخوة لاتراب . وكان لزاما أن لا تخلو تلك الحفلة الدينية من عنصر عسكري ومن مدلول حربي . ان هذا المشهد الذي لا يتسع المقام لوصفه ، يستحق أن يطّلع عليه الانسان من أوله الى آخره . وباختصار فان «الحجر الاساسي قام بوضعه المارشال بيجو ، بحضور مونسينيور دوبوش ، وقد وضع فوق مطرح مفروش بالقذائف الملتقطة من ساحة المعركة في أسطى والي (2) » أي في نفس المكان الذي أحرز فيه الجيش

---

(1) Comte H. d'Ideville : **le Maréchal Bugeaud**, Ed. 1882, t. III pp. 297-299.

(2) Comte H. d'Ideville : **Ibid**, p. 299, t. III.

الفرنسي منذ 13 سنة خلت ، على النصر الذي مهّد لسقوط العاصمة الجزائرية بيد الفرنسيين .

## الغزو الفكري

وفي نفس ذلك العام ، عام 1843 ، قام الجنرال دو فيفيي ، بعد أن أنهى خدمته في المستعمرات كسيّاف لا يرحم (مات مقتولا وهو يقمع فتنة باريس في يونيو 1848) ، قام بنشر رسالة خصص معظمها لنظام بيجو في التعمير العسكري ، وأعرب فيها عن ارتياحه لاستقرار طائفة لاتراب بالجزائر ، وأهمية الدور الذى يمكن أن يقوم به أفرادها في المستقبل في مجال استصلاح الأرض واصلاح النفوس . وقد شهد له لويس فييو بأنه «ما من أحد أحس مثلما أحس هو (أى دوفيفيي) بفقدان الشعور الديني والأخلاقي» في المشروع قيد الانجاز بالجزائر . ولاشك أنه ، بكتابته لهذه الرسالة ، قد أراد أن يسدّ هذا الفراغ ... الى أن يقول : «وهناك مشروع آخر سوف يرضي المشاعر النبيلة لدى الفئة الصالحة من أمتنا ، اذا تواصل العمل فيه الى أن يتم احتلال الجزائر نهائيا . وهذا المشروع ديني وأخلاقي محض ، ويتعلق بادخال الحضارة الى الشعوب الافريقية . والحضارة المستهدفة هنا هي التي تنبثق بأكملها من أخلاق المسيح ، وليست هي الحضارة المتهافتة على المادة ، القائمة أساسا على ارضاء الحاجات ، والمعتمدة في وسائلها على خلق المزيد من الحاجات الجديدة غير المتناهية ... فاذا شئنا أن نحضّر الشعوب (بالضاد المشددة) فما علينا الا أن ننشر أفكار الانجيل . ولنتأمل جيدا في هذا الأمر : ان الأفكار هي التي سوف تضمن لنا لسيطرة ، لأن سلاحنا في هذه الحرب هو سلاح الأفكار (1) . «ومن الغريب أنه دعا الى التقشف والتقتير في المعيشة مع أن هذه الدعوة منافية تماما لما يقوم عليه

(1) Comte H. d'Ideville : **Bugeaud**, t. III, note des pp. 298-299.

الاستعمار من استغلال واستنزاف للثروات . وفي هذا المجال يقول : «لقد أرسلنا الاخوة لاتراب الى افريقيا لتفليح الأرض فيها ، وهي فكرة جيدة لأنهم سيكونون قدوة حسنة للفرنسيين بعدما نذروا أنفسهم للعمل والانضباط والكفاف من العيش . وسيكون منهم النموذج الأمثل لما يجب أن يكون عليه المعمرون ... ويمثل هذه القدوة الحسنة وهذه المبادىء الدينية والقوانين العسكرية يمكن انشاء مستوطنات تقوم على التقتير في المعيشة ، ويومئذ سوف يتأكد لدينا بأننا فعلا نتقدم نحو العمران والحضارة . بلى ! يجب أن تتحول هذه المستعمرة الافريقية خلال القرن القادم ، الى مؤسسة دينية زراعية عسكرية كبرى تقوم على العمل والانضباط والكفاف من العيش (1) .»

إننا اليوم ، عندما ننظر الى الماضي بمنظار الحاضر ، فلاشك أن كلام دوفيفيي عن «الكفاف من العيش» و «المستوطنات القائمة على التقتير في المعيشة» ، يستوقفنا : فقد كان المقصود من انشاء مؤسسة لاتراب أن تكون قدوة صالحة للمعمرين . وانه لمما يبعث على السخرية أن نلاحظ بأن الممتلكات الكبرى التي منحت للاخوة لاتراب في أسطى والي عام 1843 ، كانت هي الأساس للثروة الطائلة التي جمعتها عائلة بورجو . تلك هي الطريقة التي يتطور بها الواقع الاستعماري عندما تتفق الأنظمة السياسية مع الطوائف الدينية لكي تتخذ البلد المستعمر أرضا تستغلها طبقة معينة وتنهبها أمة من الأمم . وبالفعل ، فان أسياد لاتراب هم الذين ورثوا ممتلكات الدير القديم (679 هكتارا) بموجب قانون فصل الكنيسة عن الدولة . وربما كان لويس فييو على اطلاع ببعض أفكار الجنرال دوفيفيي حول التعمير ، قبل أن تنشر . وهذا ما جعله يعلّق عليها : «لقد كان من الصواب رفض هذه الأفكار (2) .» ومع ذلك

(1) Conte H. d'I deville: **Bugeaud**, t. III, note des pp. 298-299.

(2) Louis Veuillot : **les Français en Algérie**, p. 223.

فان هذا المفكر «المناضل» الكاثوليكي كان متفقا في الرأي مع صديقه ونموذجه الأمثل بيجو : فكما أن الحرب ليست من شأن ذوي النفوس المرهفة والمشاعر الرقيقة ، فكذلك التعمير لا يكون بالزهد في الدنيا والقنوع بالكفاف من العيش . فاذا قيل : لنعمل من أجل انتصار الأفكار المسيحية ، ولنخض الحرب ضد المسلمين ولنكفّر عن الذنوب باستعمال القوة واراقة الدماء ، والسلب والنهب ، وليكن سلاحنا السف والمحراث ... فهذا كله مقبول . أما الدعوة الى الزهد في الدنيا ، فلا ! اذ من واجب الانسان أن يساير العصر . والكلمة المشهورة التي قالها غيزو : «اطلبوا الرزق» أصبحت شعارا عملت به البرجوازية المرتزقة في عهد لويس فيليب ، تلك البرجوازية التي حثت الحكومة على مواصلة الحرب في الجزائر .

ان «التقشف» الذي دعا اليه دوفيفيي ، وتحامله على الحضارة المادية ، يشبهان الأفكار المناوئة للرأسمالية والشيوعية معا ، والأفكار الثورية الزائفة التي تغلغلت في صفوف الجيش الفرنسي بالجزائر منذ 13 مايو 1958 . وكما أن دوفيفيي عمل طوال عشر سنوات من أجل السير بالاستعمار في طريق الاستغلال والجور والطغيان ، فكذلك نجد اليوم ضباطا شبانا يتخذون موقف التكبر والتناقض ، فيؤدي بهم الأمر الى عكس ما أرادوا ، أي الى تسعير الحرب بدل اخمادها ، وبذلك يوفّرون للاستعمار أسباب البقاء والاستمرار . وهذه السياسة قد شرحها غيزو عام 1835 ، في معرض الحديث عن افريقيا ، ويقصد بها الجزائر : «ينبغي أن لا تتحرك الحكومة للعمل الا بعد أن يقع الأمر وينتهي . فالحكومة لا يجوز أن تتدخل الا بعد حصول الوقائع لكي تضمن لها أسباب البقاء اذا كانت نافعة ، أو أسباب الزوال اذا كانت ضارة (1) » . وهكذا تبرز من خلال هذا الكلام إحدى خصائص

(1) Maréchal Clauzel : Correspondance (1835-1837), Ed. 1948, Introduction, G. Esquer.

الاستعمار ، وهي سياسة الأمر الواقع ، مع ما يصاحبها من تكريس رسمي متستر ، ومع غضّ الطرف عن المجرمين ، وكان يجدر به أن يقول ، لو كان ممن يعتبر بالتاريخ قديما وحديثا : «أسباب الفساد» عوضا عن «أسباب الزوال» ، وذلك أن الحل والعقد في الجزائر آل الى قوم يتصرفون كما يشاؤون بدون حسيب ولا رقيب .

## افريقيا الشمالية أرض للتجارب

وفي مجال آخر يختلف بعض الشيء عن الأول ، نجد آنفانتان ، بعد أن أمضى سنة بالجزائر ، تنتابه مشاعر أبطال الملاحم أمام الآفاق التي تفتحت في بلد متعرض للعدوان ، ومحكوم من طرف أشخاص استبد بهم الجشع ، وراحوا في خيالهم وضلالهم يعمهون ، بعدما أطلقت لهم العنان بلادهم فرنسا ذات النظام البرجوازي . ويستفاد من الدراسة التحليلية التي قام بها مارسيل ايمريت حول أعمال هذا المفكر السّان سيموني بأن «التعمير سوف يكون له أثر حسن في تقدم البشرية جمعاء ، خاصة اذا عرفنا بأن التعمير سوف يفتح المجال لتطبيق التجارب الاجتماعية التي تحتاجها فرنسا ، والتي سوف يصبح من الممكن تنميتها في فرنسا اذا ثبت أنها ناجحة . ان افريقيا الشمالية بهذا الاعتبار هي أرض للتجارب ، من أجل تصور جديد للانتاج ، وللمجتمع وللدولة (1) .» وقد اضطر آنفانتان فيما بعد ، لتبرير كلامه ، أن يرمي رجال السياسة الفرنسيين بأنهم : «شيوخ ينقصهم الفكر والنشاط المبدع ، ويتحصّنون من وراء القوانين والأنظمة الجامدة (2) » وقال بأنه «لابد في الجزائر من أن يفرض المسؤولون الشبان أنفسهم بحكم الأمر الواقع» . وهؤلاء الشبان لن يكونوا في الغالب الا من العسكريين . وقد روى عنه ايمريت بأنه قال :

---

(1) Marcel Emerit : les Saint-Simoniens, p. 108.

(2) Marcel-Emerit : Ouvrage cité.

«نحتاج في الجزائر الى جنرالات أعمارهم بين 30 و 35 سنة» . وسوف نرى فيما بعد ، كيف أن المسؤولين عسكريا عن سياسة فرنسا بالجزائر ــ وخاصة منهم كلوزيل ــ كانوا ، لقلة صبرهم ولما فيهم من حساسيات ، يعاملون بمنتهى الاحتقار الحكم المركزي في باريس ، ورجال الصحافة والثقافة الفرنسيين ، بل يسخرون منهم ويتهمونهم جميعا ، اما بعرقلة مشاريعهم العسكرية ، أو ــ وهذا أدهى وأمرّ ــ بالتواطؤ (منذ 1836 !) مع الثوار الجزائريين واستعمال نفس الأسلوب الذي يستعملونه . وهكذا نلاحظ أن احتلال العسكريين والمدنيين الاستعماريين للصدارة في الحكم أخذ منذ بداية الغزو الى يومنا هذا يتعزز لا في الجزائر فحسب ، بل في فرنسا أيضا ، فرنسا التي دلّلتهم وغضت الطرف عن جرائمهم ، فما كان منهم الا أن اعتبروها متخلفة عن ركبهم .

وهناك حماقات أخرى أسوء من هذه . ان أمثال هذه الأمور المفضوحة أو المضحكة أو اللامعقولة أو المنافية تماما لأبسط قواعد المنطق والأخلاق العالمية ، هذه الأمور كلها منها يتألف السلوك الاستعماري . فالمجال المتاح للمستعمرين مجال متوسع باستمرار ، مستقل بذاته أو يكاد ، ومتميز بعيوبه الأصلية واتجاهاته الغامضة وتصرفاته المجردة من روح المسؤولية ، وعجزه عن اتخاذ شكل نهائي منسجم .

وفيما يتعلق بالجزائر «الفرنسية» ، فان المستعمرين كانوا يتمتعون فيها بحرية مطلقة متجردة من القواعد المدنية والأخلاقية . وهذه الحرية هي ركيزة عالمهم شبه المستقل ، وأساس تعاملهم مع بلادهم الأصلية ، ومع الشعب الخاضع لسيطرتهم . وفضلا عن هذه الحرية ، كانت توجد وسائل متضافرة ، وقوى متعارضة من حيث الظاهر ، واحتياجات متنافرة ، وتصرفات غريبة أحيانا . وكل ذلك ملحوظ في العوامل المؤثرة

على مجرى الأمور ، من : جيش ، وكنيسة ، وبرجوازية ، وطبقة كادحة مهاجرة الى الجزائر ، ومنفيين سياسيين ، وأفكار اشتراكية أو شبه اشتراكية ، وملكيين ، وجمهوريين ، وانسانيين ، وشعوبيين ، وملحدين ... وهي كلها عوامل تتجه نحو مصب واحد ، وتعطي للاستعمار من وجهة نظر الانسان الخاضع له ، صورة وكيانا شاملا ، قائما على الاستبداد ... كيانا يحاول أن يتجسم في أمة غالبة ، وفي تراث مغمور ، وحاضر مهجور ، ومستقبل غامض ، وأخلاق ممتهنة ، وسمعة ملطّخة وكرامة مداسة ، فما من عمل بطولي خلّده التاريخ في الأساطير الشعبية ، الا وله وجه آخر بشع غاية البشاعة ، ولا يمكن ستره بأية حال من الأحوال . فالكاتب الروسي تولستوي عندما نظر نظرة موضوعية دقيقة الى أسطورة نابليون في أبعادها الحقيقية ، أثناء حملته العسكرية على روسيا ، لم تمنعه محبته للخير والانسانية من أن يستعمل أسلوبا آخر في حديثه عن الحرس الامبراطوري الأمين ، بما فيه من الخيالة والرماة ، وأن يقول عن هؤلاء بأنهم «أصبحوا كلابا مكلوبة ، ولا يستحقّون الا القتل .»

## حرب مطلقة شاملة

ان هذا الوضع الاستبدادي التعسفي الذى ساد بين 1830 و 1871 ، وما فتىء الى يومنا هذا يسير على نفس الخط ، هذا الوضع يتألف ظاهريا من بعض الوقائع الصغيرة التي لا تخلو أحيانا من أهمية ، ولكنها على أية حال تشير الى ما كان يوجد بالجزائر من بنيات ، وأنماط حياة وأعمال ، وهي كلها متولدة عن الحرب أو معدّة لتسعير الحرب ، من أجل تجديدها باستمرار في صورة أخرى : اما بالسيطرة السياسية ، أو استغلال الانسان ، أو خنق الحريات ، أو القضاء على مستقبل البلاد .

وسوف نقتصر هنا على ذكر طائفة من الضباط (برتبة لواء أو عقيد)، والموظفين الكبار الذين أعجبوا غاية الاعجاب بافريقيا في بداية الأمر، ونكاد نقول بأن اعجابهم هذا صادر عن قلوب بريئة. ولكنهم في آخر الأمر انقلبوا: من التغنّي بافريقيا والثناء عليها، الى الانغماس بلا شفقه ولا رحمة في حرب الجزائر، وهي حرب مطلقة شاملة مهلكة للحرث والنسل: للمدنيين والمحاربين، والنساء والأطفال، والأشجار والقرى والحقول والمواشي.

وعلى أية حال، فللضرورة أحكام: ولا بأس اذن من أن يكون لبعض هؤلاء وجهان، على غرار الدكتور جيكيل Dr Jekyll ومستر هايد Mr Hyde (*) فهم تارة جزّارون وفتّاكون بالشعوب، وتارة أخرى مهذّبون أفاضل... تارة جمهوريون وأصحاب أفكار ثورية في عهد ملكية بغيضة، وتارة أخرى سجّانو الشعوب... تارة أشخاص محترمون يتعاطون الزراعة ويبتكرون طرقا جديدة في الفلاحة، وتارة أخرى أوباش يحرقون الغابات والمحاصيل الزراعية... وهم من جهة، «اشتراكيون» ملحدون، ومن جهة أخرى يعملون كي تبقى الجزائر على بداوتها، وأن يسود فيها الدين المسيحي، وأن تنتزع الأملاك من الأهالي، وأن يشرّد الفلاحون الجزائريون في الفيافي والقفار. فهذا مثلا كافينياك، الجمهوري الاتجاه، الذى كان يحذر منه الضباط الملكيون، والذي نظم عمليات احراق الأهالي في الظهرة، نجده يستقبل في وقت الراحة بين حملتين، يستقبل أخاه غودفروا، المتآمر الكاربونارو الشهير، وأحد زعماء الجناح اليساري الجاكوبي آنذاك. وقد حصل هذا الزائر الجمهوري المتطرف من المارشال بيجو على رخصة خاصة شبيهة بالتي حصل عليها آنفانتان، لكي يرافق طوابير الارهاب التي وجهها أخوه الجمهوري ضد أهالي

(*) جيكيل: بطل رواية مشهورة، قام فيها بدور الطبيب الذي استحضر دواء يسمح بانقلاب شخصيته الى رجل قزم شرّير. ويرمز «جيكيل» الى الشخص ذى الوجهين (المترجم).

الونشريس ... أما المارشال فالي ، البالغ من العمر سبعين سنة ، والمشهور بشمائله الرقيقة ، فهو الذى أصدر أمرا بمعاملة الشعب كله كرهائن ، بما في ذلك الأعيان والحركيةّ (*) ممن كانوا في خدمة السياسة الفرنسية عن كراهية أو طواعية ... أما لاموريسيير ، السان سيموني مذهبا ، المؤمن بتقدم البشرية ورقيها ، فهو الذى استعمل لأول مرة طريقة ارسال الجنود بدون مؤونة ، اعتمادا على أن نهب مطمورات الحبوب ، والسطو على المواشي ، كفيلان بتوفير القوت للجندي الحامل لمشعل الحضارة . ويعدّ أيضا أول من اقترح التشريد الجماعي للفلاحين الجزائريين لصالح المعمرين ... أما الدوق دومال الذي كان يعتبر نموذجا للشرف الفرنسي ، فهو الذى وجّه دعوة رسمية للأعيان الجزائريين ، وأضمر في نفسه نية الغدر بهم ليلقي عليهم القبض ويعدمهم ... وأما بيجو الذي اشتهر بميله للريف وحبّه للبساتين المخدومة باتقان ، فهو الذى أطلق الحبل على الغارب للجنرال براغي ديلبير وغيره ، ليقطعوا بالفؤوس ، غابات مترامية الأطراف من أشجار الزيتون ، ويشعلوا النار فيها وفي البساتين والحقول .

**محاولة احياء عهد روما**

ولتبرير سلوكهم يتذرع الكثير منهم ليس فقط بحروب نابليون كما أشرنا الى ذلك سابقا ، وليس فقط بالأساليب الرومانية في «اقرار السلام» ، بل يلتفتون أيضا الى ما تبقى من آثار الماضي العتيق ، ويعلنون في تكبّر وعجرفة بأنهم الورثة المباشرون للامبراطورية الرومانية ، وأنهم يستعيدون في الجزائر ما كانوا قد فقدوه من أرزاق وممتلكات . فهذا مثلا كافينياك مستغرق في التأملات أمام صليب من العهد الروماني — المسيحي ، منقوش على صخرة في مدينة موزاية ، فيقول : «بما أنها (أي

(*) الحركية : وحدة من وحدات الجيش الفرنسي تتألف من الأهالي المرتزقة . (المترجم)

روما) قد حكمت هنا ، فما علينا الا أن نواصل عملها (1) .» وقد تولى مترجم حياته شرح هذه الكلمة بمزيد من الوضوح فكتب يقول : «كان كافينياك يجمع بمنتهى العناية كل الشواهد المتصلة بالاحتلال الروماني مهما كانت صغيرة ، لكي يقتفي الأثر الذي تركه هؤلاء الفاتحون المثاليون ، كان شديد الاعجاب بأساليبهم العسكرية ومجدهم الذي طالما تحدثت عنه الكتب . وكان خبيرا في الآثار ، فاهتم اهتماما كبيرا بالحفريات ، فأمر باجرائها **لكي يستخرج الآثار التي تبرهن للبدو بأن الأوربيين لهم حقوق قديمة في امتلاك البلاد** (2) .»

ويمضي هذا المؤلف متحدثا عن قيام كافينياك بتجديد بناء كنيسة قديمة : «ان هذا الجمهوري لم يكن يستاء اذا قال عنه أحد بأنه من الرهبان ، وهي الكلمة التي ينفر منها اليوم كثير من القادة والمسؤولين ... فقد كان حلمه أن يجدد بناء المعبد المتهدّم فوق نفس الأساس القديم ، وأن يهديه الى روح الأسقف ريباراتوس . واستعان في مشروعه بأحد الرهبان ... فما كان منه الا أن لبّى طلبه وجاء لينحني اجلالا على رفاة سلفه ، ولاعداد ما يلزم لاستئناف العبادة بين جدران كاستيلوم تانجيتانوم المشيدة (3) » . ان هذا العمل يذكّرنا بوقفة أخرى وقفها المارشال فالي أمام أطلال إحدى قنوات السقي ، فراح يحلم بربط الماضي بالمستقبل بانجاز مشاريع خيالية في الترميم والبناء .

على أن الشعور الغالب لدى أكثر هؤلاء المسؤولين والضباط ، باحيائهم ذكريات الماضي ، هو تشبيه جيوشهم بالطوابير الرومانية في هجومها على شعوب الداسيا والسرماط ، بل على الشعب النوميدى . وكان من المفروض في ضباط ملكيين متشبعين بالمبادىء الانسانية ، أن

(1) Le général Ibos : le général Cavaignac. Ed. 1930.

(2) Le général Ibos : Ouvrage cité, p. 121.

(3) Ibid, p. 122.

يكفّوا عما جرى عليه القرن الثامن عشر من التنويه بالجمهورية الرومانية ، وبالحسّ المدني الصارم فيها ، وبالخصال الحميدة التي تعزى لكل النماذج القديمة ... فالفضيلة ، والشرف العسكري ، والحس المدني هي الخصال التي كانت مطلوبة في عهد الامبراطورية ، امبراطورية نابليون بطبيعة الحال ، وقلما كانت مطلوبة في عهد السلالة البوربونية بعد رجوعها للحكم ، لأنها فترة من التاريخ فقيرة بالوقائع العسكرية الماجدة ، ومتميزة بالركود والعقم . ولكن بعض ضباط الغزو الاستعماري احتفظوا بذكريات هذه السلالة وبقيت ذكرياتها عالقة في اذهانهم فاحتفظوا لها بعهد الوفاء . فالقبطان شارل ريشار الذي اتخذه المتطرفون الحاليون في الجيش الفرنسي قدوة لهم ، والذي سوف نستعرض أفكاره الحمقاء ، كان في 1846 يقول : « في اعتقادنا أن نابليون ، بتحركه عبر أوربا كلها مع مدافعه وحكمه الاستبدادي قد أفاد قضية الحرية والاخاء بين البشر أكثر مما أفادها فلاسفة القرن الثامن عشر(1) . »

أما في نظر الحكام الحاقدين من أمثال كلوزيل ، فالنموذج الأمثل بالنسبة لأساليب التعمير والاضطهاد هو الحكم السائد في أمريكا ، بمزارعها وعبيدها الملونين (2) . ويرى سافاري (الدوق دي روفيغو) محافظ الشرطة السابق في عهد نابليون ، أن كل الضربات مباحة مع الأهالي : ابادة المدنيين ، وقتل المبعوثين المفوضين رغم رخص المرور المعطاة لهم لحمايتهم . وقد حاول الدوق دومال فيما بعد أن يكرر نفس هذا الصنيع ... انه سلوك يتميز بالتهور والتفنن في استعمال القوة الغاشمة ، بمضاعفة العنف على قدر ما تزداد مقاومة «الأوباش» و

(1) Charles Richard : **Etude sur l'insurrection du Dahra.** Ed. 1846.

(2) ان كلوزيل كان ، في الحملة التي وجهها الى قسنطينة والتي انتهت بكارثة ، قد ضمّ الى جيشه رهطا من الكلاب المدرّبة على مطاردة الانسان . وهذا العمل الشنيع استوحاه من ذكرياته في سنان دومينغ التي أقام بها مدة طويلة ، وحيث كان العبيد الفارّون يتعرضون للمطاردة .

«الحفنة من البدو» . وهذه العبارات مألوفة ، وتتردد على ألسنة الكثير من الضباط آنذاك . ولاحاجة الى القول بأنها لم تكن تحمل أي مدلول عنصري ، أو بالأحرى ليس فيها من العنصرية إلّا القليل ، بل ربما تعبّر عن الاعجاب والحقد معا . وذلك أن دخول المدنيين الأوربيين الى الجزائر لم يصل بعد الى المرحلة التي مكنتهم من ممارسة السيطرة السياسية ، وهي المرحلة التي نشأت فيها عقلية استعمارية تنتشر بالعدوى ، وتؤثر على أحد الأفراد ، فيؤثر هو بدوره على فرد آخر ، في تنافس صادر عن الحقد والضغينة . وكثيرا ما حاول بعض الضباط كبت هذا الشعور بالاعجاب ، أو الاحترام للعدو الشجاع ، فكانوا أحيانا يعبرون عن استيائهم من التأثير العجيب الذي كان يحدثه في المعارك الأمير عبد القادر أو أحد خلفائه ، على جنود الجيش الفرنسي ، بل عليهم أيضا . على أنه يوجد بينهم من يحب النظام ويتمسك بالمباديء ، ومنهم الكولونيل دي مونتانياك ، والدوق دومال ، والقبطان ريشار . فهؤلاء أرادوا القضاء على مشاعر التقدير والاعجاب بالمجاهدين الجزائريين ، فلجأوا الى مختلف الحيل واستعانوا بنظريات محكمة وتعليمات دقيقة ومشاريع اجرامية تهدف كلها الى وضع مذهب يثبت تفوق أحد الأجناس ، أو احدى الحضارات ، مع العمل على اهانة الخصم وابادته . وربما كان كافينياك أقل تطرفا منهم في مواقفه ، الا أن بعض أقواله تقرّبه منهم . فمترجم حياته يقول عنه بأن «اقناع الأهالي باحتلالهم المرتبة السفلى في كل شيء عند مقارنتهم بالفرنسيين ، هو من أوكد الواجبات على القائمين بالمشروع الفرنسي في الجزائر . وقد أنكر على هؤلاء موقفهم الذي خيّب أمله فيهم : لأنهم سلكوا طريق المداهنة في فرض سيطرتهم بدلا من استعمال القوة ، وحطّوا من قدرهم عندما اتخذوا موقف الاعجاب برجولة خصومهم (1).»

(1) Ibos : Le général Cavaignac, p. 109.

## عقيلة الفرنسيين المستوطنين بالجزائر

ان الحرب متواصلة ، ولهذا فقد أتى من بعد عهد بيجو الجهنمي ، أي بعد عام 1840 ، جيل من الضباط أصغر سنا وأشد بطشا ، يتصور كل واحد منهم بأنه يحمل رسالة ، ويتضايق ذرعا بمقاومة شعب بلغ سكانه آنذاك أربعة ملايين نسمة (1) . وبطبيعة الحال ، فالحياة في السنوات العشر الأولى من الإحتلال كانت مغايرة لما آلت اليه ، وكان الأمل يراود النفوس في احراز النصر بكل سهولة ، (وقد يخيب الأمل أحيانا) ، وكانت الحياة متميزة بأنواع من التعدّي وقائمة على الارادة القوية ، وسالكة دوما طريق التجديد من غير أن يكون هذا الطريق هو حتما طريق الرشاد . انها حياة حافلة بالغرائب والمواقف الصبيانية وبأنواع من التهافت على المادة .

وهكذا نشأ عالم من القيم الاصطناعية الرخيصة في المدن الساحلية وضواحيها، عالم يعتمد على الحديد والنار ، وعلى السلب والنهب . والمستهدف بكل هذه الاساليب هو المجتمع الجزائري بما فيه من مجاهدين ومدنيين ، ومن قوى متحركة وقوى أخرى ساكنة . انها قيم تبعث على السخرية ، لأنها منافية للعقل والمنطق ، ولأنها تدل على الكبرياء تجاه سكان الحواضر والبوادي المغلوبين على أمرهم ، مع كل ما يرافقها من

---

(1) في شهر نوفمبر 1844 قدر المارشال بيجو ، الوالي العام للجزائر ، قدر عدد السكان ذوي الأصل الجزائري بخمسة ملايين ، وأضاف «وربما ستة» . ثم في شهر يناير 1855 أعطى أمام مجلس النواب رقما آخر هو أربعة ملايين . ومن المرجح في نظرنا أن يتراوح هذا الرقم بالتقريب بين 5 و 6 ملايين في حوالي سنة 1830 . وقد انخفض هذا الرقم انخفاضا كبيرا فيما بعد نتيجة لتكرار أعمال الابادة الجماعية وكثرة الوفيات بسبب حصار التجويع ، وبقاء الأراضي بورا بسبب نزوح السكان ونفيهم ، فضلا عن الأوبئة الناجمة عن الحرب المتواصلة والأشغال الشاقة والمعارك الفتاكة ، وقد تصدى بعضهم من ذوي النوايا السيئة للرد على ما ذهب اليه ميشيل هاربار ، فاستغربوا كيف يمكن للفرنسيين أن يقتلوا ابان الاحتلال عدة ملايين من الجزائريين . والحقيقة أن هؤلاء يتظاهرون بالجهل ، لأنهم يعرفون تمام المعرفة بأن حربا كالتي عرفتها الجزائر ، امتدادا وضراوة ، لا تقتل بالحديد والنار فحسب . فالمجتمع الذي لا يموت بالسيف ، يموت بغيره .

عدم ارتياح النفس ، بسبب تأنيب الضمير المتأرجح بين الانضباط والنظام من جهة ، والميل للبذخ والمتعة والتهور والاهواء العارمة من جهة أخرى .

تلك هي بعض الجوانب من حياة اجتماعية أخذت تظهر بطريقة عرضية في أرض جديدة لا تزال تشمّ فيها رائحة البارود والدماء المسفوحة ... أخذت هذه الحياة الداخلية تظهر جنبا الى جنب مع حياة أخرى يعتبرها الدخلاء همجية أوغريبة عن أنماط حياتهم ، رغم كل ما حفلت به من حضارة ونشاط وقيم أخلاقية وثقافية هي مزيج من الخشونة والرقة في نفس الوقت . وكل هذه الجوانب من الحياة الاجتماعية ظهرت في أنواع من السلوك أدناها السلوك الخارجي المتهور ، وأعلاها النظام القائم على أساس متين ، وبينهما حالات من الاتجاهات المضطربة لفرض السيطرة أو لاداء رسالة معينة . وليس من المستغرب بعد هذا أن تؤدي هذه العوامل على مدى الزمان ، وغيرها من العوامل الأخرى الناشئة عن ترك الحبل على الغارب للمعمّرين ، وتوفر الأموال لديهم ، ومجاملة الحكم لهم ، ليس من المستغرب أن تؤدي الى خلق نفسية وعقيلة خاصة بالفرنسيين المستوطنين بالجزائر من عسكريين ومدنيين .

**حماقات المعمّرين**

**والى جانب هذه المشاهد التي تتميز بالتهافت على المادة والشراهة والبطولة الزائفة ، برزت صفات أخرى غير محصورة في نطاق السلوك غير المألوف ، أو اتّباع الأهواء ، بل تجاوزت هذا النطاق الى السعي لاحتلال مكانة مرموقة في المجتمع . وهذا ما لوحظ لدى فئة قليلة من المعمرين الذين توفّرت لهم منذ البداية امكانيات لا حصر لها ، وحرية مطلقة في التصرف والقيام بما يشاؤون من أعمال ، بموجب الحكم الجائر الذى أصبحت له قوة قانونية ومعنوية . ففي السنتين 1835 ـــ 1836**

اكتسب الأمير (دي مير) — وهو بولوني الأصل ، هاجر الى الجزائر على اثر احتلال بلاده ومنحه نظام الحكم أراضي واسعة في المتيجة — اكتسب هذا الأمير سلطة سياسية على الجزائريين العائشين بجوار ممتلكاته . وقد وضع لتعزيز سلطته نظاما خاصا في توجيه الرسائل الى «رعاياه» ، بل فكّر في تأسيس نوع من الامارة . وقد وصفه بيليسيي دي رينو ، بالعبارات التالية : «ان السيد دي مير ، فضلا عما لديه من عطف على الانسان ، يتحلّى بصفات أخرى وهي : الروح الارستوقراطية والاقطاعية . وهذه صفات ملحوظة حتى في ساعة المحنة والشدة لدى سائر البولونيين النبلاء ، وكان يريد أن ينشيء ما يشبه الامارة ، وأن يكون له خدم يرعى أمرهم بالاحسان بدلا من تسخيرهم في العمل . (1) وقد اضطر وزير الحرب الفرنسي ، نتيجة لهذا التصرف ، الى لفت نظر المارشال كلوزيل الى مبادرة الأمير هذه (2) . ولكن يبدو أن كلوزيل ، بما يتمتع به من سلطة كوال عام ، وبمجاملاته للأوربيين ، كان يشجع المعمرين الكبار على التمادي في ضلالهم باعتبار أنه هو بالذات كان يكسب ممتلكات عقارية واسعة تضم عدة آلاف من الهكتارات .

وهل من حاجة الى ذكر كل الأنماط الغريبة من حياة المعمرين وتعاملهم مع الناس ، وهي أنماط يختلط فيها كل أسلوب : أسلوب أوبو Ubu ، وماريوس Marius ، وشخصيات الكاتب كافكا Kafka... ومن ذلك مثلا أن بعض الضباط والبرجوازيين الفرنسيين المقيمين بمدينة الجزائر

---

(1) Pélissier de Reynaud : **Annales algériennes.**

(2) بما أننا بصدد ذكر التصرفات الطائشة التي تميز بها حكم كلوزيل الجائر ، لنذكر أيضا ما يسمى «بالعقبة المتواصلة d'obstacle continu» ؛ وهو عبارة عن منشآت دفاعية تتألف من خندق عرضه ستة أقدام ، ومن سلسلة من الأبراج المصفحة . وهذه المنشآت تمتد على طول 60 فرسخا وتحيط بالقسم الأكبر من سهل متيجة ، من البحر الى الأطلس البليدي . وقد سميت هذه المنشآت على سبيل السخرية ، بجدار الصين ، ولكنها لم تمنع المجاهدين من التسلل خلالها من مواقعهم القريبة في حجوط . وقد تواصلت أعمال البناء في هذه المنشآت الى مطلع 1841 .

ذهبوا الى حفلة راقصة أقامها الدوق دورليان ، محمولين على ظهور حمّالين محترفين ... ومن ذلك أيضا أن بيجو أمر بأن يعلّق كل جزائري على ثيابه لافتة مشينة كتب عليها : «عربي خاضع» ... ومن ذلك أيضا الأراضي المنتزعة لصالح بعض المتمردين على الحكم في فرنسا في مايو ويونيو 1848 ، مع اجبار أصحابها الجزائريين على تعهد تلك الأراضي بالخدمة لفائدة هؤلاء المغضوب عليهم الثوريين الكادحين ... ومن ذلك أيضا أن الكولونيل دي مونتانياك كان يفكر في ترحيل الشعب الجزائري بأكمله الى أوقيانوسيا ، باستثناء الرجال الذين تزيد أعمارهم على خمسة عشر عاما : فهؤلاء حكمهم الموت والابادة ... ومن ذلك أيضا المخاوف التي أبداها الأوربيون حينما علموا بانتهاء الحرب مع عبد القادر ، فأعربوا عنها كما يلي : «ان الأوربيين يشعرون بالحزن لأنهم يتوقعون أن الجنود سوف يتناقص عددهم ، وأن ضحاياهم من الأهالي سوف يتناقص بالتالي ... وسكّان جنوب فرنسا متأسفون لأنهم يتوقعون ركود التجارة ... والبحرية الحربية متخوفة من تقليص المؤونة والعتاد ... والجيش يشعر بالضجر (1) ...» ومن ذلك أيضا النوادي «الوطنية» التي تألفت في مدينة الجزائر ، ورفضت في 1848 و 1870 على التوالي الاعتراف بتعيين اثنين من الولاة العاملين ، وهما شارنغانيي ، وولسن ايترهازى ، من طرف حكومة باريس ، فأرغمت الأول على الرجوع من حيث أتى ، وألقت الثاني صريعا فوق رصيف الميناء بدون مراعاة لكبر سنه ... ومن ذلك أيضا الحماقات التي ارتكبتها «ثورة بلدية الجزائر» ، وهي تسمية أطلقت عليها تشبيها لها بثورة بلدية باريس la commune ، تلك الثورة التي جعلت المعمرين يطالبون باسناد الحكم الى غاريبالدي Garibaldi ، أو الى ملكة انجلترا فيكتوريا ، والتنصل من نابليون الثالث ،

---

(1) Ibos : le général Cavaignac (رسالة الى أمه) , p. 92.

لأن الشيء الوحيد الذى يهمهم هو الحفاظ على امتيازاتهم ، والاستقلال في تسيير الشؤون المالية والسياسية ، وهضم حقوق الجزائريين ... ومن ذلك أيضا الأفكار السادية (*) sadique الخبيثة ــ وهي من الدرر الثمينة التي تمخّض عنها عقل لم تبق فيه ذرّة من الانسانية ، وتناقلت أقواله الصحف ، وبقيت راسخة في أذهان العشرات من ضباط الاحتلال . ففي النص الآتي الذى ندرجه كشاهد تاريخي ، يحاول الكولونيل ترومولي ، في روايته لما يحدث في الأرياف ، أن يلقي الأضواء على سمات الشخصية الجزائرية ، ولكنه في الحقيقة يلقي الأضواء على شخصيته هو بالذات ، فهو يقول ، بعد أن تحدّث عما ارتكبه جيشه من تخريب وحرائق : «ونضيف بأن أهالي منطقة القبائل يعتزون لكونهم تعرّضوا لتخريب الغزاة ، وكلما كان التخريب أعمّ وأشمل ازدادوا فخرا واعتزازا (1) .» ولكي يبرر ترومولي قطع الألوف من أشجار التين في بني يني نجده يستعمل العبارة الآتية التي تشير الى ما في نفس صاحبها من ميل مرضي الى ارتكاب جرائم الحرب : «لابد من الاقرار بأن الحاجة الى الهدم مغروسة في طبيعة البشر ، ولذلك فنزع الفأس من يد جنودنا يعني حرمانهم من المتعة واللذة (2).»

### تناقضات بيجو

على هذا المنوال تتواصل المسيرة الاستعمارية كأنها مهزلة محزنة نشاهد فيها حماقات كالتي رأيناها منذ عهد قريب في مظاهرات 13 مايو ، أو في الجو الذي ساد في شهر يناير 1960 . وما حدث خلاله من اضطراب فيه ما يضحك وما يبكي . وأبلغ من هذا كله ما يحدثنا عنه أحد مؤلفي القرن ، وهو جان هيس ، في كتاب سيظل أبد الدهر

(*) السادية : نسبة الى البارون دى ساد . ويقصد بها الميل المرضي للتعذيب (المترجم) .

(1) Colonel C. Trumelet : le général Yusuf, t. II, p. 170, Ed. 1890.

(2) Trumelet : Yusuf, p. 170, t. II.

خير شاهد على ما آلت اليه الأخلاق الفرنسية ، وعلى أسطورة «القدم الأسود (*)» . وكما أن بعض المفاهيم الأساسية يختلط أمرها أحيانا بسبب تداخل الواجبات الروحية والقومية ، ومستلزمات الجنس والحرب والتعطش للسلطة والمال ، كذلك فان التناقضات الصارخة في الأقوال والأعمال تتحول الى يقين واعتقاد راسخ ، بل الى إيديولوجية منسجمة من حيث الظاهر ، بحيث أنها قد تضلّل العقول . ان نصيب هذه الأفكار من النفاق المتعمد ضئيل ، ولكن هناك ما هو أخطر من النفاق ، ونعني به اختلاف المعيار العقلاني ، وفساد الأخلاق السياسية نتيجة للأثر السيء الذي تحدثه الأساطير ، واحتقار الغير والتعود على الحلول السهلة .

ان كثيرا من الضباط الذين كتبوا عن فترة الاحتلال الأولى ، أو عن حرب التحرير الأخيرة لا تخلو كتاباتهم من النوايا الحسنة . وهي تتخذ شكل مذهب متنافر تختلط فيه الاهتمامات الانسانية وحب السلطة والحكمة والاشتراكية والعصبية ، فما أبعد هذا المذهب عن واقع الأمور ! وأمثال هذه التناقضات نجدها عند بيجو ، في الخطب والبلاغات والرسائل التي لم يكن يضنّ بها . فهذا الرجل الذي أنكر على بعض المعمرين كونهم «عاملوا بوحشية ودناءة الفلاحين العزّل الذين جاءوا إلينا بكل ثقة ليتاجروا معنا (1) » بل أدى به «العطف الأبوي» على الجزائريين الى أن يعينّ من بين المحامين من «يتولى الدفاع عن العرب» ضد «المعاملات غير الشريفة الصادرة عن بعض الأوربيين القليلي المبادىء (2) .» ... هذا الرجل هو نفس الرجل الذي استنكر «التقيد بالمباديء الانسانية ، وهذا التقيد هو السبب في امتداد حرب

(*) القدم الأسود : هي التسمية التي يكنى بها المستوطن الفرنسي بالجزائر pied noir (المترجم) .

(1) H. d'Ideville : **le Maréchal Bugeaud.**

(2) Daumas : **La Grande Kabylie, p. 249.**

افريقيا إلى ما لا نهاية له .» ذلك ما قاله بيجو على اثر العمل الاجرامي الذي ارتكبه الكولونيل بيليسيي عند احراقه لحوالي ألف من الأهالي ، بعدما لاذوا بالمغارات بنسائهم وأطفالهم . وكان مجلس النواب في فرنسا قد تأثر لهذه الجريمة النكراء التي كان الجيش الفرنسي وقائده بيجو يريدون أن تظل سرا مكتومًا وأن لا يعاقب مرتكبها ، ولهذا السبب اغتاظ بيجو الذي وصف كلمات النواب في الموضوع بأنها «مؤسفة» وقال بأن أثرها على الجيش سيكون «مؤلما» .

ولم ير بيجو بعد هذا غضاضة في أن يخاطب الجزائريين بما يلي : «ان فرنسا تريد أن تحكم بلادكم لكي تزدهر فيها الحياة ... تريد أن يتمتع كل واحد منكم بثمرة عمله وأن يجمع ما تيسّر له من الرزق بدون أن يخاف على ماله من السلب والنهب (1) » . ولنسمعه بعد ذلك يقول في مذكرة وجهها الى أعضاء المجالس النيابية في بلاده : «أنتم أمام شعب معتز بنفسه ، شعب محارب ومدرب على فنون القتال ومستعد لخوض المعارك على الدوام ، غيور على استقلاله كما يشهد التاريخ بذلك . فإذا أردتم أن تخضعوه وتغيروه وتحرموه من حقوقه لفائدة شعب جديد دخيل عليه ، فينبغي أن تكونوا أقوياء ، إما بتعبئة جيش مجنّد على الدوام ، أو بتقوية عزائم شعبنا وتنظيمه ليكون أقدر على البطش والسيطرة (2) » . ثم نراه أمام مجلس النواب ، في يناير 1840 ، يتظاهر بأنه يحسّ بوازع أخلاقي بعد ما لاحظ افتقار الجزائريين للمدفعية الثقيلة : «انه لمن العار أن نجرّ كل هذا العتاد العسكري الثقيل وآلات القذف الفتاكة لنستعملها ضد عدو لا يملك مثلها (3) » . ولكن هذا التصريح لم يمنعه ، ولم يمنع أعوانه من ضرب القرى والمعسكرات ، من غير تمييز بينها .

(1) La Grande Kabylie, p. 249.

(2) H. d'Ideville : Ouvrage cite, t. III, p. 290.

(3) H. d'Ideville : Ouvrage cité, t. II, p. 140.

## كافينياك ، بين التقتيل والندم

أما كافينياك ، فقد كان متأرجحا بين متعة التقتيل ، والندم بعده ، ولذلك وجد نفسه محتارا في مهنته كعسكري متفنّن في اضطهاد الأهالي واحراقهم وهم أحياء : «انها مهنة كريهة ، ومع ذلك وجدتني متعلقا بها ، ولكن لن يبقى منها سوى الندم ، لأنها قاسية أشد القسوة ، مع أنها لا تخلو من متعة (1) » . وكما قال عنه الجنرال ايبوس بأسلوبه البارع في اختيار الكلمات المناسبة وأدوات الحصر والاستثناء : «ان الغارات والحرائق ما كانت في نظره الا من بين الأساليب الوحشية التي هو مضطر ومكره على استعمالها ، من أجل القضاء على المقاومة وجمع الغنائم لمكافأة الأصدقاء الأوفياء له ، أو التعويض لهم عما خسروه (2).»

**ومع ان كافينياك حينما وصل الى الجزائر ، كان قد استنكر مشروع الاحتلال فوصفه بأنه «ورطة كبرى سوف تضيع فيها فرنسا أموالها ملء الأيادي» ، وقال عن المعمرين الذين يتعاطون الاختلاس والمضاربة في الأسعار بأنهم «خنازير تمشي على قدمين ، قد انغمسوا في النجاسة والوحل (3) » الا أن هذا الموقف لم يمنعه من أن يدعو الى توطين ما لا يقل عن 120.000 أو 130.000 من المعمّرين ، وهو عدد ضخم في ذلك الوقت . وبما أنه لايمكن ابادة العرب على بكرة أبيهم، أو تشريدهم في الفيافي والقفار . من أجل احلال المعمرين محلّهم ، لذلك اقترح ـــ حسبما رواه مترجم حياته ـــ اقترح «رأيا يمليه الحذر ويقوم على اعادة النظر في عقود التمليك ، وهذا من اجل تمكين الأجانب من استملاك الأراضي التي هي في حوزة الجزائريين .»**

---

(1) Ibos : **Le général Cavaignac, p. 112.**

(2) Ibos : **Ouvrage cité, p. 99.**

(3) Ibos : **Ouvrage cité, p. 124.**

على أن هذه العبارات المحتشمة لا تغير من الأمر شيئا . ومن جهة أخرى ، فالجنرال ايبوس الذي ترجم لحياة كاڤينياك في 1930 استعمل في هذا الموضوع أسلوبا وعبارات اصبحت مألوفة لدينا منذ 13 مايو 1958 . يقول ايبوس بخصوص من أصبح فيما بعد رئيسا للجهاز التنفيذي ، وكان لامارتين قد استدعاه الى باريس في مطلع عام 1848 : «ان الفوضى السائدة في باريس سوف تؤدي الى خراب الجزائر والتخلي عنها . فمن أجل انقاذ الجزائر لابد قبل ذلك من انقاذ فرنسا التي يكاد يمزقها التطاحن بين الأحزاب (1) » إن هذه المحاكمة العقلية ينبغي اليوم أن تصاغ صياغة معكوسة لكي تكون صحيحة . ولكن المرء لايدري أين الصواب وأين الخطأ ... لأن التناقض ليس الا من حيث الظاهر : فانقاذ الجزائر بالنسبة الى غلاة المعمرين ، والى المتطرفين الحاليين ، معناه انقاذ فرنسا ، والعكس بالعكس .

واذا التفتنا الى الماضي فسوف نلاحظ باستغراب أن الضباط ، وحتى الجمهوريين منهم ، استقبلوا قيام حكم فبراير الثوري بمزيج من الأشياء والاضطراب . ويقول الكولونيل شالمان : «ان جميع العسكريين استاءوا من قيام حكم فبراير الثوري ، لا لكونهم يحبون لويس فيليب ويتأسفون عليه ، بل لأنهم صاروا يعتقدون بأنهم خسروا معركة ووقعوا ضحايا الغدر والخيانة . وكانوا مستأنسين بكلام بيجو الذي طالما أهاب ببسالة الجيش المرابط في العاصمة ، وطالما تحدث عما يشعر به من «لذة في قتل الكثير من هؤلاء الأوباش» . وقد بقي مساعدوه في حالة من التردد الى حين قام بيدو بتسليم الاسلحة «فاستولى عليها المتمردون كأنها غنائم حرب (2) » ، ثم أضاف مستشهدا بكلام دوبراي : «ان جيش افريقيا

---

(1) Ibos: ouvrage cité, p. 124.

(2) Pierre Chalmin : **l'Officier français de 1815 à 1870, Ed 1957, p. 257.**

استقبل قيام العهد الجمهوري لا بالفتور فحسب ، بل كذلك باستياء كبير (1) » . ورغم ان كافينياك وبوسكي جمهوريا الاتجاه منذ زمن بعيد ، الا انهما شعرا بخيبة الأمل . فالسلطة المطلقة ، والحكم الاستبدادي ، والغرور الناشيء عن استلام جميع الشؤون العسكرية والمدنية في بلاد ظلت طوال خمسة عشر عاما تتعرض للسلب والنهب لصالح المعمرين ، كل ذلك جعلهما يشمئزان من اضطراب أحوال المجتمع الفرنسي ، ويتقربان من تلك البرجوازية الجشعة التي طالما استنكرا اعمالها ، ولكن بالأقوال فقط . ويضيف المؤلف : «كانت الشروط المعنوية متوفرة ليقوم الجيش بانقلاب عسكري . وضمانا لنجاحه ، وسعيا لتزهيد الضباط المتواجدين بباريس في النظام البرلماني ، خصّصت لهم مقصورتان كبيرتان في قاعة قصر بوربون ، وكان كل واحد منهم يحتلها بالتناوب (2) » . الى ان يقول في الأخير : «وفطن لويس ــ نابليون للأمر . أما البقية فمعروفة ... فبعد وقوع الانقلاب لم يرتفع بين الضباط صوت واحد لاستنكاره ، باستثناء اصوات من زجّ بهم في السجن ، أو خيبت آمالهم . ان أمثال (كافينياك)و (شاراس)و (فلو)و (لاموريسسر) و (شانغارنيي) ، المنتمين الى اتجاهات سياسية مختلفة «وصلوا» الى المرغوب ، ولكنهم كانوا يأملون المزيد في المستقبل ، وكانوا يعتبرون أنفسهم خاسرين في القضية (3).»

ان هؤلاء الضباط الخمسة قضوا خدمتهم العسكرية ف الجزائر ... ثم يعيد التاريخ نفسه بعد انقضاء 107 سنة ، عندما اعتبر ضباط جيش افريقيا أنفسهم خاسرين من جرّاء انقلاب آخر ، رغم أنهم هم الذين دبّروه ، مدفوعين الى هذا العمل بالطموح ومناهضة الحكم الجمهوري

---

(1) P. Chalmin : l'Officier français, p. 264.

(2) P. Chalmin : Ouvrage cité, pp. 264-265.

(3) P. Chalmin : Ouvrage cité, p. 265.

ولكن الضباط الفرنسيين بالجزائر لم يتخذوا هذا الموقف الا بعد أن مروا خلال ما يقرب من عشرين عاما بأطوار نزّل فيها كل واحد منزلته ، على قدر حسبه ونسبه وكفاءته العسكرية ، وعلى قدر الفرص المتاحة في تلك الحرب الطاحنة ، وبحسب الآفاق المتفتحة والتجارب المكتسبة والمشاكل الاجتماعية والسياسية الناشئة تدريجيا خلال ثورة 1830 وثورة 1848 والأحداث التي أعقبتهما ، والناشئة كذلك عن صراع الأجيال في كل الميادين .

## نشوة العمل البطولي

وقد لاحظ ب . شالمان بأن «غزو الجزائر متواصل بكل ما يرافقه من الحتميات ، بعضها مشتركة بين جميع الحروب ، والبعض الآخر خاص بميدان العمليات العسكرية . ومن نتائج هذا الغزو أن عددا كبيرا من الضباط جاءوا الى افريقيا ، فلعبت بعقولهم نشوة العمل البطولي والبارود ، وسنحت للشبان منهم فرص كثيرة للبروز وتفتحت لهم آفاق واسعة في مجال الخدمة العسكرية . والمهم بالنسبة اليهم هو الوصول الى المرغوب ، والترقي بأي ثمن ، لأن الخدمة العسكرية ينبغي أن تضمن لهم الربح كأية مؤسسة أخرى وكأي تجارة . وهكذا قام بينهم تنافس شديد من أجل الترقي بسرعة ونيل مراتب الشرف . ولذلك برزت لدى ضباط الجيش عقلية نفعية ، وهي من الدلائل على استلام البرجوازية الجديدة للسلطة (1).»

وفضلا عن هذا التطاحن من أجل المراتب الشرفية وهذا التنافس على المصالح الشخصية ، نلاحظ ابتداء من عام 1841 (وهو يعادل عام 1957 ـــ 1958 من حيث اشتداد الحرب الشاملة) ، نلاحظ قيام صراح ايديولوجي ... وتقني اذا صح التعبير . ويكشف هذا الصراع عن

(1) P. Chalmin : Ouvrage cité, p. 28.

عقلية جديدة وعن قوة فتية متحفزة للظهور في انماط من السلوك «النموذجي» حسب زعم أصحابها ، وهي موجهة ضد كل ما هو قديم . وهكذا أخذ يظهر نوع من الاشباع بالنسبة للنشاط العسكري المحموم ، وأصبحت كثير من القيم خاضعة للمراجعة. والتجربة الفرنسية في الجزائر ، التي كانت لا تزال توصف بأنها «وحيدة من نوعها» و«متميزة على غيرها» و«لا نظير لها» ، ولا تزال محصورة في فئة قليلة استأثرت بها ، هذه التجربة أخذت هي أيضا تتطور على منوال خاص بها . ويقول الكولونيل ب . شالمان : «ان جيشا جديدا قد تأسس ، فأخذ يشعر بقيمته وفتوّته ، وصار أفراده ينظرون الى من بقي في صفوفه من عهد الامبراطورية كأنهم بقايا من عهد عاد وثمود . وبقاؤهم غير مرغوب بسبب احتلالهم للمناصب الهامة ، وقيامهم حجر عثرة دون الترقّي في الرتب العسكرية . ان الضباط الشبان المغرورين بأنفسهم نتيجة ما أحرزوه من انتصارات ، ينكرون على الضباط الشيوخ عجزهم عن التكيف مع المستلزمات الجديدة ورفضهم لاستخلاص العبر من واقعهم (1) .» ثم أورد شالمان الشهادة التالية ، وهي لأحدهم تجاه الضباط الشيوخ : «ان اللهجة التي يستعملها الشبان معهم هي التالية : «كل هؤلاء الجنرالات المشهورين الذين لم تكن رتبتهم في عهد الامبراطورية تزيد على رتبة قبطان ، ولم ينشغلوا طوال ربع قرن سوى بالسفاسف ، لا يكترثون أبدا لأمر الحرب في هذه البلاد . واذا سألتهم عن شؤوننا في افريقيا فليس لهم من جواب سوى القول : «نحن الذين شاركنا في معركة فاغرام Wagram ومات منا 25000 جندي ... فكيف لا نستطيع اليوم ، وقد توفّر لنا جيش منضبط وشعب متّحد ومدفعية رهيبة وخيالة قوية ، كيف لا نستطيع أن نتغلب على بضعة آلاف من المقاتلين الحاملين للقمل ؟

---

(1) P. Chalmin : Ouvrage cité.

سوف نريكم كيف نعامل هؤلاء الأشقياء ... فهؤلاء الضباط الشيوخ الباقون من العهد الامبراطوري يأتون الى هذه البلاد بأفكار مسبقة وخطط مدروسة فيما بينهم بالتعاون مع بعض ضباط القيادة العامة . وليس من المستغرب بعد هذا أن يرفض هؤلاء المحاربون القدامى — لما يعتمل في نفوسهم من حسد وغيرة — السير على النهج الذي اختطه أمثال لاموريسيير وشانغارنيي وبيدو وغيرهم (1).»

## مشروع ترحيل الأهالي

ان النص الذى أوردناه مهم لعدة أسباب وينطبق على الوضع الحالي : فالعبارات «لايكترثون أبدا لأمر الحرب» و «شؤوننا في افريقيا» لها مقاصد معينة . فهي تذكرنا بالصراع الدائر بين القائلين بالحرب الثورية كما يسمونها والحرب الكلاسيكية ، وليس من المستبعد أن تكون الخطة العسكرية التي وضعها الجنرال شال اليوم قد أدت الى موقف مماثل لدى الضباط الشبان . ولكن الشيء الذي لم يجرؤ مؤلف ذلك الكتاب أن يعترف به هو أن ضباط الفترة الحالية ، بعد ما مضى على الفترة السابقة أكثر من قرن ، ثبت لديهم ثبوتا قطعيا أن حرب الجزائر حرب يخوضها شعب بأكمله . ويقول ديدوفيل الذي يعتبر أحسن من ترجم لحياة بيجو ، وكان ذلك في 1882 : «ان الفضل الأكبر الذي ينبغي أن نعترف به لبيجو هو أنه أدرك بأننا لا نواجه جيشا حقا . بل نواجه السكان أنفسهم ، وأنه لابد ، لكي نستقر في مثل هذا البلد ، أن لايقل الجيش في حالة السلم عما هو عليه في حالة الحرب من حيث العدد والعدة (2) » ولابد من الاشارة الى أن ما قاله ديدوفيل لا يزال صحيحا الي يومنا هذا ، باستثناء الزعم بأن الجيش الجزائري لم يكن جيشا حقا .

---

(1) P. Chalmin : **Ouvrage cité**, p. 30.

(2) H. d'Ideville : **Bugeaud**, t. II, p. 261.

ونحن نعلم أن بيجو كان هو الرأس المفكر بالنسبة لمجموعة كاملة من الضباط الشبان ، بما فيهم الكولونيل دي مونتانياك الذي تفطّن جيدا للطابع الجماعي والقومي لحرب الجزائر . ولم يكن هذا الأخير يمزح حينما تحدّث في رسائله عن مشروعه لترحيل الأهالي الى جزر ماركيز ... وشبيه بهذا المشروع ما ارتآه القبطان ريشار سنة 1845 بضرورة تجميع الأهالي قاطبة في أماكن معينة . وقد عاد الجيش الفرنسي الى هذا المشروع وأخذ منذ 1958 يطبقه على نطاق واسع .

ولكن ترحيل شعب يبلغ سكانه ثلاثة ملايين ونصف نسمة ، وحشدهم بصورة دائمة من وراء سياج شائك ، ومن وراء الخنادق هما من قبيل المستحيلات . على أن مجرّد التفكير فيهما يدل على اتجاه الاستعمار الى التحكم في مصير الشعب الجزائرى ، وقيامه بمحاولة (فاشلة طبعا) لقطع هذا الشعب عن أصوله العميقة وعن موطنه واطاره الطبيعي ، وعلى سعيه للنزول به الى الدرك الأسفل في المعيشة ، واضعافه والقضاء عليه .

على أنه ، ابتداء من 1841 ، أتيحت للعسكريين امكانيات واسعة لكي يتخذوا ــ طبقا لخططهم وأطماعهم ــ ما شاءوا من المبادرات ، ولكي «يعدّلوا» المجتمع بأكمله (والتعديل هنا من العبارات المحتشمة التي يستعملها بيجو) ، ذلك المجتمع الذي أخضع بقوة السلاح والقوانين الجائرة . ان الاحتكار الشامل ، وتسخير الانسان ، وتجريده من أملاكه ، ما لبث كل ذلك أن استحال الى نظام ايديولوجي ليلتمس لنفسه المبررات والأعذار . وقد اعتمد هذا النظام على أقوال لا تقبل النقاش ، وعلى أحكام استنتاجية . فهذا بيجو يقول : «بما أن الجيش هو كل شيء في افريقيا ، فالسلطة الوحيدة الممكنة هي السلطة العسكرية

(1) .» وتعتمد هذه السلطة على المعمرين (وهم جنود ومزارعون في نفس الوقت) ، وعلى «المكاتب العربية» التي يشرف عليها ضباط يقومون بالمخابرات ويراقبون الأهالي ، ابتداء من الشيوخ المعينين من طرف السلطة الحاكمة ، الى أدنى أفراد الشعب مرتبة ، ويقومون بتنصيب المحاكم الظالمة ، وجباية الضرائب الخ ... كما تعتمد على الجيش «الذي يكاد يتعادل في وقت السلم والحرب ، من حيث العدد والعتاد» . ومن أفراد هذا الجيش ينبغي أن يتم اختيار القيادة الحاكمة .

«نصائح» بيجو

وعلى اثر أحداث يونيو 1848 في باريس ، لم ير كافينياك ، رئيس السلطة التنفيذية — لم ير غضاضة — رغم أنه جمهوري الاتجاه — في أن يلتمس لدى بيجو (المتقاعد آنذاك) بعض النصائح حول اصلاح الادارة التعميرية ، فما كان من المارشال الطاعن في السن ، الوفّي لمبادئه العسكرية المناهضة للجمهورية ، ما كان منه الا أن استجاب على الشكل الآتي : «بما أن الجيش هو الأقوى عددا وعدة ، وبما أنه يؤدي أهم الخدمات ، فينبغي أن تكون له السلطة العليا . وأفضل سبيل لتمكينه من السلطة ، مع مراعاة الأفكار «الخيالية (*)» هو اعلان حالة الحرب الدائمة في الجزائر ، وتعيين عدد أكبر من العسكريين في الادارة الحاكمة . ومن المستحسن طبعا أن لا تكون هناك سلطة أخرى غير السلطة العسكرية . ولكن المدنيين (**) قد يعتبرون أنفسهم مهضومي الحقوق . ولذلك أرى أن تترك الادارة المدنية للمعمرين ، ولكن مقاليد الأمور يجب أن تكون بيد العسكريين . وهكذا ، فلابد من مراعاة

(1) H. d'Ideville : le Maréchal Bugeaud.

(*) يقصد بيجو بالأفكار «الخيالية» الأفكار الصادرة عن الجمهوريين ، وقد وصفها بهذا الوصف على سبيل التهكم . (المترجم) .

(**) المقصود بالمدنيين هنا هم الأوربيون المستوطنون . (المترجم) .

مقتضى الحال ، مهما كلّف الأمر (1) .» ثم أردف هذه النصائح بعرض نتلمس فيه قلبا قاسيا أشد القسوة . ويتضمن هذا العرض فكرة عن نظام اضطهادي مكثّف يتآزر فيه الجيش والمعمرون ، ذلك النظام الذي ظلت البلاد تعاني منه الأمرّين طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهكذا يمضي بيجو في تقريره لرئيس السلطة التنفيذية الفرنسية قائلا : أرى أن يزداد عدد أفراد الجيش تبعا لازدياد عدد المعمرين المستوطنين . ولا ينبغي أن يغيب عن بال أحد بأن القرار الحياسي الخاص بالتعمير يترتب عليه مضاعفة راد الجيش تبعا لازدياد عدد المعمرين المستوطنين . ولا ينبغي أن يغيب عن بال أحد بأن القرار السياسي الخاص بالتعمير يترتب عليه مضاعفة أفراد الجيش . ومما يحتّم علينا أن نضاعف قواتنا العسكرية ، أن حقد العرب علينا سوف يشتد كنتيجة لادخال عدد كبير من المعمرين المزارعين الجدد الذين سوف يضايقون الأهالي في تعاطيهم للفلاحة . فهؤلاء سوف يعتبرون أنفسهم مظلومين ، وهذا حق من حقوقهم ، رغم كل ما قيل ... فمن أراد أن يكون ظالما ، عليه أن يكون قويا ، وقد كتب علينا أن نكون ظالمين في افريقيا لكيلا نكون مظلومين في فرنسا (2)» .

هذا ما قاله بيجو ... وكلامه ، على ما فيه من الوقاحة والقساوة ، يدعو الى الاعتقاد بأنه أراد أن يعبر عن مخاوفه من الخطر الذى يهدد النظام البرجوازى المحافظ في فرنسا بالذات ، بعد قيام الجمهورية فيها . ان الفترة التي نتحدث عنها محددة في عام 1848 ، بعد عملية القمع في شهر يونيو ، وعلى أعقابها تمّ ترحيل عدد كبير من المتمردين والعمال وأفراد البرجوازية المتوسطة الحال ، الى الجزائر ، حيث استفاد الكثير

(1) H. d'Ideville : **Ouvrage cité**, t. ÌII, p. 370.

(2) H. d'Ideville : pp. 367-368, t. III.

منهم ، كما سبق القول ، من توزيع الأراضي على حساب الجزائريين الذين أصبحوا مسخرين للخدمة في حقول كانت ملكا لهم .

ان المنظرين théoriciens العسكريين بعد أن عملوا على حرمان الأهالي من حقوقهم ، وتوطين الأوربيين على أوسع نطاق ، وحشر الأهالي في مدنهم المخرّبة أو المحوّلة الى مدن أوربية ، هؤلاء العسكريون انتقلوا الى المرحلة الأخيرة من مهمتهم ، وتتمثل في اختيار «الصفوة» من الضباط المحنّكين ، مع ضمان الامتيازات لهم ، وبثّ الحماس في نفوسهم للقيام برسالة زائفة . فهذا ترومولي ، المشهور بالحماقة ، يقول على لسان الدعاة الى التكفير عن الذنوب ، بخوض الحروب : «ان الجيش الذي استطاع أن يخضع الشعب العربي ، لا يزال اليوم مسؤولا عن رعاية هذا الشعب . فعليه أن يقوم بتربيته الى أن يأتي ذلك اليوم الذي سيطالب فيه الجيش بتحريره . انه كالطفل الذي وضع مستقبله أمانة في يديه ، وسوف يكون الجيش مسؤولا عن ذلك أمام التاريخ (1).»

ولكن يجب أن لا ننخدع بهذه العبارات : فهذا القول الشبيه بكلام الأب الحنون ، وهذا المبدأ الذي يبدو كأنه حق معترف به للشعب العربي ، ينبغي أن نضعهما في السياق الزمني ، أي في 1860 ، وهو تاريخ الرحلة الأولى لنابليون الثالث الى الجزائر . ويمضي ترومولي قائلا : «وكان هناك اتجاه قوي آنذاك الى ترحيل الأهالي وذوبانهم في القرى الفرنسية وادماجهم الفوري مع الأوربيين (2) .» ان الذوبان والاندماج يرميان في الحقيقة الى هدف آخر غير الهدف المتوقّع ، لأن «هذه الأفكار — كما يقول المؤلف — هذه الأفكار التي لا تخلو من شيء من الشدة ، والتي ترمي فيما يبدو ، الى حرمان المغلوبين من حقوقهم ، أحدثت رد

(1) Colonel Trumelet : Yusuf, t. II, pp. 284 et suivantes.

(2) نفس المصدر السابق .

فعل وأدت الى مقاومة المشروع من طرف من كان يرى ضرورة التقيّد حرفيا بالمادة الخامسة من اتفاقية 5 يوليو 1830 المبرمة بين القائد العام للجيش الفرنسي ، وصاحب السمو ، داي الجزائر . وهي اتفاقية كان من الممكن أن يستغني عنها الجنرال دي بورمون ، باعتبار أن العدو كان مغلوبا على أمره تماما . ولو أن المسألة اقتصرت على ضمان السلامة للمغلوب في حياته لكفاه ذلك غنما كبيرا . » ان المادة المشار اليها ، والتي استاء منها الكولونيل ترومولي ، رغم أنها ، باعترافه هو بالذات ، لم تطبق أبدا ، من جملة ما نصّت عليه ، أن : «حرية جميع فئات السكان ، ودينهم ، و**أملاكهم** ، وتجارتهم ، وصنائعهم ، لن تتعرض لأي اعتداء» من طرف الفرنسيين .

## صراع بين العسكريين والمدنيين

ان ترومولي ، على غرار بطله المفضّل الجنرال يوسف وغيره من الضبّاط الآخرين ، لم يكن يؤمن بفكرة التكفير هذه ، باعتبار أنها قد تعرقل مساعي المعمرين للسيطرة على البلاد كلها . ويقول ترومولي بأن الجنرال يوسف قدّر في «تقرير له مهمّ جدا كتبه في 1858» قدّر الأراضي التي «يمكن أن تنتزع من الأهالي في **مقاطعة الجزائر وحدها ، ومن غير الحاق أيّ ضرر بمصالحهم (هكذا)**» بحوالي 2.320.000 هكتار . ان أمثال هذه المزاعم كثيرة ، وسببها كما أوضحنا من قبل ، هو التناقضات الرسمية التي تتحول الى عقيدة راسخة . ان الفرق الوحيد بين أصحاب فكرة «التكفير» وخصومها هو أن أولئك كثيرا ما وقفوا ضد ترجيح كفة المعمرين بالنسبة للعسكريين ، فأخذوا يصرّحون ، ولكن بكل فتور ، باحتمال تمكين الجزائريين على المدى البعيد من التمتع بالحرية (حرية ... ولكن من أي نوع ؟ وبأية وسيلة ؟ والى أي حد ؟) . أما خصومها فقد وقفوا ضد أى تحرّك في هذا الاتجاه . فينبغي اذن أن

نستنتج بأن بعض التناقضات (وليست في الحقيقة تناقضات ، لأن التناقض ليس الا من حيث الأقوال) تخفي وراءها نظاما مدروسا يتعالى فوق الصراع ، ويشكّل باستمرار الخط الموجه للسلوك العسكري في الجزائر الى يومنا هذا .

وسواء كان الضباط مؤيدين أو معارضين لفكرة «التكفير» التي تميزت بها مبادرات نابليون الثالث الفاترة الفاشلة في حوالي 1860 ، وسواء كانوا مساندين أو مناوئين للحكم المدني الذي أخذ يتوسع منذ عام 1870 ، فانهم ــ باستثناء القليل منهم ــ كانوا مؤيدين لمشروع الاستيلاء على الأراضي الجزائرية ووضع الشعب الجزائري باستمرار تحت الوصاية .ولقد تسمع بين الحين والآخر عبارات محتشمة (مقصودة أو غير مقصودة) للتخفيف من الحقيقة المرة ، ولكن هذه العبارات لا تغير من الأمر شيئا . ان مهمة «انقاذ» الأهالي و«الدفاع عنهم وحمايتهم» (كما لو أن الأمر يتعلق بصيانة الحيوانات من الانقراض) ، هذه المهمة أخذت تطبق في المناطق المأهولة بالسكان ، وتزول حيثما وجد نظام مدني للمعمرين ، وينحسر ظلها الى المناطق الجنوبية ، ثم تستعيد في الأخير قوتها الكاملة في وقت الحرب . ان الكولونيل شالمان الذي شارك الى حد ما في هذا العمل ، وان كان أدرى من الضباط الآخرين بخباياه ، قد حدّد الدور الذي خوّله الجيش الفرنسي لنفسه بين 1830 و 1870 ، باجماع كافة اطاراته ، رغم بعض الخلافات الطفيفة المتعلّقة بالشكل لا بالجوهر ، فكتب يقول : «أصبحت الجزائر في هذه الفترة مجالا للتجربة بالنسبة للجيش الفرنسي . فالجيش هو الذي فتحها و «أقام فيها السلام» وأخيرا عمل على ادارتها . وهناك جوانب من السلوك الأخلاقي لبعض أفراده قد أخذت تنكشف ابتداء من 1840 تقريبا ، أي بعد فترة من الحيرة والتردد في بداية الاحتلال ، وهذا السلوك يتعلق على الخصوص

بالسياسة المسطّرة على الصعيد النظري ، أو المطبقة عمليا مع الأهالي ... وقد وقع الاجماع بين الضباط المهتمين بالسياسة الأهلية ، العاملين في مراكز القيادة على مستوى المقاطعات والأقسام الفرعية والدائرات والمكاتب العربية ، وقع الاجماع بينهم حول نقطتين ، وهما :

أ ـ فرض سلطتهم على الأهالي وتعزيزها وممارستها باستمرار . وقد تختلف الوسائل المستعملة بحسب الأمكنة والظروف ، وبحسب الوسط البشري على الأخص ، ولكنها تؤدي كلها الى هدف واحد . وهذه السياسة قائمة على فرض السلطة لصالح ضباط الجيش الفرنسي ، أو بالأحرى لصالح فرنسا .

ب ـ واذا تحقق هذا الهدف فعلى هؤلاء الضباط أو من يخلفهم في عملهم أن يمارسوا سياسة حماية الأهالي والدفاع عنهم . وهنا أيضا وقع الاجماع التام .» ثم استخلص المؤلف النتائج مشيرا الى الوئام السائد بين الضباط فيما يخص السياسة الجزائرية :« ولابد من التأكيد على هذين الأمرين ، لسببين : أولا ، لأنهما يدلّان على وجود اتفاق في الاتجاهات ، وعلى روح التعاون بين أفراد قد ينشأ بينهم خلاف في ميادين أخرى ... ثانيا لأنهما يتميزان عن الآراء السائدة في فرنسا وفي الجزائر بين قوم غرباء عن الجيش . فمن هذا الاتحاد الداخلي ، ومن هذه المعارضة للمدنيين ، تبرز احدى الخصائص المميزة للعسكرين الضباط ككتلة موحدة ».(1)

ان آراء بيجو في هذا الموضوع معروفة : فمن رأيه أن يستولي الجيش على كل ميادين النشاط الانساني والسياسي ، واذا تعذر هذا ، فلابد من ترجيح السلطة العسكرية ، والسبيل الى ذلك هو «وضع

(1) P. Chalmin : l'Officier français, pp.384-385.

الجزائر في حالة حرب» ، ورأينا كذلك كيف أن بيجو ، الذي يعتبر المنظر (بالظاء المشددة) المعتمد وصانع هذه السياسة العسكرية ، كان «يدافع» عن الجزائريين ، ويصدر تعليماته بواسطة الرسائل الادارية العديدة لضمان «حمايتهم» . ولكن هذه الحماية للأسف لم تشمل حقوقهم المهضومة وأراضيهم المغتصبة ، بل اقتصرت على موقف عاطفي بهدف تحاشي بعض الآثار السيئة ، مثل صدم مشاعر الأهالي واستفزازهم وجرح مشاعرهم ، من غير أن يقضي على الأسباب التي هي أهم منها وأكثر ضررا . وأما الخلافات الطفيفة الموجودة آنذاك بين ضباط الجيش ، فقد كانت متعلقة باختيار الأعوان من الأهالي ، من بين الاقطاعيين الموسرين ، أو من عامة الشعب ، وكانت أيضا متعلقة بأسلوب الادارة : هل تكون مباشرة أو غير مباشرة . وبينما كان بعض الضباط لا يثقون بالرؤساء الأهليين المعينين من طرف فرنسا ، ويعتبرونهم متضامنين مع الشعب ومناهضين للسلطة الحاكمة رغم خضوعهم لها ظاهريا ، فان البعض الآخر منهم كانوا على العكس لا يمانعون في استخدام أولئك الأعوان الذين ليس لديهم في الحقيقة أي نفوذ . ومن ضباط الفئة الأولى من كان يقول بضرورة ممارسة الجيش للادارة المباشرة حتى في المستوى الأدنى من سلّم الوظيفة . وكان المتعاونون الجزائريون مع الادارة الاستعمارية ، باعتراف الجنرالات والمؤرخين الفرنسيين أنفسهم ، كانوا دائما من النوع الرديء ، وهذا ما لاحظه كميل روسي في القرن الماضي عندما قال : « من أصعب الأمور أن يوّفق الانسان في اختيار الصالحين للخدمة من بين الأهالي . وكان عبد القادر الذي يعرف أقدار الرجال ، قد أخذ منهم النخب الأول ، ولذا اضطررنا نحن لأخذ النخب الثاني (1) . » ولهذا . فان موقف الضباط اذ يرفضون ، أو يتحفظون في

(1) Camille Rousset : la Conquête de l'Algérie, t. I, p. 284.

ابداء الرأي ، أو يقبلون على مضض ،كان مبعثه إما الحقد على الأهالي ، أو الاحتياج اليهم . على أن الادارة الاستعمارية أخذت فيما بعد تستعين بأي كان من غير أدنى تحفظ .

ان الاقطاعية التي صنعها الاستعمار من كل من هبّ ودبّ ، وجعلها مراتب ودرجات ، واستعان بها في مختلف عهوده ، وكانت تتألف من قيّاد (*) ، وباشغاوات ومرابطين ومندوبين في مجلس الشؤون المالية ، ومندوبين في المجلس الجزائري ، ونواب في البرلمان وأعضاء في مجلس الشيوخ ، ومستشارين في الاتحاد الفرنسي ، هذه الاقطاعية فقدت على أعقاب ثورة أول نوفمبر كثيرا من أفرادها ، وكثيرا من امتيازاتها القديمة المتوارثة خلفا عن سلف ، وابتعدت عن عملها الخبيث المتمثل في الخضوع والخيانة . وقد حاول غلاة المستعمرين الذين برزوا بعد حركة 13 مايو ، كما حاولت الحكومة الفرنسية ، ولكن بدون جدوى ، اعادة تشكيلها بمنحها مزيدا من النفوذ . ان تأنيب الضمير لدى بعض «المنتخبين» ، واختفاء البعض الآخر بطريقة مقصودة ، والاستياء العميق الذي عمّ أكثر الناس ، كل ذلك يدل على ما تميّز به الاضطهاد السياسي بمختلف أشكاله ، من حقد على الشعب . ولم يبق اليوم من تلك الألقاب البائدة الا لقب معروف هو الباشاغا بوعلام الذي لا يزال مثالا حيا عن التفاني في خدمة الاستعمار (ماضيا) ، والتمادي في الدفاع عن القضايا الخاسرة (حاضرا) . أما الذين ساروا على نهجه ، وهم قلة قليلة ، فقد وجدوا أنفسهم — باتجاههم اتجاها معاكسا للتيار — معزولين تماما عن الشعب .

---

(*) القياد : جمع قائد . وهو من أعوان الادارة الاستعمارية ومكلف من طرفها بتسيير بعض شؤون القبيلة (المترجم) .

## سياسة السيف والمحراث

واذا عدنا الى مذهبية doctrine الوصاية العسكرية على الشعب الجزائري ، وهي المذهبية التي اتفقت حولها آراء الضباط ، فسوف نلاحظ أمرا ثابتا يتمثل في رجوع الجيش المتمركز حاليا في الجزائر ، الى تجربة بيجو . فقد كتبت الجريدة الدورية (الأسبوع في الجزائر la semaine en Algérie) بتاريخ 18 الى 24 مايو 1959 ، تحت عنوان «السيف والمحراث» كتبت مقالا عقدت فيه مقارنة بين مباديء وأساليب بيجو في التعمير ، وبين وسائل «اقرار السلام» الحالية . والمقال طبعا مليء بمحاولات لتبرير أعمال الجيش الفرنسي . ولكن الشيء الذي يهمنا هو أن الالتفات الى الماضي للتذكير بهذا النموذج البغيض ، دليل قاطع على وجود استمرارية في الايديولوجية والمنهجية الاستعمارية ، وهي تكشف عن تقاليد لم تتغير تقريبا ، وعن هدف ظل كما كان ، رغم أنه يقوم على الباطل ، وعلى غير أساس من الحق :

وتبدأ هذه الجريدة بتقويل بيجو ما لم يقل : «ان المارشال بيجو كان فيما يبدو (هكذا) حريصا على أن يفهم من المثل اللاتيني (السيف والمحراث) الذي اختاره شعارا ، ما يلي : ان السيف لا يفيد الا اذا ترك المجال للمحراث (1) .» وينتقل المقال بعد ذلك الى صلب الموضوع ، مع شيء من التحفظ في الرأي : «رغم أن الظروف السائدة في هذا البلد مختلفة أشد الاختلاف في 1959 عما كانت عليه في 1841 ، فانه مع ذلك يوجد بينها تشابه يجعل من المفيد أن نتذكر المغزى من هذا الشعار المشهور ، والأسلوب الذي طبقه به بيجو (2) .» ويلي ذلك سرد مبادئ المارشال ، وعرض الوسائل والغايات ،

---

(1) La Semaine en Algérie, Miroir de l'Algérie française, année 1959, n° 42.

(2) نفس المصدر السابق .

مع التلميح هنا وهناك الى «هذا البلد الذي لم يتحقق فيه الاتحاد والسلام في الماضي الا بالسيف» ، ومع التنويه بنظام السيف «كوسيلة ضرورية استعملت في الماضي ولاتزال تستعمل من طرف الثّلة القليلة التي عملت على توحيد شمل البربر من أجل النهوض بالبلاد وترقية سكانه (1) .» وفي المقال أيضا تلميح الى «الجيش المتحلّي بكل الخصال الحميدة . واذا قلنا الجيش ، فاننا نعني المعمرين المدنيين المجندين . فهؤلاء في نظر المارشال هم أحسن وسيلة لتغيير عوائد الأهالي ، لأنهم سيكونون قدوة حسنة لهم ، وسيعملون على تقريب الشقّين من السكان (2) .» وتحاول هذه الجريدة أن تقدم الوعود الكاذبة للأهالي بأسلوب التورية المعهودة في لغة الاستعمار ، فتقول : «وكتعويض على هذه المضايقة (والمقصود بالمضايقة هنا حشر السكان واغتصاب ممتلكاتهم) ، فقد خصّص بيجو للعرب ادارة تعنى بمشاكلهم الزراعية لتعديل كفّة الميزان في الرقعة الزراعية التي خسروها (3) .» ومن المعلوم أن هذه الخسارة بلغت ملايين الهكتارات من الأراضي الجيدة ، وهيهات أن يجدي مثل هذا العلاج ! وعلى سبيل التذكير بالدور الذي لعبه العسكريون في الماضي ، أرادت المجلة أن تنوه من طرف خفي بما كان لهم من فضل ، عسى أن يقوم الجيش اليوم بنفس الدور الذي قام به في الماضي : «ان الشعوب المحاربة شعوب تحترم القوة وتخضع للادارة الحازمة .» وبما أن هذا ينطبق على الشعب الجزائري ، فقد استعان بيجو بالعسكريين لادارة شؤونه فأنشأ ما يسمى بمكاتب الشؤون العربية (4) .» ويضيف محرر المقال ، لاستدراج القاريء الى الانتقال من الماضي الى الحاضر ، فيقول : «ومن

(1) نفس المصدر السابق .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) نفس المصدر السابق .
(4) نفس المصدر السابق .

الجدير بالذكر أن تفانيهم في الدفاع عن الفلاحين (ويقصد ضباط المكاتب العربية التي حلّت محلّها اليوم مصالح العمل الاجتماعي les SAS ، هذا التفاني كثيرا ما أفضى الى التصادم مع المعمرين الأوربيين (1).»

ولا يخفى على أحد أن بعض الضباط يتظاهرون اليوم بمناهضة الرأسمالية ، بل الاستعمار . وهذا الادعاء الكاذب قد انتشر في الأوساط الأوربية ، ومن بينها جريدة (الأسبوع في الجزائر) التي اختتمت دراستها المقارنة بهذا الاستنتاج المطابق لمنطقها : «ان مشروع قسنطينة الذي استكمل مؤخرا بمشروع (الألف قرية) أصبح اليوم «محراثنا» ... وهو من ناحية أخرى عمل يهدف الى «تصفية التعمير» بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ، من غير أن يكون فيه ما يناقض المعنى الدقيق الذي أعطاه بيجو لكلمة التعمير (2) .»

## الخوف من انتهاء الحرب

لقد رأينا ، ونحن نستعرض هذا النظام الذي عرف حظوظا مختلفة من النجاح والفشل ، واتّبع خطا واحدا لا يكاد يحيد عنه ، رأينا كيف أن الجيش عمل في بداية الأمر على توطين المدنيين ، أي أنه ساعد في التعمير المدني للبلاد ، ولكنه كان يفضّل أن يكون التعمير عسكريا . فالجيش لم يكن يتوقّع من المدنيين أن تكون لهم مطالب سياسية . وعندما أدرك ذلك أخذ يعمل كل ما في وسعه لبسط نفوذه على سائر أنحاء البلاد وبالأخص على السكان الجزائريين . ان هذا الشطر الأخير من برنامجه ما كان في مقدوره أن يحققه الا عن طريق الحرب وفي ذلك خير شاهد على تحايله للسيطرة الدائمة ، وسعيه لتركيز دعائم الاستعمار عن طريق اغتصاب الحقوق واستعمال أساليب البطش والعنف . ألم يكن

(1) نفس المصدر السابق .
(2) نفس المصدر السابق .

بيجو ينصح في 1848 «بوضع الجزائر في حالة حرب» بعد مضيّ عام واحد على انتهاء حرب الاحتلال رسميا ، وذلك تبريرا لاقامة الحكم العسكري بصورة نهائية في البلاد ؟ ويقول كافينياك بأن الضباط والجنود ورجال البحرية والتجار والمدنيين من مختلف الفئات كانوا في تلك الفترة من الاحتلال المتميزة بالتسابق لنيل المجد والمرتبة والترقية والأرباح العاجلة ، كانوا متخوّفين من أن تنتهي الحرب ، وكانوا غير مستبشرين بهذا الاحتمال . أما مونتانياك ، الذي سبقه بعدة سنوات في الادلاء برأيه ، فقد اعتبر أن «مشروع احتلال الجزائر لا يصلح» لأن «الجزائر ليس فيها منفعة لأحد الا لنا نحن العسكريين ، بسبب المعارك التي نشارك فيها ، لأن كل سنة نقضيها هناك تعدّ لنا سنتين (1) .»

ولنسمع الجنرال ايبوس الذي أشاد في كتاب له صدر في 1930 ، بالروح العسكرية التي انتقلت عن طريق العدوى حتى الى الموظفين المدنيين المتأثرين بهوس الحرب ، ذلك الهوس الذي استحوذ على النظام العسكري . فقد كتب يقول : «ان الشعور الذي دفع الجندي لأن يكون مع الشعب كالراعي مع رعيته ، نفس هذا الشعور جعل المدني يقتدي بالجندي في عمله . فالمتصرفون المدنيون ، أو على الأقل الشبان منهم ، يعتبرون أنفسهم زعماء ، ويخوضون غمار الحرب ، وكثيرا ما كشفت عملياتهم عن دهاء عسكري وجراءة في وضع الخطط للحروب (2) .»

ان بيجو الذي استعرضنا مرارا مواقفه ، كان يريد أن يزداد حجم الاحتلال العسكري ، لأن هذا النوع من الاحتلال هو وحده الكفيل بالقضاء على الجنسية الجزائرية . ولذلك كان يعمل على توطين المعمرين

---

(1) P. Chalmin : **l'Officier français**, p. 30.

(2) Ibos : **Le général Cavaignac**, p. 119.

المتشبّعين بالروح العسكرية على أوسع نطاق . وفضلا عن مؤسسة المعمرين هذه (لم تدم طويلا) فقد كان يوجد في زمانه فرق من الميليشيا ، وكان لها نشاط ملحوظ ، بالتعاون مع العسكريين ، أو تحت قيادتهم : تحت قيادة الجنرال لاكروا في 1871 ، وجنبا الى جنب مع اللفيف الأجنبي في 1945 . ومنذ 1955 أصبح هذا التعاون مع الجيش منهجيا حتى بلغ ذروته ابتداء من 13 مايو 1958 ، سواء بالمشاركة في العمليات داخل المدن أو خارجها ، أو بالاسهام في أعمال التعذيب .

## التحالف بين المدني والعسكري

ان هذه الميول المشتركة بين المدني والعسكري ــ رغم افتقار المدني للمقدرة على خوض الحرب ، مما جعل بيجو يتأسف له أمام مجلس النواب ــ هذه الميول عندما تتقارب ويؤثر بعضها في بعض ، فيتعاون الفريقان في أعمال الغدر والقتل والشجاعة الزائفة والتعذيب بلاشفقة ولا رحمة ، وعندما تتلاقى في نظام يقوم على الارهاب والاستهتار بالقيم الانسانية ، عندئذ تبلغ **الظاهرة الاستعمارية** حدها الأقصى في التطرف ، وتقيم الدليل على فسادها التام ، وتلبس لباس الفاشية البغيضة . أما الذين عاشوا ، أو يعيشون حاليا ، الواقع المباشر لهذا التحالف ، وهذا «التزاوج» العفوي بين المدني والعسكري ، مع كل ما يرافقهما من ميل لاستعمال القوة الغاشمة ، فانهم يعرفون بأن الظروف الملائمة للفاشية أو للنظام الاستبدادي تسبق دائما وتمهّد للحكم القائم على الظلم والطغيان . وهذه الظروف ناشئة عن الشعور بالسيطرة ، واطلاق العنان بدون حسيب ولا رقيب للعنصرية وارتكاب الجرائم المنافية لكرامة الانسان وللحقوق والمنطق ، كما لو أن هذا الصنيع عمل وطني يستحق التقدير ! ان وصمة العار اللاصقة بالمستعمرين على سلوكهم اللاأخلاقي ، وصمة قديمة ، سواء منهم الملازمون للحياد أو الغلاة

المتطرفون . وهل الحياد ممكن عندما ينتفع «المحايد» كغيره من نظام الحكم الجائر ، ويلتزم بقوانينه ويستفيد منها ، ويلطّخ سمعته سواء أراد أو لم يرد في ذلك الاطار المتميز بالسيطرة ، والاستعلاء ، واستعمال القوة . وبناء على هذا ، فان الانتماء الى هذا الفريق أو ذاك يتحدد تبعا لاتجاه التيار العام ، وخاصة عندما تشتد الحرب ، اما كنتيجة للخوف أو للتقليد أو للتعصب . ولهذا ، فلابد من الاقرار بما للقلة القليلة من الأوربيين من فضل كبير حينما عاكسوا هذا التيار المستبد . ان عددهم قليل ، ولكن موقفهم في حد ذاته ـــ عندما يكون صادقا ـــ يدل على أنهم يتبرّأون من العقد الذي يربطهم بالحكم الاستعماري الجائر،وهو عقد عنصري فاسد . وبهذا الاعتبار فهم خارجون عن «القانون» بعدما قرروا الانضمام الى صف الدفاع عن كرامة الانسان ، ضد قوى الشر والعدوان .

## الهدف الأساسي : خضوع العرب

وعلينا بعد هذا أن لا نستبق الأمور . فالمواقف الحتمية التي اتخذها هذا الفريق أو ذاك انتظمت في حلقة جهنمية مستديمة ، وظلت منذ 130 سنة الى يومنا هذا تؤثر في مجرى الحياة . ان الأمثلة التي استشهدنا بها أكبر دليل على صحة ما قلناه بالنسبة للوضع العام ، من حيث نظام الحكم ، وما اتخذه من مبادرات متناقضة من حيث الظاهر ، لأنها مبادرات قام بها في جو من الفوضى عسكريون ومدنيون من المنظرين théoriciens ومن ضباط يمارسون في الميدان سلطة مطلقة، مع ميل واضح لاتخاذ القرار بصورة فردية مرتجلة ، ومع السعي لايجاد الحلول الخيالية والقيام بتجارب خاطئة والتمادي فيها رغم أنها منافية للعقل السليم ومتضاربة مع اتجاه العصر ، ومؤدية الى كوارث . ان الكلمة التي تتردد على ألسنتهم ، والهدف الذي أصبح الشغل الشاغل لهم منذ 1830

وكلّف من المتاعب والمصائب ما كلّف ، هذا الهدف هو «الخضوع» فهذه الكلمة نجدها مرارا وتكرارا أسفل البيانات والانذارات الصادرة عن القيادة العامة للجيش الفرنسي ، وفي المراسلات العديدة للولاة العامين ، ونجدها أيضا مستعملة من طرف الضباط على اختلاف رتبهم ، ولدى رجال الصحافة ولدى الكتّاب المسيحيين ، ولدى المعمرين ، من بداية الغزو العسكري الى نهايته ، وخلال الانتفاضات الموالية له ، وفي الحرب والسلم ، كما لو أن كلمة الخضوع هذه قد استبدّت بالعقول الى الأبد . وقلما كان يقال : «لابد من اخضاع العرب» ، بل كان يقال : «لابد من خضوعهم ، لأنه لاسبيل الى القيام بأي عمل في هذا البلد بدون خضوع سكانه» . ولم يكن لهذه الكلمة عند المعمرين مدلول عارض ومفروض فرضا بحكم الظروف العسكرية ، بل كان له معنى أوسع يرادف الرضوخ للأمر الواقع ، والطاعة العمياء ، والتبعية النهائية المطلقة ، لأنها هي الضمان الوحيد لتحقيق سعادة الآخرين ... والآخرون بطبيعة الحال هو الأوربيون . وهذه احدى الجرائد التي كانت تصدر بالجزائر ، وهي جريدة «التل le Tell» ، قد وصفت في 1865 «النظام المنسجم الأمثل» الذي ينبغي أن يتحقق في البلاد ، فكتبت تقول : «على كل واحد من سكان البلاد : الجندي بسيفه ، والمعمّر بمحراثه ، والراهب بصلاته ، **والعربي بخضوعه** ، على كل هؤلاء أن يجعلوا من هذه القوى كتلة واحدة لكي تحقق الجزائر المستقبل الزاهر الذي كتبه الله لها (1) » .

وهناك قول آخر أبلغ من هذا . فالكلمة الشهيرة ـــ والموسومة بالطابع العنصري ـــ التي ألقاها الجنرال جيرو بمدينة الجزائر عام

---

(1) Trumelet : Yusuf, t. II, p. 442.

1943 ، بعد نزول قوات الحلفاء على الشاطيء : «مكان العربي هو المحراث ، ومكان اليهودي هو الحانوت» ، هذه الكلمة تدل ، أو على الأصح توهم بأن الأقدار كتبت للعربي أن «يترقى» ولو قليلا في هذا النظام الذى سطره الاستعمار منذ احتلاله للجزائر ، وأن ينتقل من وضعية الخاضع ، الى وضعية الفلاح بمحراثه . ولكن ، ما بال الجنرال جيرو قد أغفل ذكر المعمّر ؟ السبب في ذلك أن المعمر ، منذ أن أقيم النظام المدني عام 1870 ، أصبح السيد غير المنازع في أرض الجزائر ، والمسيّر المستقل الواسع النفوذ في البلاد ، ولم يعد يتنازل ليشتغل بالمحراث في أملاكه الواسعة . ان اغفال ذكره لا يغير من الواقع شيئا ، بل يدل على الحذف المقصود ، وهذا التأويل ينسجم تماما مع المسيرة الحتمية الثابتة للاستعمار .

## مشكلة الجنسية الجزائرية

وبالاضافة الى «الخضوع» ، فان الكلمة الأخرى المترددة على لسان الجنرالات والولاة العامين المدركين للوضع السياسي ادراكا خاصا ، هي كلمة «الجنسية» . فقد كانوا يعرفون أن الجنسية موجودة ، وأنها تناصبهم العداء ، وتدفع العرب الى التضحية بالغالي والنفيس . وحتى بعد تمكنهم من احتلال مناطق شاسعة فان هذه الجنسية الحافزة للهمم شكّلت لهم عقبة كأداء ، ولذلك حاولوا القضاء عليها . وكان هدفهم من رفض التفاوض مع حكومة الأمير عبد القادر أو يبادل الأسرى معه ، وابتكارهم لأسلوب من الاضطهاد لا شفقة فيه ولا رحمة ، وتجميع الأهالي ، واقامة نظام عسكري جائر ، كان هدفهم من كل ذلك هو القضاء على الجنسية الجزائرية التي شغلت بالهم ، وتجاهلها على الصعيد الدبلوماسي ، وتحطيمها تحت وطأة الحرب . ومن ذلك أن المارشال فالي نصح رئيس الحكومة الفرنسية الكونت مولي Molé ، بمناسبة ارسال

وفد من طرف عبد القادر للتفاوض مع لويس فيليب ، بعد انقضاء عام على توقيع معاهدة التافنة ... نصحه بمنع مندوب الأمير من التفاوض مع الملك عن طريق وزرائه ، فكتب اليه يقول : «ان التنازل للأمير عبد القادر عن هذا الأمر يضعه في مرتبة الملوك ذوي السيادة ، ويضمن الاستقلال للجنسية العربية التي نحاربها (1) » وفي نفس هذه المناسبة نصح بتشديد المراقبة على بعض أعضاء هذا الوفد ، رغم أنه يمثل سيادة بلد اعترفت به فرنسا اعترافا قانونيا . وبعد مضيّ عامين ، وعلى اثر خرق الفرنسيين لمعاهدة التافنة ، اقترح فالي مرة أخرى على حكومة بلاده أن «تحول دون نمو فكرة الجنسية العربية لأنها الخطر الداهم الوحيد الذي يمكن أن يصادفنا مستقبلا في الجزائر (2) .» ثم أتى من بعده بيجو الذي استعمل وسائل في «اقرار السلام» مخالفة لوسائل سلفه ، فصرّح أمام مجلس النواب الفرنسي : «يجب أن نطيح بالجنسية العربية وأن نحطّم سلطة الأمير عبد القادر ، والا فلن تنالوا في الجزائر شيئا (3) . »

وها نحن اليوم نسمع الحكومة الفرنسية تعبر عن نفس التخوف بعبارات شبيهة بتلك ، وهي : القومية الجزائرية ، وسلطة جبهة التحرير الوطني والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية . ان الكونت ديدفيل الذي كان واليا لمدينة الجزائر ، قد عبّر عن أسفه عام 1882 على الغاء المكاتب العربية في شهر ديسمبر 1870 ، و «زوال موظفيه الذين استطاعوا ، بفضل تكوينهم الخاص ، وبفضل التقاليد التي حافظوا عليها ، أن يشكلوا قوة سمحت لفرنسا أن تتصدّى للجنسية الجزائرية

(1) Maréchal Valée : **Correspondance**, t. I, p. 256.Ed, 1956.

(2) Valée : **Correspondance**, t. IV, p. 41.

(3) H. d'Ideville : **Bugeaud**, t. II.

(1) » ومع هذا ، فان النظام الذي حل محل المكاتب العربية كان ـــ باعتراف هذا الوالي نفسه ، وباعتراف القبطان فيبو ـــ كان يسعى تقريبا الى نفس الهدف ، وهو «زوال الأهالي على الصعيد القومي ، من تلقاء أنفسهم (2) . »

على أن هذا كله ليس الا جانبا من جوانب الصراع الاستعماري بين العسكريين والمدنيين ، ذلك الصراع الذي حوّلته الحرب بصورة حتمية الى نوع من التنافس في استعمال العنف والارهاب ضد الجزائريين وما ذاك في الواقع الا صورة مصغّرة لما سوف تكون عليه الحرب الشاملة كما يتخيّلها المنظّرون الحاليون للجيش الفرنسي . فقد كتب ج . ر . تورنو مستشهدا بكلام المظليين : «ان الحرب الشاملة لاتقيم أي اعتبار لفصل السلطتين . فالمدنيون والعسكريون ينبغي أن يتحدوا اتحادا قويا وأن يتجلى هذا الاتحاد في الارادة والعمل (3) . »

## مهازل اقرار السلام

إن الأمثلة التي قدّمناها مقنعة في حدّ ذاتها ولكن توجد أمثلة أبلغ منها ، وهي تدل على أن النظام السياسي والعسكري الذي أقامه الاستعمار في الجزائر يتجدد باستمرار على نفس المنوال . ان الاتيان بالمزيد من الأمثلة قد يجعل دراستنا هذه سجلّا للخصائص الاستعمارية المتكررة ، وللنوادر المضحكة أحيانا والمبكية أحيانا أخرى . ومع ذلك فقد لا يخلو الأمر من فائدة اذا نحن استعرضنا ـــ بالاستناد الى نصوص مختلفة ـــ شريط «اقرار السلام» الذي ضمّ الى حلقاته العديدة المتشابهة ، حلقة أخرى من حرب طاحنة أخذت منذ ست سنوات تسير

(1) D'Ideville : Ouvrage cité, t. III, p. 258.
(2) D'Ideville : Ouvrage cité, t. III, p. 257-258.
(3) J. r. Tournoux : Secrets d'Etat, p. 435.

على نفس النهج القديم في عملياتها وتحدياتها وأهدافها وشعاراتها . وقد رأينا كيف ان الاستعمار أساسه هو السيطرة الدائمة على المكان والزمان . ويضاف الى ذلك الشعور بالخيبة ، وهو شعور ناشيء عن فشل المشروع الاستعماري رغم أن فرنسا لم تدّخر أي جهد لانجاحه ، وبذلت الغالي والنفيس في سبيل ذلك ، فما كان من أصحاب المشروع الا أن تحققوا من فشلهم بالنسبة للنقطة الأساسية . وهذه النقطة التي أدركها الضباط الامبرياليون منذ القرن الماضي ، لا تتمثل في فتح الجزائر ، بل تتمثل في **التغلب** على الجزائريين **واخضاعهم** طبقا لفكرتهم النهائية الشاملة التي لا رجعة فيها كأنها قدر محتوم . ولعله من المناسب في هذا المقام أن نستشهد بالكلمة الشهيرة التي كانت تتردد في زمان نابليون الأول عندما حاصر مدينة ساراغوسا وغيرها من المدن الأخرى : «يمكن التغلب على بلاد اسبانيا ولكن لا يمكن التغلب على الأسبانيين .» وهذا أيضا نوع من التحدّي ، ولكنه من التحديات التي يقف فيها الحق صامدا أمام قوى البغي والطغيان .

على أن المسألة أعقد من هذا . فهي ، بوقائعها وعناصرها ، متواصلة على طول المسيرة ، ومندمجة في الحلقة الكبرى التي تنغلق أحيانا وتتباعد أطرافها أحيانا أخرى ، ثم تستأنف مسيرتها الدائرية . فما هي تلك العناصر المتعاقبة التي يمكن أن نعثر على ما يماثلها في الحرب القائمة حاليا منذ نوفمبر 1954 ، وفي أساليبها ونقاطها البارزة ؟ ولقد توخّينا الاختصار عن قصد من أجل حث القاريء على استعمال ذاكرته لعله يسترجع الوقائع والأقوال التي تميزت بها السنوات الست الأخيرة . ولا نرى من ضرورة للتركيز على نقطة معينة أو للاشارة الى نقاط التشابه والتقارب في الأقوال والأفعال ، لأن قصدنا ليس هو الاتيان بالأخبار النادرة الدالة على الاطلاع الواسع ، وليس هو اصابة الهدف من وراء كل

كلمة نأتي بها . وقد يبدو لأول وهلة أن عرض المسألة بهذه الكيفية مملّ للقارىء ، أو هو من قبيل العبث الذي لا طائل تحته . ولكن الرجوع الى المصادر للكشف عما تتضمنه من حقائق لا يهدف الى مجرد لفت الانتباه . ان آلية هذه العلاقة بين شعبين : أحدهما يؤثر ، والآخر يتأثر ويدافع عن نفسه ، هذه الآلية ليست حادثة محصورة في وقت معين ، لأن أثرها ملحوظ على مدى قرن أو يزيد ، ولأن أساليبها البائدة وتصرفاتها البالية ونعرتها المعهودة لم تتغير على مدى السنين . ومن هنا ندرك أن الشرف لم يعد له أي اعتبار لدى السواد الأعظم من الشعب الفرنسي الذى ظل على عهد الوفاء لجيشه وللنظام الاستعماري ، اما عن وعي أو عن تهاون أو عن جهل . فالتمادي في الضلال عندما يكون على نطاق واسع ، يكشف القناع عن جريمة نكراء تقع مسؤوليتها على الأمة الفرنسية بأكملها .

وقد بدأت المسألة بلوائح أعرب فيها البرلمان الفرنسي عن ثقته بالجيش ، وهذا يذكرنا بالثقة التي حصل عليها منذ عهد قريب رئيس الوزراء ووزير الداخلية . ومما جاء في اللائحة التي صوّت عليها مجلس الأعيان بتاريخ 8 يناير 1840 : «اننا نتأسف لتجدد القتال في افريقيا ، وهذا يعتبر خرقا للمعاهدات وتعدّيا على حقوقنا ، وسوف يبادر مجلس الأعيان الى تأييد التدابير الهادفة الى اعطاء حكومة جلالتكم الوسائل الكفيلة بضمان النصر في القريب لجيشنا ، والحماية الناجعة للقبائل الموالية لنا ، ولجميع سكان تلك البلاد التي لا يجوز أن نخرج منها أبدا ..» (1) وفي 15 فبراير 1840 جاء دور مجلس النواب لكي يستنكر بأسلوب مليء بالنفاق ، الحرب التي تجددت بعدما اجتاز الجيش الفرنسي حدّ البيبان ، خرقا لمعاهدة تفنة «ان الحرب مندلعة في افريقيا ، فينبغي

(1) Maréchal Valée : **Correspondance** (janvier-août 1840), notes, t. IV. p. 7.

أن نعاقب من وجّه الينا هذه الاهانة . ينبغي أن نضرب العدوّ ضربة تشيع في صفوفه الفزع وتكسر شوكته . وقد عبرت البحر المتوسط فرق جديدة من الجيش . فهذا الجيش الذي يقاتل من أجلنا ، من حقه علينا أن ينال التأييد والمساعدة الكاملة من طرف جميع سلطات الدولة . ان دمه هو دمنا ، ولن ندّخر أي جهد في سبيل هناء جنودنا وشرف جيشنا . (1) »

على أن هذا الكلام لم يمنع الحرب الطاحنة الفتّاكة من أن تطول ، باعتراف لائحة النواب بالذات . ويمكن أن تعتبر السنوات العشر الأولى ــ من بداية الحرب الى استئنافها في أواخر 1839 ــ من السنوات التي عرفت نسبيا بعض السلم . ومع ذلك فقد جاء في كلمة وجهها أحد الضباط الفرنسيين للمارشال دي كاستيلان ، المسؤول عن تزويد جيش افريقيا : «لقد هلك في الحرب خلال عشر سنوات ما لا يقل عن 100.000 رجل ممن جاءوا الى الجزائر (2) .» والحقيقة أن هذا الهلاك المريع له سبب آخر ، وهو أن قوما كانوا يعملون على «تسميم الجيش» ، وهم أصحاب الملاهي من مختلف الجنسيات ، وكانوا يتنقلون حيثما تحركت الفرق العسكرية ويقيمون على مقربة من الثكنات وبجوار المدن ذات المعسكرات . وعلى أية حال ، فليس في هذا الرقم من مبالغة ، لأنه ثبت بأن 4.800 جندي فرنسي ماتوا في المستشفيات العسكرية بالجزائر ما بين 1 يونيو و 19 أكتوبر من سنة 1840 وحدها ، ونقل 2700 آخرون الى المستشفيات بفرنسا . ولاشك أن نصيب الحمّى في هذه الوفيات ضئيل جدا ، خاصة أنه لم يشر اليها أحد من المؤرخين ، علما بأن المارشال فالي كان من مصلحته أن يشير اليها ،

(1) Maréchal Valée : Correspondance, t. IV, p. 20 (notes).

(2) Campagnes d'Afrique, p. 221.

ولكنه اختتم تقريره بالعبارات التالية ، من غير أن يتحدث عن الحمى : «ان نيران العدو ، وما لقيه الجيش من أتعاب مرهقة في المعارك ، قد أدى الى هلاك عدد كبير من أفراد الجيش (1) .» هذا ، مع العلم بأن الأمر هنا يتعلق فقط بالجرحى الخطيرين قيد المعالجة ، أو بمن تعب وملّ من الحرب ، ولا يتعلق بالجنود الذين قتلوا في المعارك .

## التجنيد الاجباري للأهالي

وفي هذه الأثناء تقريبا ، أي في شهر نوفمبر 1840 ، أراد فالي أن يسدّ الفراغ الذي تركته هذه الحرب الفتّاكة وأن يسيطر سيطرة تامة على الشعب الجزائري ، فعمد الى التجنيد الاجباري للأهالي ، وشكّل من هؤلاء فرقا شبيهة بما نسميه اليوم «الحركية» واتخذهم رهائن . وكانت هذه الفكرة معمولا بها قبيل التوقيع على معاهدة تفنة ، ولكن الأهالي لم يكونوا يعملون في الجيش الفرنسي الا كأعوان . ثم عندما استؤنفت الحرب برزت فكرة اتخاذهم رهائن بكيفية معمّمة . فمبادرة المارشال كلوزيل «لم تستهدف زيادة القوات الفرنسية عددا عن طريق التجنيد ، بقدر ما استهدفت فتح المجال أمام قسم من السكان للانضمام الى صفوفنا لكي يتميزوا على غيرهم من السكان ، كمثال تقتديه فئة من المسلمين موالية لفرنسا (2) » أما فالي الذي جعلته التجربة يعارض فكرة تجنيد فرق نظامية من الأهالي ، بسبب فرار أفرادها على نطاق واسع ، وكذلك بسبب ما يقدّمونه من خبرة تقنية للجيش الوطني الجزائري ، فانه كان يرى بأن يعمد في المناطق المحتلة ، الى تجنيد فرق غير نظامية ، لأن «كل أعمال القمع ، وكل الاجراءات اللازمة لجباية الضرائب ينبغي أن يتولاها جنود من الأهالي ، ومن أجل هذا الغرض سخرناهم . (3) » ولكن ،

(1) Valée : Correspondance, t. V, p. 74.
(2) Clauzel : Correspondance, t. II, pp. 162-163.
(3) Valée : Correspondance, t. I, p. 406.

هاهي ذي الحرب تتجدد . فالعملية التي كانت في البداية عملية ادارية استفزازية ، تحولت الى عملية سياسية صرفة بهدف قهر السكان وتحميلهم مسؤولية جماعية .

ان صاحب فكرة اتخاذ الجزائريين رهائن من بين الرؤساء والأعيان ، ومن ذوي الجاه ، ومن بين العائلات الكبرى والطوائف المختلفة الخ ... هو المارشال سولت ، وزير الحرب ، الذي تولى نقلها مرتين — مع فاصل زمني بين المرة الأولى والثانية دام بضعة أشهر — الى الوالي العام فالي على شكل تعليمات ، فما كان من فالي الا أن استجاب في الأخير للفكرة . والحقيقة أن فالي تلقى هذه التعليمات مكرها ، وعلى الأخص فيما يتعلق بتعميمها ، الا أن هذا لم يمنعه من أن يطبقها على أوسع نطاق . فهو يقول في رسالة وجهها بتاريخ 30 نوفمبر 1840 الى الوزير : «ان تشكيل فرق من الصبايحية spahis غير النظاميين وفّر لنا من هؤلاء عددا كبيرا من الرهائن . وعما قريب سوف نسخّر لخدمة فرنسا في مقاطعة قسنطينة 1.500 فارس ... وسوف نتخذهم ضمانة لولاء الأهالي الآخرين ، كما أن كتيبة التيرايور في قسنطينة وفّرت لنا عددا كبيرا من الرهائن ... وأصدرت أمرا الى بعض القبائل التي فرضنا عليها مدّنا بالفرسان ، بأن تنتقل الى برج سطيف لكي تكون في حمايته . فهذه العائلات هي في الواقع رهائن بين أيدينا ، **وبهذه الكيفية تصبح العلاقات بين الشعبين أوثق وأمتن (هكذا)** ... واتبعنا نفس الأسلوب في مقاطعة الجزائر ... ومن الرهائن أيضا رجال الدرك الأهليون الذين تقيم عائلاتهم في الجزائر والبليدة والقليعة ... وسوف تلاحظون يا سيادة المارشال أنني فضلا عن الاجراءات التي أشرت اليها ، خولت نفسي حق أخذ الرهائن من جميع القبائل الخاضعة لنا . وسوف أعمل على تطبيق هذا الأمر بشكل خاص عندما تعلن قبائل التيطري ووهران انفصالها عن عبد القادر .(1)»

(1) Valée : Correspondance, t. V, pp. 154-155.

وبما أن جلّ العمل قد أنجز باتقان ، من غير أن يستلزم الأمر اصدار «بيان عام للأهالي» أو «أمر الى الجمهور» ، وفق ما نصح به المارشال سولت من ضرورة ملازمة الحذر ، فلم يبق بعد هذا الا أن تستغلّ الفرصة في جميع المجالات ، وحتى على المستوى الرسمي . وهذا ما حصل بالفعل : ففي تقرير نهاية السنة (31 ديسمبر 1840) الذي وضعه فالي حول الوضعية العامة في الجزائر نجد هذا الأخير ينساق مع التيار ، على غرار ما فعله من بعده لاكوست الذي كان دائما يضخّم عدد الحركية في كل خطاب من خطبه ، أو على غرار ما صرّح به مؤخرا رئيس الجمهورية الفرنسية . وهكذا راح فالي يؤكد بأن «القضية الفرنسية تلاقي اليوم عددا متزايدا من الأنصار . فالفرق الأهلية المسخّرة لخدمتنا متزايدة بشكل ملحوظ ، وعدد أفرادها يكاد يبلغ في هذه السنة ضعف ما كان عليه ، وولاؤها لنا يتأكد يوما بعد يوم (1) » . وبهذا نلاحظ أن الاستعمار لم يغير اليوم شيئا من أساليبه ، لامن حيث طريقة تجنيد الحركية ولامن حيث الشعارات الخاصة بهم . وكما كان الأمر بالأمس ، فان الجنود الجزائريين المدعوّين اليوم لأداء «خدمة» العلم الفرنسي كأعوان ، يعتبرون ــ هم وذووهم ــ من الرهائن في يد فرنسا .

## حرب ضارية ابتداء من 1841

ان الحرب في عهد فالي ، وان كان قد أعدّ لها كامل العتاد العسكري ، الا أنها لم تبلغ ما بلغته من الضراوة ابتداء من فبراير 1841 تحت قيادة بيجو . على أن المؤلفين العسكريين مثل شالمان يعتبرون عام 1840 من الأعوام الحالكة في الحرب ، علما بأن الخسائر الفرنسية التي ذكرها لا تشمل الا الضباط : ففي تلك السنة قتل منهم أربعة وأربعون . وعلى العموم ، فان معدّل القتلى بلغ 17 في السنة ، اعتمادا على الرقم

(1) Valée : **Correspondance**, t. V, p. 230.

الذي أعطاه هذا المؤلف ، وهو 304 ضابطا ممن لقي مصرعه في الحرب بين 1830 و 1847 (1) . ولكن الشيء الذي سكت عنه هو أن نسبة الخسائر بين الجنود مرتفعة جدا الى درجة أنه عيب على بعض القادة العسكريين كونهم «جاءوا الى الجزائر ليتعلموا المهنة على حساب الجنود (2) .» وقيل عن الجنرال باراغي ديليي بأن «المشي المنهك الذي فرضه على جنوده جعل عددهم يتناقص من 5.000 الى 3.000 رجل (3) .» ويستفاد من رواية شالمان لكلام توماس أن هذا الأخير قال عن بعض الضباط بأنهم «يطلبون الشهرة» بخوض معارك «متعمّدة» وأنهم تعلّموا المهنة «بدفع ثمن باهظ من الخسائر في الأرواح (4) .» والمهم في الموضوع أن هذه الخسائر وهذه الاحتياجات العسكرية المتزايدة أرغمت المسؤولين الفرنسيين على تجنيد فرق غير نظامية من الرهائن ، وجعلتهم يفكرون — وهي فكرة أخرى من أفكار المارشال سولت — في استخدام العبيد من السودان الشرقي ، بعد شرائهم من أحد الزعماء الليبيين المنشقّين ... كما جعلتهم يفكرون في استخدام اللاجئين الاسبان . ففي رسالة رسمية بتاريخ 2 نوفمبر 1840 يقول فالي بأنه أعطى الأوامر لكي تنقل الكتيبة الاسبانية الى الجزائر . وقد أضاف الأستاذ غ . ايفر الذي تولّى نشر هذه المراسلات ، أضاف الملاحظة التالية في حاشية الصفحة : «كتيبة تدرّبت في فرنسا ، وهي تتشكل من الاسبان اللاجئين الى فرنسا بعد هزيمة الكارليين carlistes (5) .»

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، اذ ما كادت هذه الكتيبة التي ألحقت باللفيف الأجنبي تحطّ الرحال حتى فرّ 44 من أفرادها وانضموا

(1) P. Chalmin : l'Officier français, p. 29.

(2) Campagnes d'Afrique, pp. 239-240.

(3) Campagnes d'Afrique, pp. 241-242.

(4) P. Chalmin : Ouvrage cité, p. 29.

(5) Maréchal Valée : Correspondance, t. V, p. 94.

الى الصف الجزائري (1) . وهناك تفاصيل أخرى حول هذا الموضوع مستقاة من مذكّرة صادرة عن القيادة العامة للجيش الفرنسي بتاريخ 30 نوفمبر 1840 . ومما جاء فيها : «ولكي أضع حدا لفرار الجنود المتكرر يوميا رأيت من الضروري أن أبعد عن مدينة الجزائر هذه الكتيبة الخامسة التي لو بقيت هنا ، لما ترددت في الانضمام الى الكتائب النظامية التابعة لعبد القادر ، علما بأنه انضمّ اليها من قبل حوالي المئة من الاسبان التابعين للفيف الأجنبي ... وقد توجّهت هذه الكتيبة الى عنابة وأوصيت بتشديد المراقبة عليها ، ويضمّ جيش المشاة التابع لعبد القادر أكثر من مئة من هؤلاء الاسبان ، وسوف ينضم اليهم بكل تأكيد الخمسة والستون من الجنود الفارين مؤخرا ، بعد ثلاثة أيام فقط من وصول الكتيبة الخامسة التابعة للفيف الأجنبي (2) » والحقيقة أن الفرار من الجندية كان يقع من قبل ، وهذا ما يستفاد من تقارير أحد الضباط ، وهو الكولونيل ديلينس d'Illens الذي أشار الى حالات مماثلة سببها فيما يبدو ، الدعاية المكتوبة «بعدة لغات التي قامت بها المصالح المختصة التابعة لجيش عبد القادر ، وكان من نتائجها أن فرّ 25 من اللفيف الأجنبي خلال ثلاثة أشهر (3) .»

## ما أشبه اليوم بالبارحة !

ان الذين يتتبّعون الوضع العسكري السائد في الجزائر منذ ثلاث سنوات ، لاشك انهم لاحظوا وجود شبه كبير بين الحالة المذكورة أعلاه والحالة الراهنة . فمن المعروف ان بعض اللاجئين المجريين (الهنغاريين) الذين أرغموا على الدخول في اللفيف الاجنبي ، أخذوا منذ 1957 يفرّون من الجندية ، وقد نشرت جريدة «المجاهد» تصريحاتهم . أما الصحافة

(1) Campagnes d'Afrique, pp. 207-208.

(2) Valée : Correspondance, t. V, pp. 194-195 (notes).

(3) D'Illens à Valée : In Correspondance, t. V, p. 44.

الفرنسية ، فقد خامرها الشك في صحة الخبر ، ولازمت الصمت ، الى أن نشرت جريدة «لوموند» في عددها الصادر في 6 اكتوبر 1960 خبرا أشارت فيه الى ماقامت به الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والسلطات المغربية من تحرير 11 جنديا من الفارين التابعين للّفيف الأجنبي . ومما جاء في الخبر ما يلي : «ذكر أحد المجريين ، واسمه لاجاس ايلاس ، يأن كل سرية من سرايا اللّفيف الأجنبي تضم 25 لاجئا مجريا ، وأن معظمهم التحقوا بفرنسا بعد انتفاضة بودابيست في 1956 ، وأنهم أرغموا على الدخول في اللّفيف الأجنبي» . ونستنتج من هذا أن اللاجئين الاسبان كانوا هم أيضا مرغمين على الدخول في اللّفيف الأجنبي ، على غرار اللاجئين المجريين اليوم ، بدليل أنهم سارعوا الى الفرار عن سبق تصميم ، وبصورة جماعية .

ولكن الحرب مستمرة ، وهذا الاستمرار أفضى من الناحية النفسية الى نوعين على الاقل من ردود الفعل ، بحسب ما إذا كان الأمر يتعلق بالمدنين — وعلى الأخص الليبراليين منهم — أو بالعسكريين والمدنيين من ذوي الأحقاد والضغائن . ففي الحالة الأولى نجد مواقف لا تزال مألوفة اليوم لدى بعض الديمقراطيين الفرنسيين بالجزائر ، مع ما يرافقها من نفاق ورياء ، وهذا ما أشار اليه كلوزيل في 1835 : «هناك فريق كبير من الأهالي وحتى من الأوربيين الذين يشق عليهم أن نمضي في الحرب ضد عبد القادر ويريدون أن نتفاوض معه . فهذا الفريق له مصالحه الخاصة ، ويقدمها على مصالح فرنسا التي لا يكترث بها (1) » . أما الموقف الثاني المتمثل في من يدّعي بأن حرب الجزائر دخلت ربع الساعة الأخير ( أي أنها على وشك الانتهاء) ، فنجد شواهد عليه في كل حين ، بل حتى في الاوقات التي اشتدت فيها الحرب : في 1841 و 1842 ، أي

(1) Clauzel : **Correspondance**, t. I, p. 271.

قبيل انتهاء الحرب مع عبد القادر بخمس أو ست سنوات ، وقد اتخذ فالي هذا الموقف في أول عهده بالحكم . ولكنه بعدما جرّب الأمور أصبح غير متيقن مما يقول . أما الضباط المتجهون اتجاه بيجو ، وهو من الشبان المتحمسين ، فكانوا يؤيدون هذا الرأي بدون تحفظ . ويقول أحد هؤلاء : «من المؤكد أن عبد القادر سينهزم قريبا ، وما بقي علينا الا أن نضرب الضربة القاضية . (1) » ويقول آخر : «ان الأوضاع العسكرية في هذه البلاد تسير فيما يبدو نحو تسوية قريبة . فهناك ما يدعو الى الأعتقاد بأن حكم عبد القادر سينهار انهيارا تاما (2) » . وندرك مما قاله ضابط آخر أقل سذاجة ، بأن الدعوة الى « التآخي » بين الفرنسيين والاهالي قديمة ، اذ يقول في مراسلة له بتاريخ 1842 : « ولو صدقنا ما تقوله الجرائد وكلمات الولاء لما بقي علينا الا أن نتعانق ، لأن الحرب في زعمها قد انتهت (3) » .

ومع هذا كله ، فقد كان لبعض هؤلاء رأي سديد في الحرب ، بل وصلوا أحيانا الى حد التنديد بالاقطاعية والظلم السافر والكذب والتعدي على حقوق الأهالي وغير ذلك من الأمور التي استنكروها بعقل متحرر ، في سلوك رفاقهم ورؤسائهم . ولكن ، بما أن التقتيل والتشريد هما القاعدة في كل غزو استعماري ، فان هؤلاء الضباط الذين يشهد لهم التاريخ لا محالة بالشجاعة ، لم يرفع منهم صوته لاستنكار الظلم الا فئة قليلة جدا . فالحرب هي الحرب ، وليس من موقف ترتضيه القيادة الفرنسية العليا تجاه الجزائريين والحكومة التي تمثلهم سوى رفض التفاوض وارغام العدو على الاستسلام التام ، أو على الأقل ، استعمال أسلوب

(1) **Campagnes d'Afrique**, p. 251 (1841).

(2) **Campagnes d'Afrique**, p. 257.

(3) **Campagnes d'Afrique**, p. 272.

المراوغة والنفاق ، بالدخول في مساومات من أجل سلم ممزق يعرض بصورة منفردة على الرؤساء المحليين وعلى أشخاص ليس لهم وزن ، وعلى بعض العائلات الخائنة .

وهنا أيضا نجد نوعا من التشابه بين الحاضر المتمثل في تصرفات الوالي العام روبير لاكوست وفي أحداث 13 مايو ، وبين أحلام الماضي الباطلة ، مما يدعو الى الاعتقاد بأن الغلاة الفرنسيين المحدثين قد اتخذوا النماذج المعروفة من القرن الماضي لأنفسهم قدوة . فبينما يؤكد المارشال كلوزيل ، الوالي العام للجزائر ، بلهجة موتورة ، وقبيل التوقيع على معاهدة التافنة بعام واحد : «عزم الحكومة على أن لا تقبل شيئا آخر غير استسلام عبد القادر ، لأنه لا يمكن التفاوض مع رجل لا يزيد في نظرنا عن كونه رئيس عصابة المتمردين (1) » ، إذا بالمارشال يصرّح فيما بعد ، على اثر نقض تلك المعاهدة : «لقد اغتنمنا جميع الفرص للاعلان بأننا لن نتفاوض مع عبد القادر ، ولكننا على استعداد لاستقبال الرؤساء والأهالي المنشقّين عنه والراغبين في التفاهم معنا على انفراد (2) .» وهكذا نلاحظ بأن الذين كانوا في أواخر 1958 ينادون بضرورة التوصل الى «وقف اطلاق النار محليا» و «هدنة عن طريق التقسيم التربيعي quadrillage لا عن طريق المفاوضة» هؤلاء لم يأتوا بجديد منذ عهد فالي !

## «سلم الشجعان»

ان هذا التشابه بين الحاضر والماضي يبدو على أوضح صورة عندما ننتقل الى المارشال الثالث ، المارشال بيجو الذى يعتبر لعدة أسباب امام الجيل الجديد من المستعمرين الغلاة ، بل امام بعض المسؤولين المحنّكين . فهو الذى ابتدع الصيغة الأولى لما يسمى اليوم «سلم الشجعان» la paix

(1) Clauzel : Correspondance, t. I, p. 754.

(2) Valée : Correspondance, t. V, p. 229.

des braves . والحكاية ، وان كانت طويلة ، الا أنها تستحق أن تروى لأنها ، فضلا عن أهمية موضوعها ، تلقي الأضواء على بعض الأساليب الدنيئة المتعجرفة التي كانت تستعمل مع المسؤولين الجزائريين في موقف الدفاع عن حقهم المشروع وكرامة بلادهم .

ان الأحداث التي تهمنا في هذا المقام وقعت في 1843 . وكان المارشال قد عهد الى صديقه الحميم ، كبير التراجمة في مكتب الشؤون العربية ، ليون روش Léon Roches ، بمهمة اقناع الأمير عبد القادر بالاستسلام لفرنسا ، هو وجيشه ، «وشرفه سالم» . وكان ليون روش قد لازم الأمير طيلة المدة التي طبقت فيها معاهدة التافنة وكان يتمتع بثقة لا تعدلها ثقة ، وبتقدير الأمير ومودته . وعندما عيّنه بيجو ــ اعتبارا للأسباب السابقة ــ لكي يؤدي هذه المهمة ، انقلب الى شخص متجرد من كل حياء ، فكتب اليه هذه الرسالة التي تعد آية في الوقاحة والنذالة :

«لله في خلقه شؤون ، فهو يسلّط شعبا على شعب آخر ، وينتزع بلدا ليعطيه لمن يشاء من عباده . وقد كانت افريقيا ملكا لأجدادنا (*) الى أن طردهم منها الأتراك . (هكذا) وشاءت عناية الله أن نعود اليها من جديد بعد أن خرجنا منها قرونا عديدة . فما عليك الآن الا أن تذعن لمشيئة الله (1) .»

وبعد هذه المقدمة واصل ليون روش كلامه : «لننتقل الآن الى موضوع هذه الرسالة . لقد قلت لي بأنك ستقبل أيِ عرض لا يكون فيه مساس بالدين . وعهدي بك أذكى من أن يكون قصدك هو توقيع معاهدة معنا أو التوصل الى حل سلمي ، لأننا لو فعلنا ذلك لكنا

---

(*) على أية حال لم تكن «ملكا» للغال Gaulois (أجداد الفرنسيين) ، بل «ملكا» للرومان . (المؤلف) .

(1) H. d'Ideville : **Le maréchal Bugeaud**, t. II, pp. 451-458.

مجانين . ولعلك قصدت أنك لن ترفض تسوية تضع حدا للقتال بطريقة تصون كرامتك وكرامة ذويك ، ولا تتعارض مع معتقداتك ودينك . فلتعلم اذن أن المارشال قد تفضّل بمراعاة الالتماس الذى تقدمت به اليه ، لكي يضمن لخصمه المغلوب عاقبة محترمة ... أما الذين لا يرافقونك (الى مكة) من أفراد جيشك فسنعطيهم الأمان وسيعود كل واحد منهم الى عشيرته ... وأعتقد أنك لن تجد في سجل التاريخ مثل هذه المعاملة الكريمة من طرف عدو منتصر ، كما أنك لن تجد من يضمن لك مثل هذه النهاية الشريفة لعدو مغلوب . ومما يتأسف له المارشال أن يراك — بعد ما كافحت كفاحا يليق بمقامك كأمير في سبيل دينك ووطنك — قد نزلت الى هذا المستوى الوضيع وانقلبت الى رئيس عصابة : تقطع الطرق وتقتل وتنهب أملاك القبائل الضعيفة البريئة لكي تعيش أنت وعصابتك (1)

هذه الرسالة فيها تزوير مقصود للحقائق من طرف ليون روش ، وفيها أيضا تذرع بحجج معروفة وباطلة بهدف الفت من عضد الخصم . وقد برهنت الأيام عن بطلان هذه الادعاءات عندما انتصر جيش الأمير مرتين انتصارا باهرا على الفرنسيين . وقد اعتبر كاتب عسكري هو الكونت ديريسون ، اعتبر معركة سيدي ابراهيم على أنها من أشنع الهزائم التي مني بها الجيش الفرنسي من الناحية الاستراتيجية .

ولنعد بعد هذا الى مناورات ليون روش ، فنجد أن ديدفيل (صاحب ترجمة حياة بيجو) قد تملّكه الاعجاب بما لاحظه من «أنفة في جواب عبد القادر الذي ظل يطالب بتطبيق معاهدة التافنة ، أو بتجديدها (1) » بينما كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة لا تريد منه سوى الاستسلام ، هو وجيشه . وما علينا الا أن نقارن بين جواب الأمير

(1) H. d'Ideville : **Le maréchal Bugeaud**, t. II, pp. 461-463.

الأبي ، وكلام ليون روش الوقح : «لو أن الرسالة الأولى التي بعثناها اليك وصلتك ، لأدركت ما هو في وسعنا أن نعمله ، وما هو فوق طاقتنا . ولكنك صديقنا ولا بأس أن نعيد ما سبق أن قلناه لك ... فلتعلم أن العروض التي قدمتها ، وأكدت أن المارشال بيجو سيصادق عليها ، ليست معقولة في شيء . كيف سولت لك نفسك — وأنا أعتبرك كولدي — وكيف تدّعي بأن مسعاك صادر عن محبة خالصة ، وكيف خطر ببالك بأنني سأقبل بكل امتنان حلا أستطيع بما لديّ من امكانيات أن أتوصل اليه ؟ وأراك تتنبّأ لي بنفس المصير الذي وقع لأخي وصديقي سيدى محمد بن علال . (1) فلتعلم بأنني لا أخشى أن يكون لي نفس المصير ، بل أطلب هذا من الله عاجلا أو آجلا ، لي ولجميع المسلمين ! ... والآن أقول لك يا صديقي : اذا كان المارشال في نيته أن يبلّغني ما فيه منفعة الجميع ، فليبعث الي أحد أعوانه مع رسالة اعتماد ، وليخبرني بذلك سرا ، وعندئذ سوف أنتدب أنا أيضا أحد أصدقائي سرا ، وليكن مثلا هو أخونا بوحميدي (2) ، لكي يلتقي مع مبعوثه ... ولاشك أنهما سيتفاهمان حول شروط الاتفاقية ... وبذلك نجدد التحالف الذي ستكون أسسه خير ضمانة لدوام الصداقة والوئام . (3). »

ان هذا الترجمان الذي كان من المقربين لدى بيجو ، وعيّن فيما بعد أمينا للمندوبية في طنجة وقنصلا عاما في تونس ، واشتغل هنا وهناك

(1) خليفة الأمير على مقاطعتي شلف ووهران الشرقي .

وقد أثار مصرعه البطولي اعجاب العدو ، فأدى له التحية العسكرية في معركة سيدى يعقوب عام 1843 . ان ليون روش اذ يدعو عبد القادر للاعتبار بمصير بن علال ، يذكرنا بما صرح به السيد ديلوفريي غداة مصرع العقيد عميروش : «ان مصير عميروش ومصير رؤساء العصابة ، هو المصير الذي ينتظر جميع رؤساء الحركة التمردية . فمتي يدرك هذا ، زعماء الثورة في الخارج ؟ (انظر العدد 41 من Semaine en Algérie ، سنة 1959) .

(2) هو خليفة الأمير على القسم الغربي من مقاطعة وهران .

(3) H. d'Ideville : Ouvrage cité, pp. 461-463.

بمناورات خسيسة ، أبى الا أن يجدد مرّة أخرى ولكن بأسلوب مهذب ، نفس العرض السابق لعبد القادر الذي كشفت رسالته عما يتصف به من «سمو النفس ورزانة في العقل» حسبما قال عنه ديدفيل ... وهكذا كاتب الأمير من جديد ، ولكن الأمير لم يرد عليه : «ان الملك ، ومجلس النواب والوزراء والأمة الفرنسية ، كل هؤلاء يريدون الاحتفاظ بالأرض التي فتحناها ... فلم يبق لك الا طريق واحد للنجاة أنت ومن معك . تعال بقرب المارشال وسلّم نفسك لمشيئته وكرم نفسه ، فلن تجد عند سواه مثلما سوف تجد عنده من حسن الاستقبال ، وعظيم الاعتبار ... وليس في هذا المسعى من غضاضة لك ، وما عليك الا أن تذعن لمشيئة الله تعالى (1) » .

## الطوابير الجهنمية

ونتيجة كل هذه المناورات معروفة : فقد عملت «الطوابير الجهنمية» التابعة لبيجو (هكذا يسميها العسكريون والمؤرخون) ، عملت على تمديد الحرب بمدة تزيد على أربع سنوات ، فأسلمت البلاد للتقتيل والتدمير كما لو أن السنوات الثلاث عشرة من الحرب المتواصلة لا تكفي . وهنا يدخل الغزو الاستعماري مرحلته الرهيبة التي شهدت عددا من مجرمي الحرب ومن المنظّرين لسياسة الابادة وتجميع الأهالي ، وهم : بيليسيي ، ومونتانياك ، وسانت أرنو ، وريشار . ومن الجدير بالذكر أن الأسماء الثلاثة الأولى ، وكذلك أسماء غير هؤلاء مثل يوسف ، وتروميلي الخ ... قد أعطيت رسميا لعدد من القرى الجزائرية الهامة كأنها سبّة للضمير الأخلاقي . ومن يدري ، فلعل مدنا أخرى ستحمل — لا قدر الله — أسماء ماسو ، وبيجار ، ودوكاس ، وترينكيي ، وشاربونيي وغيرهم من سفاكي الدماء ومعذّبي الشعوب . ولكن لنعد الى «الرواد الأوائل» .

(1) H. d'Ideville : Ouvrage cité, pp. 465-466;

فهذا بيليسيي الذي صار مارشالا ، نال «الشهرة» عام 1845 عندما تولى احراق الأهالي بدون شفقة ولا رحمة في مغارات الظهرة ، حتى مات منهم حوالي الألف . وفي 1852 عند الاستيلاء على مدينة الأغواط أطلق العنان لجيشه لكي يعمل ما يشاء في سكان هذه الواحة الصغيرة ، فقتلوا منهم 2.300 ما بين الرجال والنساء والأطفال . (1)

أما مونتانياك فهو أكثر الضباط الشبان حقدا على الأهالي ، وهو الذي أعطى للنخبة من جيشه اسما رهيبا هو : «جوّالة الموتْ» فلنستمع اليه يقول في رسالة له الى أحد أصدقائه : «أراك تسألني ماذا نفعل بالنساء الواقعات بأيدينا . اننا نحتفظ بالبعض منهن رهائن ، ونبادل بالبعض الآخر منهن للحصول على الخيل . والبقية للبيع بالمزايدة مثل الدواب لأفراد الجيش ... ومن هؤلاء النسوة من هن على غاية الجمال . ومن الأطفال من له جمال ساحر . فهؤلاء المساكين الصغار يستحقون العناية . وفي العمليات العسكرية التي نخوضها منذ أربعة أشهر مشاهد يرقّ لها الصخر الأصمّ ، لو كان للانسان وقت يفسح فيه المجال للعواطف . والحقيقة أننا صرنا ننظر الى كل هذا بدون مبالاة ، وهذا أمر لا ترتاح له النفس (2) .» ثم يضيف مستخلصا النتيجة : «هكذا يا صديقي العزيز ينبغي أن نحارب العرب . ينبغي أن نقتل كل الرجال ابتداء من سن الخامسة عشرة ، وأن نأخذ جميع النساء والأطفال وأن نضعهم في السفن ونبعث بهم الى جزر الماركيز أو غيرها . وبكلمة مختصرة ، ينبغي أن نقضي على كل من لا يركع أمامنا كالكلب (2) . »

واذا سألت عن سانت آرنو ، فهو أيضا صار مارشالا بعد الانقلاب الذي دبره في 2 ديسمبر لصالح الأمير — الرئيس (نابليون

---

(1) Colonel Pein : **Lettres familières sur l'Algérie,** Ed 1893, p. 393.

(2) P. Chalmin : **l'Officier français de 1815 à 1870,** pp. 53-55.

الثالث) . وقد حذا حذو بيليسيي في سد المنافذ على الأهالي في المغارات واحراقهم ، ولكنه عمل في هذا المجال بمنتهى التكتم بناء على نصائح بيجو (1) . وله «رسائل Lettres» مليئة بمشاهد تقشعر لها الأبدان ، عن قرى محترقة ورؤوس وآذان مقطوعة ، وغير ذلك من الأمور التي كان يجد متعة مرضية في ذكرها ووصفها بدون حياء .

## الاستعمار يبتكر أساليب جديدة

واذا انتقلنا الى شارل ريشار فاننا نصل الى عهد بلغ فيه الفساد الاستعماري مرحلة من أسوء المراحل . فقد تميز بالابتكار في أساليبه . أما نظرياته في تجميع الأهالي — وهي النظريات التي انفرد بتطبيقها — فقد بعثت من جديد منذ 1958 للتنويه بهذا الاستعماري المتطرف الذي كانت له — فضلا عن هذا — تصرفات غريبة . فقد كان من أتباع سان سيمون ومن أتباع فوريي في نفس الوقت ، وكان يعمل في الفرع المسمى (كونسيديران Considérant) وهو أكثر الفروع تطرفا . ومن مشاريعه أن يضع المدفع والارسال البرقي (وهو من المخترعات الحديثة آنذاك) في خدمة الحضارة ، ولكن على طريقته ، أي بالجبر والقهر المادي والمعنوي . وباعتبار أنه من خريجي المدرسة المتعددة التقنيات ، فقد سلك على الصعيد العسكري والاداري نفس المسلك الذي سلكه كافينياك ، وعلى الأخص سانت آرنو الذي يبدو أنه كان من المعجبين به . وحالة هذا الضابط غريبة ، بل هي فريدة . ولعل الاتجاه الذي اختاره في الجيش بحكم تخصصه العلمي ، وهو سلاح الهندسة ، قد أورثه الشعور بالنقص ، لأن هذا الفرع كان ينظر اليه بشيء من الاحتقار من طرف الضباط المحاربين . ومن هنا ندرك لماذا كان يغالي في كل ما يقوله ويعمله ، ولماذا كان حقودا الى حد الاجرام ، سعيا وراء السلطة التي

(1) وبالفعل ، فان بيجو الذي خاف من عواقب الضجة التي قامت في مجلس النواب ، نصحه بذلك .

تنقصه . فهو الذي قال : «ان المدفع هو الصوت المدوّي الذي يرفع راية الحضارة الانسانية ، ويحطّم الحدود التي تفصل بين الشعوب ، ويرغمها على الاتصال من خلال الفجوة ... ومما لاشك فيه أن الفائدة المحصلة من هذا الاتصال تكلف الدماء والدموع والآلام . ولكن العبقرية الخلاقة تنبثق من الأنقاض والخرائب التي تخلّفها الحرب بعدها ...» (1) وكان من أول من تحدّث عن ضرورة الغزو الأوربي للقارة الافريقية ، وأخذ الاحتياطات لكيلا تتعرض أوربا للاحتلال على يد أتيلا (*) جديد يكتسحها انطلاقا من «عالم المتوحشين الذي يعج بالسكان .» (2) ومن حسن الحظ أن «الحضارة (الأوربية) هي أقوى حاليا لأنها تملك الجيوش الجرارة والعلوم العسكرية .» (2) ان الحرب بين الأمم الأوربية «لا قدّر الله ، شيء حرام» ولهذا «فان الحرب الوحيدة التي فيها فائدة ، والتي هي بالتالي مشروعة ، هي الحرب التي نخوضها هنا (الجزائر) . وإلينا نحن ، الفرنسيين ، ممثلي التقدم الانساني ، وأحفاد سان لويس ، الينا يرجع الفضل في أداء هذه المهمة السامية المجيدة . فلم نأت الى هذا المكان بناء على تصويت مجلس النواب ، بل أتينا من أجل أداء واجبات مقدسة . ورغم كل الدسائس التي يقوم بها ذوو العقول الضعيفة المتخوفون دائما من المشاريع الكبرى ، فسنبقى هناك للقيام برسالتنا المقدسة ، مدفوعين في عملنا بالعناية الالهية .» (2) ولكن ، في ماذا تتمثل هذه الرسالة العظمى وهذه المشاريع الكبرى ؟ هذا ما سيخبرنا به صاحب الرتبة العسكرية المتواضعة ، قبطان سلاح الهندسة ، والرئيس المتحكم في مكتب الشؤون العربية في مدينة الاصنام ، باعتبار أنه كان ــ مع طائفة أخرى من أمثاله ــ مكلّفا بأدائها . والنص أطول

(1) Charles Richard : **Etude sur l'insurrection du Dahra** (1845-1846), p. 164.

(*) أتيلا : ملك الهون Huns (توفي عام 453م) غزا الامبراطورية البيزنطية وهاجم الغال واجتاح إيطاليا

(2) Charles Richard : **Ouvrage cité**, ibid.

من أن نورده بتمامه . ويكفينا أن نذكر بأن شارل ريشار لم يكن يدخّر الثناء للجيش «البطل العظيم الذي اختارته العناية الآلهية ليحمي وينشر الحضارة الانسانية (1) .» وقد تبنّى أفكار بيجو الرئيسية ودعا الى تطبيقها : فهو يؤيد فكرة ابقاء 100.000 جندي في الجزائر ، ويضاف اليهم جيش احتياطي يتألف من 20.000 من الجنود المتمركزين في ولايتي الفار وبوش دي رون ، والمستعدين في كل لحظة للتدخل . ويضاف اليهم الحرس الوطني ، وتضاف اليهم الميليشيا المدنية المجنّدة في وقت الحرب ، ويضاف اليهم المعمّرون العساكر . وكان من رأيه أن «كل من يعيش في هذا البلد (ويقصد الأوربيين) ينبغي أن يحمل السيف والبندقية ويعرف كيف يستعملهما (2) . »

على أن الحضارة التي يدعو اليها معقّدة الى أبعد الحدود ويستلزم نشرها تجنيد جيش جرّار . ومع هذا ، فان النتيجة ، وان كانت بعيدة ، تدعو الى التفاؤل . وكل آت قريب على أية حال . وفي انتظار ذلك اليوم ، لابد — حسبما يقول ريشار — «لابد من وضع هذا الشعب (الجزائري) تحت أرجلنا لكي يحس جيدا بما لنا من وزن ، وعلينا بعد ذلك أن نخفف عليه الضغط تدريجيا لكي نجعله ، بعد قرون (هكذا) يترقّى الى مستوانا ويسير معنا في طريق التقدم الانساني (3) .» ولكن الغريب في الأمر أن التقدم الانساني تنوسي في هذه الأثناء ، بل أزيل وحورب كلما تعلق الأمر بالجزائري ، أي بذلك الانسان المستهدف بهذه الرسالة التمدينية . فالمهم قبل كل شيء هو «ابقاؤه دوما في وضعية الضعيف المحتاج الى حمايتنا (4) .» ويذهب ريشار الى أبعد من هذا

(1) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 170.
(2) Charles Richard : Ouvrage cité pp. 177-178.
(3) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 181.
(4) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 183.

فيقول «ومن الخطأ الفادح أن نستشيره حول ما قد يحتاجه ، اذ نحن المسؤولون عن اختيار المؤسسات التي تلائمه وعن تطبيقها مهما كان رأيه فيها (1) .» والحقيقة أن شارل ريشار يعرف جيدا بأن تمكين الأهالي من ممارسة الحقوق السياسية ، حتى ولو في اطار السيادة الفرنسية ، يناقض في حد ذاته مبدأ السيطرة الاستعمارية . ولهذا يقول : «واذا ارتكبنا غدا خطأ تعميم مزايا ميثاقنا وتشريعاتنا لتشمل العرب الخاضعين لنا ، فلن يبقى أمامنا جميعا الا الرحيل (2) . ومن حسن الحظ أنه توجد أساليب أخرى لنشر الحضارة عن طريق الخلاء والخراب . وعلى سبيل المثال : «فلا نرى مانعا في أن يكون مآل هذهً المؤسسات (ويقصد بها المدارس العربية والمساجد) الى الخراب ، وأن يرجع الشعب العربي الى عهود الجهالة الأولى ، وعندئذ سوف يتأتى لنا أن نعلّمه شيئا وأن نكسبه الى صفّنا عن طريق التربية (3) .»

وهناك أسلوب آخر أبدع فيه صاحبه ، وسبق به ، بحوالي 112 سنة ، ما تقوم به حاليا السلطات الاستعمارية من تجميع للأهالي . يقول ريشار : «أول ما يجب القيام به لحرمان المشوّشين من كل دعم ، هو تجميع السكان المتوزعين في مختلف الأماكن ، وتنظيم القبائل الخاضعة لنا في زمالات (4) » ثم يبادر الى اعطاء المزيد من التفاصيل : «ينبغي أن تكون الدوائر مفصولة عن بعضها بسياج من أشجار العنّاب البري أو بأي نوع من أنواع الأحراج الأخرى . ويجب بعد هذا أن تحاط الزمالة كلها بخندق عميق مشوّك بالصبّار (5) » ويمكن للفلاحين المجموعين

(1) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 183.

(2) Charles Richard : Ouvage cité, p. 183.

(3) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 188 (notes).

(4) الزمالة عبارة عن معسكر ، أو تجمع من الخيام . وطابعها العسكري أرجح من الطابع المدني

(5) Charles Richard : Ouvrage cité, pp. 189-190.

في الخيام ، أن يخرجوا من المعسكر لأداء أعمالهم ، ولكن لا يستطيع غيرهم أن يخرج منه الا بأمر من السلطة الفرنسية . ويواصل المؤلف كلامه قائلا : «ولعله من السهل أن ندرك مزايا هذا النظام . فالعرب المحبوسون بهذه الكيفية سوف يكونون دائما تحت تصرفنا ، ولن يأتمروا ، من وراء خنادقهم ، بأوامر عصابات بومعزة وخلفائه (1) .» ولكن ، بما أنه كان يتوقع الاعتراضات بسبب تكاليف هذا المشروع الضخم ، وكذلك بسبب نفور الجزائريين من محاولات التجميع ، لذلك سارع الى الرد بما يلي : «ليس صحيحا ما يقال بأن هذا الاجراء يتنافى مع الطباع العربية . وهذا الأمر على أية حال ليست له أهمية كبرى .» ثم يضيف في حاشية من كتابه : «اذا كان أحد الاجراءات مفيدا لنا ، ومفيدا للشعب بالتبعية ، فلا نرى ما يمكن أن يمنعنا من تطبيقه (1) .» وعلى أية حال توجد لهذا الأمر سوابق ، وهو أدرى بها : « ان ناحية الأصنام في معظمها نظمناها على هذا الشكل أثناء الحرب (1) .» ثم يمضي قائلا : «ونحن نعتقد اعتقادا جازما بأن فكرة اقامة هذه التجمعات من الخيام التي يبقى فيها الأهالي العرب رهن الاعتقال ، هذه الفكرة تحمل في ثناياها السلام للبلاد . وذلك أن الأهم هو تجميع هذا الشعب المنتشر في كل مكان ، ولكن اذا رحت تبحث عنه وجدته غائبا . فالأهم اذن أن نجعله رهن اشارتنا . واذا أمسكناه فاننا عندئذ نستطيع أن نقوم بأشياءٍ كثيرة هي الآن من قبيل المستحيل ، وعندئذ سوف نستحوذ على عقله بعدما استحوذونا على جسمه (2)» .

## العمل النفساني

نستحوذ على عقله ! ان التاريخ يعيد نفسه ، لأننا اليوم وجدنا هذه العبارة ضمن الأهداف والعبارات التي حددتها وأصبحت تستعملها

(1) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 190.

(2) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 192.

مصلحة «العمل النفساني» . والحقيقة أن سياسة الاندماج لا تقتصر في ميدان الدعاية على هذا العنصر بالذات (أي الاستحواذ على العقل) . وقد ذكر المؤلف وسائل أخرى «هامة جدا» ، وان كان يقرّ بأنها «قد تبدو قليلة الأهمية بالنسبة لبعض الناس» . ومن بين تلك الوسائل التي اقترحها ، اختلاق الأحاديث النبوية ، وتلفيق الأقوال المأثورة التي تتنبأ بدوام السيطرة الفرنسية ، مع تكليف أحد الحجاج بوضعها خفية «تحت حجرة ، عند ضريح محمد (1) » والغاية من كل هذا هو أن يستأخر الاستعمار قرنا من الزمان الأجل الذي حدّده له المنجّمون المرتزقة . وعندما يفكر القبطان ريشار في جزائر المستقبل ، الجزائر «الأوربية» المتخلصة من كابوس الثورات ، فانه لا يملك نفسه من أن يشعر بالسرور وبالشوق لذلك اليوم الموعود . ومن يقرأ كتاب ريشار يحس بأن هذا الشخص المتطاول قد تملّكه الخوف من الثورات الشعبية : «قرن من الزمان ! انه أمد طويل . ولكننا اذا عرفنا كيف نتصرف خلال هذا القرن فسوف نخمد الثورات نهائيا في منطقة التل . فلن يخطر ببال الأهالي العرب المتواجدين آنذاك ، ولن يكون في مقدورهم أن يطردوا المعمرين الفرنسيين الذين سوف ينتشرون في كل مكان (2) .» على أن الفكرة المثيرة للاستغراب في الخطة التي وضعها هذا المتخرج من المدرسة المتعددة التقنيات ، المتشبع بالعلوم الدقيقة ، والذي كانت كلمته مسموعة لدى الضباط ورجال الادارة الفرنسية ، هذه الفكرة متمثلة في النتيجة التي توصل اليها : «ونحن كذلك في حاجة الى جماعة من الدراويش ، ندفع لهم مكافآت شهرية (هكذا) ونوعز اليهم بالتكلم في مختلف المناسبات ويكون كلامهم دائما في مصلحتنا (2) » . ان هذه

(1) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 191.

(2) Charles Richard : Ouvrage cité, p. 193.

التوصية قد كان لها أثر كبير في اتجاه السلطة الاستعمارية الى الاستعانة بطائفة من المرابطين ومن الطرقيين لخدمة أغراضها .

## بلاغات الانتصار الكاذبة

ومن هذا القبيل أيضا — وان كان الأمر هنا يتعلق بأسباب وأهداف عسكرية ، أن الميل الى تزييف الحقائق وتشويهها بالخرافات ، واظهار أبسط الأحداث بمظهر الانتصارات الباهرة ، هذا الميل خلق نوعا من البطولة الزائفة شبيهة بما نسمعه ونراه اليوم . والمقصود هنا هو بلاغات الانتصار الصادرة عن الجيش الفرنسي . وقد استفحل الأمر حتى أصبح من الأمور المضحكة أحيانا والمبكية أحيانا أخرى . فهناك شهادات كثيرة صادرة عن الجيش الفرنسي نفسه ، وأدلى بها ضباط كانوا متذمرين مما يسمعونه كل يوم من أباطيل وأكاذيب . يقول أحد هؤلاء : «انه شيء مؤسف أن تصدر أمثال هذه التقارير العسكرية الباطلة . وستكون — اذا لم نتدارك الموضوع — سببا في الحاق العار والشنار بفرنسا . فكلما استولى الجيش على دكان ، أو قام بمناوشة صغيرة مع العدو ، أو خاض معركة (وبالأحرى شبه معركة) ، أصبح كل ذلك موضوع حكايات مضخّمة . فالأمر يبعث على الأسف . ولابد من الاقرار بالحقيقة التالية ، وهي أن البلاغ العسكري استحال الى جهاز من أجهزة الدعاية الاعلامية للجيش (1) .» ويضيف غيره متهكّما : «لقد ضاعت منا الأخلاق والشيم وأصبحنا الى حدّ ما من ذوي الادعاء ، اذ كثيرا ما سمعت عن طريق البلاغات ، بانتصارات كبرى في معارك لا أعتقد أنها وقعت أبدا (2) .» وعلى سبيل المثال ، فالكولونيل فوري ، المشهور بصراحته ، كان يتهكم من رجال الحاشية الذين ضخموا مسألة الاستيلاء على

(1) Campagnes d'Afrique, p. 190.

(2) Campagnes d'Afrique, p. 278.

الزمالة ، لأن الدوق دومال ، وهو أمير ملكي ، قد شارك فيها . على أن هذا الموقف لم يمنعه من أن يكاتب أحد المتعصبين للأسرة المالكة ، وهو المارشال دي كاستيلان ، فيقول له : «ان هذه الرايات التي قامت حولها ضجة كبرى ، استولينا عليها في خيمة من الخيام ، ولم تكلفنا ولو قطرة من الدم . ومن بين العشرين ، أو الخمسة والعشرين ألفا من الأشخاص الذين لم يحاولوا الهروب ، قضينا على ثلاثة آلاف منهم تقريبا . وعلى العموم ، فان زمالة (عبد القادر) ظلت على وجه التقريب كما كانت من قبل من حيث العدد (1) .» وذهب ضابط آخر ، وهو الكولونيل دي مونتي ، الى أبعد من هذا : «ما أشد سذاجة من يصدّق ما يدّعيه المختلقون للبلاغات الكاذبة ، فيزعمون أنهم عظماء لأنهم احرقوا الغلة وسرقوا الغنم وطاردوا واختطفوا السكان العزّل (2) . »

وهكذا فإن معظم العمليات العسكرية كانت تجري على هذا المنوال ، أي على شكل غارات واسعة النطاق . وكان الجنرال شانغارنيي يحاول تبريرها بالاستشهاد بالكتاب المقدس la Bible ويشوع (*) Josué . فهو الذي كتب يقول ، مستعملا عبارات «محتشمة» بالمقارنة مع غيره من الغلاة . «بعدما انتهينا من تحطيم حكومة عبد القادر وتشتيت شمل جيوشه ، انتقلنا الى تركيز هجومنا على الأموال المنقولة وعلى المحاصيل الزراعية من أجل ارغام القبائل على الخضوع (3) .» والحقيقة أن تخريب الأهداف المدنية بدأت منذ زمن بعيد رغم أن فرص المواجهة مع الجيش النظامي الجزائري كانت كثيرة . وقد سجّل شارنغارنيي في «مذكرات» بأن بعض المواقع الاستراتيجية ، مثل مراكز التموين ،

---

(1) **Campagnes d'Afrique**, pp. 317-318.

(2) **Campagnes d'Afrique**, p. 420.

(*) يشوع (بن نون) : خادم موسى وخلفه . أدخل العبرانيين أرض كنعان وقاد جيشهم . (المترجم) .

(3) Changarnier : **Mémoires**.

والمستودعات العسكرية وعيون الماء «استلزمت من الجيش الفرنسي أن يخطط للحرب بنفس الطريقة التي كان يخطط بها في حروب أوربا (1) .» ولكنه يرى بأن تلك الاستراتيجية كانت فاشلة ، وأن الغارات الموجهة ضد المدنيين أشد وقعا من الحرب المتعارفة .

وهناك شهادات كثيرة في هذا الموضوع : فقد كتب أحد المراسلين للمارشال دي كاستيلان في 1843 : «اننا في الواقع نحارب قطعان الغنم ، والمستضعفين من السكان العزّل الواقعين تحت وطأة الجوع والشقاء (2) » واذا أردنا أن نقارن الماضي بالحاضر ، ما علينا الا أن نقرأ شهادة غ . م . ماتيء في «الأيام القبائلية Jours Kabyles» ، وشهادة جاك بوشو ، في «عام في الأوراس Un an dans les Aurès (3) » ، وغير هؤلاء ممن ألهمت قرائحهم حروب «اقرار السلام» .

غير أن الأمر لم يقتصر على البلاغ العسكري المستعمل للدعاية الصحافية ، بل كانت هناك مبادرات من الصحافة ، وحتى من البرلمان ، أثارت استياء السلطة وجعلت ممثليها يعممون الحكم ويتعسّفون في تطبيقه . وقد استهدفوا على الأخص وكالمعتاد ، الصحافة الباريسية ، فاتهموا باريس بالتحالف مع العدو ! حتى أن المارشال كان يظن في 1836 بأنه قادر على الاتيان بالدليل على هذا التحالف . ولذلك فهو لا يتحرّج في توجيه العبارات التالية لحكومة بلاده : «ان الحاج الصغير

(1) Changarnier : Mémoires, p. 316.

(2) Campagnes d'Afrique, p. 274.

(3) Temups Modernes : juillet, août 1957 et septembre 1957.

(1) أخذ في ترويج أنباء كاذبة خاطئة ... وهناك ارتباط بين ما كتبه وما تكتبه بعض الصحف في باريس حول نفس الموضوع . والسبب في ذلك وجود علاقات بين زعماء حزب الموريين Maures والحاج الصغير، وبين أنصارهم ومن اغترّ بدعايتهم في العاصمة الفرنسية . وسآتيكم بالدليل على هذا في باريس (2) .» أما مجلس النواب ، أو بالأحرى اللجان المتفرعة عنه ، فانه لم يسلم هو أيضا من انتقاد كلوزيل ، فكتب يقول في مراسلته الرسمية : «ان الشيء المؤسف هو أن نرى اللجان المتفرعة عن مجلس النواب تنتهج بخصوص مشكلة افريقيا نفس الأسلوب الذي يقترحه أعداؤنا من الأهالي ، لاخراجنا من البلاد (3) .» ثم أضاف بشيء من الحذر : «وأنا لا أعتقد بطبيعة الحال أنه يوجد نوع من التواطؤ ، ولكن التقارب بين الموقفين واضح ومؤلم (3) .» ثم استخلص النتيجة التالية بطريقة جمعت بين الخلط والخبث : «والخلاصة أن العرب يتطلعون بكل صدق الى قيام حكومة ، وهم على استعداد لقبول حكومتنا اذا كانت تحميهم وتعمل بجدّ ونشاط . غير أن العراقيل التي تحول دون قيام الجهاز الاداري وبسط النفوذ الاستعماري ، آتية كلها من باريس . فهناك يوجد أعداؤنا الألداء ، ولا نتخوف من أحد سواهم (3) .»

---

(1) الحاج الصغير ، هو الخليفة في ولاية مليانة . خدم فرنسا في الفترة القصيرة التي تميزت بشيء من الفوضى قبيل اعادة بناء الدولة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر ، ثم انضم الى صف الدفاع عن القضية الوطنية . أما الحزب ، أو ما يسمى «اللجنة المورية Comité maure » ، فكان يعمل في السر بمدينة الجزائر التي كانت محتلة ، وكان على رأسها رجال من الطبقة المثقفة البرجوازية الجزائرية ، وكان هؤلاء على صلة ببعض الموظفين الكبار في الادارة الفرنسية مثل البارون المقتصد بيشون بين 1831 و 1832 . وكان لهم نشاط كبير ، وكانوا يتفاهمون برموز متعارفة بينهم .

(2) Clauzel : Correspondance, t. I, p. 568.

(3) Clauzel : Ouvrage cité, p. 565, t. I.

ولكن أعداء البلاد الألدّاء كثيرون في أوساط المفكرين أيضا ، وهذه «الحقيقة» ما كانت لتخفى على شخص مكابر مثل بيجو . ومن الجدير بالذكر أنه ، في احدى المناسبات ، نزل من عليائه الى مستوى الكتّاب فقال عنهم بأنهم يمثلون «أرستقراطية القلم» ، وأنهم ، خلافا لغيرهم ، لا يريدون أن «تتخلى فرنسا عن الجزائر» ، ولكنه لم يوضّح فيما اذا كانوا من المؤيدين «للاحتلال البحري المحدود النطاق» ، أو من المؤيدين «للاحتلال المطلق» وهي من المسائل التي كانت مدرجة في جدول أعمال مجلس النواب في يناير 1840 ، وربما قصد بيجو بهؤلاء الكتّاب فئة من المفكرين الاتباعيين conformistes (وهم الأغلبية يومئذ) . ولكن هذا لا يمنع بأن بيجو عاملهم بشيء من الاحتقار . ومما يدل على ذلك أن كاتب محضر الجلسة أورد في تقريره عبارات (**ضحك في القاعة**) مقترنة بهذه النادرة التي تفتّق عنها عقل بيجو .

ومضت بضعة أشهر ، وأتت مناسبة أخرى في نوفمبر من نفس السنة ــ ولكنها مناسبة لا تتعلق بالجزائر ــ فتناول بيجو الكلمة وأعرب بكل صراحة وبدون لبس ولا مجاملة ، عن رأيه في المفكرين . فما كان من كاتب التقرير الا أن أقحم في وسط كلمة بيجو اللاذعة هذه العبارات «**ضحك متواصل**» . ومما قاله بيجو : «ان أوربا تعلم بأنه توجد وراء كتّابنا المغرورين بأنفسهم والمستفزّين لشعور الناس ، توجد أمة قوية عتيدة . وأقصد بهذه الأمة الأربعة والعشرين مليون من المزارعين ، والثمانية ملايين من العمال ، أولئك الرجال ذوو السواعد المفتولة والأيدي الخشنة الذين سالت منهم سيول من عرق الجبين ، ولكن لم تسل منهم أبدا ولا قطرة واحدة من الحبر (**ضحك متواصل**) .» ونحن على يقين بأن

هؤلاء الرجال لن يتخلفوا عن الانخراط في جيشنا (1) » ولسنا في حاجة للاشارة الى ما في كلام الجنرال ـــ النائب من ديماغوجية، وخاصة فيما يتعلق بحديثه عن العمال الذين سقط الكثير منهم تحت رصاص جنوده في حوادث شارع ترانسنونان .

هناك اذن عطف على الطبقة الكادحة ، ولكنه عطف زائف لأنه مصحوب بالتهجم على رجال الفكر الليبراليين المتضامنين في أغلب الأحيان مع العمال ، ولأن البرجوازية الحاكمة غير مستهدفة بهذا التهجم . وهذا العطف نجده أيضا لدى المستعمرين الغلاة الحاليين، ولكن في شكل متطور ، وبمزيد من الديماغوجية . ولهذا فنحن لا ننخدع بما يدّعيه البعض من وجود تضادّ بين الجيش والبرجوازية . وهذا ما يتضح من الرسالة التي وجّهها فريق من ضباط جيش افريقيا الى أحد أعضاء المجمع الليبراليين . وقد أورد ج . ر . تورنو هذه الرسالة ثم علّق عليها بما يلي : «ان الجنود المنتمين للطبقة الكادحة في جيش افريقيا ساخطون كل السخط على البرجوازية الفرنسية التي ينكرون عليها التقصير في أداء مهمتها . وهم أيضا ساخطون على النخبة الفرنسية المفكرة . فهم يقولون : «من يا ترى هو المسؤول عن القتلى المغمورين ، القتلى الهندصينيين ، والقتلى التونسيين ، والقتلى الجزائريين ، وقتلانا نحن من رفاقنا ؟ أنتم يا أصحاب العقول المسيرة للبلاد ، أنتم المسؤولون ». (2)

والحقيقة أن بيجو كان ينكر على الكتّاب كونهم بعيدين كلّ البعد عن الحرب ، بسبب عجزهم عن المشاركة فيها . ولكن موقف الضباط في عهد بيجو ، وان كان لا يخلو من نذالة ، الا أنه يدل على شيء من

(1) H. d'Ideville : **Bugeaud**, t. II, p. 242.

(2) J. R. Tournoux : **Secrets d'Etat**, pp. 443-444.

الرجولة ومن المعقولية ، بخلاف ما نراه اليوم في موقف الضباط الفرنسيين . فما من شك اذن أنهم كانوا أنذالا ، ولكنهم كانوا في كل مناسبة يعترفون بما لخصمهم من قدر وفضل ، ويصرّحون بالحقيقة حول الأسباب التي دفعت فرنسا للاحتلال ، وحول الأهداف المنشودة من وراء هذه العملية . أما في أيامنا هذه ، فلا يجوز اطلاقا الاعتراف بشجاعة العدو ، لأن الحرب حرب نفسية (1) . وفي القرن الماضي لم يكن الضباط يرون من الضروري تبرير سلوكهم في الحين . فالتبرير لا يكون الا بعد انجاز العمل ، أي بعد انتهاء الأمر وحصول التخريب والقضاء على الخصم قضاء مبرما . وعندئذ يقترن التبرير بالحطّ من الانسان الجزائري ومن تراثه وقيمه التي حطمها الاستعمار أو مسخها مسخا . فالقبطان ريشار مثلا لم يعر اهتماما كبيرا لتبرير طريقته الشنيعة في تجميع السكان ، واقتصر على القول بأن هذا التجميع يؤدي «الى تحسين وضعية العرب الذين لا يكرهون هذا النوع من التجمع» ونجده في مناسبات أخرى يكشف النقاب علانية ، ويتحدث بكل تفصيل عن الأسباب الحقيقية التي تستلزم على المدى البعيد القيام بهذا المشروع لصالح الاستعمار الفرنسي بطبيعة الحال . أما القادة والضباط الحاليون ، فانهم يحاولون أن يفسروا هذه الظاهرة تفسيرا مستمدا من علم الاجتماع ومن سنن التطور البشري ، رغم أنهم أحيانا يستشهدون بوقائع ترجع الى العصر الوسيط المتأخر . فالسيد دي لوفريبي مثلا يقول عن الأهالي المجمّعين بأن «السكان أنفسهم هم الذين أخذوا المبادرة في كثير من الحالات ، فجاءوا من تلقاء أنفسهم يحتمون بحمى البرج العسكري ، وهذا شبيه بما وقع في فرنسا عند غزو النرمانديين . أما في الحالات الأخرى فإن سبب التجمع السكاني يرجع الى ظاهرة التكدس ، و هو

---

(1) Cf. Un ami du colonel Gardes, in Express du 3 nov. 1960.

دليل على تطور المجتمع البشري . فهؤلاء السكان كانوا مبعثرين في المشاتي ، ثم تجمعوا حول أراضيهم المتوارثة ليتعاونوا في استغلال هذه الأراضي (1) » وهناك سبب ثالث ، لكن المندوب العام الفرنسي في الجزائر مرّ عليه مرّ الكرام ، مع التقليل من عدد المجمعين ، وأخذ يبرر هذه التدابير بالضرورات العسكرية ، أي حماية السكان ، وحالة العزلة بالنسبة لمن يسميهم «المتمردين» . ولكن الوثائق المتوفرة اليوم ، والشهادات (2) التي أدلى بها من زار وادي الصومام ومنطقة سوق أهراس ، كلها تشير الى الحالة التعسة التي وقع فيها الصنفان الأولان من المجمعين الذين ادعى السيد دي لوفريبي بأنهم في أحسن حال من الهناء والرقي .

## التجميع القسرى للأهالي

ولكن ، بينما نجد المندوب العام للجمهورية الفرنسية يلتفت عبر الزمان الى التاريخ ليبرّر سياسة تجميع الأهالي ، فان المصالح العسكرية المكلفة بالدعاية تلتفت عبر المكان الى التجربة الكامبودجية ، مثلما جاء في كتاب بيير لوران ، وعنوانه (حرب العصابات المضادة) . ان هذه المقارنة بين الجزائر وكامبودجيا لا تخلو من التعسف ، وفيها دعوة الى «تجميع الأهالي بسبب وقوع الاضطرابات ، وهذا التجميع يعتبر من أقوى عوامل تحويل كامبودجيا الى دولة عصرية (3) .» ان «الاضطرابات» ، وهي التسمية التي أطلقها المؤلف كناية عن حرب الهند الصينية ، هي القاسم المشترك بين كامبودجيا والجزائر ، فما على

---

(1) انظر : **La Semaine en Algérie** ، العدد 41 ، وكذلك ما كتبته جريدة «La Dépêche quotidienne d'Alger» في عددها المؤرخ في 16 مايو 1959 .

(2) انظر : : Jules Roy : **La guerre d'Algérie** ، أكتوبر 1960 .

(٤) **La Semaine en Algérie, 18-24 mai 1959, n° 42.**

فرنسا اذن الا أن تطبق في الجزائر نفس السياسة التي طبقتها هناك ! فالاستشهاد بالتجربة الكامبودجية المقصود به التوصّل الى القول بأن أفضل وسيلة للقضاء على حرب العصابات تكون بترقية الأهالي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وبتحسين التقنيات الزراعية . وفيما يتعلق بهذا التجميع القسرى للأهالي ، فان الجزائر التي ذكرها المؤلف كمثال للمقارنة ، لا يقل حظّها السيء منه ، عن حظ ذلك البلد الأسيوي ، لأننا نتلمّح من خلال الأحياء الموبوءة القذرة التي يحشر فيها الأهالي ، ومن وراء الأسلاك الشائكة ، نتلمح الاشارة الى «مشروع الألف قرية» . والحقيقة أننا ــ لو كان لنا الخيار ــ لاخترنا مشروع شارل ريشار !

ان شارك ريشار لم يكن أبدا يغالط نفسه بخصوص «ولاء» الأعوان الجزائريين لفرنسا ، وكان صريحا في رأيه ومصرا على هذا الرأي ، وكان يشك في كل واحد منهم اذ كان يقول : «ان العدو لا يترصّدنا على أطراف المدينة فحسب ، بل يوجد في كل مكان ويتآمر ضدنا حتى في عقر دارنا . فما من برنوس الا ويختفي تحته خائن أو شخص يعادينا ، ولا ينتظر سوى الاشارة ليرفع السلاح (1) .» أما القيّاد الذين عينتهم فرنسا ، والأعوان الذين اختارهم الاستعمار ، فانهم لا يتورعون عن «شتمنا أمام الأهالي ، ولا يصارحوننا بالحقد الذي يكنّه الشعب الجزائري للدولة المحتلة .» وباختصار ، «فان كل العرب غير مخلصين في ولائهم ، وكلهم خائنون ماعدا البعض ممن لا يعتد بهم (2).»

ما العمل اذن ؟ «بما أن كل شخص ذى نفوذ يضمر لنا العداء ، فينبغي ابعاده من المكان الذي يمارس فيه هذا النفوذ وأن ينقل الى مكان

(1) Charles Richard : **L'insurrection du Dahra,** p.175.

(2) Charles Richard : **Ouvrage cité,** p. 175.

آخر لا يستطيع فيه أن يضرّنا (1) .» هذا كلام صريح خال من الكنايات . فالمقصود بالتجميع ليس هو «ايواء» الأهالي ، بل النفي والابعاد . والأمر لا يتعلق بطائفة من «المشبوهين» الذين اعتاد الجيش قتلهم بدون حسيب ولا رقيب ، بل يتعلق بقوم يعتبرون من الأعداء ، فوجب ابعادهم عن موطنهم . وبنفس هذا الأسلوب الصريح نجد سانت آرنو يتحدث عن بومعزة ، عندما اضطر في 13 ابريل 1847 للاستسلام بالونشريس ــ الظهرة ، حيث ظل يقاتل مدة ثلاث سنوات :« انه شاب وسيم ومعتز بنفسه . وعندما تقابلنا ركزّ كل واحد منا بصره في الآخر .» ثم أضاف : «ليس بومعزة شخصا عاديا : فهو يتصف بشجاعة نادرة وذكاء وقّاد . وكان الأعوان الموالون لنا كلهم تقريبا يزودونه بالرجال والمال والسلاح . ولو أن مجلسا عسكريا يتولى ذات يوم الكشف عن هذه الفضائح من تاريخنا في افريقيا لكان يوما مشؤوما بالنسبة للكثير منهم . (2) »

وقد أقر بيجو بما كان لخصمه الباسل من مآثر ، فوجّه بيانا الى جيشه بتاريخ 2 مارس 1846 يقول فيه : «في أواخر سبتمبر 1845 تصدّى لكم هذا الرجل في المنطقة الغربية من البلاد ، ليحاربكم لا كزعيم للمناضلين فحسب ، بل كقائد عظيم أيضا . ومما زاد من قوته ، محبّة العرب له ، وصدق شعوره الوطني ، وعمله المتواصل لتعزيز سلطته طيلة اثنى عشر عاما (3) .»

**معركة سيدي ابراهيم**

ان هذا الشهر ، شهر سبتمبر 1845 ، يوافق تاريخ معركة سيدي ابراهيم . وهنا أيضا نجد أن الشهود المعاصرين والجيل الموالي لهم لم ينظروا

(1) Charles Richard : **Ouvrage cité**, p. 179.

(2) **Lettres de Saint-Arnaud**, cité par d'Ideville, t. III, pp. 151-152.

(3) H. d'Ideville : **Bugeaud**, t. III, p. 84.

بعين الاحتقار للخصم ، بل كانوا أوفياء للتاريخ . ومن ذلك أن ديدفيل كتب يقول : «ان هذا الحدث المعروف لدى بعض المؤرخين المخطئين ب (مجزرة سيدي ابراهيم) هو في الحقيقة من الوقائع الحربية الكبرى (1) .» ثم أضاف مستندا الى وصف للمعركة وضعه الدوق دومال بعد تعيينه في الولاية العامة للجزائر عام 1847 ، فقال بأنه «لم يخطر بباله أن يعتبر تلك المعركة مع جنود الأمير عبد القادر عملا من أعمال التقتيل والغدر والتنكيل .» بل قال على العكس بأن الجنود الفرنسيين «كان لهم الشرف الكبير ، وبلغوا غاية المجد عندما خاضوا المعركة مع أعدائهم الذين لا يقلون عنهم شجاعة واقداما (2) .»

ان أمثال هذه الأحكام الموضوعية كثيرة ، لأن بعض القادة العسكريين كانوا ، حتى في مكاتباتهم الرسمية للمسؤولين الفرنسيين الكبار ، لا يترددون في الاعراب عن اعجابهم بالمجاهدين الجزائريين ، وخاصة عندما لا تكون وسائل القتال متعادلة ، لأن الجزائريين كانوا مثلا لا يملكون مدفعية الحصار . ومن بين الشهادات التي تستحق الذكر ما قاله الجنرال غيهينيك ، في تقرير له للمارشال فالي حول حصار مازغران ، وحديثه عن «جماعات من الجنود بلغت بهم الشجاعة ـــ وهذه الكلمة حق يجب أن تقال ـــ درجة جعلتهم يستميتون في حماية ثلاثة أعلام نصبوها على بعد أربعين مترا من موقعنا الدفاعي ، ويهجمون عدة مرات ليطيحوا بأكياس التراب التي وضعناها حصنا أمام أسلحتنا (3) .»

وهناك شهادة أخرى من دوفيفيي عندما كان محاصرا في المدية من طرف جيش البركاني ، فوصف هجوم الجزائريين على مدفعية الفرنسيين ،

(1) H. d'Ideville : Ouvrage cité, t. III, p. 65.

(2) H. d'Ideville : Ouvrage cité, t. III, p. 67.

(3) Valée : Guéhéneuc à Valée, t. IV, p. 55.

وقال بأنهم رغم افتقارهم للأسلحة الثقيلة : «أظهروا بسالة كبرى وحماسا منقطع النظير . وكان منهم ضباط راكبون على الخيل ، وآخرون مشاة ، فاقتحموا مواقعنا ، ولاقوا مصرعهم على بعد 15 مترا منها . وكان اثنان منهم يحملان أوسمة مختومة بختم عبد القادر . وقد استولينا عليها ، مع صفيحة دائرية من فضة بها آثار الحرق بالبارود ، وقد عثرنا عليها في ساحة المعركة ، ويقال بأنها للبركاني الذي أصيب في القتال بجروح ». (1)

## رأي المارشال فالي في احتلال الجزائر

ولعل أبلغ مثال لرجل يكّن في قلبه الصدق والايمان ، نجده في المارشال فالي . فمن خلال سلوك هذا الرجل المسّن نقع ، في مرحلة من مراحل حياته ، على النقطة الحسّاسة ، وعلى المأساة التي تميزت بها الأوضاع في الجزائر ، تلك المأساة التي نشأت عن تصوّر خاطيء للوطنية الفرنسية . انها وطنية فتّاكة ، همها الوحيد هو البحث عمّن تأكله وتفترسه ، وبذلك أثرت تأثيرا سيئا في طبقة معينة من المجتمع ، ثم امتدّ أثرها الى ثلاثة أرباع الأمة الفرنسية ، فأعطت في النصف الأول من القرن التاسع عشر صورة مسبقة عن الحركة الفاشية في عصرنا . وقد آل بها الأمر في آخر المطاف الى عقد الصلة بها ، فتآزرت معها اما بكيفية منفعلة ، أو بكيفية فاعلة عندما قامت حركة المتطرفين الفرنسيين . فالمارشال فالي هو الذي شجب العمل الذي قام به المعمرون بين 1838 و 1840 عندما استولوا على السلطة بالقوة ، وهو الذي استنكر الاعتداءات والمضاربات المالية التي تعرضت لها أملاك الجزائريين وأراضيهم ، كما شجب العمل التخريبي المتمثل في الغارات الفرنسية ، ونشاط الأحزاب السياسية البرجوازية «التي اتخذت مسألة افريقيا لها

(1) Valée : Duvivier à Valée, t. IV, p. 225 et suivantes.

سلاحا لتصل عن طريقها الى الحكم (1) .» وكان يؤيد فكرة استقلال الجزائر ، ذلك الاستقلال «الذي قد لا يكون من الحكمة أن نحرمها منه (2) » على المدى القريب أو البعيد ، لأنه لم يكن يؤمن ، خلافا لبيجو «بذوبان الشعبين في بعضهما» ، بيجو الذي كان ، لغرض في نفسه يقول «بادماج الشخصية العربية في الشخصية الفرنسية ، لكي نشكل شعبا واحدا تحت رعاية ملك فرنسا (3) .»

ولكن رغم هذا ، فإن المارشال فالي رضي أن يتواطأ في المؤامرة المدبّرة لخرق معاهدة التافنة ، كما أنه وضع نظاما يقضي بمعاملة الرهائن معاملة العبيد ، وأمر بمراقبة «جميع الرؤساء على وجه العموم» ، وتحويل المداشر والقرى «الى حالة من الفقر المدقع ، بحيث لا يبقى لها الا أن تستكين للسلام (4) .» وقد سبق أن تكلمنا ، بخصوص لاموريسيير ، وكافينياك ، وبيجو ، عما في سياستهم من تناقضات . ولكن هذه التناقضات التي يتميز بها النظام الاستعماري ، ليست تناقضات الا من حيث الظاهر ، لأنها تزول عندما تندرج في مذهب عقائدي محكم . أما المارشال ، فهو ، وان كان يتصف بالشدة ، الا أنه متبصر في الأمور ، ولذلك فقد كان مخالفا تماما للسفاحين المتبجحين بشجاعتهم الزائفة من ضباط العهد الثاني (1841—1848) ، لأنه كان يتميز بالوطنية العميقة المتطرفة التي يمليها القدر المحتوم . ولذلك يقول : «ان احتلال الجزائر لم يتم كنتيجة لرأي ارتأيته أنا ، أو لقرار حكومي ... بل هو أمر حتمته الأقدار على فرنسا (5) .» وكلامه في هذا الموضوع يشبه كلام لويس فييو ، وبوجولا ، وريشار . ولكن هؤلاء

(1) Valée : **Correspondance**, t. I, p. 238.

(2) Valée : **Correspondance**, t. I, p. 241.

(3) D'Ideville : **Bugeaud**, t. III, p. 216.

(4) Valée : **Correspondance**, t. IV, pp. 301-302.

(5) Valée : **Correspondance**, t. IV, p. 39.

كانوا متحمسين الى حدّ الهوس . فالأول والثاني مدفوعان بالعاطفة الدينية . والثالث مدفوع بروحانية القوة . ومن العبارات التي استعملها فالي أيضا ، قوله بأن الجزائر بلاد «سلّمتنا الأقدار ادارة شؤونها» . بل نجده يقول في خطاب وجهه لعبد القادر الذي اتهمه بعض المؤرخين الفرنسيين بالتعصب الديني ! يقول له فيه : «ان الله معي ، ينصرني ويرعاني ...» فهذه الكلمات ، وان تكن مجرد ألفاظ وتعابير ، الا أنها مع ذلك تدل على نزعة لديه الى السيطرة ، والى «الحلول محل القوة الالهية» وقد ظهرت هذه النزعة لديه في ذلك الشعور القومي العدواني الذي جعله يعتقد بأنه صاحب رسالة ، ومن أجل هذا نجده يتذرع بالحقوق المقدسة التي يجب احقاقها ولو على حساب الغير ، ويبرّر موقفه بحتمية الأمور ، ويستدل بأدلة مستعارة من الأساطير المضللة ومن التعصب الوطني الأعمى . وبما أن هذه النزعة الاستعمارية القائمة على التعصب الوطني تحتاج دوما الى التجديد والاثراء بالأفكار ، والتبرير بالحجج والأدلة ، فان قوانين التطور قضت أن تصاغ هذه النزعة صياغة جديدة على لسان ميشيل دوبري الذي صرّح قائلا : «ان السلطة الفرنسية في الجزائر أمر اقتضاه التاريخ وفرضته الطبيعة والأخلاق (1) .»

## مقارنة بين الماضي والحاضر

**وبعد ، فهل من المفيد أن نمضي في هذه المقارنة بين الماضي والحاضر ، وهي مقارنة ، وان كانت متقطعة ومتألفة من ملاحظات بسيطة ، ومن بعض التفاصيل المبعثرة ، الا أنها مع ذلك تكشف عن وضعية عامة متشابهة ومتكررة ؟**

من الأمور الثابتة أنه كان ــ ولايزال ــ يوجد فرق كبير بين العدد الضخم من الجنود ، وبين الأهداف العسكرية وغير العسكرية المنشودة ،

(1) من خطاب له بتاريخ 9 فبراير 1959 .

بحيث أنه لا يوجد أي تناسب بينهما . ففي أيامنا هذه تساق الى الميدان فرقة عسكرية بأكملها لتحارب مجموعة صغيرة من جيش التحرير الوطني ، وتحشد امكانيات ضخمة لمرافقة قافلة عادية . وقد وصف أحد الضباط الفرنسيين الوضعية السائدة في الماضي قائلا : «كنا دائما في حاجة الى جيش يتراوح ما بين 4000 و 5000 جندي لكي تصل الينا بعض الصناديق من البسكويت ، ولكي تنقل الينا الرسائل من الجزائر الى المدية (1) .» وعندما ذهب شانغارنيي الى مليانة لتزويدها بالمؤن والعتاد اصطحب معه 5.000 جندي . ويوم شنّ لاموريسيير غارة صغيرة في الوادي المالح توجّه الى هذا الموقع طابور يتألف من 4.500 من الجنود المدجّجين بمختلف الأسلحة (2) . وفي شهر مايو 1843 ، لم يكن لعبدالقادر في ولاية وهران الا كتيبتان بقيادة ابن علال ، «وبهما أمكن للبلاد أن تصمد أمام الغزو (3) .» في حين أن الجيش الفرنسي الذي بلغ في الجزائر ما يزيد على 100.000 جندي ، كان معظمه مستعملا في محاربة الأمير . وقد أعرب القبطان برابر عن غيظه من كون «المارشال بيجو خرج على رأس جيش يتراوح عدده بين 30.000 و 36.000 جندي ، ليحارب عددا من الفرسان يتراوح عددهم بين 1.500 و 2.000 في الجبال المحيطة بمدينة الجزائر (4) .» أما «المفقودون» عن طريق الاختطاف ، فقد وضع لهم بيجو نظاما هو أسوء من نظام الرهائن . وذلك أنه «أمر باختطاف النساء ، والأطفال على الخصوص ، لارسالهم الى فرنسا ، وتخويف الأهالي المتمردين بهذه الطريقة (5) .» وهكذا تم اختطاف اثنين من أبناء

(1) **Campagnes d'Afrique**, p. 231.
(2) **Campagnes d'Afrique**, p. 210.
(3) **Campagnes d'Afrique**, p. 331.
(4) **Campagnes d'Afrique**, pp. 186-187.
(5) **Campagnes d'Afrique**, p. 310.

خليفتي عبد القادر ، وهما ابن علال وابن سالم — وأرسلا الى فرنسا كوسيلة (فاشلة طبعا) للضغط على أبويهما ، وارغامهما على الاستسلام . كما أن بعض الفتيان الذين قبض عليهم في زمالة الأمير ، وأرسلوا الى فرنسا ، أدخلوا فيما بعد في المدارس العسكرية وأدمجوا في الجيش الفرنسي بدون رضى آبائهم .

ومن شاء أن يطّلع على تصرفات الجنود والضباط الفرنسيين المحاربين في الجزائر — وهي تصرفات أصبحت من جديد موضوع الساعة — فما عليه الا أن يقرأ ما شهد به لويس بلان ، وكذلك أليكسيس دي توكفيل ، وهو من أكثر المفكرين وضوحا في الرؤية . فالأول منهما قال بالعبارة الصريحة ، مشيرا الى أحداث وقعت في فترة تعد نسبيا أقل الفترات تعذيبا وايذاء للسكان رغم ما تميزت به من تقتيل جماعي :« ان الاحتلال كما كان يقصد به ، كان من النوع الذي يربي الجنود على الوحشية (1) .» ثم شرح كلامه : «في 1832 دخل الجنرال يوسف الى مدينة عنابة على رأس جيش كبير ونصب فوق العلم الفرنسي رأسا مقطوعا لأحد السكان العرب . ومن الأشياء التي اشتملت عليها الغنائم المسلوبة من قبيلة الأوفياء ، على عهد حكومة الدوق دي روفيغو ، من تلك الأشياء أقراط بيعت في باب عزون وهي مضرّجة بالدم ، وأساور لا تزال مربوطة بالمعصم المبتور . (2) » وشبيه بهذا ما تحدّث عنه جول روا في كتاب من كتبه :«سمعت أحدهم يقول مشيرا الى إحدى العجائز بأن روم أذنيها مقطوع بعدما انتزع الجنود الحلي التي علقتها عليهما (3) .» ومن جهة أخرى ، فان لويس بلان ، الذي كان معروفا بوطنيته العمياء ، صرح بأن العظام البشرية كانت ترسل من

(1) **Campagnes d'Afrique** p. 910.

(2) Louis Blanc : **Histoire de dix ans**, t. V, pp. 158-159. E. 1849.

(3) Jules Roy : **La guerre d'Algérie**, p. 162, Ed. 1960.

الجزائر الى فرنسا بالقناطر لكي تستخدم في بعض الصناعات (1) .» أما توكفيل ، فقد اقتصر على القول ، في معرض حديثه عن الجنرال بيدو الذي يعتبر مثالا نادرا بين ضباط العهد الثاني من الحرب : «بيدو ، ذلك الانسان المعروف بالشفقة والرحمة ، كما لو أنه لم يخض حروب افريقيا (2) .» وها نحن اليوم ، بعد أن مضى على الاحتلال 130 سنة ، نسمع أحد الضباط الفرنسيين يتجاوب مع من تحدث عن «تربية الجنود على الوحشية» فيصف الحرب الحالية في الجزائر بأنها «مدرسة من مدارس الوحشية والعنف (3) .»

## التاريخ يعيد نفسه

يمكن اليوم أن نتصور بكل سهولة الخسائر التي منيت بها الجزائر في حروب الاحتلال الأولى وفي الحرب الدائرة حاليا ، كنتيجة لهذا التكالب الفظيع المدبّر بلا شفقة من أجل التقتيل والتخريب . فهذه الخسائر الكبرى من حيث الرجال والأموال والطاقات ، قد أضرّت لا بالشعب الجزائري فحسب ، بل أضرت كذلك بسمعة الشعب الفرنسي والجنس البشري على العموم . وكان من الطبيعي بالنسبة للحروب الأولى أن يؤدي هذا النزيف وهذا السلب والنهب والاستغلال من طرف الاستعمار ، الى عرقلة أي شكل من أشكال **التقدم الجماعي المتناسق** ، ذلك التقدم الذي به يرتفع صرح المجتمع البشري .

ولكن ، مهما بلغت الخسائر التي سبّبها الاحتلال العسكري في القرن المنصرم : من تهديم للمدن والقرى ، وانتزاع للأراضي ، وترحيل للأهالي وتقتيل لهم ، ونفي للملايين من السكان ، وأنواع أخرى من

(1) Louis Blanc : **Ouvrage cité.**

(2) Alexis de Tocqueville : **Souvenirs.**

(3) **France Observateur** : 29/9/60 : «Lettres de soldats».

الحرمان في مجال الثقافة القومية والمؤسسات الوطنية ... مهما بلغت تلك الخسائر ، فانها أقل بشاعة من الحرب الدائرة حاليا ، بما يقع فيها من تفنّن في التقتيل والتعذيب ، وما يبتلى به الشعب الجزائري منذ ست سنوات من محن ومصائب . ان تزايد السكان في الجزائر منذ الاحتلال لا يكاد يبلغ الضعف (من خمسة ملايين ونصف تقريبا الى عشرة ملايين) ، نتيجة للمصائب التي خفضت العدد السابق الى 2.215.000 في عام 1872 ، وذلك بسبب الحرب وسياسة التجويع المدبرةوقمع الانتفاضات الشعبية . أما الجيش الفرنسي المرابط بالجزائر ، فقد تضاعف اليوم ست أو سبع مرات بالنسبة لتعداده القديم ، فضلا عن تزويده بامكانيات مادية وبشرية لم يسبق لها نظير من قبل .

ويضاف الى ذلك أن الجزائريين أثناء حروب الاحتلال الأولى ، بما أنهم كانوا يعيشون في بلد حرّ مزدهر ، ورغم أنهم واجهوا دولة أوربية قوية يبلغ سكانها 36 مليون نسمة ، ومتفوقة على الجزائر في السلاح والعتاد ، رغم ذلك كله ، فقد توفّر لديهم في البداية ، ولمدة طويلة ، رصيد كبير من الموارد التي ، وان كان الاحتلال الأجنبي قد عمل تدريجيا على تقليصها ، الا أنها جعلتهم يحتفظون بامكانيات كبرى متمثلة في نمط حياتهم ، وحالتهم الصحية الممتازة ، وتحفّزهم للقتال ، واستعدادهم على الدوام لخوض معارك التحرير . فهناك اذن أجيال من الشبان المولودين في العهد الأول من الاحتلال ، أو في الثاني ، شملتهم هذه الانطلاقة العارمة نحو الحرية ، فتألف منهم جيش احتياطي (القبائل الكبرى في 1857 ، وجنوب ولاية وهران ومقاطعة الجزائر في 1864) ، أو أعيد تأليفه (القبائل الكبرى ، الهضاب العليا في مقاطعتي قسنطينة والجزائر ، والمنطقة الغربية من أوراس ، وجبل شرشال عام 1871) ، وبذلك انضموا الى صف المواجهة في الوقت المناسب .

## ظروف اندلاع الثورة

ولكن سياسة القمع والسلب والنهب ، وسياسة توطين الأوربيين ، أصبحت كل منهما تطبق باحكام . ولعل أحلك ما عرفه الجزائريون من العهود وقع في حالة «سلام» ، وهو سلام أسوء من الحرب (اذ فيه تضاعفت مشاريع الأوربيين في الاستيلاء على الأموال ، وافقار الأهالي والتضييق عليهم) . انه ذلك العهد الذي أعقب الثورة السياسية — الزراعية في 1871 التي تواصلت أكثر من ستين عاما (1) . ان تقدير هذه المدة بستين عاما قد يبدو اعتباطيا . والحقيقة أن الكفاح السياسي أخذ يشتد ابتداء من الثلاثينات من هذا القرن ، ويسير تدريجيا على النظام ، ويتوسع الى مختلف الجهات رغم الاضطهاد الاستعماري المتناهي في الشدة والقسوة . وربما صحّ القول بأن اليقظة القومية خففت في نفوس الجزائريين وطأة الشعور بوضعية مستديمة ومتميزة بالظلم والعدوان . فقد تنازل الاستعمار للأهالي — وخاصة في المدن — عن بعض الحقوق الديمقراطية الزائفة لذرّ الرماد في العيون ، فتغيرت نوعا ما أساليب السيطرة القديمة ، علما بأن هذا التغير انقلب أحيانا الى ما هو أسوء .

وهكذا أخذ الاستعمار يتزعزع أمام هذه المواجهة الجديدة — وان كانت غير متكافئة — وصار يعمل من أجل تعبئة جميع طاقاته ، ومن أجل تعزيزها ، فسلط على الجزائريين المصائب والمحن في عهد حكومة فيشي ، وعلى الأخص في شهر مايو 1945 ، ولكن الأمور في الأرياف لم تكد تتغير ماديا واجتماعيا : فأبشع أنواع الاستعمار يتمادى هناك علانية ، ولهذا ، فان الفلاحين وسكان البوادي على العموم تعرضوا منذ الاحتلال

(1) تميز العهد السابق لعام 1871 بتطبيق قوانين مجحفة خاصة بأملاك الجزائريين ، كما تميز بمجاعات مهلكة لم يسبق لها نظير في تاريخ البلاد . ولكن البلاد لم تفقد الأمل آنذاك بسبب استمرار الكفاح المسلح .

لأشد أنواع الاستغلال ، اذ قلّ أن تجد في أرجاء هذا العالم بشرا في مثل تلك الحالة من البؤس والشقاء ، يعيشون بجوار ذلك الثراء الفاحش الذي ينعم به الأجانب .

تلك هي الظروف التي اندلعت فيها الثورة الحالية المتواصلة ، وهي ظروف الحرمان التام ، وسوء التغذية المستديمة ، وانحطاط الوضعية الاجتماعية ، والقهر السياسي الشديد . وبما أن الفلاحين هم أول ضحايا هذه الحالة ، فان الفضل يرجع اليهم في اعطاء الثورة الجزائرية الانطلاقة الأولى وضمان الاستمرار والنصر لها . فالشعب الجزائري ، رغم المصائب التي انهالت عليه ، استطاع أن يشكّل «كتلة متراصة لم يقو أحد على تحطيمها» كما قال أحد الفلاسفة المعاصرين ، وهذه الكتلة لها خصائص مرتبطة بأعمق ما في كيانه من خصال ، لأن «الانسجام الباطن أهم من الانسجام الظاهر .» والغريب في الأمر أن ما تميزت به هذه الكتلة من قوة ومن فعالية ومن أخلاق رفيعة ، يرجع أساسا الى نظرة الاحتقار اليها . والسرّ في ذلك ربما يكمن في ما يسمى بالنظرية النقيضة antithèse التي ارتكز عليها الاستعماريون في ادعائهم التفوق على الأهالي ، لأنهم لا يرضون بأية مقارنة مع الغير ، أو أية اشارة الى نمط آخر من الحياة غير الذي تعوّدوه ، وبالتالي فهم يتجاهلون وجود النقيض ، أي الخصم . والحقيقة أن هذا الموقف يختفي وراءه عذر مرفوض سلفا ، وفشل ذريع في التعامل سياسيا مع الأهالي . أضف الى ذلك أن الوسائل العسكرية المستعملة في الميدان تدل على الاستبداد في الرأي بالنسبة لمشاريع البناء ، وعدم اشراك الخصم فيها ، وتدل أيضا على أن الجيش الفرنسي المستبدّ اتخذ من جيش التحرير الوطني موقف الظالم المتجبر الذي لا يرضى بأحد سواه . فالجيش الاستعماري لا يعترف للخصم حتى بحق الكفاح المسلح ، وبالتالي فان الحرب التي يشنها ذلك الجيش عليه تلغي القوانين التي يراعيها عادة وبصورة تلقائية طرفا النزاع المتكافئان .

ومن الناس من يتعجب كيف أن الجيش الفرنسي آل به الأمر الى القيام في الجزائر بمهام بوليسية حقيرة ، فهذا الأمر ناتج في الحقيقة لا عن انكار قضية الخصم فحسب ـــ وقد يكون لهذا الانكار ما يبرّره بالنسبة للصراع السياسي الحالي ـــ بل هو ناتج بالدرجة الأولى عن انكار الشخصية المعنوية للغير ، وعدم الاعتراف بالانسان المثيل لك في الذات والصفات ، المدافع عن حقه بالسلاح ... ويتعجب آخرون من الحقد والبغض الشديد الذي يكنّه الضباط والجنود الفرنسيون لجنود جيش التحرير الوطني وضباطه . فإذا اقتصرنا في المقارنة بين الفريقين ، على الوضعية المادية ، وأخذنا بعين الاعتبار العدد والعدة والمدفعية الثقيلة والمدرّعات والطائرات والسلاح البحري ، فان هذا الأمر وحده يكفي لجعل الأول بعيدا بعد السماء عن الثاني ، من حيث الخطط العسكرية الملائمة لكل واحد منهما . ولو أن الفريق الأول استطاع ، بما عنده من تفوّق وتنوّع في الأسلحة ، أن ينتصر أو يصدّ هجومات خصمه أو على الأقل يستفيد مما اكتسبه من تجربة في محاربته للثوار الجزائريين الذين ليس لهم سلاح ثقيل ، لكي يتغلب على الجيوش الأوربية أو الأسيوية ، لكان له في هذا الانتصار ما يدعو الى الاعتزاز . ولكن فشله الذريع ، أو ، في أحسن الاحتمالات ، انتصاره المشكوك فيه ، بواسطة الدعاية النفسية المدعمة بامدادات ضخمة من الجنود والعتاد العسكري ، قد باعد الى أقصى حد بين نمطين من السلوك ، ومفهومين من مفاهيم الشرف العسكري . فهذا الفشل لدى فريق يملك جميع الطاقات الممكنة ، يتحول الى شعور بالاحباط ، ثم الى حقد عميق .

ان احترام الخصم ، والشهامة العسكرية ينشآن عندما يتعادل الطرفان نسبيا فيتعاملان وفق معايير متماثلة تقريبا . أما استعمال هذه الآلات الفتاكة في محاربة مجموعات صغيرة ، والاستعانة بكل هذه

التشكيلات من الطائرات والسفن الحربية والقوافل الطويلة من السلاح والعتاد (علما بأنها لا تجدي نفعا مع قوم ليس لهم من قوة سوى بعض القيم الأخلاقية وبعض الأسلحة البسيطة) ، فان هذا كله من شأنه أن يقتل لدي أصحابه كل شعور انساني ، بحيث لا يشفقون حتى على البريء ، ولا يحترمون الشجاع ... ومن الأخبار التي شغلت بالي بعض الوقت ، خبر نشرته الصحف في 1957 ، وهو ليس من النوادر ولا من فلتات اللسان ، ولامن الوقائع الخارقة للعادة ، بل هو خبر يتعلق بغارة قام بها الطيران الفرنسي على بني سليمان ، في الجنوب الغربي من تابلاط . فقد أقلعت أسراب متتالية من طائرات يبلغ عددها **مائة** ، فتسببت خلال هذه العملية في موت **مائة** شخص بالضبط ... ويدّعي قوم آخرون بأن الحرب الحالية تشكل مدرسة يتعلم فيها جنود الجيش الفرنسي وضباطه الصبر على المكاره والاستراتيجية العسكرية المثلى ، وذلك تحسّبا لقيام حرب بين الدول الكبرى . ولا يخفى على أحد ما في استعمال هذه الأسلحة الفتّاكة : كالطيران والمدفعية الثقيلة ، من أثر في رفع معنويات رجال المقاومة ، وتحديد سلوكهم أمام العدو .

انها حرب توفّر فيها للفريق الأول جيش يتألف من 700.000 جندي ، مع عتاد عسكري ضخم في غاية الاتقان ، وليس للفريق الثاني الا جيش صغير عددا وعدّة . ولهذا فان مردود الحرب من حيث رفع المعنويات مردود ضعيف بالنسبة لجنود الفريق الأول ، لأن التجربة المكتسبة في ميدان المعركة تجربة تافهة ، ولأن نتيجة العملية العسكرية تساوي الصفر ، كما هو الشأن في روايات الخيال العلمي . فالأخطار التي يتعرض لها هؤلاء الجنود قليلة ، لأن المظلّيين من الفريق الأول لا يجدون في الفريق الثاني نظيرهم ، ولأن الطيارين يلقون القنابل في سماء خالية من طائرات العدو ، ولأن المشغّلين للمدرعات والمدافع الثقيلة يوجّهون ضرباتهم الى

القرى الآمنة . ومما يبعث على السخرية أن تسمع أبواق الاستعمار في الجزائر تتحدث عن «مهمات» جوية «وكذا وكذا» من الساعات في الطيران ، وأرقام قياسية جديدة و «عمليات» بدون خسائر ، وتشغيل المدفعية الثقيلة لدعم الجنود .

ومع هذا كله فليس من المؤكد أن المظليين والطيارين والمدفعيين في مأمن من ضربات الفريق الثاني ، لأن هذه الحرب انما هي حرب رجال ، وكثيرا ما يتأتى لمن ليس له من قوة سوى الشجاعة والاقدام والسلاح الفردي أو المشترك وروح التضحية وتعشّق الحرية ، أن يتغلب على فئة كثيرة ليس لها روح ، وعلى جيش جرّار معتدّ بنفسه يقاتل لا من أجل الحق ، بل من أجل الباطل . وبما أن الحرب الاستعمارية القائمة على القمع الشديد قد تسلطت بالدرجة الأولى على المدنيين الذين هم أوفر عددا من جنود جيش التحرير ، فليس من المستغرب أن يتخذ هذا الجيش الاستعماري الجرار منهم مسرحا لمعاركه وانتصاراته السهلة . ومن جهة أخرى ، فهذه الحرب الضروس قد هيّجت كل أعوان الاستعمار وجنّدتهم للعمل في نطاق فرض السيطرة العنصرية بجميع الوسائل الممكنة . وهكذا أخذت هذه الحرب تمهّد السبيل للنظام البوليسي . ففي 1945 أعرب أحد الصحافيين في مدينة الجزائر (فرانسوا بوشير) عن أمله القويّ في الاستعانة برجال الدرك . وأمله قد تحقق اليوم أضعافا مضاعفة ، لأن الجندي قد تحوّل الى شرطي بغيض مغرور بنفسه ، حتى أصبح يعتقد بأنه من الأبطال .

لقد سجل تاريخ الاستعمار في الجزائر مثالين من المصائب التي ابتليت بها بلادنا : أحدهما يتمثل في شخص دي سافاري (الدوق دي روفيغو) ، المحافظ السابق لشرطة الامبراطور ، والذي حلّ محل فوشي ، ثم

تعيّن في 1832 حاكما وقائدا عاما للقوات الفرنسية في الجزائر . فهو الضابط الوحيد ــ بين جميع ضباط العهد الأول ــ الذي اشتهر في مدة قصيرة بأساليب رهيبة ومذابح فظيعة ، مثل مذبحة الأوفياء التي تحدث عنها لويس بلان وجميع المؤرخين النزيهين . أما الثاني ، فقد ظهر منذ عهد قريب في شخص الجنرال ماسو الذي تفوّق بأساليبه البوليسية وأعماله المنكرة وقساوته المتناهية على كل خبير في التقتيل والتعذيب .

**كيف انبثقت الثورة الشعبية**

من كل ما سبق يتبين لنا أن الجزائر كانت محاصرة بطوق من حديد يكاد يخنقها . ولكن ... أليس في الجزائر الحالية شيء آخر غير هذا الحصار ؟ لقد انبثقت عن الحتمية القاسية : حتمية الاقدار والتاريخ والظروف الطبيعية والقيم الأخلاقية والاستغلال الاستعماري وحكم الجيش الفرنسي الظالم ، انبثقت عن كل ذلك ثورة شعبية أقلّ ما يمكن أن يقال عنها أنها أخذت منذ ست سنوات تزعزع أركان نظام قديم ما فتيء يتجدد باستمرار .

ان الثورة الجزائرية ، فضلا عن الحركة القوية العارمة الشاملة التي أطلقتها من عقالها ، قد أثارت في صفوفها ، وكذلك لدى المتواطئين مع الاستعمار ، ولدى أعوان الاستعمار المنخرطين في جيشه ، أثارت قوى تعمل من الداخل أو الخارج على هدم النظام القائم ، وتحطيمه وسحقه بالأقدام وارغامه على أعلان الافلاس بعد فضح جرائمه الشنيعة . وسوف يأتي يوم يتكفّل فيه غيرنا بشرح ما تمثله هذه الحركة التاريخية التي أخذت على عاتقها تطهير منطقة من مناطق العالم ، بل صفحة من صفحات الضمير الانساني الذي حاولت الفاشية الاستعمارية أن تدنّسه بطريقة خفية أو سافرة . واذا كانت هناك بين الحين والآخر ، مبادرات لتطهير الوضعية من الجو الموبوء ، فان هذا العمل لا يحصل الا لماما ، بل تقف

أمامه عراقيل على يد أولئك الذين مازالوا في فرنسا يدافعون عن الاستعمار ، بعدما أخذ يلفظ أنفاسه الأخيرة في افريقيا . والحقيقة أن السلطات الرسمية متواطئة مع هؤلاء المعرقلين . وهنا نذكّر بالبيان الذي وجهته الحكومة المؤقته للجمهورية الجزائرية الى الأوربيين المقيمين بالجزائر ، بعد الحوادث التي وقعت في 24 يناير 1960 .

وقد كان القصد من توجيه تلك الكلمة السياسية القيمة ، المفعمة بروح الحزم والعدل والتفاهم ، كان القصد منها تطهير العقول ، وبثّ الطمأنينة في قلوب اليائسين أو المتردّدين ممن قد يرغب في الحصول على حقه كمواطن في الجمهورية الجزائرية يوم تنال استقلالها . انها كلمة العقل والقلب : كلمة مجردة من الأقوال المزخرفة والتنازلات الشكلية ، بل هي نداء مباشر مشحون بحقائق ناصعة واعتبارات سياسية وانسانية خالية من المحاباة ومن النزعة الانتقامية . فهذا البيان يستحق أن ننشر منه فقرات . ومما جاء فيه :

«ان الغزو الاستعماري فتح لكم أبواب بلادنا وأعطاكم أكثر مما تستحقون من حقوق ، وحرمنا منها حرمانا تاما . ولذا فلا تتشبثوا بهذا الماضي الكريه وما فيه من تناقضات ومن أمور منافية للمعقول ، ولا تكونوا سجناء مشكلة مفتعلة تتمثّل اما في ابادة الشعب الجزائري ، أو الخروج من الجزائر ... وليس في مقدور أي جيش كان أن يضمن لكم المستقبل في ظل الاستعمار . فالحل الوحيد هو تشييد دولة جزائرية تسمح لنا جميعا أن نعيش جنبا الى جنب وأن تضمن المستقبل لأبنائنا ... والوطنيون الجزائريون الذين استرخصوا دماءهم ليعيشوا أحرارا ، لا ينازعونكم في حق التمتع بهذه الحرية ، ولئن رفضوا في الماضي تصنيفهم كبشر من الدرجة الثانية ، ورفضوا اعتباركم مواطنين من ذوي الامتياز ، فانهم من جهة أخرى على استعداد لاعتباركم جزائريين أصليين ... ان الأرض هي التي تطبع

الانسان وتكيفه . ولقد طبعتنا الأرض الجزائرية بطابعها ، وبلغ من تأثيرها فينا أننا نستطيع أن نعيش جنبا الى جنب ... أما الاستعماريون ، فهم يقولون لكم كلاما آخر . ان صحافتهم توجّه اليكم صباح مساء سمومها وأكاذيبها . وما فتئوا منذ أكثر من قرن يلقنونكم «حقائق» باطلة ومفضوحة لاقناعكم بصواب أفكارهم ولضمان سيطرتهم . وأنتم اليوم خائفون من الاستقلال . ولكنكم غدا سوف ترفعون لواءه ، لأن الاستقلال هو الذي يحقق الصلح بيننا بعد تحريرنا من العبودية والبغضاء والخوف ... ان العنصرية أمر غير موجود عندنا ، وهذا شيء يعرفه المتبّصرون والشجعان منكم ، الذين أدانوا الاستعمار والتحقوا بجبهة التحرير الوطني . فهؤلاء أخذوا بالفعل يتمتعون بالاخاء الجزائري الصحيح » (1)

على أن هذا الأسلوب الذي استعملته الحكومة المؤقتة ــ وكان من المفروض أن يكون له صدى لدى الأوربيين ، وأن يزيل الغموض والشبهات ، وأن يهيىء العقول للاختيار الذي هو آت لاريب فيه ــ هذا الأسلوب ما لبث أن أحدث رد فعل شديد ، وكان هذا الرد أشد على الصعيد الرسمي الفرنسي مما كان لدى الخواص . فالصحافة الحكومية ثم اذاعة الدولة بادرت كل منهما الى مقابلته بالحقد والمكر . فمن الواضح اذن أن القادة الفرنسيين لم يهتموا أبدا بتخليص عقول المستوطنين من

(1) بعد حصول البلاد على الاستقلال ، أنكر علينا قوم لم يعانوا التجربة القاسية التي عاناها شعبنا ، ولم يدركوا الحقائق العميقة الخاصة ببلد قاسى من الحرب ما قاسى ، أنكر علينا هؤلاء ــ بدافع من الحماس الملحوظ لدى المناضلين الجدد ، أو برغبة في التقرب من بعض القادة الحاليين ــ انكروا علينا نشر هذا النص . ولكن الحقيقة أن النظرة الى التاريخ القومي لبلد من البلدان ، لا تطابق دائما الفكرة التي يتصورها شخص يجهل علم التاريخ . فالتاريخ يقوم على الادلاء بالشهادة، لا على سرد الأحداث الخاصة بجماعة معينة . والأمر هنا يتعلق بمبادرة سياسية أملتها الظروف آنذاك . وسوف يسجل التاريخ أن المنظمة العسكرية السرية OAS هي التي كانت السبب في خلق وضعية لاسبيل الى اصلاحها بعد اليوم ، وفي نزوح الفرنسيين عن الجزائر على أوسع نطاق .

السموم ، بل كانوا يريدون منهم المضيّ في ضلالهم من أجل التمادي في وضعية انتحارية لا تطاق ، وهي وضعية يرفضها العقل السليم ، ويدينها التاريخ الى الأبد . ولكن الشيء الذي لا تستطيع الحكومة الفرنسية المساندة للجيش أن تمنعه بعد اليوم ، هو الحيلولة دون ظهور قوى مناهضة للاستعمار داخل الشعب الفرنسي بالذات . وقد ظهرت بالفعل وكان لها أثر حاسم . وذلك أن معظم القوى التي جندت نفسها ، وبصورة تلقائية أحيانا في القرن الماضي للمشاركة في غزو الجزائر واستغلال سكانها ، أخذت اليوم تنضم الى صف العدل والحرية .

وهكذا فان الكفاح الذي خاضه الجزائريون ، وما قاسوه من محن ، لم يذهب هباء منثورا ، بل اعتبرته الأجيال الفتية الطليعية الفرنسية مثالا يقتدى بعدما أدركت الى أية درجة من الانحطاط المعنوي والاستنكار العالمي وصلت بلادهم بسبب الحرب الحالية . أما في الجزائر بالذات ، فان الكيان الاستعماري الذي قام عليه نظام الاضطهاد ، أخذ ينهار تدريجيا تحت ضربات الحركة الثورية . ونحن اليوم نشهد على الصعيد الاجتماعي والسياسي أحداثا هامة سوف يتضاعف مفعولها لصالح الأمة الجزائرية المرتقبة . فالجزائر لن تقع بعد اليوم فيما وقعت فيه من عبودية وجهالة أثناء القرن الماضي . والأمر اذن لا يتعلق ــ حاضرا ومستقبلا ــ بمجرد اصلاحات طفيفة أو قسرية للأوضاع ، مع ما يرافقها من آثار ومخلّفات من العهد البائد ، بل الأمر يتعلق بانهيار صرح متعفن متداعي الأركان . وقد استلزم تحطيم هذا التحالف الرهيب بين الجيش والمستعمرين (باعتبار أن كل واحد منهما يساند الآخر ويتنافس معه على الاثم والعدوان) استلزم ذلك من الشعب الجزائري أن يضحي بمليون من الشهداء وعدة آلاف من المبتورين والمعطوبين الأبرياء ، وأن يتعرض لأعمال التخريب والتهديم وأن يخوض كفاحا مستميتا من أجل استرداد كرامته .

ولا تزال الأوضاع تستلزم تعبئة العزائم القوية من أجل العمل على انتصار الحرية المتعرضة لخطر الموت ، تلك الحرية التي يتوقف مصير الجنس البشري عليها ، في صراعه مع القوى المتنكرة لها في الجزائر بالذات ، وفي كل مكان . ان أبعاد المأساة التي عرفها الشعب الجزائري ، وما يلقاه اليوم هذا الشعب من اخاء وتضامن لدى من كانوا بالأمس يستفيدون بصورة مباشرة أو غير مباشرة من النظام الاستعماري ، سوف يكون لهما أكبر الأثر في ايجاد الحل النهائي وتحقيق النصر القريب . أما البقية الباقية ، أي الأهم في الموضوع كله ، فهو من منجزات الثورة الجزائرية والشعب الجزائري الذي بذل في سبيلها كل غال ونفيس .

ديسمبر 1960 — يناير 1961

# الفصل الثامن

## الجوانب المجهولة من الثورة الجزائرية

### مائدة المحادثات

قد يكون من المفيد ، غداة الاعلان عما أسماه بعضهم ــ احتشاما ــ بتوقّف المحادثات ، وقبيل استئناف الاتصالات التي لا تزال مرهونة بمشيئة رجال الحكم الفرنسيين ، قد يكون من المفيد أن نوضّح بعض المسائل الخاصة بالثورة الجزائرية ، وهي مسائل كثيرا ما رأينا الباحثين يمرون عليها مرّ الكرام ، ويدرسونها دراسة مشوّهة أو سطحية ، وأحيانا يتجاهلونها تماما . وليس غرضنا في هذا المقام هو استخلاص العبرة ــ الا اذا حصل ذلك بصورة عرضية ــ من الأسابيع الثلاثة الماضية ، وهي أسابيع اعتبرها البعض دليلا على حسن النية ، واتخذها البعض الآخر ذريعة لبلوغ أغراضهم الخفية .

ومهما يكن من أمر ، فان موقف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (ح . م . ج . ج .) التي أتت الى مائدة المحادثات بقلب سليم ، موقف معروف في خطوطه العامة ، مع أن الصحافة الفرنسية التي أرادت أن تفسد الأمور قد عملت على تعتيم هذه المحادثات لدى الرأي العام الفرنسي . وعلى سبيل المثال ، فان وجهات نظرنا المبنية على أساس

متين ، والمتميزة بالواقعية وبالروح الليبرالية فيما يتعلق بوضعية الفرنسيين في المستقبل ، قد عرضت بطريقة مشوهة في الصحافة الفرنسية ، أو اقتضبت حتى لم يبق منها سوى بعض المقتطفات والانطباعات .

وقد كان من الواضح أن الحكومة الفرنسية التي طالما ضللّت عقول رعاياها في الجزائر حتى دفعت بهم الى نوع من الانتحار الجماعي — وهو أمر فريد من نوعه في تاريخ الأقليات الاستعمارية — هذه الحكومة أرادت أن تتمادى في اتخاذ مشكلة الأقلية الأوربية كحصان طراودة ، بقصد المراوغة والاحتيال ، كما أرادت أن تنتهج سياسة الديماغوجية ، وأن تكون أكثر تطرفا من المستوطنين الذين كان من المفروض — لو عرفوا مصلحتهم — أن يطلبوا الجنسية الجزائرية ، واذا احتفظوا بجنسيتهم ، أن يكفّوا تماما عن التعاون مع الطابور الخامس ، طابور الاستعمار الغربي الأوربي الجديد الذي يدعي بأنه يحمي افريقيا .

## مناورات الحكومة الفرنسية

وليس هذا الا مثالا من بين العديد من الأمثلة ، ولكن الشيء الذي يهمنا أكثر ، ويهم جمهور القراء لكيلا تنطلي عليهم مناورات الحكومة الفرنسية المتمادية في غيها ، ولكيلا يقعوا مرة أخرى في الوهم ، رغم الواقع الناصع الذي فرض نفسه منذ أحداث 1960 ... ان الشيء الذي يهمنا ويهم جمهور القراء ، هو أن يصبح موقفنا نحن الجزائريين معروفا بدقة ، وهو موقف ثابت لا يرضى بالمساومة على المباديء ، ويعبّر عن شعور الشعب بأكمله وعن الحاجة الماسة من الناحية السياسية للسير بالقضية الجزائرية الى آخر أشواطها ، تلك القضية التي ضحّى من أجلها الى حد الآن أكثر من مليون شهيد . انه موقف ثابت لأنه يتعلق بالاستقلال والسيادة ، في ظل الوحدة القومية ووحدة التراب الوطني .

## بين التطرف والاعتدال

وانه لمن العبث في مثل هذه الحالة أن يتحدث الانسان عن التطرف أو الاعتدال ، وهما فكرتان كانتا ــ وسوف تظلان ــ بعيدتين كل البعد عن اتجاه الحركة التحريرية ذات الأهداف البسيطة الناصعة المدعّمة بالوقائع والمبادىء الثابتة ، تلك الأهداف التي استقطبها الشعب الجزائري بكل ما لديه من طاقة ، واسترخص في سبيلها النفس والنفيس ، وأقبل عليها بوجوه مشرقة مطمئنة يعرف أصحابها تمام المعرفة الى أين يسيرون ، ولماذا يقاتلون ، وكيف يؤدّون واجبهم بالسلاح طورا ، والسلام طورا آخر ، والعمل المباشر تارة ، والمفاوضة اليقظة الايجابية تارة أخرى ... فالجزائري الذي يواجه السيطرة الاستعمارية ، ويقف على أهبة الاستعداد منذ أكثر من قرن ، صامدا في كفاحه المرير ــ رغم بعض الفشل الذي أصابه في عهد ما قبل الثورة ــ هذا الجزائري قد استفاد من الممارسة اليومية الطويلة ، وأصبح يعرف خصمه الفرنسي في حركاته وسكناته ونواياه وعقليته وخطته السياسية . فالوقت الذي قضاه الاستعمار الفرنسي في ضرب الشعب الجزائري وسلبه ونهبه ، ووضع العراقيل أمام تطور البلاد ، قد قضاه الجزائرى ــ أبا عن جد ، وبصورة مستمرة ــ في الدفاع عن كيانه ، ومحاولة فهم الأمور على حقيقتها ، ومراقبة تحركات خصمه بدون كلل ، وربط المواقف الاستعمارية التي لم تتغير تقريبا منذ 1830 ، بأسبابها الحقيقية . فهل يمكن ، لمن اكتسب هذه التجربة الطويلة اليقظة وعاناها في المصائب والمحن ، أن يتخلى عنها ليلبس لباس الحمل الوديع ويسلّم نفسه لقمة سائغة للذئب الشرس ؟

## جهل الفرنسيين بأبعاد القضية

ان الكثير من الفرنسيين ، بحكم جهلهم للقضية الجزائرية في أبعادها الاجتماعية والسياسية ، ظلوا مدة طويلة يعتقدون بأنهم توصلوا الى

فهم هذه الأبعاد فشخّصوها في اطار ضيّق هو اطار الأحزاب . والحقيقة أن هؤلاء لم يتخلوا عن أفكارهم المسبقة ، فما زالوا ينظرون الى الحركة الثورية الجزائرية ، بما لها من أبعاد انسانية وديناميةقومية ، ينظرون اليها من خلال زاوية ضيقة . وبما أن تصورهم للقضية الجزائرية مستمد كله من واقع الأحزاب والعصب المتواجدة في البلاد ، فقد أنكر البعض ما اتسمت به هذه الثورة العارمة من طابع جماهيري . أما غيرهم من المنتمين للجناح اليساري ، فقد أعربوا عن أسفهم لكون جبهة التحرير الوطني تصرفت — حسب زعمهم — تصرفا منافيا للروح الديمقراطية عندما بذلت كل ما في وسعها للقضاء على خصمها السياسي حتى لا «ينافسها» (هكذا) . وهذا الخصم هو حزب الحركة القومية الجزائرية MNA .

ان الكفاح التحريري ضد الاستعمار ، عندما يتحول الى ثورة مسلحة ، وعندما يستلزم تكتيل الجهود في ظل الوحدة الشاملة ، فانه لا يبقى هناك من خصم ولا من منافس . فالديماغوجية ، والعمل المنافي للديمقراطية نجدهما على العكس لدى أولئك الذين أدركوا بأنهم يشكّلون الأقلية ، وليس لهم أي تأثير في الأحداث الحاسمة والتحولات العظيمة الجارية في افريقيا وآسيا فأخذوا يولون الأدبار ، ويسلكون طريقا آخر غير الطريق الذي سلكته الجماهير الشعبية . وليس في الحقيقة من طريق ، بالنسبة للبلدان الرازحة تحت نير الاستعمار ، سوى طريق الكفاح والتحرر ، من أجل فتح أبواب التقدم السياسي والاجتماعي الشامل ، بعيدا عن كل حركة جهوية انعزالية . ومن المعلوم أن الأحزاب السياسية كانت قبيل الفاتح من نوفمبر 1954 تتطور من سيء الى أسوء ، وكانت النعرات الجهوية قد أفقدتها القدرة على العمل المشترك في الاتجاه الصحيح ، مما جعلها عديمة الجدوى .

## فشل الأحزاب في مواجهة الاستعمار

ولكن العامل الأساسي الذي حدّد موقف الشعب والقاعدة المناضلة من تلك الأحزاب (موقف الاستياء ، والشعور بالاحباط ، والبحث عن بديل) هو الواقع الاستعماري البغيض الذي واجهته الأحزاب بطريقة فاشلة ، في معركة خاسرة سلفا ، لأن السواد الأعظم من الشعب كان محروما من المشاركة فيها . فالعمل ، اذ بقي محصورا في مجال ضيق ، ولم يتسع نطاقه ليشمل الجماهير الغفيرة ، قد جعل النضال السياسي عقيما ، حتى ولو كان مخلصا ، وجعل المبادرات السياسية تدور في حلقة مفرغة ، وتهدف بالدرجة الأولى الى صيانة المظاهر . وهذا لا يعني بأن الذّنب هو دائما ذنب هذه التشكيلة السياسية أو تلك . فادانة الأحزاب بدون تحفّظ قد لا تخلو من التعسف والاجحاف . ولكن ، لابد مع ذلك من أن نقول بأن استعادة الجماهير لحريتها في العمل ، ومشاركتها في الانطلاقة الثورية ، قد أحدثتا تغييرا جذريا في أصحاب العقلية القديمة ، وكشفتا عن زيف بعض المباديء والأفكار السائدة قبيل ثورة الفاتح من نوفمبر . وفضلا عن ذلك ، فقد أثرتا تأثيرا بعيدا من حيث خلق ظروف جديدة ، وأنماط من التفكير الجديد ، ومن المواقف الايجابية التي ما لبثت أن قضت نهائيا على نظام الأحزاب ونعراتها الجهوية وأساليبها الرذيلة .

ان المشكلة الأساسية التي عجزت السلطة الحاكمة عن حلها — مما أدى ، لأسباب مختلفة ، الى اندلاع الثورة — هي مشكلة تحقيق التقدم الشامل في مختلف الميادين ، عن طريق فتح الأبواب المغلقة . ولو تمّ ذلك لما رأينا غضاضة في الاعتراف للسلطة الحاكمة بأنها تعمل من أجل اقامة السلام . ولكنها عجزت عن حلها ، لأسباب كثيرة ومعروفة ، فقامت الثورة ... والتقدم ليس من الكلمات الجوفاء ، وان

كان قد يبدو لأول وهلة بأنه لا يؤدي تماما المعاني الكثيرة الخاصة به ، كالحرية المبدعة ، والانتفاضة الجماعية ، والوثبة الشاملة الى الأمام ، والانطلاقة السريعة المتضمنة لكل الامكانيات التي كانت معوّقة في السابق . فالأمر اذن يتعلق بتخطّي العقبات التي تحول دون التطور ، وتمنع من استكمال مقومات الذات ، وتحول دون تحقيق الهدف المنشود ، كالانسان المريض الذي يقوم من فراش الموت ويحاول أن يمشي على قدميه . فلابد من الاهتمام بهذا التقدم الذي انطلق في نفس اللحظة التي انطلقت فيها حركة التحرير . وهذه الظاهرة بدأ الناس يتساءلون عن عواملها الأساسية وشراراتها الأولى التي تتالت من بعدها الشرارات الأخرى ، في حركة سريعة منسجمة .

## وضع حد للتردد والتسويف

يجدر بنا اذن أن نهتم بتلك اللحظة الموعودة لتنفيذ القرار التاريخي الذي وضع حدا للتردد والتسويف عاما بعد عام ، وأن نتذكر دائما ذلك الرعيل المجهول الذي أطلق الرصاصة الأولى . ولكن الأهم من كل هذا هو مشاركة الشعب المناضل مشاركة فعالة ، لأن هذه المشاركة هي الدعامة الأساسية للعمل الثوري ، اذ منها استمد هذا القرار التاريخي واليها يعود أولا وآخرا .

**وبما لا جدال فيه أن النضال السياسي عن طريق الأحزاب لا يمكن أن يؤدي ، مهما كانت الأحوال ، الى الاستقلال الحقيقي ، أو الى التقدم والرقي السريع الشامل ، خاصة اذا كانت مصالح الاستعمار كثيرة ، وعدد المستوطنين كبيرا . ولقد يقال بأن هذا الحكم لا يصدق على افريقيا السوداء . ولكن السرّ في ذلك يرجع الى حرب الجزائر التي عجلت باستقلالها . والمستعمرون يعرفون هذا جيدا ، اذ نجدهم يطمئنون**

الى فكرة العمل المسالم الذي تدعو اليه بعض التشكيلات السياسية والأحزاب في البلدان المستقلة ذات الأنظمة البرجوازية ... ويعرفون أيضا بأن العقبات الكبرى القائمة في الأقطار غير المستقلة ، وتطورها الزائف ، وعجزها عن تلبية ارادة الشعب المتمثلة في الكفاح المسلّح ، وغير ذلك من النقائص الملحوظة لدى الأحزاب السياسية المفتقرة للحرية الخلّاقة لوسائل الكفاح ، هذه النقائص من شأنها أن تؤدي الى القطيعة بين تلك الأحزاب وبين السواد الأعظم من جماهير الشعب ، وبالتالي ، الى التقاعس في العمل من أجل تحرير الجماهير .

وبعبارة أخرى ، فان تحرير الوطن في المستعمرات أو المحميات ذات الاستيطان الأوربي الكثيف المنظّم (كالجزائر على الأخص) ، هذا التحرير يستلزم أسلوبا آخر غير الأساليب «المشروعة» والسبل المعقدة التي قد تجدي على المدى الطويل ، الا أنها لا تغيّر من واقع الاستعمار الا من حيث الظاهر ، ولاتخفف من وطأته ، بل قد يتخذها الاستعمار تعلّة للادعاء بأنه استطاع أن يقيم نظام حكم ديمقراطي في تلك المستعمرات والمحميات . ان التحرير بالطريقة المباشرة ، بل بالطريقة العنيفة ، ما كان ليتحقق في الجزائر الا بأسلوب الانتفاضة المفاجئة ، وبمشاركة الجماهير الغفيرة ، بعيدا عن الأساليب الحزبية القائمة على المساومة وتنصيب الزعماء والقادة ومن يتعاون معهم ، فيخادعون الشعب الذي ينساق لهم بعض الوقت طائعا ، ولا يكلّفون أنفسهم مشقة تنظيمه واعداده للحرب . واذا مثّلنا لذلك بحزب مصالي الحاج ، المعروف باتجاهاته الخرقاء وتصرفاته الارتجالية ، فان الحزب — في أحسن الاحتمالات — قد يعلن حالة الاستنفار ، ولكن هذه المبادرة لن تدوم الا أياما قلائل ، وستكون ذات عواقب وخيمة ، لأن الاستعمار لا ينتظر الا أمثال هذه التصرفات المرتجلة لكي يتدخل بأساليبه الوحشية .

## الثورة الشعبية العارمة

وهنا ندرك كيف استعاد الشعب هذه الحرية بالارادة التي لا تلين ، وبالغصب والقوة ، وكيف اتحدت كلمته بمعزل عن الأحزاب التقليدية ، وفي حركة جماهيرية عارمة ومنظمة أحسن تنظيم ، فأصبحت الثورة بذلك حقيقة لا ينازع فيها أحد ... ثورة استطاعت أن تنطلق من الصفر ، وأن تجعل ما كان مجرد أحلام وتصورات ، يتحقق ويحدث المعجزات ... وهنا أيضا ندرك لماذا وجد الاستعمار نفسه ، رغم كل ما لديه من سيطرة وقوة وعتاد ، عاجزا ومحكوما عليه نهائيا بالفشل . ولذلك لم ير الاستعمار من وسيلة لاستعادة سيطرته الا بتسعير حرب ضروس . ولكن العجيب في الأمر أن هذه الحرب الغاشمة التي بلغت منتهى العنف والقسوة لم تفتّ من عضد الحركة القومية ، بل دفعتها للعمل من أجل بناء الوطن . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فقد جعلت المدبّرين لها يتمادون في غيّهم وحماقاتهم . وكنتيجة لهذه الوثبة الى الأمام — وما رافقها من أحداث جديدة ، وتنظيم ثوري جديد — فقد زادت الشقة اتساعا بين الشعب الثائر ، وبين الشرذمة الباقية من المنتخبين الحكوميين ، والأعيان ، وأتباع مصالي العاملين في حزب الحركة القومية الجزائرية ، تلك الشرذمة التي يحاول الاستعمار بشتى الوسائل أن يدفع بها الى الميدان ، لكي يقف بها في وجه الحركة الزاحفة نحو الحرية والتقدم ... تلك هي أسطورة القوة الثالثة : مجرد أرقام ليس لها وزن ، يتخذها الاستعمار ركيزة ليقف بها في وجه الثورة الشعبية العارمة . وهكذا لم تستطع هذه الحرب الضارية أن تنال من حركة التحرير الزاحفة ، أو تضيّق عليها مجال الانتشار في الزمان والمكان ، أو تحول دون انضمام الجماهير الغفيرة اليها .

وكما فشلت الحرب ، فان الأساليب السياسية المفضوحة ستكون أكثر فشلا ، لأنها معاكسة للتيار . فالمحاولات الرجعية التي نشهدها

اليوم ، تدل على أن الاستعمار ، بخصائصه الثابتة ، لم تتغير عقليته وأساليبه في التصدي للحالات الطارئة . وعلى سبيل المثال ، فان الاستعمار يستعمل مع الشعب أسلوب العطف الأبوي ، المصحوب بالشدة والعنف . وهذا يدل على تصوره الصبياني للعالم المعاصر ، وجهله تماما بما تشهده الجزائر المكافحة منذ سبع سنوات من تغير في العقليات ، وتطور في الوقائع والأحداث . وأكبر دليل على ذلك ما تبثّه محطة الاذاعة والتلفزة الفرنسية باللغتين العربية والقبائلية من برامج مخصصة للمستمعين الجزائريين ، وما في تلك البرامج من النصائح المبتذلة والنواهي السخيفة التي يبدو كأنها قد بقيت من عهد حكومة فيشي ، أيام كانت تلك الحكومة توجهها للشبيبة الفرنسية لكي تنصحها بالتعاون مع الحكم النازي ... وأسلوب العطف الأبوي هذا نجده أيضا — ولكن على الصعيد الايديولوجي — لدى فئة من اليساريين الفرنسيين الذين يستبعدون أن يكون الجزائري قادرا على بناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي ، وهم يصدرون في حكمهم هذا عن جهل تام بالجزائريين . وماذا نجد مقابل هذا كله ؟ نجد بلدا أخذ يتشكل ، ويتخذ مختلف الأبعاد ، وينظّم شؤونه في ظروف الحرب القاسية ، ويبعث في النفوس طاقات جديدة ، ويتعطش للتقدم السياسي والاجتماعي ، ويكتسب في وقت قصير تجربة أصيلة متعددة الجوانب ... تجربة دولة فتية متفتحة على العديد من البلدان في افريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا ، نظرا لما نشأ بينها من علاقات ومبادلات ، وآمال مشتركة ، وما قام بينها من صداقة وتعاون وتقدير للكفاح المرير .

## جيش التحرير الوطني

ولاشك أن تضحيات الشعب الجزائري الصامد لعبت في ذلك دورا حاسما . واذا نظرنا الى وطننا الذي لايزال رهن الاحتلال من طرف 800.000 جندي ، فان جميع هذه المكاسب الحاضرة والمستقبلة ،

مرجعها الى القاعدة الشعبية المدركة الواعية ، تلك القاعدة التي استطاعت أن تبثّ قوتها الخلاقة وديناميتها الشاملة وأنفاسها الحية ، في قادتها الميامين المنبثقين منها ، والمرتبطين بها ارتباطا وثيقا . فما من يوم ينقضي الا ويأتي بالدليل الناصع على أن جيشا عظيما نشيطا من المناضلين ومن أبناء الشعب قد وقف للدفاع عن الثورة الجزائرية في كل ميادين الكفاح ، ذلك الجيش الذي بدونه لن يتم شيء ، ولن يتحقق النصر النهائي . فهذا الجيش الذي كان قبل الثورة يصارع عمليات القمع ، ويتحدى المعتقلات وقاعات التعذيب والسجون وحصار التجويع ، قد استطاع في الأخير أن يتخطّى هذه الأماكن التي عرف فيها القهر والعذاب ، فانطلق منها كأقوى ما يكون عددا وعدّة الى ميادين الكفاح ، حيث أخذ يسترد استقلال الجزائر وكرامتها .

## التنظيم السياسي والاداري

ولا يتصورنّ أحد أن هذا الجيش مجرد عصابة لا سلاح لها ، بالمقارنة مع جيش آخر أكثر تنظيما وأقوى منه عتادا . ان الوقائع التاريخية وبعض المعارك المشهورة في عهد الثورة قد رفعت هذا الجيش الى صف الجيوش القوية . وهذا أمر طبيعي نظرا الى اتساع نطاق الثورة . فالوالي العام جاك سوستيل عندما غيّر اتجاهه الليبرالي الذي كان يتظاهر به ، وكشف النقاب عن وجهه الحقيقي في شهر أغسطس 1955 ، لم يفعل هذا بسبب ما قيل من أنه شاهد أعمالا منكرة في الحلية وعين عبيد . بل السبب هو أن جيش التحرير الوطني ، بالاعتماد على مؤازرة الفلاحين وعزيمتهم القوية ، قام في العشرين من ذلك الشهر ، بشنّ أول هجوم كبير في المنطقة الشمالية من ولاية قسنطينة ، تحت قيادة زيغوت يوسف . وتلك بداية لا تخفى آثارها على أحد ، لأنها — منذ شهر نوفمبر 1954 — هي الدليل الساطع على وجود استراتيجية جماعية

سوف تنبثق عنها حركة لن يستطيع أحد أن يوقفها عند حدّ . وعندما أصدرت القيادة الفرنسية العليا في 1957 تعليماتها باعدام كل من يلقى عليه القبض من أعضاء المنظمة السياسية الادارية (1) ، فقد آذن هذا الأمر بالدخول في مرحلة جديدة هي مرحلة التلاحم والتآزر على أوسع نطاق ، بين المناضلين المنخرطين في النظام ، وبين الفلاحين ، بهدف انجاز العديد من المهام الثورية ، السياسية منها والادارية والاقتصادية والاجتماعية . وذلك أن أية دولة من الدول لن يرتفع بنيانها الا اذا كانت قاعدتها متينة ، بحيث أن كل فرد من أفرادها يتخذ موقفا موحدا للمشاركة في البناء والتشييد . وقد رأينا في نفس تلك الفترة ، أو بعدها بقليل ، كيف أن جماعات كثيرة ممن كانوا ناقصين في الوعي السياسي ، ومنعزلين في مواقفهم ومتعرضين للاضطهاد ، أو موجودين في المعتقلات ، قد أخذوا من تلقاء أنفسهم ينظمون شؤونهم كأنهم مدفوعون بالفطرة ، ويسعون للاتصال بالحركة الثورية الشاملة للانضمام اليها . وهذا يعني أن الجماهير الشعبية متجاوبة تماما مع القيادة الثورية فيما يخص السعي للتحرر ، والاستعداد للكفاح . وهي اذ تنتهج الخط الثوري ، لا تحفل بالمظاهر والبطولات الزائفة .

واذا ألقينا نظرة الى القرن الماضي ، فاننا نجد أن المدن الجزائرية التي احتلها الفرنسيون ، أعلنت رفضها للحكم الأجنبي الذي أدخل اليها الفوضى ، فاستنجدت بالأمير عبد القادر وطلبت منه أن يوفر لها الرجال الأكفاء في السياسة والادارة لكي تؤول اليهم أسباب السيادة القومية . وهناك العشرات من الأمثلة الأخرى القريبة العهد منا — وأشهرها الأيام التي عشناها في شهر ديسمبر 1960 — وهي أمثلة تستحق الذكر لأنها

---

(1) المنظمة السياسية الادارية (O.P.A.) تعد من أهم فروع جبهة التحرير الوطني أثناء الحرب . وكانت تمارس نشاطها في الأرياف على الخصوص . وكان لرجالها العاملين دور كبير في الكفاح التحريري ، رغم أنهم تعرضوا أكثر من غيرهم للملاحقة من طرف الجيش الاستعماري .

تنفي المزاعم القائلة بأن الجماهير الشعبية الجزائرية اتخذت موقفا فاترا من القيادة السياسية العسكرية الثورية ، ورضخت لها على استكراه . فهذه المزاعم لا أساس لها من الصحة ، لأن الجماهير ، بالعكس ، اعترفت بالسلطة الثورية وأخذت تعمل بتوجيهاتها حتى ولو كانت الظروف قد منعتها أحيانا من الانخراط في نظام جبهة التحرير الوطني .

## تشكيل الحكومة المؤقتة

ومما لاشك فيه أن الشعب أخذ شيئا فشيئا يظهر من الوعي والنضج والتعقل ما أدهش المراقبين . فهذا الرأي العام الجزائري صار يتابع باهتمام بالغ مبادرات حكومته ، كما أن الحكومة المؤقتة صارت من جهتها تستمد من هذا الرأي العام قوّتها وصلابتها ، وتستنبط المعايير التي على ضوئها توجه سياستها وتعجّل مسيرتها وتصحّح مواقفها . وقد اتسع نطاقه كما لم يتسع من قبل ، واكتسب مزيدا من الوضوح في الرؤية ، والعمق في الايديولوجية ، وهذا ما جعله في مستوى الثورة التي هو أداتها ومقياسها ومرآتها . فكيف يمكن في مثل هذه الحالة أن يمنح هذا الرأي العام المدرك الواعي ، ثقته لنظام من الحكم يعادي الثورة والشعب الجزائري ؟ وهل نحن بعد هذا في حاجة الى القول بأن الحكومة الفرنسية ، عندما أرادت أن تغالطنا فيما يخص نواياها الحقيقية المتعلقة بالتفاوض من أجل السلام ، فانها بذلك تتمادى في أحلامها الاستعمارية الجديدة ، وتغالط نفسها . فهي تدّعي بأنها حققت عملا جريئا بانتهاجها سياسة تصفية الاستعمار . ولكنها تعلم بأن هذه التصفية عمل سطحي تختفي وراءه نوايا مبيّتة للغدر والمخادعة . ومع ذلك فهي مدركة بأن الشعب الجزائري هو الذي انتهج هذه السياسة بصورة جذرية ، وأخذ منذ سبع سنوات يحققها حسا ومعنى ، ويرسي قواعد أمتنا على أنقاض الكيان الاستعماري الرجعي . ولو أن الحكومة الفرنسية أظهرت

شيئا من الواقعية السياسية ، وأدركت أن افريقيا وآسيا مصمّمتان على السير في طريق التحرر والتقدم ، وأن الحكمة تقضي بالمحافظة على فرص التعاون في المستقبل ، لو عرفت الحكومة الفرنسية كل ذلك لما ترددت في الاعتراف منذ الآن بهذا الأمر الذي لا مفر منه .

يوليو 1961

# الفصل التاسع

## الجزائر المستقلة : من النكسة إلى الوحدة

### أزمة السلطة القومية وأصلها

أمّا وقد تمت تسوية الأزمة في الأسابيع القليلة الماضية (*) ، فمن الوفاء للتاريخ أن نلقي الأضواء على بعض الجوانب لكي يسترشد بها المناضلون ، وبذلك يستفيدون ويطّلعون من خلال هذا التحليل العام على أصول وتطورات الوضع الجزائري الراهن .

وقد سبق أن قلنا ، في هذا المقام بالذات ، أن المسألة الجزائرية أصبحت بعد نيل الاستقلال ، مسألة منوطة بأعناقنا ، انها مسألة يجب أن نعالجها فيما بيننا ، في عين المكان ، بمعزل عن التقديرات الواهية المتناقضة ، وما تعوّدناه في ديار الغربة من تأجيل وتسويف . ولهذا يجب علينا أن نتحدث عنها بكل صراحة ، وأن نكشف النقاب بكل حزم عن كثير من الخرافات والأكاذيب والأفكار الخطيرة التي قد تدفع الى المغامرة ، وتعطي لاخواننا وأصدقائنا في العالم صورة مشوهة عن بلادنا وثورتنا .

---

(*) نشر هذا المقال بعد نيل الاستقلال بشهر . (المترجم) .

لم يعد يخفى على أحد ــ كما يشهد بذلك البرنامج الذي أقرّه المجلس الوطني للثورة الجزائرية .C.N.R.A ــ بأن جبهة التحرير الوطني ، بعد أن تشكلت كمنظمة سياسية عسكرية للكفاح المسلح وللحرب الثورية الجذرية ، لم تهتم بتحديد بنياتها لتعمل كحزب له قيادة ، وله نشاط معين ، وله نظام مستقل يتقيد به المناضلون ، وله مذهب عقائدي للتوجيه ، وله سلطة قومية عليا قائمة باستمرار فوق الجميع . ولذلك اضطرت جبهة التحرير الوطني بعد الاستقلال ، أن تفسح المجال لجيش التحرير لكي يحتل مكان الصدارة .

وبما أن جبهة التحرير الوطني لم يعد لها وجود منذ 1958 كحزب ، بالمعنى المتعارف لهذه الكلمة ، فان السلطة السياسية التي كانت تمثلها ، والسلطة القومية التي استلمتها لقيادة الأمة في معركة المصير ، هاتان السلطتان ما لبثتا أن انصهرت الواحدة منهما في الأخرى تدريجيا ، حتى أصبح من الصعب التمييز بينهما . ان السلطة الممتزجة التي تشكلت بهذه الكيفية انحصرت فيما بعد في قطبين مضيّقين اقتصر دورهما على العمل في المجال النظري . وهذان القطبان هما : الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (ح . م . ج . ج . .G.P.R.A) والمجلس الوطني للثورة الجزائرية (م . و . ث . ج . .C.N.R.A) وقد أصبح لهاتين المؤسستين اختصاصات ضيقة تكاد تكون رمزية بالمقارنة مع السلطة التي يتمتع بها المناضلون المنتمون الى النظام ، والمجاهدون العاملون داخل التراب الوطني .

ان الحكومة م . ج . ج التي ــ كما سبق القول ــ استلمت السلطة رسميا ، واعترف لها بهذه الصفة على المستوى الدولي ، لم تبذل أي جهد ، بسبب وجودها في الخارج ، لكي تصبح لها سلطة ثورية مباشرة ، بحيث يتأتّى لها أن ترجّح دائما السياسي على العسكري .

وهذا الأمر يستلزم أن تكون جبهة التحرير الوطني قادرة على فرض وجودها ، وأن تكون لها أهداف مرسومة لا من أجل التخطيط لحرب التحرير فحسب ، بل كذلك — وهذا الأمر أهم — من أجل اقامة سلطة عليا لا ينازع فيها أحد ، بحيث تكون هي المحرّك الوحيد للعمل من أجل بناء صرح الوطن .

ان الثورة ، مهما كان نوعها ، عبارة عن جملة من الأعمال المحكمة المضبوطة بسياسة قادرة على أن تفرض نفسها في الميدان . وهذا ممكن بواسطة حزب يستلم قيادة الأمة للاشراف دوما على الكفاح المسلّح . ولكن جبهة التحرير الوطني أثبتت عجزها في هذا المجال ، وتفاقم هذا العجز بعد انسحاب لجنة التنسيق والتنفيذ الى الخارج ، وانشاء الحكومة م . ج . ج فيما بعد . وهذا الأمر ساعد في بروز سلطة قوية متمثلة في جيش التحرير الوطني الذي آلت اليه جميع الأمور المتعلقة بالجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

وهكذا فان الحكومة م . ج . ج . التي كانت — من خلال أعضائها المتآزرين — رمزا للكيان القومي ، ما لبثت سلطتها كجهاز للمراقبة والتحكيم في كل ما يجري في الداخل ، ما لبثت تلك السلطة أن تضاءلت ، بل انتقلت عمليا الى الولايات التي ترجّح الجانب العسكري على الجانب السياسي ، كما انتقلت الى حد ما وبالتبعية ، الى جهاز يقوم مقام القيادة العليا لجيش التحرير الوطني ، بحكم الروابط القائمة بينه وبين السلطة العسكرية السائدة في الداخل .

ومن هنا نشأ الصراع اللامعقول — اذا صحّ التعبير — بين المؤسسات العاملة في المجال النظري ، وبين الوقائع السائدة في الجزائر ، بما فيها من محاسن ومساوىء ، علما بأن الجزائر كانت مفتقرة الى سلطة سياسية قوية حازمة . وهكذا فان الحكومة م . ج . ج . ، وما ضمت

من وزراء ، لم تستطع ان تحلّ ما واجهته من مشاكل خطيرة ، وقد توهمت ان العودة الى الوطن في جوّ من الحماس الشعبي ، كفيلة وحدها بأن تحدث المعجزة وأن تحل تلك المشاكل الخطيرة المعلقة طيلة أشهر وسنوات . ولكن حدث عكس ما توقّعته ، لأن الأحداث كشفت عن جانب لم يكن في صالحها ، وهو حصول الانشقاق بين السلطة النظرية التي كان من الممكن أن تتعزز لو أنها اعتمدت على حزب قومي يؤازرها ويعطيها الطابع الشرعي ... وبين السلطة الفعلية التي انبثقت كنتيجة للتقصير في حل المشاكل ، وكنتيجة لضرورات الحرب . ونضيف أيضا من غير أن نخشى لومة لائم ، بأنها انبثقت كنتيجة للتآزر الحاصل على الجانبين من الحدود بين الجيوش المسلحة المرابطة على حدود تونس والمغرب ، وبين أغلب الولايات الجزائرية . وهكذا فقد كان حتميا أن تنبثق عن وضعية سياسية غامضة فيما يتعلق بالاختصاصات الشرعية لاستلام القيادة ، كان حتميا أن تنبثق عنها سلطة نابعة من داخل الوطن ، وأن تفرض تلك السلطة نفسها تدريجيا ، بتأييد من الذين منحوها الثقة وسحبوا ثقتهم من الحكومة م . ج . ج . التي أصبحت كيانا ضعيفا بسبب أخطاء بعض أعضائها في الحاضر ، وركون البعض الآخر منهم الى التنازل عن المبادىء أو التلاعب بها . ومن الواضح أن كلامنا هذا ينطبق على كل من انتسب الى الحكومة م . ج . ج . من قريب أو بعيد منذ سبتمبر 1958 .

وبالفعل فإن الاندفاع الطائش الذي أظهره أصدقاء الحكومة م . ج . ج . ومن يتظاهر بتأييدها ، قد أعطى الضربة القاضية لهذه الحكومة التي كانت في حد ذاتها منقسمة على نفسها . على أن هذا الأمر لا يبرّر اطلاقا ما قام به الفريق الآخر من خصوم الحكومة الذين عملوا على تمزيق شمل البلاد ، وكان يجدر بالخصمين المتصارعين على السلطة أن يجدا في

الاستقلال المعزّز بوحدة الشعب ، ما يرضي الطرفين بطريقة ديمقراطية . واذا كان أحد الطرفين قد استنكر ما أظهره الطرف الآخر من طموح أو جنوح الى المغامرة أو ميل الى عبادة الأشخاص ، فقد نسي في نفس الوقت بأنه هو بالذات لا يخلو من طموح خفي ، وميل أو بعض الميل للمغامرة ورغبة شديدة للقيام بدور البطل الثوري . وهكذا توالت المبادرات من كلا الطرفين مع أن السلطة التي اتخذتها ضعيفة ... واختفت المبادىء الأساسية التي كان من المفروض أن يحترمها الطرفان اللذان أخذا ، على العكس ، في الصراع الخفي ، ثم الصراع جهارا ... ونشأت الحزازات البغيضة من أجل السلطة والجاه ، أو من أجل الانتقام الشخصي ... وما لبث كل ذلك أن جعل الأهواء تسيطر على مجرى الأحداث ، مما يهدد الجزائر بانتهاج طريق اللامعقول والضلال والفوضى .

وزيادة على سيطرة الأهواء ، فقد سيطرت كذلك الاعتبارات الشخصية ، وتجلّى هذا في الاجراءات المتخذة والاهانات الموجهة لبعض المناضلين ، وقد بدأت قبيل وقوع الأزمة واستفحالها ، كما تجلّى في المواقف والاتهامات المتبادلة بين الطرفين ، اما «بالفاشية» أو «اللاشرعية» .

## وحدة الشعب والقاعدة

ولكن ، ماذا كان موقف الشعب والقاعدة النضالية من هذه الأزمة وكيف عبّرا عن موقفهما ؟

مما يؤسف له أن الطرفين التمس كلّ منهما الدعم من القاعدة النضالية التي كانت موحدة الصف ومدركة للخطر الذي يهدد البلاد ... بل لم يتورع الطرفان أحيانا عن توجيه نداء لحرب أهلية ، كما لو أن البلاد لا تزال قادرة على تحمّل كارثة قومية أخرى .

ولو كان للطرفين شيء من الايمان وحظّ قليل من العقل لأدركا بأنه :

أولا : ما كان ينبغي أن يكشف للشعب علانية عن هذا الانقسام الحاد المتميز بالمهاترات والشتائم ، في الوقت الذي أخذ فيه الشعب ـــ بعد أن تخلّص من كابوس طويل ـــ أخذ يحتفل في جو من الفرح والبهجة ، بأعياد الاستقلال والوحدة .

ثانيا : يجب عليهما أن يبذلا كل ما أمكن من جهود لكيلا تشارك القاعدة من قريب أو بعيد في هذا النزاع الذي كان من المفروض أن يحلّ قبل العودة الى الجزائر ، أو ـــ عند الضرورة ـــ في مجال محصور بين رجال القيادة وحدهم .

ثالثا : يجب عليهما أن يستعملا كل وسيلة ممكنة ـــ ولكن خارج نطاق الحكومة م . ج . ج . التي عجزت عن مواجهة الموقف بسبب تصرفات بعض أعضائها والتابعين لها ـــ من أجل اختيار مجلس عادل للتحكيم ، من بين المناضلين والاطارات الوسطى ، وهذا بمعزل عن الضغوط والمناورات المفرضة التي يقوم بها كل من يسعى للتقرب من أصحاب الجاه والسلطة ، ويدّعي بأنه يسعى للصلح .

ومن المؤسف حقا أن الوضع تفاقم نتيجة للعمل الطائش المتهوّر الذي قامت به بطانة السوء ، والجماعات الساخطة المتذمرة وغيرها من الفئات المعتدّة بقوتها .

## من أجل موقف حيادي لانقاذ الوضع

أما بالنسبة الينا ، والى صحيفتنا (*) ، فان الاتجاه الى الحياد الذي نادينا به هنا يمكن مبدئيا تبريره بعدة أسباب وجيهة . فهو قبل كل شيء موقف يهدف الى انقاذ الوضع ، لا بالنسبة الى الذين خلقوا هذا الوضع ، بل بالنسبة الى جمهور المناضلين في القاعدة .

ولكن ، ما الدافع الى اتخاذ هذا الموقف ؟

هناك ملاحظة استرعت انتباهنا لأول وهلة ، ولم نكن من قبل نوليها ما تستحق من اهتمام ، وتتمثل في أن التكوين السياسي لعدد كبير من المناضلين ، والاعلام الصحيح المفيد للجماهير الشعبية ، قد أهملا تماما

(*) أي صحيفة «المجاهد» الناطقة باسم جبهة التحرير الوطني ، وكان المؤلف رئيس تحريرها ، وكانت تصدر باللسانين العربي والفرنسي . (المترجم) .

من طرف المسؤولين طيلة سنوات . على أن هذا الاهمال لم يمنع القاعدة المناضلة والجماهير الشعبية من أن يكون لديهما وعي قومي سليم ، وهذا الوعي جعلهما ينظران الى وحدة الصف كضرورة أساسية .

وينتج عن ذلك أن بعض الاطارات الواعية قد تزجّ بنفسها في الصراع ، لأنها تدرك عواقب أعمالها ، وتعرف متى تقف عند حد معين لكيلا يقع ما لا تحمد عقباه . ولكن الأمر يختلف بالنسبة الى الأغلبية العظمى من المناضلين الذين ظلوا مدة طويلة محرومين من التوجيه ، ومن التربية النضالية الصحيحة ، وفرص الاستفادة من أفكار الآخرين .

ان تحريض الجماهير الشعبية على الدخول في هذا الصراع السياسي لهو أكبر دليل على الطيش ، لأن أي تحرّك تقوم به الجماعات الغفيرة في صراع من هذا القبيل ــ ويا حبذا لو تعاون الجميع على اخماده ــ معناه مضاعفة أخطار الحرب الأهلية . هذا ، فضلا عن أن الاضطرابات ، وما يلازمها من سخط على الأوضاع ، وخيبة في الأمل ، وجنوح الى استعمال العنف ضد المحشورين في زمرة الأعداء والخونة ، كل ذلك من الأمور التي لا يستطيع أحد أن يتحكّم فيها ، لأن الميل الى التعميم سوف يؤدي الى فتنة شاملة وقتال بين الاخوة الأشقاء ، وسوف يترك آثارا لا تمحى وأحقادا لا تهدأ ، بتقسيم شمل الأمة وتمزيق صفها الموحد . وما الفائدة حينئذ من التبجح بانشاء الحزب الواحد الذي من المفروض أن يكون ــ بالتعريف ــ خير أداة لضمان وحدة الشعب ؟ وكيف يمكن بعد ذلك أن تسلم الانتخابات للمجلس الوطني ، والتحضيرات للمؤتمر الشعبي ، والحياة السياسية المرتقبة ، كيف يمكن أن يسلم كل ذلك من الأزمات المستعصية ، ومن الدعوة الى الشقاق ، ومن الأهواء الطائشة ؟

وبناء على هذا ينبعي أن نبقى على الحياد بالنسبة لكلا الطرفين ، لأن هذا الحياد يعصم الجماهير الشعبية من التمزق . وينبغي أيضا أن

نعمل لتوضيح الموقف ، وبذلك تبرز الحقيقة ويعود السلام والوئام بدل العنف والخصام . ونقول مرة أخرى ايمانا واحتسابا ، وحرصا على الوحدة القومية في هذه المرحلة الصعبة ، مرحلة البداية التي خرج فيها شعبنا الجاهل من محنة الحرب القاسية ، وأخذت البلاد تسلك طريق المغامرة التي لا تحمد عقباها ... نقول مرة أخرى بأن المناضلين الواعيين — حتى ولو فرضنا أن اختيارهم السياسي يميل بهم الى هذا الفريق أو ذاك — عليهم أن لا ينسوا أبدا بأن الحرب الأهلية عندما تندلع من أجل أهداف لا علاقة لها بأهداف الشعب ، فان عجلتها اذا ما تحركت لا تتوقف بسهولة . ولذلك فان اثارة الفتنة جناية عظمى في حق الشعب وتحطيم لمستقبله . ان الأمة الحريصة على وحدة الصّف تهيب بنا اليوم أن نستعرض جميع الحلول السياسية والمنطقية الممكنة ، وأن نكف عن جميع الحزازات والخصومات .

## من أجل حياة سياسية سليمة بنّاءة

هذه الوحدة المنشودة ، وحدة الشعب ، تتمثل اليوم فيها قوة الجزائر ، وسوف تكون غدا هي الدعامة الأساسية التي لاغنى عنها من أجل اقامة حياة سياسية جديدة . ولكن هذا لا يتحقق الا اذا عرفنا كيف نبني صرحها ، وكيف نستخلص العبر من الأزمة الأخيرة . ان الطريقة الوحيدة لغرس القيم الانسانية في المجتمع الجزائري ، بعدما آل به الأمر الى نوع من الخشونة في الطباع وخاصة في أوساط المناضلين ورجال السياسة والعسكريين ، نتيجة للقهر الاستعماري وللحروب المتواصلة ، ولتصوّر معيّن للثورة يقوم على العمل الآلي المتجرّد من العواطف الانسانية ... أقول ، ان الطريقة الوحيدة لغرس تلك القيم هي العمل الحثيث ، وفق معايير جديدة سليمة ، من أجل انتهاج سياسة يكون لها شعار ثنائي : في خدمة الدولة الجزائرية ، وفي خدمة النظام الديمقراطي .

تلك هي الطريقة المثلى للرجوع بالشعب الى الروح الانسانية ، ولتلبية الدوافع الكامنة في النفوس ، والحاجات المتولدة من تجارب الحياة المريرة . وبذلك نخلق لدى المواطن الحس المدني الذي بدونه لا يقوم للدولة كيان .

ان هذا التصور السليم للحياة السياسية يطابق المنظور الحالي المتمثل في مراحل متتالية وهي انتخاب المجلس الوطني ، وعقد المؤتمر وتأسيس الحزب . وسوف تسير هذه السياسة بطبيعة الحال على أسلوب يخالف أسلوب أحزابنا السابقة ، ويخالف الأساليب القديمة المتّبعة في بعض البلدان البرجوازية ، لأن تقاليدها البرلمانية تقوم على الانقسام شيعا وأحزابا ، ولأن اعتمادها على الخطب الجوفاء والمناورات والتصرفات الطائشة ، يتنافى مع تقاليد شعبنا . ولست في حاجة الى أن أضيف بأن هذه السياسة ينبغي أن تسير على أسلوب يخالف تمام المخالفة الممارسات التي قدّمت لنا الأحداث الأخيرة صورة مؤسفة عنها .

## شعارات ثورية وعبارات زائفة

وهكذا انطلقت الألسنة ، واستمعنا خلال شهر ، في مجال التصريحات السياسية الصادرة عن فئة لا حياء لها ، من الناطقين باسم أطراف النزاع ، استمعنا الى خطب ذكّرتنا بالحزب الراديكالي الاشتراكي الفرنسي ، بما فيها من سبّ وشتم وتفاخر وتحريض على الفتنة .

فاذا كان المقصود بهذا هو التنفيس الذي به يتلخص الانسان من أفكاره الدفينة على شكل خطب رنانة ، فهذا أمر مقبول . ولكن ، ما كادت نفوسنا تطمئن الى فترة قصيرة من الهدوء والوئام ، حتى أصبحنا نسمع هذه الخطب من على المنابر ، وفي الاجتماعات السياسية الشعبية ، وفي الحملات الانتخابية ، وفي المناقشات المذهبية . ولا يسعنا اليوم الا

أن نقول بأن ثورتنا التي لها هي أيضا شعارات وعبارات ، سوف تفقد ما فيها من منطق ومن روح الاخاء . وبما أننا نتحدث عن لغة الثورة بكل ما فيها من عبارات ، فمن واجب المسؤولين والمناضلين أن يرفضوا هذا الفيض من العبارات التي تعتبر دخيلة وناشزة لا بالنسبة الى طبائعنا فحسب ، بل كذلك بالنسبة الى واقع سياستنا الثورية .

وبهذه المناسبة نعيد الى الأذهان أن الأزمة تميزت بظهور مفردات لا نسمعها الا في الحروب الأهلية . وقد بلغت الحماقة بالبعض ممن شوهت عقولهم التربية الفرنسية السمجة أنهم أخذوا يعدّون ما لديهم ولدى خصومهم من رجال ومن عتاد عسكري ثقيل أو خفيف . ويسمّون أنفسهم «المنضمّين الى القضية» وخصومهم «غير المنضمّين» . ويتحدثون عن «الفلول المنهزمة» و «مسيرة النصر» و «جيش الغزو» ، ويهدّدون «بتحطيم المقاومة» بل «بالصعود الى الجبال» ... وتلك هي طبيعة النفوس المريضة : انها تميل الى الخروج من صف الشعب ومن حظيرة الوطن ، لأنها لا تعتبره وطنا مشتركا ، وطن الجميع !

### موقف الصحافة الفرنسية : التآمر والانحياز والطيش

ولابد هنا من الاشارة الى ما كان للصحافة الفرنسية اليسارية المزعومة من دور وخيم العواقب أحيانا . ومن المؤسف أن بعض الجزائريين أخذوا هم أيضا يقومون بنفس الدور . ان فئة من الصحافيين المعروفين العاملين في الصحافة الأسبوعية كانوا ، لغرض في أنفسهم أو لانحيازهم الى فريق دون آخر ، كانوا يتجاسرون ويتشيّعون لهذه الشخصية ضد شخصية أخرى ، ولكنهم لا يتشيعون أبدا للمباديء أو للشعب الذي يؤمن بتلك المباديء . أما الشرعية ، فهذا أمر لايهمهم اطلاقا ، لأن الذي يهمهم بالدرجة الأولى هو التقرب من الأفراد ومن الشخصيات التي ظهرت تحت الاضواء الخداعة محاطة بهالة الرومانسية الثورية . ان بعض الصحافيين

الذين يدّعون أنهم من أنصار الاشتراكية يعتقدون بأنه توجد أحيانا عبقريات مغمورة ، ولذلك فالشغل الشاغل بالنسبة إليهم هو تسليط الأضواء على احدى الشخصيات ، ورفعها الى أعلى عليّين عن طريق المدح الفارغ . وهم يعرفون جيدا أنهم قادرون بعبارات التملق على تضليل أكثر الناس تعقلا ومعرفة . ان هذا التحيّز للأشخاص في الصراعات المتأزمة لهو من قبيل الاستفزاز ، ويكشف عن احتقارهم للشعب وللاطارات الوسطى . فهؤلاء الصحافيون ــ اليساريون حسب زعمهم ــ يتصيدّون دائما الأحداث العارضة الغريبة ، ولا يلتفتون لما هو ثابت وشامل للجماعة ، ويهملون الوقائع التي يجب الاطّلاع عليها بصورة موضوعية في عين المكان ، ولا يسجّلون الا الكلمات الفارغة التي يتشدّق بها البعض .

**العبرة المستخلصة من الأزمة : الرجوع الى المعقول ، والتواضع**

لقد تعوّدنا أن ننظر الى الثورة نظرة مثالية في أعلى مستوياتها ، وتأثرنا بفكرها المذهبي وعملها الموسوم بالدقة والصرامة ، ولكننا تغافلنا عن كونها أصبحت في مستوياتها الوسطى مجرّد آلة روتينية ، في حين أن قوتها المحرّكة الصحيحة موجودة على مستوى آخر ، لدى الاطارات والعمال الواعيين ولدى الشعب ، وعلى الأخص لدى ثلّة صغيرة من رجال الفكر المناهضين للبرجوازية ، الذين يحتكّون بالجماهير أكثر من بعض المسؤولين ذوي الأساليب الغوغائية والديماغوجية .

وقد أتيح لنا من قبل ، أن نتحدث عن مواطن القوة والضعف في الثورة الجزائرية ، وعن الأخطار التي يمكن أن تهددها ، كالاقطاعية ، والتشيع لفريق من الناس ، والتورّط في المغامرة . وقد كنا نأمل لثورتنا ، نظرا لانطلاقتها الشعبية ، أن يكون مصيرها أفضل ، بحيث تصبح في مستوى الحركات الثورية الكبرى المعاصرة . ولذلك يجدر بنا اليوم ، بعد

هذه النكسة الناتجة عن الأزمة ، وما كشفته تلك الأزمة من هفوات خطيرة ، يجدر بنا أن نتعلم دروس العبرة ، لا من عظماء التاريخ — لأننا لسنا في حاجة الى هؤلاء حاليا — بل من رجل متواضع مثل سون يات سين Sun yat Sen الذي تأسّف كثيرا ، بعدما تحررت الصين من السيطرة المندشورية في حوالي 1911 ، تأسّف من أن الثورة لم تعمل ، ولم تخطّط لشيء آخر غير التحرير ، لأنه ، هو وأصحابه ، لم يفكّروا الا في الاستقلال ، من غير أن يخططوا للنظام الذي يجب أن يتحقق في المستقبل . ونحن نعرف كيف تطورت الأحداث فيما بعد ، وكيف كان مصير الكومينتانغ Kuomintang الذي آل به الأمر الى الحلول الانهزامية والانسياق للحياة البرجوازية وللاقطاعية والتنكر لمصالح الشعب . وهكذا تصدّت للكومينتانغ ثورة أخرى ذات مباديء واضحة ، ولها رجال من ذوي التجربة الواسعة في الفكر المذهبي وفي مجال العلاقات الانسانية . فهؤلاء ، ما كادت قضية الشعب تنتصر ، حتى كفّوا عن القيام بدور قادة السلاح ، لأنهم وجدوا في تكوينهم السياسي ، وفي نبوغهم الثوري ، وشعورهم العميق بالمسؤولية الجماعية وبالعمل الخلّاق ، وجدوا في كل ذلك خير دافع للنهوض بالبلاد ، ولرفع مستوى جماهير الفلاحين والكادحين .

وفيما يخص الجزائر ، فان هذه الأزمة قد علمتنا التواضع ، وجعلتنا نقدّر تقديرا صحيحا ما فينا من عيوب ، وما لدينا من امكانيات . كما أنها ذكّرتنا بأن السبب في هذه المحن والنكسات المؤسفة التي مرّت بها السلطة القومية ، هذا السبب يعود الى أن تصوّرها للحياة لم يتقدم حتى من الناحية النظرية عما كان عليه قبل الثورة ، يوم كان التفرّق شيعا ومذاهب قد فسح المجال لبروز فئة من الزعماء المعصومين من الخطأ (حسب زعمهم) ، الذين كانوا يحاولون ايجاد المبررات للصراع الحاصل

بين الأحزاب والزعماء السياسيين ، ويدّعون بأن هذا الصراع مبعثه التنافس في سبيل مصلحة الشعب ... وأخيرا ، فان الأزمة جعلتنا في هذه الفترة الخطيرة من شغور السلطة السياسية ، نتلمّس بصورة محسوسة ، العواقب الوخيمة لهذا العبث الذي انشغلنا به جميعا ، وأعني به التفاخر بالبطولات ، وما أشبه ذلك من الشعارات والعبارات المؤثرة في النفوس ، المرفوعة في كل ناد ، المستعملة في كل مناسبة ، المضخّمة الى حد الهوس ، المسبّقة حتى على الواجب الوطني ، مما جعلها تغمر كل شيء ، وتلهب العقول الطائشة ، وتهوّل الأحداث المعتادة ، وتعفي من بذل الجهد الضروري لفهم الأمور ، وتتاجر بكل شيء ، حتى بدماء الشهداء . ان هذا «التضخم البطولي» الذي استفحل أمره حتى غمر كل شيء ، وفاض في كل مكان ، أراد أن ينال المكافأة المنشودة ، والأجر الرخيص ، متنكرا بذلك لروح التضحية والفداء ... ينبغي اذن أن لا نتردد في مصارحة بعض الضالين الذين نسوا ، بعدما أدوا واجبهم ايمانا واحتسابا في ميادين الكفاح ، وتعذبوا مع الشعب ، نسوا بعد اعلان وقف اطلاق النار بأن «بطولتهم» لايستحقون عليها أية مكافأة ، وما كان ينبغي أن تجعلهم يتصرفون في بلادهم كالغزاة ، بفرض الاتاوات على الناس ظلما وعدوانا ، واهانتهم ومصادرة أموالهم والنيل من كرامتهم .

## مآل الثورة : الحركة الآلية وتقليد العدو في أساليبه

وهل هناك من حاجة الى تكرار ما قلناه من أن الثورة ــ بصرف النظر عن عملها السياسي الذي توقف نتيجة لوقوع الأزمة والسباق من أجل السلطة عوضا عن الانشغال بالتخطيط لمؤسسات الدولة ــ أقول ، ان الثورة في منظورها الحالي ، آل بها الأمر الى مجرد حركة آلية . فهذه الصفة ، صفة الآلية ، تتجلى في تسيير شؤون البلاد تسييرا عسكريا ، علما بأن السلطة العليا المنهارة فسحت لهذا التسيير المجال كله

القومي . فالمسألة اذن هي مسألة المصالحة بين جزائر الثورة ، مع مبادئها الخلّاقة ، وذلك باحياء تلك المباديء من جديد لكي يسترشد بها أبناء الثورة ، وأصدقاؤها في العالم أجمع . على أنه لابد قبل ذلك من القضاء على الانحلال الأخلاقي الذي يتجلى بصورة خاصة في انعدام كل وازع أو رادع ، بالتحايل على القانون ، واستعمال الوسائط ، وفساد الأخلاق السياسية . ان المجتمع الجزائري المتشبع بمباديء الثورة ، كان ـــ رغم كوارث الحرب ومآسيها ـــ كان مجتمعا منظما من الناحية البشرية والمذهبية ، في ظل الوحدة والعمل والاعداد للمستقبل المنشود . ولكن هذا الانسجام التام الذي أثار اعجاب العالم ، قد أخذ منذ شهر يتصدع كالطود الذي يتصدع بعد الهزيمة ، لا على مستوى وحدة الشعب التي بقيت ثابتة ، بل في مجالات كثيرة من الحياة السياسية والعسكرية والادارية ، وعلى مستوى الأخلاق الفردية والجماعية . ومما يدل على عدم الانسجام ، ما نشاهده من تحالف على أساس المصلحة ، وعدم معاقبة الخونة الذين استعملوا كل الحيل لمحو ذنوبهم ، وتشجيع الوصوليين ، والانسياق في طريق الحياة البرجوازية ، والتهافت على المناصب والمسؤوليات عن طريق التقرب من أصحاب السلطة ، من غير استحقاق ولا كفاءة ..

## التصور الجديد للمستقبل ، وفسح المجال للطليعة

لقد أصبح لزاما علينا ، أمام هذه الأخطار وهذا التنكر للمباديء ، أن نبادر الى تذليل العقبات وبذل الدعم للعناصر الواعية التي تشكّل الطليعة ، وذلك بحمايتها من الوسط المتعفّن الهجين الذي تعيش فيه . وبما أن هذه العناصر ، حسبما جاء في برنامج جبهة التحرير الوطني ، سوف تشكل القاعدة النشيطة ، والركيزة المعتمدة في التأطير encadrement ، فمن مصلحتها أن تتكتل منذ الآن ، لتتميز عن

الوصوليين والديماغوجيين والانتهازيين والمتقربين من أصحاب السلطة ، وغير هؤلاء ممن ظنوا بأنهم وجدوا بسبب هذه الأزمة ، فرصة ثمينة لستر عيوبهم ، أو للترقي درجات . والى هذه الطليعة الرائدة ينبغي أن تنضمّ الثلة المتشبعة بمباديء الثورة من جيش التحرير الوطني . ان الجنود والضباط من ذوي الفهم والدراية ، ومن ذوي التكوين السياسي الصحيح ، لاشك أنهم كمناضلين قد أدركوا خطورة الوضع ، ولذلك فعليهم أن يتميزوا عن الفئة المشبوهة من «اللاحقين بركب الثورة في 19 مارس» ، وبذلك سوف يعيدون لجيش التحرير الوطني ما يتمتع به من سمعة مستحقة خلال الحرب ، كجيش نابع من الشعب . ان المعيار الوحيد الذي يجب أن يعتبر في جزائر الثورة هو النضال ، لأن المناضل يدرك بأنه ، اذ يعمل ، فانما يعمل قبل كل شيء من أجل بلاده ، ومن أجل حزبه ، حيثما كان ، سواء في المصنع أو في الحقل أو في الخدمة العسكرية .

ان النضال هو الرابطة المتينة التي تجمع شمل الشبان ، بعدما جمعت بينهم في ميادين الكفاح وفي الجبال والمدن والسجون والاضرابات والحركات العمالية والمظاهرات والمهمات السرية ، فشكلوا جبهة موحدة ضد الاحتلال والاستعمار ، وتعرضوا لنيران العدو ، وللتعذيب والاضطهاد . ان جميع المناضلين والوطنيين الذين يعملون في مختلف ميادين الكفاح السياسي ــ العسكري ، ما بين منظّمين ومجاهدين وجنود ومسبّلين وأعوان الاتصال ودعاة ومتطوعين ومكلفين بمهام صعبة في التسليح والادارة والمناورة العسكرية ونقل السلاح ومعالجة المرضى والجرحى وحماية الأهالي ... كل هؤلاء ، بما بذلوه من تضحيات جسام ، كانوا "الدعامة الأساسية لحركة التحرير التي وفّرت الامكانيات للثورة . وهذه الثورة ليست ملكا لأحد على الخصوص ، ولا يجوز لأي

فريق مهما كان فضله ، أن يستأثر بها أو يحتكرها لنفسه . فمن كان هذا سعيه يعتبر خائنا للثورة ، لأنه يتخذها مطية له ولطائفة من العسكريين والمدنيين ، ولأنه يجعل منها منظمة ماسونية ليس لها من هدف سوى خدمة المصالح الشخصية ونيل الألقاب الشرفية ، بل يحولّها الى تشكيلة من الاقطاعيات الجهوية .

## المهدي المنتظر والاشتراكية المزعومة

ومن جهة أخرى ، فان الآثار المترتبة على هذه الوضعية ستظهر لا محالة عن قريب ، لأن كل سياسة قائمة على العصبية والاقطاعية ، أو على البرجوازية الانتهازية المتظاهرة بالاصلاح ، مثل هذه السياسة كثيرا ما نجدها تجنح الى الخرافات ، فنزعم بأنها وحدها القادرة على انقاذ الوضع وتسيير شؤون البلاد ، من غير أن تستعمل الأساليب بالديمقراطية الشعبية . ان هذه الخرافات ليست في الواقع الا نوعا من الاعتقاد الغامض بالمهدي المنتظر القادر على حل جميع المشاكل . وعلى هذا الاعتقاد الخاطيء يقوم نظام يعتمد أساسا على القهر ، ويستند من الناحية الايديولوجية على خليط متنافر من المذاهب الدينية المطعّمة بالاشتراكية ، ويرفع شعار التقاليد الشعبية المزعومة الى جانب شعار التقدم الاقتصادي والاجتماعي المزعوم . وهو ، في تصوّره للتقدم ، يمارس على الشعب نوعا من الرعاية شبيهة برعاية الأب لأبنائه . ان الاعتقاد بالمهدي المنتظر ، والتصورات الخرافية ان هي الا نوع من الأباطيل البائدة التي قضى عليها كفاح الشعوب المتعلقة بالحرية ، والتّواقة للحياة العصرية والاشتراكية الصحيحة .

## لنكن واقعيين

انه ليس من المعقول أن يكون مآل هذه الثورة التي سعت الى تحرير الانسان من كل قيود الاستعمار ، ومن مخلّفات الرجعية المتبقّية من عهد

القرون الوسطى ، ليس من المعقول أن يكون مآلها التردّي الى هذا المستوى الواطيء ، لتتخذ أضغاث الأحلام ، والأفكار البائدة ، والتصرفات الطائشة ، كأساس للحكم ، وكقاعدة للتسيير . ولعله من المفيد هنا أن نؤكد بأن جميع المبادرات الطائشة التي تقوم بها السلطة السياسية ، والتي قد تقضي في المستقبل على سيادة الشعب ، لن تزول اثارها السيئة الا يوم تخرج الطليعة الثورية من وضعية اختلط فيها الصالح بالطالح ، بسبب الأزمة من جهة ، وازدياد نفوذ البرجوازيين الكبار والصغار ، والاستعماريين الجدد من جهة أخرى . ولن نتخلص من هذه المبادرات ، ومن شرورها ، الا يوم تبرز قوى تتسلّح بالحزم ، وتحكّم العقل ، وتعمل باخلاص لصالح الشعب ، وتضع نصب أعينها مستقبل البلاد ، وتحرص على سمعة الوطن فتقطع كل صلة بأولئك الذين دأبهم التقرب من أصحاب السلطة وبرجال السياسة ، ممن لا يزال يحن الى العهود البائدة . ولنا أمل وطيد في أن تبرز عن قريب هذه الطليعة التي سوف تضم الشبيبة المناضلة ، وجمهور العمال والفلاحين والنقابيين والطلبة والنساء ، فعلى هؤلاء جميعا تقع مسؤولية الحفاظ على الصفاء الايديولوجي ، والانضباط الأخلاقي اللّذين تميز بهما الرعيل الأول من جيش التحرير الوطني .

**ولئن كانت هذه الأزمة قد حطّمت أحلامنا وآمالنا في مستقبل باسم ، فمن واجبنا على الأقل أن نعمل لانقاذ الحاضر من الكارثة . ولعله من السابق لأوانه أن نحكم على المستقبل . ومع أننا لا نرى مانعا من وضع الثقة في الحل السليم الذي تمّ التوصل اليه بتخويل السلطة للمكتب السياسي ، الا أنه من واجبنا أن نكون صابرين ، وأن لانقطع الأملّ ، وأن نعمل لكي يتحقق في أقرب الآجال ، القليل من الحياة السعيدة التي تتوق اليها هذه البلاد ، بعد كل ما قاسته من كوارث في**

الحرب مع الاستعمار ، والصراع من أجل السلطة . ونحن نقول : «القليل من الحياة السعيدة» أو أقل من القليل ، اذ به يتحقق الاستقلال على الوجه الصحيح ، وهذا بمضاعفة الجهود لتطهير العقول والأعراف السياسية . وبذلك نقطع الطريق أمام العناصر المشبوهة ، وأرهاط الضغط القوية العاملة ضد مصلحة البلاد ، لكيلا يكون لهم أثر في اضعاف المجلس الوطني ، والمؤتمر الوطني ، والحزب ، وجيش التحرير الوطني الذي يقوم حاليا بعملية تحوير في نظامه .

وليس بالطيش والتهوّر يبنى المستقبل ، بل بالعمل المتواضع المتقن المتواصل ، من أجل تصليح ما أفسدته هذه الأزمة ، واستحقاق الثقة التي وضعها العالم أجمع في ثورتنا .

7 أغسطس 1962

* * *

# الفصل العاشر

# وقائع وآفاق ثورية

## الدولة الجزائرية موضوع الساعة

اذا رجعنا الى معايير الحكمة والديمقراطية والفعالية ، فان الواجب الأوكد الذي لابد من القيام به هو بناء صرح الدولة . وهذا موضوع معروف لدى الخاص والعام ، ومألوف لدى سائر الناس . ولكن هذا الجانب نعتبره أساسيا ، لأن كل ما يحدث في حياة أمة من الأمم الحرة ينطلق من هذه النقطة بالذات . والحقيقة أن البناء تقف دون تحقيقه عقبات كثيرة . ولقد تسمع النّاس يخوضون في هذا الموضوع ، لاعتقادهم بأن الاستقلال الحقيقي لا وجود له بدون جهاز يتمثل في دولة منظمة أحسن تنظيم . ان التقصير في الاعداد لهذا الأمر أدى الى تأخيره عمليا عن موعده ، كما أن التقصير الملحوظ حتى من الناحية النظرية ، منذ أن تألفت الحكومة المؤقتة للج ج في سبتمبر 1958 ، جعلنا اليوم نحس ، بعد فوات الأوان ، بضرورة تكريس الجهود لهذه الغاية . ولذلك فقد أصبح الشغل الشاغل اليوم هو بناء صرح الدولة ، بل هو موضوع الساعة باستمرار . ولا غرو في ذلك : فبناء الدولة مقترن بالاستقلال باعتبار أنه يخرجه من المجرد الى المحسوس ، كما أنه هو المفتاح الوحيد

للمستقبل ، والسلاح الوحيد لكي تنطلق بلادنا انطلاقة جديدة بعد النكسة التي أصابتها .

## المستقبل : بين الحقيقة والخيال

وهناك سبب آخر يفسر لنا لماذا بقي الكثيرون مدة طويلة يعملون ويستأخرون ميقات هذا اليوم العظيم ، يوم استقلال الجزائر الحقيقي ، وذلك أنهم لم يكونوا يعرفون موضوعا آخر للحديث سوى الثورة ، ولم يدركوا بأن البناء مهما كان ، لابد من أن يتم حسب طريقة منهجية ، وعلى أسس تشريعية ثابتة . وقد أرادوا ، من حيث لايشعرون ، أن تبقى الثورة في مجالها النظري ، فلا حاجة اذن لاخراجها الى المجال العملي ، ولا حاجة لاقامة البنيات الضرورية ، ولا حاجة للتفكير في المستقبل . وهذا الأمر شبيه بمن يقلب الوضع ، فيضع المحراث أمام الثيران . وهكذا أرادوا حذف هذه المرحلة الحاسمة — وهي مرحلة لابد منها على أية حال — بقصد التوصل بعد الاستقلال الى شيء واحد لا غير ، وهو تحقيق النتائج التي حددها العمل الثوري . ومن هنا نشأت كل التصورات المتعلقة بالمستقبل ، وكانت تراود العقول أثناء حرب التحرير ، وما فتئت تراود العقول بالحاح حتى في الأوقات التي احتار فيها المسؤولون كيف يعالجون المشاكل القائمة في الحاضر ، لأنهم لم يكونوا يفكرون حتى في ما هو ضروري وعاجل ..

ان «التصور» المذهبي للمستقبل أمر طبيعي جدا في نطاق الحركة الثورية ، ولكن على شرط أن يندمج في رؤية منظمة ومخططة للمستقبل . وهذه الرؤية المستقبلية تستلزم الجمع بين التحليل والتفكير النظري من جهة ، والشروع في التطبيق التدريجي من جهة أخرى . أما اذا فصلت التصورات عن هذا السياق ، وعزلت عن الطريقة القويمة السديدة التي بها يمكن أن تتحقق ، فان هذه «النظرات الفكرية» لن تكون الا أضغاث

أحلام . وفضلا عن هذا ، فسوف تتحول بصورة حتمية الى نوع من السلوك الفوضوي الديماغوجي ، وسوف تظهر في شكل أفكار يرددها صاحبها في كل ناد ، حتى ولو كان من ذوي الصدق والاخلاص . ويوم تستعيد الدولة جميع سلطاتها السياسية والادارية ، وتقوم بتوحيد وتعزيز السيادة القومية وتحديث بنياتها وفق المفاهيم الديمقراطية ، بكل ما يترتب على ذلك من ضمانات للمواطن من حيث توفير الرخاء والازدهار للمجتمع ، باقامة المؤسسات الملائمة لهذا العصر ، يومئذ يمكن أن نخطو خطوات أخرى الى الأمام بطريقة منهجية . وبذلك يمكن الوفاء بجميع الوعود التي التزمت الثورة بتحقيقها ، ويتأتى بلوغ سائر الأهداف المسطرة في البناء الثوري . ويومئذ يصبح كل ذلك واقعا محسوسا لا مجرد طموح كاذب ، عن طريق مؤسسات نظامية تتمثل في الدولة وفي الحزب . وهذا لايعني التأخير الى أجل غير مسمّى لبعض المشاريع الثورية التي نستطيع تحقيقها في الحاضر . فالأمر كله متعلق بما نحن قادرون عليه وفق طريقة دقيقة تستلزم منا عملا متواصلا ، وفكرا سياسيا خلاقا يتميز باليقظة الدائمة . وذلك أنه لابد ، في كل جهد نبذله لتطويع الواقع ، لابد من مراعاة ما لدينا من امكانيات ، لأنها هي الشرط الأساسي في كل عمل .

## من أجل معرفة معمقة للمجتمع الجزائري

ان هذا يستلزم أولا وقبل كل شيء ، اجراء تقويم دقيق للوضع العام . فلا ينبغي أن ننسى أن فرنسا ـــ لأسباب تتعلق بسمعتها في العالم وسياستها الاستعمارية القائمة على الديماغوجية ـــ ظلت طيلة قرن أو يزيد ، تنشر حول الوضع في الجزائر بقصد الدعاية أرقاما مزيفة ومخالفة تماما للتقديرات الصحيحة . ومن جهة أخرى ، فمن الضروري بعدما

أصبحت الرؤية السياسية جزائرية ، وصرنا مطالبين بتعميق النظرة الى مختلف المشاكل القائمة ، من الضروري أن نقوم بعمل مزدوج :

1 ـــ عمل يستهدف معرفة الواقع الجزائري وتحليله ، ويتميز بوضوح الرؤية وبعدم المجاملة .

2 ـــ عمل يقوم على اعادة النظر ، انطلاقا من العمل الأول ، في كثير من الأفكار الراسخة ، والمفاهيم الخاطئة ، والآراء الشائعة ، والحقائق المروّجة في كل مكان ، والأساطير الباطلة ، وغير ذلك مما يخص مثلا الفلاحين ، والدور الرئيسي للجيش ، والشعور بالمسؤولية المدنية ، والمحتوى الثوري الدقيق لمفهوم الشعب والاشتراكية والشعور بالانتماء الى طبقة معينة والى الوطن الخ ...

واذا فعلنا ذلك فسوف نعرف أين توجد نقطة الضعف ، ومتى تستطيع الجزائر بكل جدارة أن تنهض بالمهمة الثورية المنوطة بها . ان الجزائر بلد محروم أفقره الاستعمار ، بل هو في الأصل بلد فقير ، يشكو من الجوع ومن الاجحاف في معظم قطاعات الحياة ، ويسير في الميدان الاقتصادي والاجتماعي على نفس الأسلوب الذي كان يسير عليه العصر الوسيط ، من حيث سيطرة الأطماع البدائية ، وشعور الفرد بالحرمان المطلق ، وتلبية الحاجة العاجلة ، والاستسلام للمكتوب . وكل ذلك من الأمور المرتبطة في أذهان الناس باعتقاد المسلمين ـــ والاسلام في الحقيقة بريء من هذا التفكير الخرافي ـــ بأن الانسان مكتوب عليه أحد أمرين : اما الشقاء أو النعيم . والحظّ بهذا الاعتبار عشوائي ، لأنه من الأعراض الزائلة . ولعل هذه الأمور هي التي تفسّر لنا لماذا كان التسيير المالي السيّيء للمؤسسات ، والتهافت على المادة ، والتبذير ، والبذخ ، وصرف الأموال بدون حساب ، لماذا كل ذلك يشكل في بلادنا ، بل في المغرب العربي أجمع ، أمرا خطيرا مزريا بالانسان ، وعاملا من عوامل الاضطراب

في الأخلاق والنظام الاجتماعي والاقتصادي . ان سوء التسيير المالي يعدّ بدون شك من الأمراض المستعصية في البلدان المتخلّفة التي ورثت زيادة على هذا ، بعض التقاليد الفاسدة من القرون الوسطى ، كالطمع وعدم التحسب للمستقبل . فالفساد مثلا ، لكي يكون مقبولا ومستساغا ، اتخذ عبر القرون وحتى في يومنا هذا ، أي في أول عهدنا بالاستقلال ، اتخذ صورا متعددة ، كاعطاء حق الزيارة للمرابطين ، وتخصيص مال لفئة من رجال الدين تدّعي بأنها تصرفه في الأعمال الخيرية ، واتخاذ الرشوة كقاعدة للتعامل ، والسلب والنهب جهارا من طرف جماعة من المدنيين والعسكريين من ذوي الجاه والسلطة . ومهما اختلفت الأسماء ، فان الفساد يظل كما هو : يستهوي النفوس ، ويغري الناس بكسب المال الحرام عن طريق فرض الاتاوات ومصادرة أرزاق الآخرين ، وتغريمهم والسطو على أملاكهم . ان السياسة الاستعمارية ، باعطائها للنهب والرشوة الصبغة الشرعية ، وخاصة في البوادي ، قد عملت على افقار الفلاحين وصغار الملاكين . فالنظام الاستعماري البائد قد أهلك البلاد بطريقتين من أبشع الطرق التي استعملها ، وهما : الظلم والفساد . ولذلك كانت بلادنا توّاقة الى نظام أرحم بالعباد .

ولكن الأمور للأسف آلت الى نظام قاس يسير كالآلة الصماء : فليس له مذهب سياسي لتسديد خطاه واشباعه بالرحمة والروح الانسانية . وبعبارة مختصرة ، فقد شهدنا طيلة سنوات ، وخاصة في الأشهر الأخيرة ، ضياع الجهود والتضحيات والمساعي والنفقات الباهظة والأموال الطائلة . ومما لاشك فيه أننا حققنا النصر ، وهذا النصر لا مثيل له في تاريخ البشرية . ولكن يبدو أننا سوف نضطر منذ الآن ــ نظرا الى الحالة السيئة الملحوظة في مؤسساتنا ، والى فقدان النظام السياسي المحكم ــ سوف نضطر ، حتى بعد أن انتهت الحرب واستقر السلام ، الى اتخاذ

نفس التدابير التي اتخذناها خلال الحرب التحريرية المظفرة ، فيما يخص الاقتصاد بمعناه الواسع : من حيث الجهود والتضحيات والتسيير المالي وغير ذلك .

والذي أخشاه — اذا لم نتخذ هذه الاحتياطات — هو أن يعقب هذا النزيف الذي لن ينقطع الا بعد مدة طويلة ، نزيف آخر مميت سوف ينجم عن نفس الأسلوب القديم من التبذير بدون حسيب ولا رقيب ، بل سوف يتفاقم بسبب الجنوح الى تبديد أموال الدولة والفساد وغيرهما من العادات السيئة في التعامل . ولهذا ، فمن واجب كل مسؤول أن يراعي «الأخلاق المالية» في تسييره للشؤون المالية ، مثلما يراعي قواعد الأخلاق العامة .

## أسئلة لابد من طرحها

لنبق دائما في اطار هذه الأسئلة العامة التي لابد من طرحها لكي نتعرف أكثر من ذي قبل على الوقائع المعقدة في وسطنا الريفي ، وفي البلاد بأكملها ، ولندرس اذن بدون خوف من أحد ، بعض الظواهر الجديدة الملحوظة في المجتمع ، كالتزمت والتشدد في السلوك والأخلاق . ان ظهورهما كتيار مناقض لحركة التقدم في العالم العربي بالذات ، يدل على وجود اتجاه تقليدي يهدف الى القضاء على الثقافة ، وهو اتجاه متأثر في أعماقه بالصوفية المتشددة . ان الاسلام في الجزائر ، وخاصة في البوادي وفي الحواضر التي تغلغل فيها الدين ، لايزال متأثرا بالأفكار الصوفية التي أدخلتها الطرقية المنهارة الى مجتمعنا . ان كل هذه الأمور ينبغي أن تجعلنا نبادر الى العمل بكل جد لتحديث الحياة الاقتصادية والمرافق الاجتماعية في البوادي ، ومحاربة الخرافات والأباطيل بكل أشكالها ، وذلك بانقاذ الطفولة الدارسة في الدرجة الأولى ، وتمكين الجميع من التعليم الصحيح المتشبّع بأحدث التيارات في المجتمع المعاصر .

من واجبنا اذن أن نتساءل عن مختلف جوانب هذه المشاكل الكبرى ، لأنه وقع فجأة تصدّع في صرح الثورة غداة الاستقلال . ولا يظنّنّ أحد بأن الأمور تمت هكذا بصورة عفوية ، وعلى هوى المصادفة . ان سلوك بعض القادة المحليين ، وتهافت البعض على المادة بجميع الوسائل المشروعة والمحرّمة ، ونهب الأموال وتبذيرها بكل تهوّر ، وارتكاب المناكر من غير حسيب ولا رقيب ، وبروز الاقطاعية حتى في القرى والمداشر ، كل ذلك من الامارات الدالة على نشوء وضعية غير ملائمة لترقية العقول ، وتحرير القطاع الريفي الذي يعاني من مظاهر التخلف ما لا يعانيه غيره . فالمسألة اذن ليست مجرّد حالات عارضة . ان الدراسة التحليلية الصحيحة لما ينشأ في المجتمع ، أو داخل طبقة معينة ، أو ضمن الثورة الاجتماعية ، من أنواع التعامل والتفاعل ، مثل هذه الدراسة لا ينبغي اطلاقا أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الحالات العارضة ، والا ، فان هوى المصادفة ، أي القانون التعسفي سوف يكون أقوى من ارادة الانسان ، ومن عمله الخلّاق .

## مساعدة المجتمع الريفي على تحطيم قيوده

ان هذا التصدّع في صرح الثورة ، حتى ولو كان صغيرا ، سوف تكون له لا محالة آثار سيئة ، وسوف يؤدي الى اعادة النظر في كثير من الأمور . ومع ذلك فلم يتغير شيء بالنسبة الى جماهير الفلاحين واستعدادهم لقبول مرافق التقدم والحضارة ، وتغيير نمط حياتهم تغييرا جذريا . على أنه أصبح من الثابت اليوم بأن هذه الجماهير غير قادرة على التحوّل ، ما لم تتخلص من جميع القيود التي استطاعت أن تحطّم بعضها أثناء الحرب التحريرية ، ولكنها اليوم عاجزة — نظرا الى ما هي عليه من وضعية — أن تقوم لوحدها بهذا العمل الجبار ، اذ لابد من أن تساهم فيه الثورة بأكملها ، باطاراتها ومخططاتها ، على مستوى الحكومة

والحزب ، ومبادراتها الجريئة ، وأعمالها القويمة ومساعيها المخلصة . ان بعض القادة المحليين ، وان كانوا في المدة الأخيرة قد أدركوا ادراكا تاما ضرورة مساعدة الفلاحين في ترقيتهم السياسية والاجتماعية ، الا أنهم لم يحتفظوا من المسألة كلها الا بجانب واحد أصبح اليوم موضع الالتباس . فميولهم الطبيعية ، وطمعهم في استلام السلطة ، وافتقارهم الى الكفاءة ، كل ذلك جعل هذه النوايا الحسنة تتحول الى مواقف سلبية تشبه موقف الأب النصوح من أبنائه ، كما لو أن الروح الاقطاعية التي كان من المفروض أن يخلّصوا المجتمع الريفي منها ، قد رسخت في نفوسهم من حيث لا يشعرون ، مما يشكّل حجر عثرة في قيامهم بالمهمة النبيلة المنوطة بهم أساسا ، ومما جعل مسيرتهم الى الأمام تتحول الى نكوص الى الوراء . وهذا مما يؤسف له ، نظرا الى ما يترتب عليه من أضرار فادحة .

ومن أجل هذا نقول من جديد بالعبارة الصريحة ، بأن أحد الأسباب التي جعلت النظام الثوري يتعطل ولا ينمو النمو المنسجم (علما بأن هذا النظام كان في أصله يتمتع بحيوية متدفقة ولكنها غير مستعملة كما ينبغي) ، ان أحد الأسباب لهذا التعطل هو البون الشاسع بين الأقوال والأعمال . فما من شك أن النوايا والأقوال والأفكار والمعتقدات كلها نابعة من روح ثورية . ومع ذلك فهناك بون شاسع بين الفكرة والتطبيق العملي . ومما يبرهن على ذلك ما لوحظ من فرق كبير بين مباديء جبهة التحرير الوطني (وهي مباديء شعبية مناهضة للاقطاعية) وبين المواقف التي تتخذها من حيث لا تشعر بعض الاطارات العسكرية أو المدنية ، حتى ولو كانت تنتمي الى الشعب ، فنجدها تكابر ، أو تستفزّ الناس ، أو تسلك سبيل الديماغوجية .

### الطريق الجديد

ولكن ، ما هي النتيجة التي يجب أن نستخلصها بعد امعان النظر

في هذه الأحداث ؟ ينبغي باديء ذي بدء الاقرار بأننا لم نلزم أنفسنا بأي جهد لتفادي المخاطر والمصائب التي عانى منها المجتمع الجزائري . لقد كرّسنا كل جهودنا للتغلب على العدو ، وها نحن اليوم ندفع الثمن ، وربما سوف نضطر مدة طويلة الى دفع المزيد من الثمن ، على النقائص الملحوظة في مجتمعنا الضعيف (رغم عزيمته الثابتة واستبساله في القتال) ، وكذلك لدى المناضلين أنفسهم بسبب نقص تكوينهم السياسي ، وما بقي في طبائعهم من عقلية بدائية وسلوك طائش وآراء ارتجالية وأفكار منافية للواقع . واذا لم نستطع أن نتغلب على هذه النقائص التي كانت الثورة قد علمتنا كيف نتغلب عليها ، فاننا ، رغم حصولنا على الاستقلال بقوة السلاح وبالتضحيات الجسام ، سوف نرزح دائما تحت وطأة هذا الحمل الثقيل .

وانه لحمل ثقيل وعقبة كأداء في طريق البناء والتشييد . وهذا الطريق لاينبغي أن يسلكه الا من يقدّر المسؤولية حق قدرها ، ويتفانى في العمل من أجل تغيير الواقع الحالي تغييرا كاملا ، وخلق كل ما تحتاج اليه البلاد في نهضتها ، انطلاقا من فكر يتسم بالجد ، ومن ايمان يتميز بوضوح الرؤية . فأين حماة الثورة ، وأين الروح الثورية في ما نراه اليوم من سلوك فئة تتهافت على المادة ، وتتعطش للمال وللحياة المترفة الناعمة ؟

ان الثورة اذا تأتّى لها قريبا أن تسلك الطريق الجديد والسديد نحو المستقبل المنشود ، فان ذلك هو ما نرجوه ونتمناه . فالرجال من ذوي الاخلاص كثيرون . والقاعدة النضالية التي لم تستثمر امكانياتها كما ينبغي تنتظر بفارغ الصبر متى تكتمل القيادة السياسية للحزب بالعنصر الاساسي ، وأعني به الجهاز التنظيمي المحكم . أما جماهير المواطنين وجحافل الشبان ، فهم كذلك ينتظرون متى تبرز الى حيّز الوجود ادارة تعامل الناس بالعدل ، ويكون شعارها الجدّ والحزم لا الاكثار من الموظفين

بدون فائدة ، كما كان الأمر في عهد الاستعمار . وينتظرون أيضا متى يتحقق التعليم العقلاني الدقيق الذي لا يثقّل بالمواد الزائدة عن اللزوم ، ولا يتجرّد من المضمون العلمي العصري . ففي هذين المجالين ينبغي أن نقوم بالتجديد ، وبالتغيير المفيد لكيلا تسير الثورة على الأسس الروتينية التي أعدّها الاستعمار وتركها لنا قبل أن يرحل ، بما فيها من أبهة لا تنفع ، ومن مؤسسات رأسمالية ثقيلة وعقيمة .

24 أغسطس 1962

* * *

**ملاحظة :**

كتب المؤلف المقالين الأخيرين عندما تولى رئاسة تحرير جريدة «المجاهد» الأسبوعية ، وهي الجريدة الناطقة باسم جبهة التحرير الوطني . ولئن كانا يتميزان عن الدراسات الأخرى الواردة في هذا الكتاب بلهجة خاصة ، وبطابع تربويّ خاص ، فلأن أزمة الصيف من عام 1962 ، وما كان لها من انعكاسات مباشرة ، قد وقعت في فترة من الاضطراب والحيرة ، لأنها فترة انتقال من حكم الى حكم ، مما أوجب على مسؤول الجريدة ، بالاتفاق مع أسرة التحرير ، أن يوضّح الموقف للمناضلين وللرأي العام بطريقة موضوعية ، وبدون تحيز ، وأن يعمل على صيانة وحدة الشعب انطلاقا من مباديء الثورة ذاتها . أما من حيث الزمن ، فقد كتبهما المؤلف عندما اتفق جميع أعضاء القيادة المتنازعين ، وقبلوا فكرة تشكيل المكتب السياسي ، بعدما ظلوا مدة طويلة يرفضونها . هذا ، مع العلم أن البعض منهم أصبحوا ، لمدة قصيرة ، أعضاء في هذه الهيئة .

* * *

# الفصل الحادي عشر

# نظرات اجتماعية حول الحركة القومية والثقافة في الجزائر

## الثقافة الأجنبية : بين الرفض والقبول

يدّعي البعض بأن استعمال اللغة الفرنسية كان مفروضا علينا فرضا . وهذا كلام لا يقول به إلا من كان ساذجا ، ينظر نظرة سطحية من غير تحليل ولا تمحيص ، لأن هذا معناه أنّ الاستعمار قام بعمل يستحق التنويه . فكيف يصح هذا القول اذا علمنا أن نسبة الأميين في البلاد لا تقل عن 85% من السكان ، رغم أن هؤلاء ظلوا على صلة باللغة الفرنسية طيلة 130 سنة ؟ والحقيقة أن المشكلة ليست بمثل هذه البساطة . وذلك أنها متعلقة قبل كل شيء بالحاجات الضرورية التي أحسّ بها المجتمع الجزائري المضطهد ، ذلك المجتمع الذي كان بفطرته يحاول أن يتدارك النقص ، وأن يجنّد كل ما لديه من طاقة من أجل المحافظة على بقائه . ولو لم تكن ظروفه قاسية لاستعمل تلك الطاقة في انتهاج طريق التقدم والرقي ، كغيره من المجتمعات الأخرى .

وأول ملاحظة تستحق الذكر أن «الوجود» الأجنبي الدخيل يتجلى في كافة أجهزة السيادة ، كالسلطة السياسية والقضائية والاقتصادية . كما يتجلى في الجيش ، وفي **اللغة** ، وغير ذلك من المؤسسات الأخرى الدالة على انقلاب الوضع الداخلي ، بعدما احتلت فرنسا كامل التراب الوطني وقضت على المقاومة . هذا ، فضلا عن أساليب القهر الأخرى التي استعملتها فرنسا لتغيير بنية المجتمع . فالقهر بهذا الاعتبار جزء لا يتجزأ من نظام الحكم . واذا كان اخضاع الشعوب يتم أثناء الاحتلال بالقهر والقوة ، فان اخضاعها بعد انتهاء عملية الاحتلال يتم بالعمل لكي تتحقق تلقائيا السيادة الكاملة للغالب ، من غير مراعاة لخصائص المغلوب ، ورفضه للنفوذ الأجنبي .

ويوم كانت للمجتمع الجزائري ثقافة يعتزّ بها (وقوامها علوم اللسان وعلوم الدين وفنون الأدب) ، فقد قابل بشيء من الرفض المساعي لارسال أبنائه الى المدارس الفرنسية ، علما بأن هذه المساعي كانت على أية حال ضعيفة . والحقيقة أن «المساعي» كلمة غير صحيحة ، لأن الأمر كان منحصرا — بعدما مضت على الاحتلال ثلاثون سنة أو تزيد — كان الأمر منحصرا في حالات معدودة ، بسبب تطبيق سياسة تهدف الى التأثير على فئة قليلة تسمى «أبناء الأعيان» . فالذين استفادوا من هذه السياسة هم أبناء الاقطاعية المرتزقة التي خلقها المستعمرون . ولكن نسبة المتعلمين بعد هذه المساعي لم تزد على نسبة قطرة واحدة من البحر ، الى درجة أن أحد الموظفين الفرنسيين الكبار ، وهو أوجين فورميسترو Eugéne Fourmestraux كتب يقول في 1880 : «لقد فرّطنا في تعليم الأهالي حتى نزل الى مستوى هو أدنى بكثير مما كان عليه قبيل الاحتلال .» (1)

(1) قارن بين هذا الرأي وبين رأي مارسيل ايمريت Marcel Emerit الذي يقول : «كان العربي في 1830 يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه أصبح يتخبط في ظلمات الجهل عندما مضى نصف قرن على الاحتلال» . انظر الحوليات «Annales» ، مايو — يونيو 1960 .

## صمود الثقافة العربية

من الأسباب التي جعلت الأهالي يلازمون موقف الحذر من التعليم الفرنسي ، رغم ندرته واقتصاره على الصفوة المختارة من أبناء الطبقة العليا ، من بين تلك الأسباب ، صمود الثقافة العربية نسبيا في بداية الاحتلال ... على أن السبب الرئيسي هو أن الجزائريين وجدوا أنفسهم مرغمين على الرضوخ للأمر الواقع ، عندما عمدت السلطة الفرنسية أثناء حرب الاحتلال ، الى اختطاف الشبان الصغار ، أبناء زعماء المقاومة المعروفين ، وارسالهم الى فرنسا للانخراط في المدارس الثانوية العسكرية . وهناك سبب آخر ، وهو أنه ، في 1867 و 1868 ، وقع تعميد وتنصير الألوف من الأطفال الجزائريين اليتامى ، بالغصب والقوة ، وكان الكردينال لافيجري Lavigerie قد جمعهم بعد وقوع المجاعة الكبرى التي سبّبتها القوانين الجائرة المتعلقة بملكية الأراضي ، والتفريط المتعمد من طرف السلطات الفرنسية ، وأنانية المعمرين المجرمين ، مما أدّى الى هلاك ما يزيد على 500.000 من الأهالي . وبكلمة مختصرة ، فان التعليم الفرنسي ظل مدة طويلة من الزمان ، مرتبطا في أذهان الناس ، بمحاولة التنصير . ولهذا ، فقد يكون هناك ما يدعو الى الاعتقاد بأن اقرار مبدأ علمانية التعليم العمومي في فرنسا (أي فصل التعليم عن الدين) ، هو الذي جعل الجزائريين يغيّرون موقفهم الأول ، ويكفّون مبدئيا عن الحذر من التعليم الفرنسي . ونحن نقول : «مبدئيا» لأن المدارس كانت مفقودة تماما ، أو تكاد ، وتلك هي المأساة .

وبعد المرحلة الانتقالية القاسية التي مرّ بها المجتمع الجزائري المزعزع الأركان ، المحروم من حقوقه ومن أملاكه ، ومن حرياته ، أخذ الناس يشعرون بالحاجة الى الثقافة ، أو على الأصح ، بالحاجة الى التعليم . ولو

أن هذا التعليم كان بلغة الباتاغون (*) أو لغة الزولو (*) لرحّب به الناس ، نظرا للحاجة الماسة اليه . وهذا الأمر يدل على أن الشعب العريق في الثقافة لا يتحمل الفراغ الثقافي . ولكي يشبع هذه الحاجة ، فهو لا يرى مانعا من متعارة لغة أخرى بدلا من لغته التي أصبحت محرّمة عليه كأداة للتعبير في المدارس ، وكأداة للكتابة والتأليف ، بل أحيانا كأداة للتخاطب . ان هذه الثقافةالمستعارة بحكم الضرورة تشير الى ما تكتسيه المشكلة من أهمية ، لأنها تكشف عن آثارها التقنية ، وجوانبها النفعية العملية . فالجزائري الذي شهد الصراع بين القديم والجديد ، قد ظل متمسكا ببعض القيم الأخلاقية التي ورثها من القرون الوسطى . على أن هذا لم يمنعه من أن يميز تمييزا واضحا أو غامضا ، بين التراث الانساني والديني الذي لم تخمد جذوته في قلبه أبدا ، وبين مقتضيات العصر . فاللغة بهذا الاعتبار ليست من مقوّمات الأمة فحسب ، بل هي كذلك ـــ وبالدرجة الأولى ـــ من مقومات المجتمع النشيط الذي لا يريد أن يضمحلّ . وربما كان الأصحّ أن نقول بأن اللغة تعدّ من خصائص الأمة والمجتمع معا ، باعتبار أنها ـ كقيمة من القيم الخصوصية والمحايدة في نفس الوقت ـــ تحتوي على العنصرين : المعنوي والحسي ، بنفس المقدار ، وان كان ارتباطها بالمجتمع أوكد من ارتباطها بالأمة ، اذ توجد أمم لها ثقافة مزدهرة ، مثل الهند ، مع أن لغتها الرسمية هي لغة أجنبية .

أما الجزائر ، فقد احتفظت بلغتها المكتوبة (الفصحى) ، وبلغاتها الدارجة التي لا تعتبر مجرد لهجات ، بل كثيرا ما تستعمل في نوع من الثنائية اللغوية المفيدة في أغراض التعامل والتفاهم . ان هذه اللغة

(*) الباتاغون : لغة باتاغونيا ، وهي منطقة تقع في جنوب الأرجنتين . (المترجم) .

(**) الزولو : اللغة التي يتحدث بها شعب الزولو في افريقيا الجنوبية ، وهي لغة من لغات البانتو . (المترجم) .

الفصحى كانت تدرّس في كافة جهات القطر ، بل حتى في المناطق التي لا تستعمل فيها العربية الدارجة ويتخاطب سكانها بالأمازيغية (البربرية) . ان الفضل في اعداد هذه الدروس يرجع الى الأفراد والجمعيات والزوايا المتواجدة في الأرياف ، والكتاتيب الملحقة بالمساجد في القرى والمداشر ، والمدارس المنشأة في المدن . أما الدولة الفرنسية ، فقلما عملت لتدريس اللغة العربية .

وقد شاءت الأقدار أن تتغلب لغة الغزاة على هذه اللغة القومية منذ 1830 . وليس هذا بمستغرب ، اذ لا ينكر أحد بأن السيطرة الأجنبية المباشرة كانت شاملة ، فعملت حيثما استتبّ لها الوضع ، على قلب الأنظمة لصالحها ، أو على تحطيمها لكي تحلّ محلّها أنظمتها هي ، فبدّلت قيما بقيم أخرى ، وقوى سياسية واجتماعية بغيرها من القوى . وهذه عملية ناجمة عما آلت اليه حالة البلاد من تدهور . وقد يحدث هذا لا في البلدان المتخلفة فحسب ، بل كذلك في البلدان المتقدمة .

## وضعية والمغلوب

وهكذا ، فعلى فرض أن اللغة العربية لم تكن ممنوعة في الجزائر ، فانها رغم ذلك سوف تتقهقر بسبب وجودها المستديم في وضعية المغلوب . وهذا الأمر يصدق أيضا على أية لغة أوربية لو أن الاحتلال النازي تواصل مدة جيل أو جيلين . وليس لخصائص اللغة أيّ دخل في ذلك . وانه من الخطأ أن يصدر المرء في حكمه عن العاطفة القومية الساذجة ، فيدّعي بأن اللغة أقوى من الانسان ، وأنها معصومة من التخلف الذي يقع فيه الانسان ، وأنها منفصلة عن مصيره ، وقادرة على أن تحصّل من تلقاء ذاتها على جميع أسباب التطور العلمي الحديث ، رغم أن البلد الذي يحتضنها متخلف . وعلى أية حال ، فاذا نظرنا الى

المسألة من زاوية الوعي السياسي المتقلب ، فاننا سوف نلاحظ تناقضات كثيرة . لقد قيل ـــ بحق وصدق ـــ بأن الاستعمار ظل طيلة قرن وربع يعمل من أجل القضاء على ثقافتنا . ولكن المستغرب بعد هذا أن نسمع ، بعد حصول البلاد على الاستقلال مباشرة ، من يدّعي بأنه يمكن بين عشية وضحاها ، وبدون أي جهد عقلاني في الاعداد والتكوين ، يمكن خلق جيل كامل من الأعوان والمعلمين والأساتذة المتخصّصين في مختلف علوم اللسان ، وفي مختلف فروع الثقافة ، علما بأن اللسان العربي ، والثقافة القومية ، ظلا مدة طويلة من الزمان ، محرومين من حرية التعبير ومن مسايرة التقدم العلمي في أبسط صوره . ان ميادين العقل والتفكير واسعة ، مغرقة في التجريد ، ومنغلقة أحيانا على الفهم . فهل يمكن معالجة هذا الوضع الذي ظل يتفاقم مدة طويلة من الزمان ، هل يمكن معالجته في سنة أو سنتين أو في عشر سنوات ؟ ألا يجدر بنا ـــ عوضا من أن ننتظر متى تحدث المعجزة ـــ أن نشرع في العمل بطريقة منهجية ؟

ان هذه المحاولة للقضاء على الثقافة القومية ، وما نجم عنها من أضرار بالغة ، ما وقعت كنتيجة لسياسة التجهيل أو التحريم وحدها ، تلك السياسة التي أبعدت اللغة الفصحى عن منافسة الفرنسية (اذا صحّ أن نسميها منافسة ، لأنها على أية حال غير متعادلة) . فالعربية ، وان كانت قد تقهقرت سياسيا ، الا أنها مع ذلك ظلت تدرّس كثقافة تراثية مقتصرة على المباديء الأساسية ، وتعلّم في الكتاتيب والزاويا . وهذا التقهقر لا يرجع من حيث الأساس الى الطرائق التربوية التي لم تتغير عن حالها ، أو الى المحتوى الذي ظلّ ثابتا أو يكاد ، بقدر ما يرجع الى وضعية المجتمع ، بالنسبة الى حالة جديدة نشأت مع الغزو الفرنسي وأخذت تمارس تأثيرها الخفي في النفوس . وبعبارة أخرى ، اذا صرفنا

النظر عما كان يقوم به الاستعمار الرجعي من تجهيل ، بقصد تجميد المجتمع الجزائري وتقويض دعائمه ، فقد توفّر لدى بعض الجزائريين الرافعين لواء الكفاح والمقاومة ، توفّر لديهم نوع من اليقظة الموضوعية ، وتولّد فيهم اهتمام كبير بالتقنيات التي كانوا يجهلونها ولا يجدون اليها سبيلا ، مثل قضايا التنظيم الاجتماعي ، وكل ما يتعلق بالحياة العصرية ومرافقها ، وهي أمور أخذوا ينظرون اليها من زاوية عالمية ، ويميزون بينها وبين الاستعمار ، باعتبار أن هذا الاستعمار حرمهم منها ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمنعهم من الاستفادة منها . ان هذه الفائدة ، وان لم تكن مادية ، الا أنها على الأقل معنوية ، لأن مرافق الحياة العصرية التي حرموا منها ، جعلتهم يفكرون في توفيرها على المدى البعيد .

واذا نظرنا الى تطلعات الحركة القومية ، وتطلعات المجتمع المكافح من أجل البقاء والتشييد ، فاننا نلاحظ بأنهما يلتقيان حول نقطة مشتركة ، وهي الاضطرار لمسايرة الحضارة ، والاحتياج الدائم الى الثقافة . وبطبيعة الحال ، فان هذه الوضعية الاجتماعية الجديدة أدت الى تخلّي المجتمع عن بعض القيم التي ظلّ الانسان متمسكا بها ، وهذه القيم أصبحت في حكم «التقاليد» بالمعنى الأصلي لهذه الكلمة ، ولذلك تستحق في نطر الفرد كل تقدير واحترام ، وان كانت على الصعيد الاجتماعي لا تجدي نفعا ، بالمقارنة مع المنفعة التي يجنيها الانسان حين يخرج ــ مكرها أحيانا ــ عن تلك التقاليد .

**التربية الذاتية**

**ولابد هنا من التأكيد على أهمية التربية الذاتية بالنسبة الى المجتمعات الخاضعة للاستعمار . فهذه التربية تستلزم زعزعة المحتوى الفكري التراثي من جهة ، كما تستلزم من جهة أخرى ، السعي لتحقيق التوازن بين القديم الذي فقد رونقه وبين الجديد الذي يتقبلّه الانسان بصورة تكاد**

تكون عفوية . ولا يلبث هذا الجديد أن يصبح هو العمدة في العلاقات الاجتماعية ، بل في العلاقات السياسية أيضا ، حتى ولو كانت لهذا الجديد نقائص وعيوب تفوق نقائص القديم . وعن هذا الأمر تتولد الصور الرئيسية الثلاث من السلوك الفكري الخاص بالانسان المغلوب . فهو يظل طوال حياته يسير في طريق مسدود ، ويجد نفسه في آخر الأمر قد استعرض الماضي والحاضر والمستقبل ، ولكن بدون فائدة . ان الصورة الأولى نجدها في بحث هذا الانسان عن حل وسط بين الماضي (الذي لابد من التخلّي عن بعضه ، لما في احيائه من صعوبة) ، وبين الحاضر وما تتطلبه المعاصرة من أمور ، تلك المعاصرة التي أصبحت من الممكنات ، ودخلت فجأة الى مسرح الحياة ، مقترنة في أذهان الناس بالاستعمار الذي يحاول عبثا أن يقاومها أو يبطل مفعولها لكي تبقى له دائما السيطرة السياسية . والصورة الثانية من هذا السلوك نجدها في اجتهاد المغلوب لكي يعلّم نفسه بنفسه ، رغم العراقيل الكثيرة التي تعترضه . وهذا التعليم يسمح له بالتعويض عن ثقافته البائدة الفاسدة ، بثقافة أخرى يتوصّل اليها عن طريق لغة أجنبية غير متاحة للجميع ... كما يسمح له بتعديل نظرته الى العالم تبعا للنظام القائم ، بما فيه من حياة مضطربة وظروف قاسية . والصورة الأخيرة لهذا السلوك متمثلة في الشعور بنوع من السخط الناشيء عن الفشل ، وعدم الرضى ، والسير المتعثر الى الأمام ، والنكوص بسبب الحنين الى الماضي ، والحركة الذاهبة الآيبة التي تجعله مذبذبا بين الرجوع المستحيل الى الماضي ، والمسايرة المستحيلة لهذا الحاضر الحافل بمظاهر التقدم المغرية .

ان هذا السخط ، أو بالأحرى هذا الاضطراب النفسي الذي يعتري من أراد مسايرة العصر واحياء التراث في نفس الوقت ، له أحيانا عواقب وخيمة ، ويدل على ثقافة زائفة لا جذور لها ولا أصالة ، بل هي

ثقافة ضعيفة محكوم عليها بالزوال . واذا أردنا أن نشبّهها بشيء فيزيولوجي ، فانها تشبه سوء التغذية عندما يكون مصحوبا برغبات غير مستجابة ، واضطرابات توهم صاحبها بأنه شبعان وجائع بصورة متناوبة ، من غير أن توقع في روعه بأنه مريض كما يمرض الناس . وهذا الأمر ملحوظ لدى الأفراد ، ولكنه ملحوظ أيضا لدى الجماعات ، بحيث أن الأغلبية من الناس قلما يتوصّلون الى نوع من الانسجام والتفاهم والاستقلال في الرأي . فالثقافة الناشئة بهذه الكيفية — وعلى الأخص حينما تكون أداتها هي اللغة الأجنبية — تتميز بكونها تسعى الى مضاعفة «العيّنات» أو النماذج المقتبسة ، وخلق أذواق سقيمة أحيانا ، وسليمة أحيانا أخرى ... بالية طورا ، وراقية طورا آخر ، وتحديد معايير ذاتية وتطلعات مقطوعة عن أصولها ... في حين أن الثقافة المنشودة هي التي تسعى الى تلبية الحاجات بكيفية تراعي الاتجاهين : الاتجاه الى مراعاة الخصوصية القومية ، والاتجاه الى الاقتباس من الثقافات الأجنبية .

والحقيقة أن المسألة لا تتعلق بذلك التمزق الذي نشهده لدي بعض المثقفين «الحائرين بين الاتجاه الى الشرق أو الى الغرب» ، وهو موضوع كثيرا ما يتحدث عنه الكتاب بطريقة شكلية بعيدة عن الجوهر . وهذا ما درج عليه المتصوفون (مثل روني غينون) ، والمتنعمون في الترف ، والمتصيدون لكل ما هو غريب وعجيب . ومن المحتمل أن العقلية الاقطاعية التي تأثر بها المجتمع المغربي قديما وحديثا ، وما آل اليه من انحطاط بسبب الاستعمار ، هذه العقلية ربما كانت من العوامل المساعدة لظهور ثقافات مقصورة على الخاصة من الناس ، ومتميزة بالأخذ من كل علم بطرف ، وباللفظية الجوفاء ، والميْل للمتون والمختصرات . وقد ظهرت في الدواخل والحواضر على السواء ، وشملت الموظفين والتراجمة والمعلمين وبعض رجال القضاء . ولكنّ المشكلة غير محصورة في محتوى هذه الثقافة

الأجنبية التي حتمتها الضرورة ، والتي كان من الصعب الحصول عليها بسبب النظام السياسي القائم آنذاك على التجهيل وعرقلة التقدم الاجتماعي . فالمشكلة أوسع من ذلك ، لأنها تشمل أيضا الثقافة الأخرى ، أي الثقافة الأهلية التي أخذ ظلها يتقلّص ، والتي لم يكن لها من حصن تحتمي به سوى التراث الديني ، علما بأن هذا التراث في حدّ ذاته كان متعرضا للاعتداء . على أنه لابد من الاتفاق حول نقطة معينة ، وهي أن هذا الاقتباس من الثقافة الأجنبية لم يصدر عن قوم همج أو متخلفين ، أو مقطوعين عن وسطهم الاجتماعي ، وعن لغتهم الدارجة ، أو عن قوم عاجزين عن استيعاب ما أخذوه من علوم . واذا تساءلنا عن المستوى الدراسي والثقافي لهؤلاء الموظفين الصغار والمعلمين والأعوان الجزائريين الذين تعلموا بأنفسهم في بعض المدن المتوسطة وبعض القرى ، فلم يكن لهم من «شهادة» سوى ما اكتسبوه من تجربة في اطار المهنة أو في نطاق العمل الاداري ، مضافا الى تلك التجربة ، ما يتميزون به من حماس ، وتعطش للعلم ، ورغبة في الترقي من جهة ، والرجوع الى الأصل الشعبي من جهة أخرى ، وما يعتمل في نفوسهم من شك ومن أحلام في التحرر ، وهي الأحلام التي كانت تراود العقول في 1879 . وهكذا فان المشكلة المتمثلة في الحيرة بين صيانة المجتمع التقليدي أو بناء المجتمع الجديد ، بقيت تقريبا بدون حل ، بسبب الصعوبات الجمّة ، وكذلك بسبب النقائص الملحوظة ، وفقدان المبادرات السديدة والأفكار النيّرة ، مما جعل رجال الاصلاح يبحثون عن الحل في الرجوع الى الدين والأخلاق ، وجعل قادة الحركة القومية يبحثون عن ذلك الحل في فكرة الأمة ، بخصائصها العاطفية .

وهكذا ، فان الالتزام السياسي ، والنضال في صفوف الأحزاب القومية المتواجدة قبيل الحرب العالمية الثانية ، هما من العوامل الجديدة

التي طرأت على الوضعية الفكرية التي لم تكن تخلو ، رغم ضبابيتها ، من شيء من الجراءة . وقد نجم عن ذلك أن المعالم الرئيسية للثقافة العامة أخذت تتضح وتنتقل من الخيال والتجريد العقيم ، الى البحث عن مضمون نافع ومفيد ، وتعبّر تدريجيا عن الحقائق الاجتماعية ، وتتخلص من بعض القيم البالية .

### الثقافة السياسية والثقافة الملتزمة

فالحركة القومية اذن ، بما فيها من جانب عاطفي ، استطاعت الى حدّما أن تصنع هذه «الثقافة» السياسية التي أخذت بحكم الضرورة تمارس نشاطا حثيثا في اطار النضال ضد الاستعمار ، وبذلك اكتسبت طابعا جزائريا صرفا . وقد اتخذت الفرنسية كلسان للتعبير في أغلب الأحيان . أما بالنسبة الى العربية ، فانها تخصصت في التعبير عن الفكر الديني المناضل المتأثر بالحركة الاصلاحية .

ولكن هذا لا يعني أن الأمور تغيرت رأسا على عقب . فالتكوين الايديولوجي الذي كان ضعيفا ومرتجلا ، لا ينتظر منه أن يأتي بجديد اذا لم يتوفّر له رصيد من «الثقافة» ، حتى ولو كانت من النوع المنقول بالسّماع . فذاك الرصيد يغذّيها ويحدّد لها معالم الطريق ويقدّم لها أمثلة للعبرة ويوفّر لها قسطا من المعلومات الايجابية ومن العناصر المفيدة لتقدير الأمور ونقدها . على أن هذه الثقافة كانت معزولة ومحلّية بحكم الظروف ، مما جعلها أحيانا تقف موقف العداء للفكر ، بنظرتها السطحية أو تجاهلها للمشاكل الخطيرة ، وتتخذ موقفا عاطفيا وتتجه اتجاها متطرّفا .

ومما لاشك فيه أن الثقافة السياسية هي التي تكشف الأبعاد الحقيقية للثقافة الملتزمة أو الثقافة بمعناها المتعارف ، على مستوى النخبة والاطارات المتوسطة ، تلك الثقافة التي لها أثر كبير في بلد محروم من لغته

القومية ولا يجد من سبيل للتعبير عن أفكاره الا بواسطة لغة حتّمتها الظروف : لغة العدوّ الدخيل ، تلك اللغة التي أصبح استعمالها في مثل تلك الظروف ، له ما يبرّره ، رغم بعض الآراء القومية المناوئة لها .

ولعلنا نتحدث هنا من وجهة نظر مثالية مطلقة ، وان كانت هذه النظرة تطابق الوضعية السائدة في البلدان المتخلفة خلال مرحلة الكفاح ضد الاستعمار . ان هذه الثقافة السياسية ظهرت بالفعل في كثير من البلدان ، ولكن هذا لا يعني بأنها استطاعت أن تقضي على النقائص والعيوب الملحوظة في الثقافة الأخرى ، أي الثقافة المكتسبة عن طريق الجهد الذاتي أو بسبب التحدي للظروف المعاكسة . ولذا ، فقد كان هدف الثقافة السياسية هو جمع ما توفّر من عناصر الثقافة الذاتية ، وتنظيمها بحسب المنظور الوطني ، والبحث عن عناصر أخرى ، لكي يكون الانسان على علم بمشاكله الخاصة ، ولكي يتأتّى له شرحها لمن ينكرها ، أي للخصوم ، لا للأصدقاء والأحباب . ان هذه العملية المصبوغة بالصبغة الوطنية ، بل بالصبغة القومية رغم كل ما داخلها من شوائب أجنبية مستعارة ، ما كانت لتكون الا عملية طويلة المدى ، في الدفاع عن الكيان ، والردّ على الأعداء ، واقامة الحجة . وهكذا ظهر نوع من التعطش الشديد للمعرفة ، وان كان هذا الاتجاه في حاجة الى شيء من التعديل . وقد أخذ الناس يتنافسون ، في حماس لا يخلو من الاضطراب ، لجمع كل ما يتعلق بكفاح البلاد من معلومات قديمة وحديثة . على أن هذا العمل كان يرمي بالدرجة الأولى الى التغني بالماضي والردّ على الأعداء ، أكثر مما كان يرمي الى التوعية الفكرية والنقد الذاتي ، وبذلك ظهر شكل من أشكال الثقافة بدافع من الشعور القومي ، فانتعشت الآمال باحياء المجد الغابر . ولو قامت هذه الثقافة بشيء من التعديل في اتجاهها لتصدّت لمعالجة النقائص ، والقضاء على الضحالة

الفكرية التي كانت تعاني منها الاطارات والشبيبة المناضلة ، ولعملت على الصعيدين الفكري والمدني للانتقال من طور **الأمة** الى طور **المجتمع** . ولكنها عجزت عن القيام بهذا العمل ، لأنها كانت تحمل في طياتها معوّقات ، وهذه المعوّقات انضافت الى الخرافات المعرقلة للحركة ، والموروثة من الماضي ، والباقية على حالها في الحاضر ، رغم ما طرأ عليها من تغيّر شكلي .

ان هذه الثقافة انما هي ثمرة هجينة تمخّض عنها مجتمع يعاني من النقائص ، ولذلك فامكانياتها محدودة . فالتثقيف الذاتي الملتزم لم يعطها الا بعدا واحدا ، وهو البعد السياسي الذي من خصائصه الارتجال والخلق ، وعلى الأخص التقليد . وفيما يتعلق بالتقليد ، فان الجزائري كان متعرضا لخطر يتمثل في الغرور ، بسبب الالمام بقسط من الثقافة الأجنبية ذات الطابع السياسي ، كما أنه يتمثل في الحرص على تقليد أمة أجنبية في أفكارها وأذواقها وأخلاقها ، وطرقها في القول والعمل ، ولغتها ... بل قد تسوّل له نفسه أن يقلد الطبقة المحظوظة من تلك الأمة . ولو كان الشعور القومي قويا ثابتا ، واثقا بما له من امكانيات وقادرا على الصمود أمام لغة دخيلة متفوقة على اللغة القومية التي — على أية حال — يجهلها الجزائري أو يمارسها ممارسة ضعيفة ، لما كان هناك مجال للتخوّف .

وينبغي الاقرار بوجود ثلّة من المثقفين والسياسيين الذين كانوا ، بحكم المرتبة الاجتماعية ، والوسط الذي عاشوا فيه ، والمثل العليا التي اعتنقوها ، كانوا معروفين بانحيازهم للغة الفرنسية وما فيها من قيم وأفكار ، بل كذلك ما فيها من أحاسيس ونظريات تاريخية وأساليب في التعبير . ومن الجدير بالذكر أن القومية الطلائعية التي كانت في بداية أمرها تنتمي الى الطبقة الكادحة ، قاومت بصورة تلقائية — لا عن وعي وتفكير — قاومت هذه السيطرة عندما بلغ الانحياز للفرنسية درجة الذوبان في البوتقة

الفرنسية . ومن هنا ندرك لماذا كانت متشددة الى أقصى الحدود ، وبدون استثناء ولا تمييز ، فأخذت تنادي بشعارات قومية أو روحية لمقاومة أثر الفرنسية . على أن بعض هذه الشعارات كانت متنافية مع العصر ، أو متطرفة أو شكلية لا غير . ولو أن الأمور جرت على النسق الطبيعي لحلت محلها أفكار هي أقرب الى الواقع .

ان الظروف التي ظهر فيها الوعي القومي لدى الجماهير الشعبية ، وبرز فيها الكفاح السياسي — وهو كفاح موجّه ضد الاستعمار وضد سياسة الاندماج ، باعتبار أن الاندماج كان هدفا من أهداف البرجوازية الجزائرية — هذه الظروف كان فيها ما يبرّر موقف التشدد والتصلب ، علما بأن هذا الموقف هو الذي سمح للحركة القومية أن تخطو خطوات كبرى الى الأمام . فالتطرف اذن لم يكن يخلو من فائدة ، بل كان ملائما للمبدأ الأساسي الذي اكتسب مزيدا من القوة والنشاط بحكم أنه مبدأ قومي جديد . على أن هذا التطرف ، وهذا الغلو المدفوع بقوة العاطفة كان لهما عيوب ظهرت آثارهما السيئة في الثقافة ، وفي الوحدة السياسية ، خاصة أن الأمر كان متعلقا باتجاهين متقاربين من حيث الأهداف ، ومتكاملين لو أن كل واحد منهما عدّل مواقفه في اطار منطلقات ايديولوجية واحدة .

وعلى سبيل المثال ، فمصالي الحاج ، العاطفي المزاج ، بحكم جهله أو تجاهله لامكانيات تطور الحركة القومية التي تزعّمها ، كان يخوض حربا شعواء ضد ابن باديس (1) الذي كان آنذاك المفكر المتبصّر الوحيد ، ورائد قومية تاريخية ثقافية تميزت بكونها عصرية وتقدمية نسبيا .

(1) وفي الواقع ، كان ابن باديس وحيدا في مجموعته ، ان لم نقل معزولا ، لأنه كان يتميز ، بفضل ثقافته ووطنيته وصرامته في قول الحق ، ووعيه السياسي ، على سائر العلماء الآخرين الذين أخذوا بعد الاستقلال يتنكرون لمبادئه التقدمية ، حتى أصبحوا يشكلون طبقة دينية انتفاعية ، ولا يلتفتون الى ما في المجتمع من ظلم وفساد .

وكان لكل من الحركتين مبالغات وسيئات ونقائص سافرة أو خفية ، بحسب ما اذا كنا ننظر اليهما من زاوية الكفاح الجريء المكشوف ، أو من زاوية السياسة القائمة على المطالبة بالحقوق ، مع العمل على توعية الجماهير ورفع مستواها الأخلاقي والفكري . وقد كان من الممكن أن يحصل الاتفاق بين الحركتين ، وخاصّة يوم كان ابن باديس على قيد الحياة ، وأن تتفادى كل واحدة منهما استفزاز الأخرى ، وأن تستفيد على العكس ، مما لدى غيرها من حماس واندفاع ، أو من جهد في التفكير ، حتى ولو كان ناقصا . ويبدو أن هذه الفرصة ضاعت تماما عندما أصبحت الحرب العالمية الثانية وشيكة . فالحركة القومية التحريرية أخذت تتحول الى «آلة صمّاء» ، فاتجهت الى حل خيالي ، مما فتّ في عضدها . أمّا جمعية العلماء ، فقد أخذت بعد وفاة ابن باذيس تسعى الى التحالف مع الأحزاب وتمارس النشاط السياسي وبعض النشاط الاجتماعي ، مما أفقد رسالة مؤسّسها العظيم ابن باديس رونقها . ولكن الثقافة السياسية هي التي منيت بالخسارة الكبرى في كلا الأمرين ، رغم أن العمل النضالي عرف تجارب دفعته الى الأمام حتى أوصلته الى الهدف النهائي ، بفضل المساهمة الحاسمة التي قدّمتها الجماهير الشعبية للكفاح المسلّح ، تلك الجماهير التي كانت أقدر من الأحزاب على تحديد هدف واضح ومحسوس للمجتمع .

وهكذا ، فان التقليد من جهة ، والضرورات الموضوعية من جهة أخرى ، أخذت ترسم معالم هذه الثقافة ، وتعطي لها شكلا مصطنعا أو تنزل بها الى مستوى الابتذال والسطحية ، مع الاحتفاظ لها بالأصل الذي اشتقت منه في صورته الساذجة ، وان كان هذا الأصل متشبعا بالايمان القوي والحماس الكبير . فالثقافة اذن تأثرت بالنظرة الى التاريخ ، كأسطورة رائعة ، وكحنين الى الفردوس المفقود ، وكوقائع وبطولات ...

وتأثرت أيضا بالنظرة الأخلاقية المصبوغة بشيء من السلوك البرجوازي ، تلك النظرة المستمدة من الوعظ والارشاد والأفكار العامة من أجل خلق الغيرة الوطنية ... وتأثرت كذلك بروح التضحية ، وبالصبر على الشدائد ، وبالشجاعة ، وبسائر الخصال الحميدة التي يتصف بها البطل كما يتصوره الناس ... وأخيرا تأثرت باللغة العربية ، كلغة للعبادة ، وكرمز عاطفي ، وكوسيلة لارهاف الاحساس البليد ... تلك اللغة التي كانت أقرب الى شؤون الدين مما هي الى شؤون الدنيا ، بعدما استوعبت في عصرها الذهبي الآداب والفنون والعلوم .

ونتيجة لكل هذا ، فان الثقافة أصبحت سجينة الحركة القومية التي أخذت أفكارها الجديدة المدفوعة بقوة العاطفة تؤثر فيها ، وترسم لها الطريق الى الأمام ، وتجعلها على صلة بالكفاح المشترك ، وتعطي لها الطابع التقدمي ... وسواء نظرنا الى مصر ، أو سوريا ، أو تونس ، أو المغرب ، فان القومية انما نشأت لتكون للمجتمع درعا يحميه ويصونه من العدوّ الدخيل . وكانت هذه البلدان تتمتع بالسيادة أو ما يشبهها ، وآل أمر الحركة القومية فيها الى الطبقة البرجوازية . فالمجتمع اذن ، وان كان يعاني من بعض النقائص ، الا أنه مجتمع قائم على أساس غير منهار . أما في الجزائر ، فان الضربات القاتلة انصبّت على المجتمع أكثر مما انصبت على الأمة المتمثلة آنذاك في مزيج من المفاهيم ، وفي فكرة غير محدّدة المعالم ، وفي تطلّع غامض للمستقبل . ورغم هذا ، فان الأمة — وليس المجتمع — هي التي أصبحت في نظر الجماهير الهدف الأسمى ، وغاية الغايات . ومعنى ذلك أن الشعب الجزائري آلى على نفسه أن يقابل بالتحدي موقف الاستعمار الذي أنكر الكيان القومي كأمة ، تلك الأمة التي لم يستطع أن يسيطر على مقوّماتها الروحية وطاقاتها الكامنة . واذا كان الاستعمار لم ينكر المجتمع الجزائري ، فلأنه حطّمه ، وبذلك سدّ أمامه أبواب التقدم والرقي .

ان هذه الملاحظات أبعدتنا نوعا ما عن المقصود ، وهو أن الجزائريين وجدوا أنفسهم ـــ بعد مضي بضعة عقود من السنين على الاحتلال ـــ مضطرين الى اشباع حاجاتهم الفكرية والثقافية ، لأن ادخال التقنيات والبنيات الحديثة بطريقة فجائية ، أصبح يعرّضهم لا للانحطاط والتخلف فحسب ، بل كذلك للانهيار التام . وقد سبق القول بأن اللغة القومية **فقدت مكانتها الأولى** ، وهذا أمر غير مستغرب في ظروف السيطرة الأجنبية المباشرة (خلافا لما يجري في نظام الانتداب أو الحماية) ، تلك السيطرة التي همها الوحيد هو احلال مؤسساتها محل مؤسسات الشعب المغلوب . ورغم أن العربية فقدت مكانتها ، فقد ظلت تدرّس بحسب ما تسمح الظروف ، في كتاتيب القرى ، وفي بعض الزوايا التي آل أمرها الى الانحطاط ، وكان تعليمها محدودا ، وربما نزل الى النصف أو أقل من النصف ، ولكن المستوى بقي كما كان ، **لأن الذي أضرّ بالعربية بعد الغزو الاستعماري ليس هو انخفاض المستوى ، بل هو نوع العلاقات القائمة بين الغالب والمغلوب ، والمنطق الذي بنيت عليه تلك العلاقات** . ان الذي أضرّ بها هو حرمان الناس من حريتهم ، وزوال مكانة اللغة ، كأداة للتعبير الرسمي ، والاضطراب الشديد الذي حصل في الوسط الاجتماعي والاقتصادي ، ذلك الوسط الذي يوفّر للغة أسباب النماء والتطور .

وما لبث الناس أن أخذوا يقارنون بين اللغتين ، ولكن بدون تفضيل أو اختيار لهذه على تلك . فبدا للبعض منهم بأن الفصحى فقدت مكانتها في مجالات كثيرة ، وعلى الأخص في مجال التعامل الاجتماعي ، وأخذوا بعد ذلك يفكرون ـــ على مضض في البداية ، ثم بحذر متناقص ـــ في تعليم أبنائهم تعليما فرنسيا . ومما سوّغ لهم هذا الحل ، أنّ الواقع

فرض الفرنسية ، وأنهم على أية حال مازالوا متمسكين باللغة القومية . وما لبث الشعب أن أخذ يعتبر **الفرنسية لغة الدنيا** (1) ، **على عكس العربية التي أصبحت لغة السمو الروحي في الآخرة** ، وهذا نظرا الى اضفاء الطابع الديني عليها وتنزيهها من الحرام ومن المكروه . ونحن اذا تأملنا في هذه المسألة نلاحظ الفصل بين جانبين كانا في السابق مندمجين ، وهما : الدنيا والآخرة . ونجدّد القول بأنه لم يقع تفضيل مقصود للغة ما على حساب اللغة الأخرى . وكل ما في الأمر أن هناك حاجة ماسة الى أداة ينتفع بها الجزائري ويحلّ بها مشاكله ، علما بأنه لم يتخلّ الا عما هو مفقود فعلا بحكم الظروف القاهرة .

وربما صحّ القول هنا بأن الناس ، من حيث لا يشعرون ، كانوا من جهة أخرى ، متأرجحين بين الأمة ، كشعار ، وبين المجتمع كواقع حي . ان الاستلاب في حد ذاته ــ وهو الموضوع الذي كثر حوله الحديث فيما بعد ــ أمر غير وارد في هذا المجال ، وذلك أن الجزائريين لم يكفّوا أبدا عن استعمال لغاتهم الدارجة ، وبقي لديهم رصيد كبير من القيم الانسانية المتناقلة بالسماع . ان بعض أصحاب الثقافة العربية ، من الجزائريين المغتربين في المشرق ، انتهزوا ما آلت اليه الأمور من اضطراب وفساد ، فعملوا على ايهام رجال الفكر في تلك البلدان الشقيقة بأن الاستعمار الفرنسي أفقد الجزائر كل شيء ، وحرمها من استعمال لغتها الدارجة . ومنذ عهد قريب سألني أحد الكتّاب المصريين ، وهو من مؤلفي المسرحيات ومن مشاهير الصحافيين ، عما اذا كان صحيحا بأن لغة المهد لدى الكثير من الجزائريين المسلمين هي الفرنسية ! والسبب في هذه المغالطة أن بعض الجزائريين المصابين بعقدة البؤس والشقاء ، صاروا يقومون بدعاية منافية للمعقول ، ويوهمون الأجانب بأننا شعب مستلب

(1) ان السيد البشير حاج علي الذي أورد هذه العبارة ، جعل نطاقها محصورا عندما نسبها الى جدّته وحدها . والحقيقة أنها كانت شائعة في جميع أنحاء الجزائر .

تخلّى عن الأداة المثلى المعبرة عن شخصيته ، ونعني بها اللغة الدارجة ... وذلك لا لشيء سوى لأن اللغة الفصحى ، في بلدنا المحتلّ ، المحروم حتى من ضروريات الحياة ، لا تعلّم في المدارس كما هو الشأن في الأقطار العربية الأخرى الواقعة في افريقيا وآسيا ، والتي لم تتعرض لما تعرضنا له من استعمار . ان أصحاب هذه الذهنية المشوّشة ، القاصرين في أغلب الأحيان عن فهم أبسط الأمور في بلادهم ، لايكاد الواحد منهم يتعلم الفصحى وماضيها (الذي يتصورونه تصورا صبيانيا) ، حتى تجده ، بسبب بعده عن الواقع وقلة ذوقه ، يحتقر العربية الدارجة لدى الشعب ، ويتشدّق على غرار المتحذلقين الفرنسيين في القرن السابع عشر ، بعبارات منتقاة تدل على الغرور . وقد نسي هؤلاء بأن أعضاء مجمع اللغة العربية أنفسهم ، ورجال الثقافة في مصر ، يتحدثون خارج عملهم ، بل وحتى في مؤتمراتهم ، بالدارجة ، من غير تصنّع ولا حرج .

ان هذه الثنائية اللغوية أصبحت أمرا واقعا منذ أن طرأ على العربية — بسبب احتكاكها بالحضارات والتقنيات الجديدة — طرأ عليها نوع من التحوير في المبنى والتركيب ، كلغة للثقافة ، بها تعبر شعوب الامبراطورية الإسلامية عن شؤونها ، وبها يتعامل أبناؤها بل حتى البدو المتمسكين بالقديم ، والحضر من الطبقات الوسطى . وهكذا ظهرت مصطلحات وتراكيب بعضها مقولبة وموضوعة وضعا جديدا ، وبعضها مستعارة تماما ومعرّبةتعريبا تدريجيا بعد تطويعها لقواعد النحو والصرف . وهذا أمر لا مفر منه ، بل يمكن القول بأن هذه الظاهرة أخذت تبرز منذ بداية العصر الأموي (نهاية القرن السابع) ، رغم أن هذا العصر لم يتأثر بالحضارة الفارسية كما تأثّر بها العصر العباسي .

## بين الفصحى والدارجة

تلك اذن هي نتيجة التطور الهائل الذي شهدته الفصحى ، فاتخذها الأدباء والعلماء العرب والمستعربون كأداة للتعبير الكتابي ، بينما

بقيت الدارجة تسير سيرها المستقل كأداة للتعامل في الحياة اليومية . ولهذا فلا يجوز انتقاص شأنها بالموازنة بينها وبين الفصحى ، كما لا يجوز أن نعتبرها لغة صالحة للتعليم والتدريس . على أن الشيء الثابت هو أنها أداة طيّعة للتفاهم في المجتمع الجزائري ، ووسيلة ممتازة بواسطتها تكتمل الثقافة القومية ، اذ تحتوي على مجال هام هو مجال التعبير الشفوي . واذا كانت التوعية السياسية ، والعلاقات بين القمة والقاعدة ، والحوار بين السلطة والرأي العام ، اذا كان كل ذلك فاشلا أحيانا ومخيّبا للآمال ، وسببا من أسباب سوء التفاهم ، فان هذا يرجع الى قلة استعمال هذه اللغة الشعبية ، والى الجهود الضئيلة التي بذلت لجعلها صالحة للتفاهم والتعامل ، في بلد يضمّ 75% من الأميّين الذين ليس لهم وسيلة أخرى يعبّرون بها عن أنفسهم . أضف الى ذلك أن استعمال هذه اللغات الشعبية (العربية الدارجة والأمازيغية) **قد ساهم أكثر مما يظن البعض ، في الماضي البعيد ، وسوف يساهم على مدى الأيام والسنين** ، في غرس الملكة اللغوية بالنسبة لمن يتعلم الفصحى . فالأجدر بنا ، عوض أن نسعى وراء المستحيل وأن نخرج عن واقع الأمور بالخلط بين الفصحى والدارجة ــ وهما متلازمتان ومتمايزتان في نفس الوقت ــ الأجدر بنا أن نتأسف على كون هذه اللغات الشعبية قد أخذت تتعرض للفساد في بعض المناطق (غير البوادي) ، فلم تعد تخضع لضوابط الاستعمال وما يقتضيه البيان والتبيين من قواعد ، تلك القواعد التي كان الانسان يتعرض بسببها للسخرية اذا خالفها . ونظرا الى افتقارنا للغة طيّعة قادرة على نقل الأفكار ، وعلى توعية الجماهير الغفيرة من الشعب سياسيا واجتماعيا ، فاننا نستطيع أن نتصور العقبة الكأداء المتمثلة في صعوبة نقل الايديولوجية للجماهير .

### دور اللغة في نشر الايديولوجية

واذا كانت هذه الايديولوجية قد بقيت ناقصة وظلت في صورتها النظرية عوض أن تمهّد للمرحلة اللاحقة التي هي انتصار الاشتراكية

وانضمام الجماهير الشعبية ــ كمّا وكيفا ــ اليها ، فالسبب في ذلك هو أننا كنا ولا نزال في حاجة الى الفهم الواقعي للأمور ، والى نظرة ثورية سليمة فيما يخص استعمال لغة واحدة ، وتكييفها بحسب مقتضيات الأحوال ، تلك اللغة التي لا غنى عنها للتفاهم والتبادل والحوار . ومن نتائج هذا النقص أو هذا العيب الذي لا نجد ما يماثله في البلدان الأخرى التي توفرت لها لغة واحدة للتكلم والكتابة ، من نتائج ذلك أن الفكر السياسي أصبح يوضع وينشر اما بالفرنسية واما ــ بين الفينة والأخرى ــ بالعربية الفصحى ، وبالتالي ، فلا يؤثر في أحسن الاحتمالات ، الا في 15٪ من السكان . أما البقية ، فمعظمهم لا يستفيد أبدا ، رغم أنه توجد لغات شعبية قادرة ــ مع أنها غير مكتوبة ــ على افادة 85٪ من السكان ، وتكوينهم تكوينا شفويا ، في انتظار وسيلة أخرى هي أنجع وأفيد . وعلى أية حال **فللضرورة أحكام** . والأمر هنا يتعلق بالتكوين السياسي العام الذي يتناول الحقائق المباشرة ، على أن يكون من نوع التكوين المتين نسبيا ، المتنوّر بنور العلم والمعرفة ، المتجرّد من كل ما يفرّق الشمل ... فليس المقصود به اذن التثقيف التربوي ، لأن هذا التثقيف يستلزم انتشار التعليم ، مع الاستعانة في بعض المناطق المتخلفة بأساليب التبسيط اللغوي ، من أجل تقريب المسائل الثقافية والتقنية من افهام الجماهير الشعبية . واذا لم نفعل هذا ، فان الحركة القومية ــ وهي حركة ينبغي أن تزول بعد أن أدت مهمتها ، لكي يتحقق من بعدها مجتمع جديد يستجيب لتطلعات الشعب ومقتضيات العصر ــ هذه الحركة القومية قد تتمخض ــ كما هو الشأن اليوم في انتقالها من مرحلة الكفاح التحريري الشعبي ، الى مرحلة استلام السلطة ــ قد تتمخض عن نزعات واتجاهات طبقية برجوازية انتهازية . وهذا هو مصيرها المحتوم ، رغم حرصها على البقاء في الخط الاشتراكي الصحيح .

## افساد اللغات الشعبية

لنعد الى موضوع اللغات الشعبية لكي نقول بأنه ليس من المهم السؤال عما اذا كانت الفرنسية هي التي أثّرت فيها وأفسدتها ، وخاصة في المدن ، أم أن الذي أفسدها هو ما آل اليه المجتمع الجزائري المستعمر من تدهور . ولنا رأي واضح بخصوص أثر الفرنسية على اللهجات : فهذا الأثر طفيف أو معدوم بالنسبة للأميين الذين كانوا مدركين تمام الادراك بأن اللغة التي يتكلمونها لغة دارجة كاملة غير ناقصة . واذا كان للفرنسية من أثر عليهم ففي مجال معدّات الحضارة عندما تكون الألفاظ الدالة عليها مفقودة في الدارجة ، أو أن الكلمات الفرنسية المعبّرة عنها لا تقبل التعريب . وخلافا لما يعتقده البعض ، فليس استعمال هذه الألفاظ الأجنبية هو الذي أفسد اللغات الشعبية ، لأن هذا الاستعمال ان هو في الواقع الا ظاهرة اجتماعية ، فينبغي أن نقتصر على ملاحظتها ، اذ ليس لأحد عليها من سلطان ، مهما قال اللغويون المتزمّتون القاصرة مداركهم عن فهم مقتضيات الأحوال وما في الاستعارة الأجنبية من فوائد .

وهنا أيضا ينبغي أن لا نبالغ . فالأمر لا يتعلق بافساد اللغة الدارجة بقدر ما يتعلق بما آل اليه المجتمع من فقر ، وما كان يحتمل فيه من وعي قومي ، وما بلغه من نضج سياسي بعد ما خرج من عهد الخرافات والاعتقادات الباطلة . فهذا المجتمع كان في حاجة الى عقلية جديدة ، ولغة يعبّر بها عن هذا العهد الجديد . ان هذا «النضج السياسي» لا نعثر على مثيل له خارج نطاق البلدان المتخلفة ، حيث تسود فيها القومية المناهضة للاستعمار . وفضلا عن هذا النضج ، يوجد في المدن الكبرى وضواحيها نوع من التعلّم لأنماط من الحياة ، ولأنساق من التفكير يتلمّحها الناس ويحسّون بوجودها من حولهم من غير أن يمارسوها بالفعل . وما لبثت تلك الأنماط والأنساق على مدى الزمن أن أصبحت

من بوادر ثقافة مكتسبة عن طريق التعلم العفوي ، ثقافة متركزة بالخصوص على الحرف والتقنيات البسيطة . وعلى العموم ، فان هذه اللغة الدارجة آل أمرها الى نفس الانحطاط الذي آلت اليه اللغة المستمدة من الكتب ، علما بأن اللغات الشعبية قامت الى جانب الفصحى بدور كبير يتمثل في ارهاف الحس المبدع للشعر ، وتنمية الخيال الخلاق للرواية ، وتربية الميول للأمثال والحكم المستمدة من تجارب الأيام .

وعلى اية حال ، فان انحطاط اللغات الشعبية اقل وضوحا وبروزا من انحطاط اللغة المكتوبة ، مما جعل الناس لا يهتمون به كثيرا . ولذا ، فعوضا من العمل للنهوض بها ، دأب الناس من حيث لا يشعرون على مسخها في الحصص الاذاعية والمتلفزة القليلة بالدارجة ، وفي خطب القادة السياسيين ، بل حتى في المسرح «الشعبي» المزعوم الذي يدّعي بأنه يخاطب الجماهير ويتكلم لغتها . وهذه حالة مزرية ليس لها نظير في أي بلد آخر من العالم . ومن البديهي أن اتقان احدى اللغتين (الدارجة أو الفصحى) ليس له أي أثر سلبي في اتقان الأخرى ، بل على العكس ، لأنهما واقعتان على صعيدين مختلفتين : فالأولى هي لغة المهد ، وبها يتعامل المجتمع . والثانية هي اللغة القومية للتعليم والثقافة في أعلى صورهما المتنوعة .

ومن الغريب أن المتعلمين بالفصحى ، الذين يحتقرون اللغات الشعبية ، انما يفعلون ذلك لأنهم غير واثقين من أنفسهم ، ولأنهم لا يملكون زمام الفصحى ولا يكتبونها بطريقة عفوية ، بل لا يعتبرونها أداة للعمل والبحث والتبادل في الأفكار ، لأن هذا الأمر في نظرهم أقل أهمية من الاجتهاد للاحاطة بها والتبحّر في ميادينها . والسبب في ذلك أن تعلّم الفصحى لا يزال أحيانا مصبوغا في الجزائر بالمهاترات الفلسفية والمساجلات في الفصاحة والبيان . فهذا التعلم بسيط ومقصور على معرفة اللغة في حد ذاتها وكغاية لذاتها . ومن هنا تمسّكهم بالشكل ،

واقتصارهم على المبنى دون المعنى وايمانهم بالفن للفن . فالتركيز هنا على «الكلام المنمّق» ، لا على الجدوى ، وافادة المعنى ، ونقل المعرفة ، ولذلك يميل هؤلاء الى الأسلوب الخطابي ، فتجدهم حتى في المناسبات العادية يتكلفون اللهجة الخطابية المليئة بالغريب من المفردات . والنتيجة أن هؤلاء يكتبون لا كما يتكلمون في التخاطب العادي ، بل يكتبون بطريقة مصطنعة . أما اذا انعكست الآية ، وخاصة في الاذاعة والتلفزة ، فان الحصص المخصصة للمواضيع العادية ، والوقائع السياسية والأخبار المحلية ، وحتى الأنباء الرياضية ، كل ذلك يلقى بأسلوب مصطنع ومدرسي ، مع اختيار الألفاظ والتعابير النادرة ، والقاء الموضوع بصوت الخطيب المفوه .

والأخطر من كل هذا أن يقع في روع الناس ــ نظرا الى كل هذه الأسباب ــ أن الذنب هو ذنب اللغة بالذات في حين أنها قادرة على أداء جميع اللوينات ، والتعبير عن كل معنى من المعاني . واذا كان هناك من نقص ، فالنقص كامن في تلك العقلية المتقلبة باستمرار ، والمتناقضة أحيانا مع نفسها ، سعيا وراء صورة من الواقع خاطئة هي وليدة الخيال والارتجال والعاطفة ومزاج الأفراد ، لا وليدة العقلية المشتركة . واذا كان هناك من نقص ، فهو موجود في ذلك التصور القائم على الصناعة اللفظية وعلى الاهتمام بالشكل لا بالمضمون في التعبير اللغوي ، وهذه نظرة تعرقل الحركية العفوية للغة ، وتشلّ نزوعها لنقل ثقافة متفتحة متحررة في حد ذاتها ومحرّرة للفرد من الخرافات ، ومعبّرة عن الحقائق اليومية المأثورة . وما أحوج بلادنا التي هي في غنى عن الكماليات ، ما أحوجها الى هذه اللغة .

## اللغات والثقافات الأجنبية

ولعلنا نفهم الآن لماذا اتخذ بعضهم موقف الرفض والنفور من استعمال اللغة في الشؤون الدنيوية المختلفة وحالوا بينها وبين أداء وظائفها

في البحث ، واستيعاب العلوم ، والأخذ والعطاء ، والتعبير عن التراث الانساني ، وصاروا يدّعون بأنهم في غنى عن تجارب الآخرين ، أو على الأقل عن اللغة الأجنبية التي ينظرون اليها كما ينظرون الى اللغة القومية ، فيعتبرونها غاية في حد ذاتها ، لا وسيلة . ويدعي هؤلاء بأن اطلاعهم على فقه اللغة يكفي وحده لتحصيل العلوم المختلفة مهما كانت دقيقة ، بل يكفي لتعليمها للناشئة ، كما لو أن المسألة لا علاقة لها اطلاقا بالروح العلمية ، والبحث الدؤوب ، والتمرّس على التفكير الرصين . فالأمر في نظرهم ان هو الا من قبيل النقل الحرفي للعلوم ، ولا حاجة على الاطلاق للتصور الواضح للعالم ، وما يقابلنا به من تحديات ، وما حققه ويحققه من منجزات . ولكن هذه النظرة الضيّقة التي ــ كما سنرى ــ أدت الى تقليص القيم أو الى خنقها من شدة الغيرة عليها ، هذه النظرة الضيقة مطابقة لنظرة أخرى الى التاريخ ، تعسّفية ، قائمة على الانتقاء بحسب الأهواء ، ومستمدة هي أيضا من الموقف السابق ، موقف الرفض . ومما لاشك فيه أن نقل المعرفة في الماضي كان دائما يتم بطريقة مباشرة تلقينية مفروضة فرضا من طرف المعلم على التلميذ ، وأن العلاقة بين الطرفين هي علاقة السيد بالمسود ، من غير مراعاة لرغبات واحتياجات واهتمامات المتعلم . ولنا في دراسة حديثة (1) عن نقل المعرفة في العصر الوسيط ، لنا فيها عبرة لمن يعتبر . فاسبانيا التي عاشت تحت الاحتلال العربي منذ مدة طويلة ، ماكادت تسترد الحكم حتى أخذت ــ عن طريق الترجمة والتبسيط ــ تنهل من تيار العلوم العربية والفكر العربي ، وتعمل على نشرها في أنحاء شبه الجزيرة الايبيرية وأوربا الغربية .

ومن المعروف أن استرداد الحكم تمّ في ظروف قاسية وبمنتهى الشدة ، ولم يتحقق الا بعد أهوال وتضحيات جسام ، وكان بمثابة حرب

(1) انظر : ر . لوماى . (الترجمات من العربية الى اللاتينية) .
R. Lemay : «Les traductions de l'arabe au latin» (Annales, juillet-août 1963).

صليبية على الاسلام ، وأخذ الثأر للمسيحية على سيادة الاسلام في الأندلس قرونا عديدة . ومن المعروف أيضا أن القائمين على هذه الحركة الواسعة النطاق ، التي بواسطتها أخذت أسبانيا عن العرب ثقافتهم وعلومهم الوضعية ، كانوا على العموم من رجال الدين والكهنوت ومن الشخصيات البارزة في هذه الفترة القصيرة من حيث المدة ، والمثمرة من حيث الأعمال المنجزة . ممن بين هؤلاء ، الأسقف ريموند ، من طليطلة ، والراهب ميكيل دي تارازونا ، والخوري بيير لوفينيرابل ، الذي زار اسبانيا ، وأصله من كلوني . هذا ، فضلا عن رهبان آخرين ، وغيرهم من رجال الدين ، والمترجمين المتمرسين في بعض العلوم ، والمؤلفين المختصين في تبسيط العلوم ، واللاتينيين والمستعربين من ذوي الخبرة الواسعة : فهؤلاء جميعا كانت لهم طريقة منهجية في نقل العلوم ، وقد انطلقوا في عملهم من مدن ومقاطعات شبه الجزيرة الايبيرية ، مرورا بمرسيليا ، وعلى الأخص بمدينة شارتر ، في الفترة ما بين 1135 و 1140م ، وانتهاء بانجلترا . ولكن ، لنترك الكلمة لريشار لوماي : «الزمان هو : اسبانيا في القرن الثاني عشر ، أي في منتصف عهد استرداد الحكم Reconquista ... والمكان ، هو المنطقة المحددة بين نافارا ونهر الطاج ... والوقائع الهامة في ذلك العهد هي الاستيلاء على طليطلة في 1085م ، وسرقوسة في 1118م . تلك هي الظروف التي وقع فيها الاتصال الأول بين الثقافتين العربية واللاتينية ، واستمر ذلك اللقاء مدة من الزمان ، مما سمح للثقافتين بالتفاعل . وهذا اللقاء يمثل بالنسبة للفكر اللاتيني منعطفا حاسما في تطوره (1) » .

وقد يكون من المفيد ايراد فقرة أخرى من هذه الدراسة لأنها تدلّنا على التنظيم المتقن في الاستعارة من الثقافة الأجنبية ، كما تدلّنا على التحول

(1) انظر : الحوليات Annales ، يوليو ــ أغسطس 1963 ، ص 462 .

الذهني الحاصل بصورة عفوية كنتيجة للاتصال بالعلوم الجديدة ، وتدلنا أيضا على ما للمبادرة إالفردية وللجهد الشخصي في ميدان الثقافة من فضل ، بالمقارنة مع المد المباشر ، من غير جهد ولا معاناة : «ان التفاعل الثقافي الذي تحقق في اسبانيا حتى أواخر القرن الثاني عشر بلغ درجة من القوة والاشعاع الفكري جعلته يتفوق على جميع المراحل الأخرى **السابقة أو اللاحقة من نقل العلوم العربية الى العالم الغربي . وهذا التفوق مرجعه أولا الى الأثر** الحاسم الذي تركته المؤلفات العربية المترجمة في الفكر اللاتيني الفقير في القرن الثالث عشر ... ومرجعه أيضا الى أثر بعض الشخصيات البارزة مثل جان (من أشبيلية) ، وجيرار (من كريمون) ، وهرمان (من كرانتي) . وهناك أمر آخر لا يجوز أن نتغافل عنه ، وهو أن الأندلس في القرن الثاني عشر شهدت ، رغم ما اشتهر به الموحّدون من تزمّت ديني ، شهدت نشاطا ثقافيا قويا جدا في الفلسفة والعلوم والآداب . فذلك العهد هو عهد ابن باجة Avenpace وابن طفيل Albubather ، وابن رشد Averroes ، وابن ميمون Maimonide وأبي القسيس Aboulcacis ، والبتروجي Alpetragius ، كما أنه عهد الشعراء والمتصوفين مثل ابن العربي ، من مرسية . وهكذا ، فبفضل نظام النقل الذي وضع في القرن الثاني عشر استطاع هذا الفكر العربي الأندلسي أن يتغلغل في الغرب بكل سهولة منذ أوائل القرن الثالث عشر ، **في حين أن ذلك الفكر لم يؤت بعد ثماره في العالم الاسلامي** (1) .»

واذا نظرنا الى كل هذا كتجربة غير محصورة في قرن من القرون ، بل كتجربة يمكن أن تنطبق على واقع الثقافة الجزائرية العربية اللسان ، بالمقارنة مع الثقافة الجزائرية الفرنسية اللسان ، فاننا نستطيع أن ندرك لماذا كان الواقع الثقافي ـــ عندما يقوم على العنصر العاطفي وحده ، وينهل من

(1) انظر : المقال السابق ، ص : 642 و 643 .

رصيد فقير متألف من ألفاظ جوفاء واعتقادات باطلة وأفكار متحيزة — لماذا كان هذا الواقع الثقافي ، رغم ما قد يطرأ عليه من تطور سياسي وتقدم في مختلف النواحي ، متخلفا عن العصر ، بل متخلفا حتى بالمقارنة مع الماضي ، بسبب ادعاء الوفاء للماضي البائد ، والتمسك بحقائق ساذجة ليست حتى في مستوى الحقائق الفكرية السائدة في العصر الوسيط الاسلامي . وكما يقول ريشار لوماي في حديثه عن الثقافة العربية التي اتجهت في معظمها لمعالجة شؤون الدنيا ، وعرفت كيف تستفيد بكل انسجام ، من الثقافات الأجنبية اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ، فازداد بذلك رصيدها العلمي ، هذه الثقافة كان لابد من أن تترك أثرا حاسما على حضارة «ساذجة» متجهة بالدرجة الأولى لمعالجة شؤون الآخرة : «ان العلوم العصرية ، اذا صرفنا النظر عن كونها تقدّم معلومات دقيقة وتحيط بالواقع الموضوعي ، هذه العلوم تتمثل بالدرجة الأولى في «عقلية معينة» . ثم يضيف : «ولعل أبرز ما تتميز به تلك الفترة التاريخية — فترة نقل العلوم العربية الى الشعوب اللاتينية عن طريق اسبانيا في القرن الثاني عشر ، هو توقّف النمو المادي بعد اكتماله ، والتوصل الى مستوى معين من النمو الفكري الذي تعد العلوم العصرية مرحلة من مراحله العديدة . ومعنى هذا أنه يوجد بين العلوم القديمة وعلوم أوربا العصرية نوع من الانقطاع الطويل ، بل نوع من التشويه للعلوم . فمن عهد القديس أوغسطينوس الى الحملة الصليبية الأولى ، ساد في البلدان الغربية اللاتينية مثل أعلى لدى الأفراد والجماعات يتجلى في العمل «لاستكمال الصفات اللائقة بالمواطن في الآخرة» . كما يتميز ذلك العهد المظلم بفقدان المعالم الخارجية ، بسبب قطع الصلة بتراث الأجداد وبالثقافات الأجنبية ، (خلافا للعالم الاسلامي الذي توفّر له كل ذلك في القرون الأولى من تطوره) . ولاشك أن هذه العقلية عطلت تماما ما فطر عليه الانسان من استعداد للتعامل مع الكون ، ومع الواقع ...

وقد حدث الاتصال الأول بالاسلام والمسلمين عندما حققت اسبانيا انتصاراتها الأولى في حروب استرداد الحكم وبذلك انتهى عهد العزلة والشعور بالنقص اللذين كان العالم الغربي اللاتيني يعاني منهما . فالنتائج الايجابية التي حققها المترجمون للفكر العربي لا تتمثل في النظريات أو في مناهج البحث الجديدة ، بقدر ما تتمثل في تحريك ملكات عقلية كانت الى ذلك العهد جامدة . فقد أخذ هؤلاء الرواد في التقييم الصحيح للمكانة التي يحتلها الانسان في هذا العالم المادي ، وقاموا بهذا العمل بكل دقة وموضوعية وبالاعتماد على رصد الواقع . وهذا في نظرنا هو الجانب المهم في اكتشاف أوربا للعلوم العربية ، وقد تأتى ذلك الاكتشاف بفضل الظروف الملائمة التي توفرت في اسبانيا عندما شنت حروب استرداد الحكم ، اذ وجد المستعربون ومسيحيو الشمال والمسلمون والمدجّنون Mudéjares أي الموالي من المسلمين بعد سقوط الأندلس) ، ورجال الدين المحاربون والحكام ورجال الاصلاح ... وجد كل هؤلاء أنفسهم منقادين للتيار العام الذي أخذ آنذاك يغيّر ظروف المعيشة والجوّ الثقافي (1) . »

ومما لاشك فيه أن أية ثقافة ، وحتى لو لم تكن من ثقافات العصر الوسيط ، اذا كانت تلتمس طريقها بالالتفات الى الوراء ، والابتعاد عن الحداثة والمعاصرة ، فانها لن تقيم أي اعتبار لما يجدّ من جديد في الخارج ، ولا تتخذ الثقافات الأخرى لها قدوة ، لأن الاحتياجات الفكرية مختلفة في كلا الطرفين ، نظرا الى أن هذه الثقافة المتنكرة لمقتضيات الحاضر ، تتجاهل الحاجة الى البحث والتطور ، والحاجة الى التخلص من الاعتقادات الباطلة ، والى التفتح على الحقائق العالمية . ان هذا التجاهل صادر عن موقف سقيم ، لأنه يجعل الانسان تارة يتصور اللغة

(1) نفس المصدر ، ص : 640 و 641 .

تصورا سياسيا عاطفيا ، فينغلق على نفسه ويرفض كل عطاء أجنبي ، وتارة أخرى يتصورها منفصلة عما هو عليه من التفسّخ والانحلال ، وقادرة على البقاء سالمة من كل تشويه ، بفضل ما لها من خصائص ومن قيم مقدّسة ، فكيف يمكن أن نرضى بهذا الموقف بعدما أصبح العالم الذي نعيش فيه يتذوق طعم الحرية ، وهو طعم مرّ ولذيذ في نفس الوقت ، ويتذوق أيضا فوائد الاقتباس من الغير ، وما يستلزمه ذلك الاقتباس من انتهاك لما نعتبره مقدّسا . ان الفكر لا يترقّى الا بمثل هذه الجراءة . ونحن اليوم ، عندما نسمع ر . لوماي يتحدث عن «الملكات العقلية الجامدة في العصر الوسيط اللاتيني» نتساءل : ألا ينطبق قوله هذا على ما نحن عليه اليوم من جمود ، رغم كل ما مرّ من قرون ، وما وقع من ثورات ؟

## انتهاء دور الحركة القومية

من خصائص القوميات أنها حركات مرحلية تركّز عملها على الدفاع عن شخصية متضمنة لقيم هي في حد ذاتها صالحة أو فاسدة ، وتقوم بدور الحافز المحرّك للشعوب . ولكن لاتكاد الحركة القومية تحرز النصر بعد تحرير الوطن وتمهيد السبيل لقيام الدولة ، حتى يكون دورها قد انتهى عمليا . وما دام الأمر يتعلق بالدولة ، أي بكيان معترف به دوليا ، ويتعلق أيضا بثورة نابعة من الشعب ، ثورة لا يرجع الفضل في اندلاعها وانتصارها لفريق معين ، لأن الشعب بأكمله شارك فيها ، فلابد للحركة القومية من أن تتخلّى عن أغراضها الخصوصية . ولكن الشّحنة العاطفية الهوجاء التي تحملها الحركة القومية ، شحنة لاتزول بسهولة ، بل تستمر وتبقى صامدة ، باعتبار أنها تشكّل ــ وهذا أمر لابد من الاقرار به رغم كل اعتراض ــ تشكّل العقبة الأساسية للتقارب العالمي الذي ينبغي أن يظهر في ميادين الثقافة والحياة الاجتماعية والاقتصاد والسلوك المدني ،

وعلى الأخص في عقليات الأفراد ، تلك العقليات التي لها أثر بالغ في تغيير القيم السائدة في المجتمع . فاذا لم نعمل على التقليص من ظلها (أي الحركة القومية) ، عندئذ يختلط الحابل بالنابل ، فنشاهد قيام مؤسسات تتجه من حيث الظاهر اتجاها دوليا ثوريا ، ولكنها تستعمل نفس العبارات المتداولة في المجتمع البرجوازي المتزمت ، مع استعارة بعض الشعارات والممارسات الاشتراكية أو ما يشبهها ، وبذلك يعود المجتمع من حيث لا يشعر ــ بسبب جمود بعض الفئات وعقليتها الرجعية ــ الى تلك الصبغة الخصوصية التي رأيناها في الحركة القومية ، أي الى الانسحاب من الركب العالمي ، رغم كل ما يبذله المجتمع من جهود لينضمّ الى الركب ويندمج فيه تماما ، أو على الأقل ليلحق به . ان ادخال بعض الكلمات العربية في اللّغة الأجنبية المتداولة في بلادنا ، مثل «شهداء Chouhada وجنود Djounoud ومكافحين Moukafihine ــ باستثناء كلمة مجاهد Moudjahid التي لها مدلول خاص ــ ، ان ادخال هذه الكلمات العربية في الفرنسية ، رغم أن ترجمتها من أسهل الأمور ، وأن نظيرها في الفرنسية يعبر عن نفس المفاهيم العالمية المأثورة لدى جميع الناس ، هذا العمل يشير بكل وضوح الى ما في هذا الابتداع من نقائص .

وقد عرفنا في عهد الاستعمار نقائص من نوع آخر ، وان كانت من حيث الصبغة الخصوصية قريبة من النقائص السابقة الذكر . وقد تأثرت اللغة والمؤسسات القائمة بتلك الخصوصية . وعلى سبيل المثال ، اذا كان الحديث عن هيئة الناخبين ، فلابد من التخصيص والاشارة الى أن هذه الهيئة خاصة بالأهالي collège indigène وكذلك الأمر بالنسبة لشهادة الدراسة الابتدائية **الخاصة بالأهالي** certificat d'études à titre indigène . أما الممثلون الجزائريون في مجلس المندوبين الماليين ، فكانوا يصنّفون على أساس الأصول العرقية المزعومة ، الى «فرع قبائلي» و

«فرع عربي» ، كما أن المندوبين الأوربيين ينقسمون الى : معمرين ، وممثلين للمهن الحرة والصناعة . وهل من حاجة الى التذكير بالمشاتي (*) التي كانت أثناء الحرب تتعرض للتدمير الكامل ، والتي احتفظ لها في الفرنسية بتسميتها المحلية Mechtas من أجل تغطية الجرائم الوحشية المرتكبة فيها ، ولكيلا توحي للقاريء الفرنسي أو الأجنبي صورة قرية مشابهة لغيرها من القرى في العالم ، مثل ليديس Lidice وأورادور Oradour (**) .

## أصوات الشبيبة

ان الثورة الجديرة بأن تسمّى ثورة هي التي تنتمي الى عصرها ، والى المعاصرين لها في كل مكان ، فليست محصورة في نطاق الذين لبّوا نداءها ، فقادوها الى آخر المطاف ، مع الاستعانة بتجارب الآخرين ، والاستفادة من عطف العالم أجمع ، ومن حماس المناضلين في كل مكان ، ومن تضامن المجتمعات التقدمية التي يترقّب شعبنا بفارغ الصبر متى يلحق بركبها . ومن هنا ندرك لماذا تتعالى أصوات المعاصرين للثورة ، وأصوات أخرى هي أشد وأقوى : أصوات الشبيبة التي نهلت من الفكر الثوري وترعرعت في صفوف الثورة .. هذه الشبيبة الفتية التي أنضجت عقولها الحرب ، ماذا سوف يكون رأيها في الاتجاهات القومية البائدة التي لا يزال يتمسك بها الرعيل الأول من المناضلين ؟ فاذا أصرّ هؤلاء ـــ نظراً الى ما بهم من فقر أخلاقي وعقائدي ـــ اذا أصروا على تلقين الشبيبة تلك الأفكار البائدة ، وهي أفكار لا تتجاوب مع حساسيتها كفئة سليمة من العيوب ، فئة لا تشعر بالحنين الى الماضي البائد ولا تعاني من

---

(*) المشاتي : جمع مشتى ، وهي مساكن مؤقتة يقضي فيها الأهالي العرب الشتاء . وهذه التسمية المحلية دخلت في الفرنسية . (المترجم) .

(**) ليديس ، وأورادور : قريتان في فرنسا ارتكب فيهما الجيش النازي جرائم وحشية بتدميرهما وابادة السكان فيهما . (المترجم) .

الاستلاب ، فان الشبيبة ربما سوف تقتنع بأن أولئك المناضلين ساهموا بالفعل في تحرير البلاد ، ولكنها سرعان ما تتفطن لعجزهم وقصورهم في هذه المرحلة الجديدة ، فتظل الشبيبة متعطشة لأفكار أخرى ، وتقع مرة أخرى في ما وقعت فيه الشبيبة الجزائرية عبر العصور من أخطاء وتناقضات .

ومما لاشك فيه أن فقدان الوعي الصحيح يؤدي الى اختيار الحل الأسهل ، وهو التمادي في ذلك النوع من التربية العقيمة البائدة . ولكن القوة التي ما فتئت في عهد الاحتلال تدفع الحركة القومية الى الأمام كانت نابعة من تحديات العدوّ المتربص بنا ، ومنبعثة من ذلك الهدف الذي تحقّق اليوم ، وهو الاستقلال . أما وقد توفّر اليوم جو من الحرية في بلادنا ، وخفّت نوعا ما أسباب الشكوى ، فماذا يا ترى سنجد في هذا المنحدر الذي سلكناه ... ؟ امّا الفراغ ، والفراغ وحده ، الفراغ الهائل المخيف ، والاكتفاء بما لدينا من فراغ ... واما التشدد القائم على الوطنية الزائفة ، والديماغوجية المسطّرة من القمة الى القاعدة ، من طرف جماعة من المشعوذين الذين ينادون بمزيد من التشدد في الأخلاق والتزمت في الدين والتشيع لطائفة معينة ، والتحيز الضيق للوطن ... واما الانحراف لدى شبيبة محرومة من كل شيء ومتذمرة من الأوضاع السلبية القاتلة لكل نشاط . وهذا الانحراف يكون في اتجاه ثقافة مزعومة متنكرة للقيم الانسانية ومحتقرة للمجتمع ومتمردة على القوانين المدنية . انه الانحراف الذي يفضي بالفرد الى التمرد وهدر الامكانيات .

ولا ننس أيضا أن الحركة القومية في البلدان المستعمرة تتجه اتجاها شعبيا جماعيا تحرريا غير منظم ، وتلازم هذا الاتجاه طالما هي تكافح من أجل الاستقلال ، ولكنها ، عندما يتقلّص عدد الأفراد العاملين في صفوفها بعد الاستقلال ، فانها تشكل طبقة حاكمة متمثلة في

البرجوازية الصغيرة . وعندئذ قد تميل الى مذهب عقائدي استبدادي هدفه احلال آرائه الطوبائية الرجعية النابعة من الخيال ، محلّ الارادة الشعبية النابعة من الواقع .

ان المجتمع الجديد لا يمكن أن يبنى بقومية معتمدة على العاطفة وعلى المبادرات التي ليس لها من الاشتراكية الا الاسم . فالمجتمع الجديد هو ذلك المجتمع الذي يكون فيه للشبيبة وللجماهير الشعبية المكان اللائق بهما لكي تتفتح وتتحقق مطامحها الثورية . ان الوسيلة الفعالة لبلوغ هذا الهدف هي الثقافة ، وعلى الأخص بالنسبة للمسؤولين أنفسهم . وقد تحدّث جان ريشار بلوك في كتابه «ميلاد ثقافة Naissance d'une culture» ، وهو كتاب صدر في 1936 ولكنه لا يزال ينطبق على الواقع الحالي ... تحدّث عن أمر اعتبره من سنن الحياة ، وهو أن «الطبقة الطلائعية التي تسعى في مجتمع من المجتمعات الى الاستيلاء على الحكم تتكون من أحسن الكفاءات الفكرية وأعظمها» . ثم أضاف : «ولنا اليوم أكبر شاهد على ذلك في الطبقة الكادحة الصاعدة . وهذا ما وقع أيضا بين القرن السادس عشر والثامن عشر بالنسبة للبرجوازية الغالبة . ولنا في ايراسموس ، وفولتير ، ورابولي ، وبومارشي ، وسرفنتيس ، وشيلر ، وشكسبير ، وغوتية ... لنا في هؤلاء جميعا أمثلة توضّح كيف ان الطبقة الجديدة الحاكمة برزت بفضل جيش من الرواد يمدّه كل جيل من الأجيال المتعاقبة بأحسن ما لديه من كفاءات فكرية .»

قد تكون حالة البلدان المتخلفة اقتصاديا وثقافيا مخالفة للحالة السابقة . ولهذا فعلينا أن نكون متواضعين وقانعين اذا تشكلت الطلائعية فيها من بعض العقول النيرة المتكوّنة في الميدان ، أي من بعض الرجال العاملين المتبصّرين والمتمسكين بالمبادىء الصحيحة ... وعلينا أيضا أن نعطي للكلمتين «ذكاء» و «ثقافة» معنى غير محصور في نطاق العلم

المستمد من الكتب ، بل نعطيهما معنى يتضمن نصيبا من الفهم السليم ، ومن الواقعية ، ومن الاقتناع الثابث ، ومن القدرة على تحليل المواقف ، ومن النظرة الواسعة لعصرنا وما يتطلبه من التفتح الصحيح المتحرر من التقليد الأعمى ، لكي نستفيد من الثورات الأخرى التي أصبحت من تراث الانسانية .

وما وقع بالأمس ، فيما يخص احتلال الطبقة المثقفة النشيطة مكان الصدارة في الغرب الأوربي ، نراه اليوم يقع فيما يخص استلام السلطة من طرف الطبقات العاملة وطلائعها الثورية في العالم أجمع بحيث أن التجربة الدولية الواسعة النطاق المكتسبة في هذا المجال يمكن أن تعمّ وأن تشمل الشعوب المضطهدة أو المتخلفة .

### الثقافة البرجوازية

ان البرجوازية الصغيرة ، رغم اتجاهها الشعبي الغوغائي (بدافع من الديماغوجية) سوف تزداد انفصالا عن الجماهير الشعبية لكي تحتل المنزلة المرموقة ، ولهذا فان ثقافتها ستكون بالضرورة على غرار عملها السياسي : ثقافة مقطوعة عن أصولها ، متطفلة على الثقافة الأصيلة ، ميالة للحلول الوسطى ، ومعرّضة باستمرار للارتجال . ان النقائص الملحوظة في الثقافة الجزائرية مرجعها الى ما تتميز به عقلية البرجوازية الصغيرة من خصائص ، تلك العقلية التي كانت تسيّر الحركة القومية عندما آل أمرها الى الانحلال قبيل اندلاع الثورة في أول نوفمبر 1954 . فهذه الحركة استعاضت منذ البداية عن اتجاهها العمالي الصرف ، بأفكار وشعارات مستمدة من الحركة القومية الشرقية . ومن المعروف أن تلك القومية نشأت في ظروف برجوازية متطورة نسبيا ، وكان هدفها استكمال السيادة الناقصة وتحرير الاقتصاد من السيطرة الأجنبية ، أكثر مما كانت تهدف الى استرداد الحكم ، لأن الحكم على العموم كان بيدها .

## أثر القومية الشرقية في الثقافة

مما لاشك فيه أن اتصال «نجم الشمال الافريقي» وحزب الشعب الجزائري (في أول عهده ، يوم كان في المنفى بباريس) ، ان ذلك الاتصال بالأمير شكيب أرسلان كان مفيدا من حيث انتشار الوعي القومي في كافة أرجاء العالم العربي المتعرّض آنذاك لمناورات الامبرياليين الفرنسيين والانجليز ، وما يقومون به من قمع واضطهاد واستفزاز للسكان . ولكن القادة الجزائرين — وأصلهم من العمال المغتربين — بحكم معايشتهم في فرنسا لتقلبات الصراع الاجتماعي الذي أسفرت عنه الحركة الدولية العمالية في أول نشوئها ، لم يكن في مقدورهم التمييز بين الحلول الايديولوجية المتاحة لهم . على أن الاتجاه الذي اختارته هذه القومية المركبة تركيبا مزجيا ، الموسومة بالطابع الديني ، المتميزة بالنزعة العاطفية المحضة وبتلك الأخوة التي قال عنها كارل ماركس (في معرض الحديث عن ثورة فبراير 1848 الفاشلة في فرنسا) بأنها «شكل من أشكال تغطية الصراع الطبقي بمظاهر الاخوة الكاذبة (1) .» هذا الاتجاه الذي اختارته الحركة القومية قد استلزم من قادتها الدعوة الى اتحاد جميع القوى الوطنية . واذا كان هذا الاتحاد لم يتحقق الا بعد مضي ثلاثين سنة ، ولم يتبلور الا في خضم الكفاح ، بعد دخول الجماهير الشعبية على أوسع نطاق في المعركة ، فلأن الحركة التحريرية رأت في هذا الاتحاد المبرّر الوحيد لوجودها ، ولعملها صفا واحدا ، بعيدا عن المساومات والمهاترات العقيمة . ومن جهة أخرى ، فان هذه المبادرة جاءت من ثلة مضيّقة بقيت على هامش الأحزاب الوطنية المعروفة المتخمة بالاعتقادات الخرافية والحزازات الطائفية . ولئن اتضح بأن الاتحاد أمر مستحيل قبيل نوفمبر 1954 ، رغم «تغطية الصراع الحزبي بمظاهر الأخوة الكاذبة» ،

(1) Karl Marx : **La lutte des classes en France**, 1848-1850, p. 35. (Editions sociales).

فلأن القيادات السياسية للحركة القومية الجزائرية ، سواء العاملة منها في فرنسا أو في الجزائر ، تحولت تدريجيا من الاتجاه العمالي الى الاتجاه البرجوازي ، اما عن طريق التحول الايديولوجي ، أو استبدال أشخاص بآخرين ، مما جعل الحركة الاصلاحية البرجوازية النزعة تتملص هي أيضا من التزامها تجاه الأغلبية العظمى من الشعب . وربما كان من الممكن تحقيق الاتحاد لو أن هذه الحركة القومية ــ كما قلناه بخصوص التقارب الفاشل بينها وبين ابن باديس وجماعته ــ لو أنها من جهة حافظت في القمة على اتجاهها العمالي ، لكي تفرض نفسها على الاتجاهات الحزبية الأخرى ، وأنها من جهة أخرى قدمت البرهان على تفتحها الفكري وتواضعها ، لكي تقبل أفكار الآخرين ، علما بأن هذا لا يمنعها من التأثير على الآخرين لأنهم أقل تمرّسا وتجربة في النضال منها . ولو تمّ ذلك لأمكن للقومية الجزائرية ، بعد حصول الوعي الاجتماعي وبذل المزيد من الجهود لوضع فكر عقائدي أن تصبح أكثر تماسكا ، وأن تتحول الى تيار ثوري اشتراكي قوي ... تيار قادر أن يحل محل تلك الحركة الوطنية المركبة تركيبا مزجيا والقائمة على العاطفة والارتجال ، وهي حركة لا يشك أحد في أنها بذلت تضحيات جساما وقامت بأعمال جبارة في فترة من الفترات ، ولكن استمرارها بعد احراز النصر من شأنه أن يضرّ عملية البناء والتشييد ، ونشر الثقافة في المجتمع الجديد .

## تغيير العقليات

ان الثورات الكبرى ، وعلى الأخص الثورتان في روسيا وفي الصين ، نجحت لأن نضجها الايديولوجي وتجربتها في النضال الاجتماعي حصلا على مدى عشرات السنين قبل احراز النصر النهائي بالسلاح . وعلى غرار تلك الثورات فان ثورتنا التي هي أيضا ثورة شعبية جماعية بأتمّ معنى الكلمة ، كان من الممكن أن تمهّد لنفسها السبيل ، وعلى الأقل فيما

يخص تغيير العقليات وخلق الاستعداد الفكري لكي نتقبل بكل تبصر ما جاء به عصرنا ، هذا العصر الذي لا تجدي فيه الحلول الوسطى ، ولا ينجح فيه من يسعى الى الأمام في طريق الرقي والتحرر ، ونفسه تنازعه الى الالتفات للماضي . وقد سبق لنا أن تحدثنا عن الظروف السيئة المضطربة التي احتضنت الثقافة على العموم ، والثقافة السياسية على الخصوص . ونظرا الى هذه النقائص التي عانى منها الجزائريون ، وحتى العمال المغتربين ، فان محاولة تغيير العقليات فشلت أول ما فشلت في حوالي 1924 — 1925 . وذلك أن العزلة التي بقي فيها رجال السياسة من ذوي الأصل العمالي في فرنسا جعلتهم يضعون على رأس الحركة مصالي الحاج ، وهو أقلّهم حظا من التكوين السياسي ، ولكنه كان يتمتع بشخصية جذابة ، وبطلاقة في اللسان من نوع الطلاقة المعهودة لدى أفراد البرجوازية الصغيرة . وقد حاول بدون جدوى أن يتكون ، فكان يتردد على الدروس والمحاضرات التي ليس لها أية علاقة بعمله في النضال . ومن الجدير بالذكر أنه كان (بين جماعة رجال السياسة) الشخص الوحيد المنتمي للحضر ، بل كان من سلالة عريقة ، ومتمدنا الى حد ما ، ومتدينا بالقدر الذي يسمح بالنجاح في العمل السياسي . أما الآخرون ، فكانوا كلهم من الفلاحين ومن سكان القرى الجبلية الأقحاح ، قبل أن يصبحوا عمالا في المصانع الفرنسية .

## التدين والعمل السياسي

وبهذه المناسبة لابد من الاشارة الى ظاهرة ملحوظة في المدن على الأخص ، وتتمثل في «التدين كخطة للعمل السياسي» ، خلافا لما يدّعيه بعض قادة الحركة القومية من أن هذه الظاهرة ملحوظة في الأرياف أكثر . ومهما قيل ، فان الفلاح الجزائري مؤمن ايمانا خاليا من التصنع والتظاهر أمام الناس ، وهو يعرف كيف يفصل بين العمل لدينه والعمل

لدنياه ، خلافا للحضر البرجوازيين . ولكن الحركة القومية ، بما أنها كانت لا تعرف المجتمع الجزائري على حقيقته ، أرادت أن تتخذ من العاطفة الدينية في صورتها المفتعلة ركنا من أركان عملها السياسي في أوساط الجماهير الريفية . ومن هنا نشأ الاتجاه الى ايجاد الحلول كلها ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع ، بالرجوع دوما الى الأخلاق التي نشأت هي في حد ذاتها من التصور البرجوازي للدين . وقد اعتمد هذا الاتجاه على القشور ، وكان هدفه تصحيح المظاهر الفاسدة لا طرح المشكلة من حيث أسسها العميقة . ولكن ، هيهات لتلك الأخلاق الساذجة المبتذلة ، القائمة على السعي لبلوغ الكمال المستحيل ، هيهات لها أن تحل المشكلة !

وهكذا فمنذ أن آل أمر القيادة الى هذا المآل ، أخذت تلك الأفكار البرجوازية تتطور وتطبّق كحل لقضية الشعب الجزائري ، مما جعل الحركة القومية تتدهور وتتخذ شكلا مائعا وتختلط فيها المطامع العمالية والشعارات الثورية والأطماع البرجوازية . وبالفعل ، فان هذا الاتجاه السقيم الذي ابتدأ في المهجر في أوساط العمال الجزائريين ، وتأكد على الأخص بعد رجوع القيادة السياسية الى الجزائر ، قد ترتّب عليه أمر لا نزال نشهد آثاره اليوم ، وهو بروز برجوازية على مستوى القيادات الجهوية ، وفي كثير من الأحيان على مستوى القيادة العليا للأحزاب الشعبية .

ومن حيث الظاهر لا يوجد لهذه البرجوازية شبه مع الطبقة البيروقراطية (ولكن هذا الشبه سيحصل لا محالة بعد الاستقلال) . فهذه البرجوازية أقرب الى طبقة صغيرة جمعت مالا ، ونجحت في الأعمال التجارية على اثر انضمامها للفكرة القومية وانخراطها في الأحزاب التقليدية في مدينة الجزائر على الخصوص . ومما ساعد على بروزها أيضا السياسة

التي عملت بها هذه الأحزاب فيما يتعلق بالانتخابات . والحقيقة أن هذه الفئة لم تكن تشكّل طبقة معينة منسجمة ، بل كانت تتألف من بعض الشخصيات المرموقة التي كانت تعمل جنبا الى جنب داخل الحركة وفي أعلى المستويات ، مع غيرها من المسؤولين المخلصين المؤمنين بالمبادىء والمتمسكين بها . ولكن الشيء الذي ينبغي أن لا ننساه عندما نلاحظ هذه الحالات الاستثنائية ، هو أن ما حدث بالنسبة للحركة القومية في الماضي على مستوى ضيق ، يمكن أن يحدث اليوم على مستوى البلاد بأسرها ، لأن النخبة الفتية التي سوف تتقلّد المسؤولية ربما تكون تجربتها في النضال ناقصة .

ان البرجوازية الصغرى الانتهازية قامت عن طريق الأحزاب الوطنية بالأمس ، وعن طريق السلطة الحاكمة اليوم ، قامت بلعبة ماهرة ، لأنها تتظاهر بأنها من الشعب لكي تستولي على القيادة وتخلق البلبلة الايديولوجية . ولعل السبب في ذلك هو فقدان البرجوازية الكبرى في الجزائر : برجوازية عريقة ومتمرسة في النضال . ولو كانت موجودة لكافحت ضد الاقطاعية الأهلية ، وكشفت عن شرورها وخفّفت على الشعب ما يعانيه منها ، وأرغمت البرجوازية الصغرى على المشاركة في النضال ، باعتبار أنهما متقاربتان من حيث الاتجاه ، وأن كل واحدة منهما تسعى للنجاح في الحياة الاقتصادية والقيام بدور سياسي في قيادة الجماهير .

ولقد كان من الممكن أن يحصل نوع من التفاعل الايجابي ، ولو عن طريق الصراع والمجابهة من أجل تصحيح النظام الاجتماعي المختلّ ، وتصفيته من العناصر الفاسدة ، وبذلك يتأتى لكل طبقة من الطبقات المتواجدة أن تحدد معالمها وأن تدرك واقعها ومكانتها من حيث الكم والكيف . ولكن البرجوازية الجزائرية ـــ باستثناء بعض الحالات ، وخلافا

لما وقع في المغرب قبيل استقلاله ـــ تحالفت مع الاقطاعية ، وتواطأت معها في المضرة والفساد ، وتعاونت مع الطبقة الوسطى النشيطةلوجود ارتباط بينهما في المصالح الاقتصادية والصفقات التجارية ، وكذلك لوجود تشابه في الحياة الحضرية «الراقية» بعض الشيء . وقد أخذ هذا النمط من الحياة يظهر في المدن ذات التقاليد العريقة ، بعدما تعرضت خلال قرن من الزمان للتغير البطيء في العقلية والعلاقات الاجتماعية ، نتيجة لتدفّق أفواج من العمّال الكادحين النازحين من الأرياف الى المدن . وقد اعتبرتهم البرجوازية من الدخلاء ومن العناصر المسببة للاضطراب في حياتهم الهادئة المهددة بالتدهور .

ان هذة الطبقة الوسطى المنتمية للبرجوازية الصغرى ، والتي اتضحت معالمها عند الاستقلال ، غير مقصورة على الأثرياء المشهورين وحدهم . وذلك أن الانتماءات الجهوية أدخلت عليها تنظيما خاصا يقوم على التعامل بين الناس في المدينة ، بنفس الطريقة التي كانوا يتعاملون بها في البوادي والأرياف . ولذلك فهذه الطبقة تضم زيادة على الأثرياء المشهورين ، فئات أخرى ، ابتداء بأصحاب الحرف والتجار ، وانتهاء بالكادحين والعمال الذين أحرزوا على شيء من التطور والتمدن نتيجة معاشرتهم للبرجوازية الصغرى ، وأصبحوا يتميزون على غيرهم من الكادحين والعمال الساكنين في الضواحي على هامش المدن الكبرى . وهكذا ، فان معالم المجتمع الجزائري ، وخاصة في المدن العريقة ، بقيت غير محددة وغير واضحة ، رغم حصول شيء من الرقي المادي ، باعتبار أن التسابق بين فئات المجتمع أخذ يتضاعف ، وأن العلاقات أخذت تتجه الى التنافس أكثر مما تتجه الى الصراع الطبقي أو الى المعارضة الدائمة . وحتى في المدن التي توفّرت فيها مظاهر التطور ، فان الخريطة الاجتماعية متطابقة على العموم مع الاتجاهات والتقاليد المحافظة الرجعية ،

مثلها في ذلك مثل الاتجاهات الأخلاقية المتزمّتة التي هي صورة مشوهة من الدين والثقافة والسياسة ، وتتجلى بالكيفية المعهودة ، أي بالدفاع عن التقاليد البائدة .

## فقدان عنصر المعارضة

وقد كانت الأمور قبيل الاستقلال محصورة النطاق ، وفي طور النشوء ، باعتبار أن الحركة القومية ، رغم نجاحها الشعبي ، بقيت محصورة في ثلّة من المناضلين المحنّكين ، وفي جماعة من الرواد . ولكن هذه الأمور اتسع نطاقها بعد حرب التحرير . وبذلك برزت خريطة اجتماعية مغلوطة نسبيا ، كنتيجة لطموح البرجوازية الصغرى التي أخذت تلعب على الحبلين ، وكنتيجة لترقية غير متوقعة في السلم الاجتماعي . ان البرجوازية العريقة لا تزال تتربص الدوائر ، ولكن ، بما أنها ضعيفة وميّالة في نفس الوقت للمسالمة ، فما كان منها الا أن فسحت المجال للبرجوازية الصغرى التي لم تجد أية صعوبة في انتزاع الحكم منها ، مع السماح لعدد لا يستهان به من ممثليها ورؤسائها بتقلّد المناصب العليا في الجهاز المركزي للدولة ، وتمكين هؤلاء من الاحتفاظ بمصالحهم ، وممارسة نوع من التأثير في عقول الناس نظرا لما يتمتعون به من نفوذ ، ومن قدم راسخة في التمدن وفي التجارة . والملاحظ بعد هذا أن عنصر المعارضة مفقود ، سواء من ناحية البرجوازية ، بسبب ضعفها وماضيها القائم على المساومات ، أو من ناحية الشعب (رغم أن الظروف ملائمة لاستمرار الثورة وقيام الاشتراكية وبروز الصراع الطبقي) . ان عنصر المعارضة مفقودأيضا بسبب موانع ترجع الى الشعور القومي : كالاخوة الكاذبة ، والتدين المغرض ، والرجعية البغيضة ، والاتجاه الأخلاقي الساذج والقائم على تقسيم الناس الى فقراء وأغنياء ، وأخيار وأشرار . ونظرا الى فقدان المعارضة ، فان فئة من البرجوازية الصغرى أخذت على الصعيد

البيروقراطي تحل محل البرجوازية العريقة ، بل استطاعت أن تستميل اليها من بقي يتعاون معها من المسؤولين الشعبيين .

ان هذه الحالة من الفوضى والاضطراب قد تستمر مدة طويلة بسبب الشعارات الجديدة التي لا نشك في أنها توافق رغبات الشعب ومطامحه ، ولكنها شعارات مثالية لا علاقة لها بالكفاح الايديولوجي ، ناهيك بالكفاح المسلح ، ولا علاقة لها أيضا بواقع الانسان الجزائري وظروفه . وسوف تستمر هذه الحالة الى أن تأتي قيادة نابعة من الشعب ، متبصرة في الأمور ، ومخلصة في العمل ، فتأخذ على عاتقها تحقيق أهداف الجماهير ومطامحها الاجتماعية ، بتخليصها من مخلّفات القومية البائدة ، وديماغوجية البرجوازية الصغرى المتغلغلة في مجالات السياسة والادارة والتجارة ، حيث تمارس نفوذها عن طريق عملائها من الأعيان والموظفين الكبار والمضاربين في الأسعار . يقول كارل ماركس بخصوص هذه النقطة : «ان البرجوازية الصغرى لا تتخذ موقفا ثوريا تواجه به البرجوازية العريقة الا عندما تكون طبقة العمال من ورائها تساندها (1) .» وقد رأينا كيف دبرت المؤامرة : وذلك ان البرجوازية العريقة اختفت من الميدان ، فحلت محلها البرجوازية الصغرى ، التي تعتبر في الحقيقة امتدادا للطبقة الحاكمة . ولكنها بعد ما حلت محلها ، ظلت تحترمها وتتخذها مثالا يحتذى في النجاح المادي ، ولا تتورع في نفس الوقت ــ كخطة سياسية ــ من توجيه أنظار الجماهير اليها لكي تنتقم منها . أما الطبقة العمالية ، فلا تزال تعيش في الأوهام ، ولا تزال واقفة من وراء البرجوازية الصغرى تساندها ، لأنها واقعة تحت نفوذها بسبب غموض الوضع السياسي المتميز بالغوغائية ، وميل الناس للحياة البرجوازية ، كنتيجة لخروج الأوربيين من الجزائر ، وتركهم «غنائم» لا

(1) Karl Marx : Les luttes de classes en France, 1848-1850, p. 48, Editions sociales.

تحصى في سائر أنحاء البلاد ... وكنتيجة أيضا لفقدان طبقة عمالية محنّكة ومتمرسة على النضال في المعامل والمصانع ، حيث تتأزم المشاكل ، وتبرز النقائص ، وتشتد الحاجات ، وتقوم الصراعات .

ولكن ... سيأتي يوم يحتل فيه كل انسان المكان اللائق به في المجتمع . انه اليوم الذي تحلّ فيه المعايير الصحيحة ، مثل الجدّ في العمل ، والضمير المدني ، والاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ، والشعور بالواجب نحو الجماعة ، واقرار الحقوق الثابتة للمواطن ... محلّ الانتهازية ، والترقيات التعسفية والتحيز لفريق معين ، ومنح الامتيازات بدون حسيب ولا رقيب . ويومئذ سوف تبرز طبقة وسطى أشد تمسّكا بمبادىء الثورة وشعورا بواجباتها ... طبقة لا ترضى بالمساومات مع البرجوازية ، بل تعمل جنبا الى جنب مع الجماهير الشعبية الأصيلة للقضاء على البرجوازية الصغرى الجديدة التي ظهرت في الأساليب البيروقراطية ، وفي الادارة والتجارة ، وان هي في الحقيقة الا شكل متستّر من البرجوازية القديمة ، وقد أخذت تستغل السلطة لصالحها ، وتسخّر رجال الحكم لخدمة مصالحها بعدما حلت محل البرجوازية القديمة المنهارة المكروهة ، مع التمادي في التعامل والتعاون السافر أو الخفي معها . وليس قصدنا بعد هذا أن ندين البرجوازية الصغرى في مجموعها . كل ما هناك أننا ندين الجرثومة الخبيثة التي مدّت جذورها في المجتمع ، والتي لم يكن موقفها مشرّفا في حرب التحرير ، فلم تعرف ما عرفه الشعب من محن ، ولم تشعر بما شعر به من آمال . وقد رأينا كيف أطلقت العنان لأطماعها وحساباتها الانتهازية ، على اثر اقامة الجهاز التنفيذي المؤقت ، وبالأخص على اثر الأزمة التي حدثت في الصيف من عام 1962 ، عندما عمدت — لغرض في نفسها — الى دعم نظام الحكم القائم آنذاك ، واستمالت اليها طبقة العمال الكادحين ، وحصلت على أهم المناصب في البلاد .

أما اذا سألنا : متى تتحقق الصورة الشعبية للجزائر المستقلة (أي متى تستلم الجماهير الشعبية زمام المبادرة والسلطة) ، فلن تتضح معالمها الرئيسية الا بعد زوال الوضعية المفتعلة الطارئة بعد انتهاء الحرب . وعندئذ تستعيد الثورة الجزائرية شروط ضمان مستقبلها ، وتوفّر امكانيات التوازن الضروري في مسيرتها نحو التقدم الاجتماعي .

ومهما يكن من أمر ، فلابد من أن نتوقف ، بعد كل ما عرضناه سابقا ، عند حد نقطتين ازدادت أهميتهما على ضوء الظروف الحالية :

أولا : ان العمل الذي قامت به الحركة القومية ، رغم نقائصه وعيوبه ونزواته ، قد كانت له بالمقابل نواح ايجابية من حيث أنه وضع قواعد في النضال ، وغرس في النفوس حب الجهد والتضحية . وهذا السلوك قد يظل ثابتا وقابلا للتحسن عند الذين شاركوا مدة طويلة في الكفاح المنظم ، ولايزالون على استعداد لخدمة قضية أخرى عادلة . ولكن هذا السلوك لن يكون ثابتا ولا قابلا للتحسن بالنسبة «للمنضمين الى الحركة في آخر لحظة» ، وبالنسبة للخرافيين ، والمنعزلين على الدوام والمحتقرين للقومية العمالية ... لن يغير سلوك هؤلاء حتى ولو أعلنوا ــ لغرض في أنفسهم ــ انضمامهم للتجربة الاشتراكية التي تتعارض تماما مع ايديولوجيتهم القائمة على الأثرة والمغامرة .

ثانيا : واذا كانت الحركة القومية لم تتمخض خلال حرب التحرير عن مذهب عقائدي بعيد المدى ، وعن أخلاق تسمح بالاعداد للمستقبل ، فلأن مهمتها ، منذ أن نشأت كحركة ، انحصرت في تحرير التراب الوطني . فلا يجوز اذن أن نطالبها بشيء آخر ، لأن ذلك من شأنه أن يزيد الطين بلة بالتمادي في الضلال الذي أخذ بالفعل يشل كل نشاط في المجتمع الجزائري . ومن أنواع هذا الضلال ما يسمّى «الخصوصية الاشتراكية الجزائرية» ، وان هي في الحقيقة الا تعلة ، أو نوع من التحفظ والتخوف الذي يؤدي الى التراجع عن الاختيار الاشتراكي . أليس ذلك دليلا على ما أصاب الحركة القومية من انحراف في مبادئها ؟

* * *

استدراك :

ان النظام السياسي ، نظرا الى افتقاره لمذهب عقائدي صحيح ، وسلطة شعبية قوية ــ وهما وحدهما القادران على ابعاد الخطر المتمثل في الانتفاعيين ، والمتحيزين لهذا الفريق أو ذاك ، والمتقربين من رجال

الحكم ــ هذا النظام السياسي يحاول اليوم أن ينقذ الوضع باقتراح مذهب عقائدي جديد ، لتبرير موقفه ، يتخلص في نقطتين :

ــ ترجيح الوحدة الثورية على الوحدة القومية التي أصبحت اليوم عديمة الجدوى .

ــ فسح المجال لرجال جدد ، لكي يحلوا محل السياسيين القدامى .

ففيما يتصل بالنقطة الأولى ، هناك خلط مؤسف في الأفكار . وذلك أن الوحدة القومية انما هي اطار ، في حين أن الوحدة الثورية هي القوة التي من شأنها أن تبعث الحركة في مضمون الاطار . ولكي يتم هذا ، ينبغي أن تتشخص هذه الوحدة الثورية في التنظيم الفعلي لجميع العناصر التقدمية ، وجميع المناضلين ، سواء منهم من شاركوا في حرب التحرير . أو من كان لهم بها صلة من قريب أو بعيد ، بحيث يتأتى لهؤلاء أن يخرجوا الثورة من المأزق الحالي ، باعطاء القوة والنشاط للتجربة «الاشتراكية» التي آل بها الأمر الى الجمود وفقدت قوتها الروحية .

وأما بالنسبة الى النقطة الثانية ، فلنا أن نتساءل : أين هؤلاء «الرجال الجدد» الذين كثر حولهم الحديث ؟ ان الجزائر عرفت خلال 130 سنة أو أكثر ، ثلاثة أحداث كبرى ، وهي الأحداث التي لابد لكل جزائري راشد أن يوضّح موقفه منها لأنها أثرت عليه من حيث الالتزام والتفكير والعمل . ونعني بهذه الأحداث : دخول الاستعمار ، ونشوء الحركة القومية (وكذلك العمل السياسي التقدمي) ، وقيام حرب التحرير ، فالرجال الجدد في الجزائر منحصرون في الجيل الذي تتراوح أعمارهم بين 20 و 27 سنة ، على شرط أن يكونوا بطبيعة الحال قد شاركوا بطريقة من الطرق في الكفاح التحريري ضد الاستعمار في صفوف الحزب القديم ، حزب جبهة التحرير الوطني . ولكن معظم الرجال الذين يطلق عليهم هذا الوصف ، ليس لهم ما يستندون اليه في دعواهم سوى

أنهم من المناهضين للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي يزعمون بأنها عزلتهم واضطهدتهم . هذا مع العلم بأن العديد منهم كانوا ــ وهذا شيء معروف ــ من ألدّ أعداء الحركة القومية والحركات التقدمية والجماهير الشعبية ، ثم كانوا من المشنّعين بالكفاح المسلح والمتحاملين عليه .

وهكذا ، فبعد أن عمل الكثير من هؤلاء ضد الثورة نفسها ، اذا بهم الآن تغتفر ذنوبهم وتنسى ، لأنهم عرفوا كيف ينتهزون الفرص عندما أعلنوا عداءهم للحكومة المؤقتة ، تلك الحكومة التي فقدت ما كانت تتمتع به من ثقة وما كان لها من وزن .

مارس 1964

# الفهرس

## الفصل الأول : بين الاستعمار والاقطاعية



## الفصل الثاني : الوطنية في البوادي والأرياف



## الفصل الثالث : الجوانب النفسية في الغزو الاستعماري

## الفصل الرابع : مسيرة الجزائر الى الحرية



## الفصل الخامس : مسيرة القومية التحريرية الى الوحدة

## الفصل السادس : الاتجاه الثوري في المدن منذ 1830 وتنظيم المقاومة والكفاح



## الفصل السابع : الخط الثابت في سلوك الاستعمار سياسيا وعسكريا

## الفصل الثامن : الجوانب المجهولة من الثورة الجزائرية



## الفصل التاسع : الجزائر المستقلة ، من النكسة الى الوحدة

## الفصل العاشر : وقائع وآفاق ثورية



## الفصل الحادي عشر : نظرات اجتماعية حول الحركة القومية وحول الثقافة في الجزائر

* * *

طبع هذا الكتاب في جوان 2007
بمطابع دار القصبة للنشر
حي سعيد حمدين، رقم 6، 16012، الجزائر.
الهاتف : 11 / 10 79 54 021 الفاكس : 77 72 54 021
الموقع الإلكتروني : www.casbaheditions.net
البريد الإلكتروني : casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2007.

# تكريما لمصطفى الأشرف

«... هناك الصورة العمومية لمصطفى الأشرف كشخصية تاريخية والتي تجعل منه قطبا من أقطاب الثورة الجزائرية (اختطاف الطائرة سنة 1956). لقد تأكدت هذه الصورة بفضل المكانة التي صارت للأشرف من بعد بوصفه منظر جبهة التحرير حينما ساهم في تحرير ما يسمى ببرنامج طرابلس، ثم الميثاق الوطني... تعني صورة الأشرف أيضا ذلك المثقف المتمذهب والصارم في مواقفه الفكرية والتي خاض، في العديد من المرات، سجالات ضد مثقفين وفنانين آخرين حول مواضيع الثقافة واللغة والفنون الشعبية ودور المثقف والكاتب وما إلى ذلك ... وأن كتابات مصطفى الأشرف وطرق تناوله السوسيولوجية أو اللسانية لم تتسم أبدا بطابع الحياد النظري المتعارف عليه في الأوساط الأكاديمية. لقد كانت كتاباته كلها كتابات كفاح...»

عمر لرجان

«...(قبل وفاته) ورغم سنه المتقدمة، بقي مصطفى الأشرف يلازم الكتابة في القضايا السياسية والثقافية و تنال تحاليله ومواقفه الفكرية صدى لدى المثقفين الجزائريين والمغاربيين نظرا إلى عمقها ودقة معطياتها. إنه رجل فكر لم تغرِه الوظائف السياسية سواء في الحزب أو في الدولة. يبقى الأشرف -مهما تحدّثنا عن التزامه- المثقف الذي كرّس فكره لاستعادة الهوية الجزائرية بأبعادها الحقيقية، ولتخليص وطنه -أمة ودولة- من رواسب التخلف والانحطاط مستلهما من الحضارة المعاصرة قيم الحداثة والحرية والتقدم.»

محمد غانم

تكريما للمفكر والمناضل الراحل مصطفى الأشرف نقدم للقارئ هذا الكتاب "الجزائر: الأمة والمجتمع" الذي نشر باللغة الفرنسية سنة 1968 ونقله إلى العربية في أحسن ترجمة المرحوم حنفي بن عيسى سنة 1983. الكتاب كان له تأثير كبير لدى طلبة الستينيات والسبعينيات، بفضله تمكنّ هؤلاء من معرفة تاريخ المجتمع الجزائري وسسيولوجيته، وبه تزّودوا بأدوات التحليل النقدي وكيفية إخضاع المعرفة للممارسة.

بنشر هذا الكتاب نكون في دار القصبة قد فضلنا الفعل وابتعدنا عن الانفعال.صو تكريما للمفكر المناضل وعرفانا للأستاذ المترجم الذي قدم الكثير لإثراء العمل التعريبي ننشر هذا الكتاب في طبعة ثانية قناعة مناّ أن الجزائرهي أمة ومجتمع.

الناشر



دار القصبة للنشر


ردمك: 0- 612- 64- 9961- 978
9 789961 646120